نسيم الحجاز

من مسجد الشيخ ابن باز

تأليف
الدكتور ناصر بن مسفر الزهراني

بسم الله الرحمن الرحيم

ح ناصر مسفر الزهراني، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، ناصر مسفر

نسيم الحجاز من مسجد الشيخ بن باز. ـ الرياض

٦١٦ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩ ـ ٥٨٥ ـ ٣٦ ـ ٩٩٦٠

١ ـ خطبة الجمعة ٢ ـ الخطب الدينية أ ـ العنوان

ديوي ٢١٣ ٢٠/٣٥٩٣

رقم الإيداع: ٢٠/٣٥٩٣

ردمك: ٩ ـ ٥٨٥ ـ ٣٦ ـ ٩٩٦٠

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً** ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

نسيم الحجاز من مسجد الشيخ ابن باز ، لقد توفي سماحة والدنا الشيخ العلاّمة عبد العزيز بن عبد الله بن باز – رحمه الله – وهذه الخطب على مكتبه ، مدرجة في جدول أعماله لكي يقدم لها ، وقد قُرأ عليه عدد منها ، إلا أن الأجل وافاه قبل أن يتم قراءتها ولا حول ولا قوة إلا بالله ، كنت آمل أن أصدّر هذا الجهد المتواضع بشيء من عبير علمه ، وعبق توجيهه ، فالفضل بعد الله تعالى في كل ذلك لسماحته ، فما هذه الخطب إلا شذىً من عطر علمه ، ومداد فضله وجميل نصحه ، وبديع توجيهه .

ألا إن وادي الجـــزع أضـــحى ترابه
من المسك كـــافـــوراً وأعـــواده رندا
ومـــا ذاك إلا أن هنداً عـــشـــيـــة
تمشت وجـــرَّت في جـــوانبـــه بردا

لقد كانت وفاته – رحمه الله – صاعقة كادت تنسف عزيمتي ، وتجتث همّتي ، وتأتي على توقدي ، ولكنني صبرت واحتسبت ، ورضيت وامتثلت ، وكفكفت دموع الأسى ، ولملمت جراح الحزن ، ورأيت أنه من أبرِّ البر أن أسير على دربه ، وأمضي على نهجه ، وأبادر بنشر عبق من آثار علمه ، وعزمت على إنفاذ كل جيش من جيوش العلم والبذل والفضل كان قد جهزه قبل وفاته ، وأقسمت أن لا أمنع الناس عقالاً كنت أؤديه لهم في حياته .

ولقد كنت آمل أن أقدم بمقدمة طويلة بين يدي هذا الكتاب أتحدث فيها عن الخطابة من حيث أهميتها ورفعة مكانها وعظيم شأنها وقوة سلطانها ، وأبين فيها بعض القواعد المهمة والقوانين الملحة والضوابط المفيدة ، وأسرد شيئاً من عوامل النجاح وطرق التفوق وأساليب التأثير ، فرأيت أن ذلك سيعطل مسيرة الكتاب ، وسيأخذ مني حيزاً كبيراً ومساحة طويلة ، فبادرت بالنشر ، وسارعت بالطباعة ، وقررت إصدار كتاب آخر عن قريب – إن شاء الله تعالى – أضمنه ما لدي من آراء وأفكار ، وفرائد وفوائد ، ونصائح وتجارب عن الخطابة والخطباء .

أما هذه الخطب فهي جهد قليل ، وبضاعة مزجاة ، فليتصدق علينا من بيده خزائن العلم وكنوز المعرفة ، ولا يدخروا نصحاً ، ولا يؤخروا توجيهاً فإنا نراهم من المحسنين .

يجب على الخطيب أن يسعى إلى التجديد والتنويع ، والتلوين والتحسين ، وأن تسري هذه الروح في خطابته ، وأن يبتعد عن الرتابة قدر الإمكان بدءاً باختيار الموضوع ، ثم تحديد العنوان ، ثم الأسلوب ، ثم الأداء ، وسوف تجد في هذا الكتاب موضوعات قد لا يخطر على البال

أنها تكون مادة لخطبة الجمعة ، ولكنها وجدت قبولاً حسناً ، وأثمرت توجيهاً مباركاً ، انظر مثلاً إلى خطبة : التجديد – البحر – الغيث – الليلِ – الدَّيْن – طريقك للنجاح – العقل – القلب – أنت غني ولست فقيراً .

إن هذا الكتاب ليس خطباً للجمعة فحسب ، فكثير من موضوعاته يعتبر بحثاً متقصياً ، ومادة مستوفاة يفيد منها من كان لديه خطبة أو محاضرة أو بحث علمي ، أو مقالة أدبية ، ولذلك فإن كثيراً من موضوعاته أطول من زمن الخطبة ، ويجب اختصارها لمن أراد أن يفيد منها في خطبة جمعة .

إنني لا أدعي أن خطبي محض ابتكار أو أنني أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، ولكن يكفيني أنني بذلت وتعبت وحضرت واجتهدت وجمعت وقارنت واخترت وحذفت ، نعم بعض الخطب كنت أرجع إلى كثير ممن كتب في موضوعها فأستفيد من ذلك كله ، أما أن أعدو على موضوع بأسره أو خطبة بأكملها فذلك ما لم أرضه لنفسي أبداً ، وخير شاهد على هذا الكلام ما سيجده القارىء لهذه الخطب من تميز واضح ، وجهد بيّن ، وطرح فريد .

إن الخطابة بجهد الغير فيها مخادعة لمشاعر الخطيب أولاً ، ومخادعة للناس ثانياً لأنه يتغنى بغير عواطفه ، ويصدح بما لم تنفعل به نفسه ، وإن أداءه لها مجرد تمثيل ، وليست النائحة كالثكلى . إن ما كان من القلب يصل إلى القلب ، وما كان من اللسان فلن يجاوز الآذان .

لقد صدحت بعددٍ غير قليل من هذه الخطب بحضور سماحة الوالد الأجل ، والعالم الأمثل – رحمه الله – ولقد كان يُسرّ بخطبي كثيراً ، ولا

أنسى مقالته لي بعد عدة خطب : «خطبة عظيمة ، خطبة عظيمة ، نفع الله بك ، بارك الله فيك ، بارك الله فيك» كم كان يسعدني رضاه عني ، كم كان يسرني سروره بخطبي، كانت عباراته المشجعة وقوداً حيّاً يدفعني لعطاءٍ أجمل وأداء أفضل .

كان يُطلب منه أن يعقب أو يوجه كلمة أحياناً بعد صلاة الجمعة ، فكان يعتذر – رحمه الله – ويقول ما على خطبة الشيخ ناصر مزيد ، وذلك محض تواضع منه ، أضف إلى ذلك أنه كان لا يرى إلقاء المواعظ بعد خطبة الجمعة ما لم تدع الحاجة إلى ذلك ، غفر الله له ورحمه رحمة واسعة وجمعنا به في جنات النعيم ، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د/ ناصر بن مسفر الزهراني

جامع سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

مكـــة المكرمـــة

في ١ /٩ / ١٤٢٠ هـ

* إن من البيان لسحرا *

كلما أجلت طرفك في كلام بديع ، وأسلوب رفيع ، زاد إيمانك بهذه المقولة : «**إن من البيان لسحرا**» .

إن الألفاظ العاطرة ، والمعاني الآسرة ، والجمل المنسابة ، والتراكيب الجذّابة المجللة برداء الإخلاص ، الممزوجة بعبير الصدق ، تملك لبّك ، وتهز إحساسك ، وتوقظ مشاعرك .

من الكلام ما يهز القلب هزاً ، ويرجه رجّاً ، ويجعل قواه هباءً منبثّاً .

ومن الكلام ما يكون كالطيف الهادىء ، والظل الوارف ، يستمتع المرء بجماله ، ويتفيأ ظلاله . ومنه ما يكون عذباً فراتاً ، هنيئاً مريئاً ، سُقْيا رحمة لا سقيا عذاب .

ومن الكلام ما يكون شراباً سائغاً ، وشهداً مذاباً . إن بعض الناس أوحى ربك إليهم أن يتخذوا من المعاني الحسان بيوتاً ، ومن الألفاظ العذاب قوتاً ، ومن العلم ومما يعرفون ، ثم يقطفون من أحلى الثمرات ، فيخرج من أفواههم بيان مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، وفيه تذكرة لقوم يتفكرون .

بيان يلامس الأسماع فتطرب ، ويداعب الأفئدة فترقص ، ويطرق القلوب فتنادي هيت لك .

إن الكلام الجميل الصادق لروعة معدنه ، ونقاء مصدره ، وعذوبة مشربه ، يبقى خالداً على مر الدهور ، وتعاقب العصور ، بل كلما تقدم

به الزمان زاد أريجه ، وحَسُن عبقه ، وعظمت قيمته ، تتضمخ به القلوب الطاهرة ، وتتطيب منه الأنفس الطيبة .

ألم تر أني كلما زرت زينباً
وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

إن الخطيب الصادق إذا ضرب بحر المعرفة بعصا الإخلاص ، انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وإذا أقبل فراعنة الشرك وجنود الرياء ابتلعتهم أمواج الصدق ، وبددتهم فلول الذّكر ، فكانوا من الخاسرين ، وإذا ألقى سحرةُ المبادىء حبالَهم وعصيّهم ، يُلقي عليهم عصا التوحيد واليقين فإذا هي تلقف ما يأفكون .

الخطيب الناجح هو الذي لديه إلمام بقوانين الخطابة ، وأصول الكتابة، وفنون الإلقاء ، وجمال الأداء وحسن اختيار الأسلوب وانتقاء الكلمات ، وجودة التحضير ، والانفعال في مواطن الانفعال ، والهدوء في مواطن الهدوء ، ﴿ **وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغا** ﴾ .

الخطيب الناجح هو الذي يعيش الموضوع وينفعل به ويمتزج بدمائه ، يجب أن تكون الخطبة كالقصيدة من حيث وجوب الانفعال بها ، وأن تنبع من القلب ، وينطق بها الوجدان ، وتنفعل بها المشاعر ، وإلا جاءت باهتة باردة ميتة .

الخطيب الناجح يحرص على الإيجاز قدر الإمكان ، فكلما طالت الخطبة ، كلما ضج بها الناس ، وأنسى آخرُها أولَها ، وبدأ الملل على النفوس ، والقلق على المصلين ، فمهما أوتي الخطيب من قوة ، وأعطي من أسلوب ، يجب أن يراعي عامل الزمن اقتداءً بالنبي ﷺ وهو أفصح

الخلق ، وأعظم من خطب ، وأجمل من نطق ، وأصدق من تكلم ، وقد قال ﷺ : «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنّةٌ من فقهه» .

الخطيب الناجح يبتعد عن مصادمة الناس بأخطائهم ، ومهاجمتهم في مخالفاتهم، بل يجب معالجة الأخطاء بأسلوب غير مباشر ، وتصحيح التصورات بطريقة علمية هادئة هادفة ناصحة ، دون هجوم أو تجريح ، ودون توتر أو تعنيف «وما كان الرفق في شيء إلا زانه» .

قال تعالى : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ [النحل : ١٢٥] .

الخطيب الناجح يجب أن يكون قلباً نابضاً ، وفكراً نيّراً ، وضميراً متوقداً ، وإحساساً مرهفاً ، يعرف مكانته ، ويقدر رسالته ، ويقوم بواجبه، ويؤمن بمسئوليته ،ويؤدي أمانته .

قال تعالى : ﴿**لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يصنعون**﴾ [المائدة : ٦٣] .

الخطيب المؤمن عقل مدبّر ، وقلب واعٍ ، ولسان ناطق ، وبيان صادق ويقين واثق ، يستلهم الوحي ، ويتضلع من العلم ، ويسيح في بستان السنة ، ويغوص في أعماق البحور ، فيأتي بالدرر ، ويقبل باللؤلؤ، ويجود بالمرجان ، ثم يتوج ذلك كله بإخلاص القصد ، وصفاء النية ، وسلامة الطوية .

قال تعالى : ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنِ وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾ [يوسف : ١٠٨] .

الخطيب الناجح لا يقع فيما يحذر الناس منه ، ويخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، فالدعوة بالقدوة أصدق من أي موعظة ، وأجمل من أجمل خطبة ، ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] .

الخطيب الناجح يبتعد عن الأمور التي تضر ولا تنفع ، وتسيء ولا تحسن ، وتهدم ولا تصلح ، فكثير من الأمور ليس المنبر مجالها ، ولا الخطابة ميدانها ، ويبتعد عن ذكر الأشخاص ، والحديث عن الأفراد بل يمضي على نهج : « ما بَالُ أقوام . . » .

الخطيب الناجح هو الذي يشدّ الأذهان بحسن عرضه ، ويهز القلوب بجميل لفظه ، تعيش معه القلوب ، وتتطلع إليه الأفئدة ، وتشخص إليه الأبصار .

الخطيب الناجح هو الذي يعيش في أعماق الناس ، ويشعر بشعورهم ، يتلمس آمالهم وآلامهم ، يناقش القضايا الحية ، والموضوعات المُعاشة ، ويضرب على الأوتار الحساسة ، يطرح القضية ويوجد الحل ، ويبين الداء ويصف الدواء .

الخطيب الناجح يتحرى حسن اختيار الموضوع ، والتنويع في الطرح والتجديد في العرض ، والبعد عن الرتابة المملة ، والتقليدية الباهتة .

أنت مع الخطيب الناجح تحيى نفسك ، ويصحو ضميرك ، ويزكو وجدانك . إنك تتنقل معه في رياض نضرة ، وبساتين أنيقة ، وحدائق غنّاء ، تارة تجدك أمام هزة عنيفة ، وصيحة منذرة ، وموعظة بليغة ، تزلزل الكيان ، وتهز الوجدان ، فتنزل على القلب بسوط لاذع ، وصارم قاطع ، ووعيد رادع .

وتارة تجدك أمام طبيب حاذق ، ومداوٍ ماهر ، ووصيف حكيم ، يسقيك جرعة من رضاب البيان فتقتل الداء ، وتبعث الشفاء ، وتفيد الصفاء .

وتارة تجدك أمام روحاني عريق ، ورباني رفيق ، وخاشع رقيق ، يُظّلك بسحاب الورع ، ويهمي عليك غيث التقوى ، ويجلّلك برداء الخشوع ، ويجملك بلباس الخضوع ، ويروي غلتك بزلال الوعظ ، ويذهب ما في قلبك بذكر الحبيب ، ووصف الجميل ، ولقاء الجليل ، فإذا بجوى الحب في القلب يستعر ، وفُتحت مآقي العيون بماءٍ منهمر ، وفُجّرت النفس عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِر .

وتارة تجدك أمام مُحبٍّ واله ، وعاشق مدنف ، ومغرمٍ متيم ، قد براه الحب ، وتيّمه الهوى ، وشغف بمعبوده حباً ، تاه فكره ، وذهب لُبُّه ، وطاش عقله ، وتحرقت وجناته ، وفاضت عبراته ، وعظمت حسراته ، فيروي لك طرفاً من قصة الحب ، وبعضاً من أحاديث الغرام ، فينساب دفئها إلى القلوب، ويتسلل عبيرها إلى النفوس ، فتذكي نار الحب ، وتشعل حُرق الغرام ، وتُؤجج لواعج العشق .

إذا كان حب الهائمين من الورى
بليلى وسعدى يسلب اللب والعقلا
فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي
سرى قلبه شوقاً إلى الملأ الأعلى

وتارة تجدك أمام ربٍّ للبيان ، وإمامٍ للكلام ، ومالك لزمام اللغة ، ونافث لبديع الشعر ، وكأن تحت لسانه هاروت ينفث فيه سحراً .

وكلامه السحر الحلال لَوَ انَّه
لم يجن قتل المسلم المتحرِّزِ
إن طال لم يُملل وإن أوجزته
ودّ المحدَّث أنه لم يوجَزِ

إن المنبر اليوم هو قناة المسلمين الوحيدة ، وزاويتهم الفريدة التي يُبث من خلالها العلم وينشر الهدى ويسدى النصح وتذاع الفضيلة وتحارب الرذيلة ، وإن الخطيب الناجح يكون شأنه مع قنوات التضليل ومنابر التدجيل كشأن عصا موسى مع حبال السحرة وعصيّهم ، يرسل نغمات الحق وكلمات اليقين وعبارات الإيمان ومواعظ القرآن ، فإذا هي تلقف ما يأفكون ، وتدمر ما يشيدون ، وتنسف ما يصنعون .

إن العاقل الذي يتأمل ما وصلت إليه البشرية اليوم ليحترق أسىً ، ويذوب حياءً ، ويكتوي لوعةً ، ويلتهب حرقة ، ويرتعد خوفاً ، ويرتجف فرقاً ، حق للقلوب المؤمنة أن تتقطع ألماً ، وآن للأنفس الطاهرة أن تتمزق ندماً ، وحان للأعين الصادقة أن تبكي دماً ، فكيف يهنأ المؤمن زاداً ، وكيف يسيغ شراباً ، ويتبسم ضاحكاً ، ويمضي سالياً ، ويعيش هانئاً ، وينام قريراً وهو يرى ما يُمضّ الأجسام ، ويمزق الأفئدة ، ويبدد القلوب من اعتداءٍ على الحرمات ، وانغماس في الشهوات ، وتحدٍّ لرب الأرض والسماوات ، ومجاهرةٍ بالقبائح ، وإعلانٍ بالفضائح؟ لقد كان ﷺ يغضب غضباً شديداً إذا انتهكت حرمة من حرمات الله ، فكيف ظنك به لو اطلع على هذا الانتهاك المرير ، والاعتداء الخطير الذي لم تعد تراعى فيه حرمة ، أو يحترم شرع ، أو يستحيى من رب – إلا من رحم الله – .

إن أفضل واعظٍ كتاب الله ، وأصدق حديث كلام الله ، وخير

الهـدي هدي محـمـد ﷺ وإن هذه القطرات من ذلك الغـيث الهنيء ، وهذه القنوات من تلك البـحـور الزاخـرة ، والأنهـار الرقـراقـة ، وهذه الومضات من ذلك النور الأتم ، والهدي الأكمل .

وإن هنالك من البشر من لا تهزه كلمة ، ولا تنفعه موعظة ، ولا توقظه ذكرى ، ولا يؤثر فيه بيان ، ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء لتأتيهم بآية بينة ، وأدلة قاطعة ، فإنهم لا يسمعون : ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون** ﴾ .

يا أيها المؤمن .. هذا هتاف الإيمان ، ونداء الحق ، فاستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب من القلب ، حبيب إلى النفس . استمع قبل أن تسمع الصيحة بالحق فلا قيمة للتوبة ، ولا فرصة للعودة ، ولا أمل في الرجعة ، فلو ناديت يومئذ ﴿ **رب ارجعون * لعلي اعمل صالحاً فيما تركت** ﴾ لم يسمع نداؤك ، ولم يُقبل رجاؤك ، وسمعت النداء الحق : ﴿ **كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون * فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون** ﴾ [المؤمنون : ٩٩ – ١٠٤] .

النية

قال ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» [رواه البخاري ومسلم] .

النية أساس الفلاح ، وعنوان النجاح ، إن صفت صفا العمل ، وإن حسنت قُبل ، وإن طابت طاب ، وإن ساءت النية ساء العمل ، واعتراه الخلل ، وباء بالفشل . يكون العمل قليلاً فُتَكَثِّره النية ، ويكون كثيراً فتقلله النية أو تمحقه ، «ما سبقكم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ، ولكن بشيءٍ وقر في قلبه» .

بالنية قد يصل المرُء إلى أعلى علِّيين ، وبالنّيّة قد يهوي إلى أسفلِ سافلين . من صَلحت نيتُه صَلح عملُه ، وبورك فعلُه ، وحَسُن قولُه ، وطاب سلوكُه ، قال تعالى : ﴿**فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم**﴾ [الفتح : ١٨] ، ومن ساءت نيتُه فالعمل مردود ، والطريق مسدود ، والفعل مرذول ، والمستقبل مظلم، والوعيد مخيف ، والبركة ممحوقة .

من خبثت نيته ، خبثت نفسه ، وخبث جنانه ، وخبث لسانه ، وخبثت آثاره ، وشاهت أخباره ، قال سبحانه : ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً**﴾ [الإسراء : ١٨] ، ومن زكت نيته زكت نفسه ، وزكا قلبه ، وزكا لسانه ،

وزكت جوارحه ، وعَظُم عطاؤه ، وشُكر سَعْيُهُ ، قال تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ [الإسراء : ١٩] .

كم من متظاهرٍ بالإحسان ، ومدّعٍ للإخلاص ، يَشُمّ الناسُ فسادَ نيته ويعرفون خُبث طويته ، فلا ينفعه ادعاؤه ، ولا يفيده خداعه . وليس الجمال في الإسلام جمالَ الظاهر ، وقوّةَ الجسم ، وحُسْنَ الصورة ، ولكنَّ الجمالَ جمالُ الباطن ، والحُسْنَ حُسْنُ النيـة قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [رواه مسلم] .

إذا علم الله حُسْنَ نيةِ العبد ، وطيبَ مقصده ، ونقاءَ سريرته ، زرع له القبول ، وغرس له الحب ، وسدد قوله ، وبارك عمله « ونية المؤمن خير من عمله » .

بالنية الصادقة قد يدخل الإنسان الجنة ، ولمَّا يعمل بعمل أهلها بعد وذليل ذلك الذي قتل مائة نفس فذهب يبحث عن التوبة ومات قبل إعلانها والعمل بأركانها ، قَبِل الله توبته وإنابته وأثابه على حُسْن نيته .

والذي أسلم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقُتل من فوره في المعركة ، دخل الجنة بإعلان التوحيد والعزم على الإيمان . وهؤلاء لم يُمكَّنوا من العمل فلو مُكِّنوا لعملوا بعمل الإسلام ، والمرءُ يهمّ بالحسنة ولم يعملها فتُكتب له حسنة ، قال ﷺ : « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كُتب له ما نوى، وكان نومُه صدقةً عليه من ربِّه » [رواه النسائي وابن ماجه] قال الإمام أحمد لابنه: « انو الخير ولو لم تعمله تكن من أهله » .

يقول ﷺ : «إنما يُبعَث الناسُ على نيّاتهم» [رواه ابن ماجة] .

فالنية رأس الفضائل ، وأصل المسائل ، وأساس العمل ؛ والعمل بلا نيّة كالجسم بلا روح ، والعروق بلا دم ، والشجرة بلا ثمرة .

قال ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى . .»

هذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها الدين ، وقد روي عن الشافعي قوله : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين باباً من الفقه .

وقال الإمام أحمد – رحمه الله – : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : حديث عمر – رضي الله عنه – «الأعمال بالنيات» ، وحديث عائشة – رضي الله عنها – : «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» [متفق عليه] ، وحديث النعمان بن بشير – رضي الله عنه – : «الحلال بيّن والحرام بيّن» [رواه البخاري] .

وقد جرت عادة كثير من العلماء أن يُصَدِّروا كتبهم العظيمة ومؤلفاتهم الشامخة بهذا الحديث ، ومن أولئك : الإمام البخاري في صحيحه ، والإمام النووي في رياضه ، وهي من أنفع الكتب .

فهذا الحديث أصل عظيم من الأصول التي يقوم عليها هذا الدين وهو : بيانُ أن جميعَ الأعمالِ يتوقف صلاحها وفسادُها وقبولُها وردُّها على نية صاحبها ، فيجب على المسلم أن يستحضر النية الصالحة الصادقة الخالصة لله تعالى .

والنية في اللغة : بمعنى القصد والإرادة .

وفي الشرع : يُقْصد بها أحد معنَيَيْن :

الأول : بمعنى تمييز العبادات بعضِها من بعض ، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلا ، وتمييزِ صيامِ رمضان من صيام غيره ، أو تمييز العبادات من العادات ، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التَّبَرُّد والتنظف ، ونحو ذلك .

الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل ، وهل هو لله وحده لا شريك له؟ أم لغيره؟ أم لله ولغيره ؟ ، وهذه هي النيّة المقصودة التي جاء بها كلام الرسول ﷺ وسلف الأمة ، وقد ورد ذكر هذه النية في القرآن الكريم بغير لفظ النية بألفاظ كثيرة مقاربة ، ومنها الإرادة مثل قوله تعالى ﴿**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، وقوله : ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب**﴾ [الشورى : ٢٠] .

ووردت بمعنى الابتغاء ، مثل قوله تعالى : ﴿**إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**﴾ [الليل : ٢٠] ، وقوله : ﴿**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ..**﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

وأما النية بلفظها والألفاظ التي بمعناها فقد وردت كثيراً في أحاديث الرسول ﷺ وفي كلام سلف الأمة .

قال ﷺ : « من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى » [أخرجه النسائي] ، وقال ﷺ : « من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتبَ له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » [رواه ابن ماجة] .

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص : «إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجرت بها ، حتى اللُّقمة تجعلها في فِيِّ امرأتك» [رواه الشيخان] ، فانظر إلى روعة هذا الحديث فهو مع بيانه لأهمية الإخلاص يهدف إلى أمرين :

الأول : الإشارة إلى روعة هذا الدين وسعة رحمة الله تعالى ، وأن الإنسان يثاب حتى في الأمور المباحة التي فيها فرحته وسروره.

الثاني : التنبيه على أهمّية مثل هذه الأمور العاطفية ؛ من التعامل الحسن مع الزوجة وكسب مودتها ، وإرضاء عاطفتها .

يقول يحيى بن أبي كثير : «تعلَّموا النية فإنها أبلغ من العمل» .

وقال داود الطائي : رأيت الخير كله إنما يجمعه حُسْن النيّة .

ويقول سفيان الثوري : ما عالجت شيئاً أشدَّ عليَّ من نيّتي ، لأنها تتقلب عليَّ .

وقال بعضهم : تخليص النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد .

وقال ابن المبارك : رُبّ عملٍ صغير تُعظِّمه النيّه ، وربّ عمل كبير تصغِّره النية .

هكذا كان السلف الصالح يهتمُّون بأمر النية ووجوب الإخلاص فيها لله تعالى، ولهم في ذلك كلمات جميلة وعباراتٌ مُؤَثِّرة ، منها ما تقدم.

ومن القرآن ، قوله تعالى : ﴿**هو الحيُّ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين**﴾ [غافر : ٦٥] .

وقوله سبحانه : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ [البينة:٥]

وقوله جل وعلا : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمِرتُ وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : ٦٢] .

فالإخلاص تصفية العمل من كل شوب ، وتنقيته من كل كَدَرْ .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذِّكْرَ ؛ ماله؟ فقال رسول الله ﷺ « لا شيء له » ، فأعاد ثلاث مرّات يقول له رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابْتُغِيَ به وجهُهُ » [رواه النسائي] .

يقول أحد السلف : الإخلاص استواءُ أعمالِ العبد في الظاهر والباطن.

ويقول الآخر : المخلص من كتم حسناته كما يكْتُم سيئاته .

وقال الآخر : اللهم إني أستغفرك مما زَعَمْتُ فيه الإخلاص وقد خالط بشاشةَ قلبي غيرُ ذلك .

وقال مكحول : « ما أخلص عبدٌ قطّ أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه » .

وقال يُوسف بن الحسين : « أعزّ شيءٍ في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهدُ في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبتُ على لونٍ آخر » .

وقال الفضيل بن عياض : ترْكُ العمل لأجل الناس رياءٌ ، والعمل

لأجلهم شرْك ، والإخلاص : الخلاص من هذين .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ [الملك : ٢] ، هو أخْلَصُهُ وأصوبه ، قالوا يا أبا علي : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

واحسرتاه لمن أنفق ماله ، وأتلف دراهمه ، وأنفق دنانيره ولم يُرِدْ بذلك وجه الله .

واحسرتاه لمن أقام الولائم ، وقرّب الموائد ، وأراد بها غير الله .

واحسرتاه لمن تعلم العلم ، ودرس الفقه ، وعرف المسائل ، فلم يخلص النية ، ولم يصدق القصد ، وأراد مجاراة العلماء ، أو مماراة السفهاء ، أو نيلَ عرضٍ من أعراض الدنيا ، وحطام من حطامها ، قال ﷺ : « من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » [رواه أبو داود وابن ماجة] . عَرْف الجنة : يعني ريحها .

واحسرتاه لمن تعلم القرآن ، وترنم بكلام الرحمن ، فأراد به عرض الدنيا ، وقصد به التَّكَسُّب ، وكان مراده أن يقال له قارىء ، فهو من أول من تُسَجَّر بهم النار يوم القيامة .

واحسرتاه لمن تظاهر بالدعوة إلى الله ثم لم تكن دعوته خالصة ،

ونيته صادقة ، فقصد بها غير الله ، أو أشرك معه غيره .

واحسرتاه لمن صدح بالخطب الرنانة ، والكلمات المدبّجة ، والمواعظ المختارة ، ثم لم يَحسُن قصدُه ، ولم تصفُ نيتُه .

إن فساد النية ، وخبث الطوية يهبط بالطاعات المحضة ، فيقلبها معاصيَ شائنة ، ويجعلها ذنوباً كبيرة ، فلا ينال المرء منها بعد التعب في أدائها إلا الفشل والخسران ، وبدلاً من أن يكْسِب بها الأجرَ والثواب ، يستجلب بها الويلَ والعقاب .

قال سبحانه : ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ [الماعون : ٥] .

فلما كانت الصلاة رياءً أصبحت جريمة نكراء ، وفعْلة شنعاء ، لأنها فقدت الإخلاص . وهكذا الزكاة إذا لحقها المنُّ ، وأُنفقتْ رئاء الناس ، وهكذا كل الأعمال إذا قصد بها غيرَ الله تتحول إلى جرائمَ نكراء ، وفعائل شنعاء !!

الله تعالى لا يقبل من العمل إلا النقيّ من الشوائب ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ [الزمر : ٣] .

إن الإنسان الموظف تهبط قيمته ، وتدنو منزلته إذا أصبح كل همِّه من عمله ، وقصده من وظيفته مجرَّد الراتب أو الرتبة أو الترقيات ، ولم يكن له نية عُليا ، وهدف أسمى .

يجب أن يجعل المسلم قصدَهُ أجلّ ، وغرضَهُ أعظم ، ونيّتَه أسلم وفعله أحكم .

يقول ابن القيم – رحمه الله – : «العمل بغير إخلاص ولا اقتداءٍ

كالمسافر يملأُ جرابه رملاً ينقُله ولا ينفعه» .

ويقول ﷺ : «ثلاث لا يُغَلُّ عليهن قَلْبُ مسلم : إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإنَّ دَعْوتَهم تحيط من ورائهم» [رواه النسائي] .

ويقول ﷺ : «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله – عز وجل – فليطلب ثوابه من عند غير الله – عز وجل – فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» [رواه ابن ماجة والترمذي] .

وقال ﷺ : «قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشُركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُهُ وشِركه» [رواه مسلم] .

قال ابن تيمية – رحمه الله – : إخلاص الدِّين هو الذي لا يقبل اللهُ تعالى سواه ، وهو الذي بَعث الله به الأولين والآخرين من الرُّسُل، وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمةُ أهل الإيمان ، وهذا هو خلاصةُ الدعوة النبوية ، وهو قُطْبُ القرآن الذي تدور عليه رحاه .

وأختتم بهذا الحديث الرهيب الذي تنخلع لهوله القلوب، وترتعد لعظمته الفرائص.

عن عقبة بن مسلم أن شُفَيًّا الأصبحيّ حدثه : «أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ قالوا : أبو هريرة ، قال : فدنوت منه ، حتى قعدت بين يديه ؛ وهو يُحدث الناس ، فلما سكت وخلا ، قُلت له : أسألك بحقٍّ وبحقٍّ ، لَمَّا حدَّثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ وعقِلْتَه وعَلِمْتَه ، فقال أبو هريرة : أفعل ،

لأحدثنَّك حديثاً حدَّثنيه رسول الله ﷺ عَقلْتُه وعلمتُه ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً فمكثنا قليلاً ثم أفاق ، فقال : لأُحدثنَّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً أخرى ، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، فقال : أفعل ، لأُحدثنَّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً شديدة ، ثم مال خارّاً على وجهه ، فأسندتُه طويلاً ثم أفاق ، فقال : حدثني رسول الله ﷺ :

« إن الله تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامة يَنزلُ إلى العباد ليقضي بينهم – وكلٌّ أمة جاثية – فأول من يُدعى به رَجل جمع القرآن ، ورجلٌ قُتل في سبيل الله ، ورجل كثيرُ المال ، فيقول الله عز وجل للقارىء : ألم أُعَلِّمكَ ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يا ربِّ ، قال : فما عَملتَ فيما علمت ؟ قال : كنتُ أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول اللهَ عز وجل له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت، ويقول الله تبارك وتعالى : بل أردت أن يقال : فلان قارىء وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله عز وجل : ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا ربِّ ؛ قال : فماذا عملت فيما آتيتُك؟ قال : كنت أصل الرحم ، وأتصدّق . فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول الله له : في ماذا قُتلت؟ فيقول : أي ربِّ ! أَمَرتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتلتُ ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبتَ ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك » . ثم ضرب رسول الله ﷺ على

ركبتي فقال :

« يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أولُ خلقِ الله تُسعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامة » .

وقد بكى معاوية حينما سمع هذا الحديث حتى غشي عليه ، فلما أفاق ، قال صدق الله ورسوله ، قال الله عز وجل : ﴿ **من كان يريد ثواب الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ [النساء : ١٣٤] » [رواه الترمذي] .

وقوله ﷺ : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، فإنه لما ذكر أن الأعمال بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيّته من خيرٍ أو شر ، ذكر بعد ذلك مثالاً من أمثال الأعمال التي صورتها واحدة ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النيات وكأنه يقول: سائر الأعمال على حذو هذا المثال .

وخلاصة الأمر أن أي عمل يعمله المرء من هجرةٍ أو سفر أو جهاد أو صلاة أو صيام أو علمٍ أو غيرها .. يُثاب فيه على ما نوى ، ويُجزى بما قصد ، فإن قصد الله ورسوله فقد أفلح وأنجح ، وإن كان الأمر على غير ذلك فقد هَلَكَ وخسر ، وليس له إلا ما قصد .

اللهم لك أسلمنا ، وعليك توكلنا ، وبك آمنا ، وإليك أنبنا ، وبك خاصمنا ، وإليك حاكمنا ، فاغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا ، وما أسْرَرْنا وما أعلنَّا ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت .

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

المعجـزة الخـالـدة

لكل أُمّةٍ دستور ، ولكل شعب قانون ، ولكل قوم منهاج ، ولكل نبي معجزة . أما أمة الإسلام فدستورها القرآن ، ومنهاجها الفرقان ، ومعجزتها البيان ﴿ **كتابٌ فُصِّلتْ آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون** ﴾ [فصلت : ٣] .

اقتضت حكمة المولى جلّ وعلا أن يجعل لكل نبي معجزة تؤكد نبوّته ، وتنبيء عن صدقه ، وتؤيد دعوته ، وتأتي تلك المعجزة من جنس ما يفاخر فيه القوم ، ويباهي به الملأ . عُرف قوم موسى بالسحر وبرعوا فيه فكانت معجزة موسى في عصاه التي تلقف ما يأفكون ، فأُلقي السحرة سُجدا . واشتهر قوم عيسى بالطب ، فكانت معجزته في أنه يبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى .

أما العرب فقد كانوا أمة بلاغة وفصاحة ، وكلمةٍ وبيان ، يعشقون الكلمة المؤثرة ، ويتيهون بالعبارة الخلابة ، وينقادون للبيان الناصع ، ويدينون للأسلوب الماتع ، تقع الكلمة الجميلة منهم موقعاً عظيماً ، وتؤثر العبارة المشرقة فيهم تأثيراً بليغا . الشعر ديوانهم ، والخطابة ميدانهم ، والفصاحة عنوانهم ، والبلاغة بستانهم ، فجاءت معجزة النبي ﷺ من جنس ما يفاخرون به ويتحدون فيه . فَبُهروا بعظمته ، وأيقنوا بجلالته ، وأذعنوا لفصاحته، وتحداهم الله جل وعلا أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة من سوره ، أو بعشر آيات مثله ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا ريب فيه من رب**

العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : ٣٨] .

فهو المعجزة الخالدة ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والعصمة لمن تمسك به ، والنجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فَيُتَّقَى ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّم ، ولا تنقضي عجائبُه ، ولا يَخْلَق من كثرة الرد . من قرأه أُجر ، ومن اتَّبعه هُدي ، ومن تدبره فَقِه ، ومن حكم به عدل ومن قال به صدق ، ومن نطق به أصاب . تحدى العظماء ، وأفحم البلغاء ، وأسكت الشعراء .

أَوْكل اللهُ إلى كل أمة أن تحفظ كتابها ، وتصون منهاجها ، قال تعالى : ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** ﴾ [المائدة : ٤٤] أما كتابنا فقد تكفل الله بحفظه : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩] ، فهو محفوظ بحفظ الله ، مصون برعاية الله ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [فصلت : ٤٢] .

حفظه الله وأعزه ، وصانه وحماه ، وشرفه وكرمه ، ورفعه وعظمه وسماه روحاً ورحمة وشفاء وهدى ونوراً وفرقاناً وبصائر . جعله متلواً لا يُمَلّ على طول التلاوة ، ومسموعاً لا تَمُجُّه الآذان ، وغَضّاً لا يخلق على كثرة الرد ، وعجيباً لا تنقضي عجائبه ، ومفيداً لا تنقطع فوائده ، وجَمَع الكثيرَ من معانيه في القليل من لفظه ، وتحدى الجن والإنس أن يأتو بمثله أو بسورة أو بآية من آياته . ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

جميل في لفظه ، بديع في نظمه ، عظيمٌ في سَبْكه ، الكلمة منه أو الآية إذا كانت في خطبة كانت وجهها ، أو قصيدة كانت غرَّتها ، كالياقوته التي تكون فريدة العقد ، وكالتاج على الرأس ، والبسمة على

الفم . إذا وقع بين كلام وشَّحه ، وإذا ضُمِّن في نظم زَيَّنَه ، وإذا اقتُبِس لأسلوب جمَّله . يشتمل على اللب ، ويسري في الحس ، وينفذ في العروق ، ويمتزج بالدم ، مؤتلف غير مختلف ، منتظم غير متفرق ، مترابط غير متفكك ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

حَسَنٌ في السمع ، سهل على اللسان ، قريب من الفهم ، سريع إلى القلب . له من التمكن في النفوس والوقع في القلوب ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع ويؤيس ، ويضحك ويبكي ، ويحزن ويفرح ، ويشجي ويطرب ، ويهز العواطف ، ويستميل نحوه الأسماع . له مسالك في النفوس لطيفة ، ومداخل إلى القلوب دقيقة . أسلوب بهيج ، ونظمٌ أنيق ، ومعرض رشيق ، غير ثقيل على الأسماع ، ولا صعب على الأفهام . ممتلىءٌ ماءً ونضارة ، ولطفاً وغضارة ، يسري في القلوب كما يسري السرور ، ويمر إلى النفوس كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر، ويَعْذُب كما يعذب النهر الزلال . أعذب من العذب ، وأحلى من الشهد ، كالروح في البدن ، والنور في الأفق ، والغيثِ في الفاقة ، والضياء في الظلمة .

﴿ **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

سَمْتٌ شريف ، ومَرقَبٌ منيف ، ومعنى لطيف ، له حلاوة وعليه طلاوة . يبهر ذوي النهى ، وأرباب الحجى بما فيه من حكمة وأحكام ، واحتجاج وتقرير ، واستشهاد وتقريع ، وإعذار وإنذار ، وتبشير وتحذير ، وتنبيه وتلويح ، وإشارة وتصريح ، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة ، وأوامر صادعة ، وقصص مفيدة ، وثناءٍ على الله ، وإخبار عن الغيب ،

وحديث عن المستقبل ، ونواهٍ عن القبائح ، وزواجر عن الفواحش ، وإباحةٍ للطيبات ، وتحريم للخبائث .

استضاء العالم ببركة أنواره ، وأشرقت الآفاق بنور أضوائه ، أقبلت عليه القرون المتتابعة تغرف من بحره الذي لا ينقص ، وترتوي من معينه الذي لا ينضب .

أُنزل إلى أُمَّة لا ذكر لها ولا وزن ، ولا تاريخ ولا حضارة ، ولا علم ولا معرفة ، ولا نور ولا بصيرة ، فأحياها من موات ، وأوجدها من عدم ، وأيقظها من سبات ، فإذا بها محطَّ الأنظار ، ومثارَ الإعجاب ، وميدان الإكبار . قَلَبت الموازين ، وغَيَّرَت وجه الأرض، وأسعدت البشرية ، وأضاءت للإنسانية ببركة هذا الكتاب الكريم ، والنهج القويم .

وعكف علماء الأمة على هذا العلم الرباني الخالد ، والنهج الإيماني الأسمى ؛ فتأملت طائفة من الناس معاني خطابه فاستنبطوا أحكام اللغة وقواعد العربية .

وتكلم قوم في التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ ، وسموا هذا الفن أصول الفقه .

وأحكمت طائفة صحيح النظر ، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام . فأسسوا أصوله ، وفرّعوا فروعه ، وبسطوا القول في ذلك ، وسموه بالفقه .

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة ، والأمم الخالية ، فألفوا علم التاريخ والقصص .

ونظر قوم إلى بعض آياته وسوره ، وما تحتاجه من شرح وبيان ، وتحليل

وتفسير ، فألفوا علم التفسير .

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تهز النفوس، وتحيي القلوب ، وما فيه من الوعد والوعيد ، والتحذير والتبشير ، وذكر الموت والمعاد ، والحشر والحساب، والجنة والنار ، فكانت كتب الخطب والوعظ والرقائق .

وأخذ قوم بما في آيات المواريث فألفوا علم الفرائض .

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم والبروج وغير ذلك ، فاستخرجوا منه علم المواقيت والفلك .

ونظر الأدباء والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ ، وبديع النظم ، وحسن السياق ، والتلوين في الخطاب ، واستنبطوا علم المعاني وعلم البديع .

ونظر قوم إلى ما فيه من أعداد وأرقام ، فأظهروا ما يسمى بالإعجاز العددي .

وأتى العلم الحديث فعكفت طائفة على دراسة المخترعات الحديثة، والمكتشفات الجديدة ، ورأت ما سبق إليه القرآن من نظريات علمية ، فألفوا في الإعجاز العلمي للقرآن في الطب والفلك وغيرها ، وأسلم بسبب ذلك خلق كثير .

لقد اعتنى علماء الإسلام بهذا الكتاب عناية فائقة ، فحصروا آياته ، وعدد كلماته، بل وحروفه وجَزَّؤُوه ، ورَقَّموه وجَوَّدوه ، ونقشوه في الصدور قبل السطور .

وها هي أمة الإسلام إلى اليوم بجامعاتها وكلياتها ومعاهدها ومدارسها لا تزال تنهل من معينه العذب ، وتدور في فلكه الرحب ، فقل لي بربك ماذا للعرب وللمسلمين لو لم يكن هذا البيانُ الخالد . ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون** ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

تحدث القرآن عن نفسه كثيراً ، وبدأت عشرات السور بالحديث عنه تنويهاً بشأنه ، وتعظيماً لجلاله ، مثل قوله تعالى : ﴿ **الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ [البقرة : ٢] .

كانت هذه الآية سبباً في إسلام عالم من كبار العلماء الغربيين ، حيث يقول : إنه ما من كتاب أو مُؤلف إلا ويبتدؤه مؤلفه بالاعتذار عن النقص والخلل ، والتقصير والزلل إلا القرآن فإنه من أول سورة منه وفي أول حديث عن نفسه ؛ يعلن كماله وجماله ، وأنه بعيد عن الريب ، سليم من النقص ، مصون من الخلل ، محفوظ من الزلل .

ومثل قوله تعالى : ﴿ **المص * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين** ﴾ [الأعراف : ٢] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ **الر * كتاب أحكمت آيته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود : ١] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ [القدر : ١] .

وكذلك خُتمَتْ عشرات السور بالحديث عن القرآن ، مثل قوله تعالى في نهاية الأعراف : ﴿ **وإذا قُرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، وقوله تعالى في نهاية سورة إبراهيم : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولِيُنْذَروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب** ﴾

[إبراهيم : ٥٢] ، ونهاية سورة ق : ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ ، ونهاية البروج : ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾ [البروج : ٢٢] .

وقد كثر الحديث في القرآن عن القرآن الكريم في آيات تأخذ بالألباب وتهز النفوس : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ [المائدة : ١٩٦] .

﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشرُ المؤمنين * الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا** ﴾ [الإسراء : ٩] .

﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل اللهُ فما له من هاد** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

انظر إلى روعة كلمة ﴿ **أحسن** ﴾ وما لها من الأثر في النفس ، والموقع من القلب . فلو وضعت مكانها أي كلمة أخرى مثل : أجمل ، وأفضل وأجود ، فلن تجد لها من الأثر ما لكلمة ﴿ **أحسن** ﴾ ثم انظر إلى تكرار لفظ الجلالة في هذه الآية أربع مرات ، وما له من معنى عميق ، وأثر بديع .

﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون** ﴾ [الزمر : ٢٨] .

﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ [الحشر : ٢١] .

انظر إلى عظمة هذا الكتاب كيف طبّق الأرض بأنواره ، وجلل الآفاق بضيائه ، ونَفَذ في العالم حكْمُه ، وقُبِل في الدنيا رَسْمُه . وأصبحت

نغماته الحانية تلامس القلوب قبل الأسماع في أنحاء الدنيا وأصقاع المعمورة ، فيحيي قلوباً ميتة ، وينير عقولاً مظلمة ، ويبعث أجساداً هامدة ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾ [الشورى : ٥٢] .

﴿ **روحاً من أمرنا** ﴾ يدل على صدوره من الربوبية وروده عن الألوهية فهو روح لأنه يحيي الخلق ، ويبعث في النفوس الحياة ، فله فضل الأرواح في الأجساد . وهو نور لأنه يضيء للقلوب والعقول والبصائر ضياءَ الشمس في الآفاق .

دعا إلى الوحدانية في أجمل أسلوب ، وأصدق عبارة ، فقال : ﴿ **هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين** ﴾ [غافر : ٦٥] .

ويقول تعالى : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيءٍ فقدره تقديرا** ﴾ [الفرقان : ٢] .

ودعا إلى التفكر في آيات الله والتأمل في مخلوقاته والنظر في ملكوته ، وربَطَ ذلك بتوحيده جل وعلا فقال : ﴿ **أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أَءِلهٌ مع الله بل هم قوم يعدلون * أَمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أَءِلهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أَمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءِلهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون * أَمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أَءِلهٌ مع الله تعالى الله عما يشركون * أَمَّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أَءِلهٌ مع**

الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [النمل : ٦٠ – ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾ [الأنعام : ٩٩] .

وقال تعالى : ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ [الرعد : ٤] .

انظر إلى هذا الجمال الخلاب ، والروعة الفائقة ، والبيان المعجز الذي يأخذ بالألباب، ويمتلك النفوس في قوله : ﴿**يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل**﴾ كم في ذلك من آيات العظمة ودلائل الألوهية .

وَرَدَّ شبه الملحدين في أسلوب معجز ، وبيان مفحم ، وحجة دامغة ، فقال : ﴿**لو كان فيهما ءالهةٌ إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون**﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

وقال لمنكر البعث : ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾ [يس : ٧٩] .

وبين تعالى الأسلوب الأمثل ، والطريق الأكمل ، والنهج الأجمل في الدعوة إلى الله تعالى فقال : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ [النحل : ١٢٥] .

وحث على الوحدة ولزوم الجماعة ، والبعد عن الفرقة فقال : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وبين النهج الأسلم ، والطريق الأحكم ، والخلق الأعظم ، وجمع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب في آية واحدة فقال : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل:٩٠]

وبين القاعدة في الحلال والحرام في جزءٍ من آية فقال : ﴿ **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وأوجز ما في القرآن كلّه في سورة الفاتحة ، فهي أم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم .

وأوجز رسالة الإنسان في الحياة في سورة واحدة ، قال عنها الشافعي : لولم ينزل الله إلا هذه السورة على الناس لكفتهم ، وهي قوله تعالى : ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ [العصر] .

وبين جل وعلا عظمته وسلطانه ، وأن كل ما في الكون تحت أمره ومشيئته في كلمتين فقال : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ ، وأخبر عن تمام الدين وصدق الرسالة ونقاء المنهج بكلمتين اثنتين ، فقال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا** ﴾ أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام .

وبين مهمة نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً**

ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ [الفتح : ٩] .

وبين صفته جل وعلا وكماله وجلاله في جزء من آية فقال : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [الشورى : ١١] .

ودعى إلى الجنة ونعيمها بكلمات حانية ، وعبارات مؤثرة ، وأسلوب ماتع فقال : ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم** ﴾ [محمد : ١٥] .

وحذر من النار وجحيمها ، وجهنم وأهوالها ، في أسلوب مرعب، وبيان مذهل ، وكلمات مدوية فقال تعالى : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ [الحج : ٢١] .

هذه إشارةٌ سريعة وبيان موجز لفحوى الكتاب ، وعظمة الفرقان وروعة القرآن ، فأين نحن من هذا الذكر الحكيم ، وما موقفنا منه .

قال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به** ﴾ [البقرة : ١٢١] أي يتدبرونه ويتبعونه حق اتباعه ، ويعملون به حق عمله . فهؤلاء هم المؤمنون بالقرآن حقاً، وهم أهله وخاصته صدقاً . ما أشد الحاجة إلى العودة الصادقة لهذا القرآن ، عودة بالقلوب والأفئدة ، بالأرواح والأذهان ، لا بالتلاوة باللسان فحسب . لقد غدا اهتمام كثيرٍ من الناس بالقرآن اليوم في إقامة حروفه فقط ، بل بعضهم يسجعه مبنى ويهدمه معنى ، ويُحَفِّظ حروفه ويقف سداً منيعاً دون حدوده . فلذلك ذهبت بركة القرآن ، وغابت روحه ، وفقدت ثمرته . ولا صلاح لآخر

هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، أخذوا الكتاب بقوة ، وتلقوا التوجيه بهمة ، وامتثلوا الأمر بعزيمة .

لقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين الناس ، يتخلق بأخلاقه ، ويتأدب بآدابه ويمتثل أوامره ، ويجتنب نواهيه . يحيي به ليله ، ويعمر به بيته ، ويزكي به فؤاده . إن قرأه تدبر وتأمل ، ودعا واستغفر ، وبكى وخشع . وإن قُرأ عليه فاضت عيناه ، وذرفت دموعه . إن أوصى أوصى به ، وإن وعظ وعظ به ، وإن أمَّر أميراً قدم صاحب القرآن ، وإن اختار إماماً فضل حامل القرآن ، وإن دفن أصحابه قدم صاحب القرآن وإن حاور حاور بالقرآن ، وإن جاءه متزوج ليس لديه مهر زوَّجَهُ بما معه من القرآن . وكان يتدارس القرآن مع جبريل في كل عام مرّة في شهر رمضان ، إلا آخر رمضان صامه ﷺ فقد عارض جبريل القرآن مرتين . وكان يوصي أصحابه بالقرآن والمداومة على قراءته : «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» [صحيح الجامع : ١١٦٥] .

ويقول ﷺ : «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها» [صحيح الجامع : ٨١٢٢] .

ويقول ﷺ : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ﴿ألم﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» [صحيح الجامع : ٦٤٦٩] .

ويقول ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» [البخاري : ١٣٢٩] .

وقد تلقى الصحابة رضوان الله عليهم وصايا نبيهم ﷺ بالقبول

والترحاب ، والعمل والتطبيق . فكان لبيوتهم دوي كدوي النحل بالقرآن، عمروا به بيوتهم ، وأحيوا به ضمائرهم ، وتأدبوا بآدابه ، وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، فأنار الله بهم الدنيا ، وعمر بهم العالم ، وأنقذ بهم البشرية . أما حال المسلمين مع القرآن اليوم فهي حال مزرية ، ووضع مبكٍ ، وأمر مؤسف ، فقد أصبح لوحات تعلق في البيوت ، أو تمائم تعلق على الصدور ، أو افتتاحات للمؤتمرات واللقاءات ، أو أشرطة تقرأ للأموات . أما العمل بما فيه ، والاهتداء بهدايته ، والسير على محجته ، فذلك ما يفتقده المسلمون اليوم إلا من رحم ربك . وصدق على كثير منهم قول معاذ بن جبل – رضي الله عنه – : « سَيَبْلَى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت ، يقرأونه لا يجدون له لا شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قَصَّروا قالوا سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا سَيُغْفَر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً » [سنن الدرامي : ٣٢١٢] .

ويقول الحسن – رحمه الله – قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلنا إليك مباركاً ليدبروا آياته** ﴾ وما تَدَبُّرُ آياته إلا اتِّباعُه ، وأما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً ، وقد والله أسقطه كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل .

قال تعالى : ﴿ **وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ [الفرقان : ٣٠] .

وهَجْرُ القرآن يتجلى في أمور عديدة منها : هجر سماعه ، وهجر العمل به ، وهجر تحكيمه والتحاكم إليه ، وهجر تدبره وتفهمه ، وهجر

الاستشفاء به أو التداوي به للأمراض الحسية والمعنوية .

لقد أخبر ﷺ أننا إن تمسكنا بكتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ فلن نضل أبداً .

وقال تعالى : ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً** ﴾ [طه : ١٢٤] .

إن سعادتنا بالقرآن ، وفلاحنا بالقرآن ، وعزنا بالقرآن ، ومجدنا بالقرآن ، وفوزنا في الدنيا والآخرة هو بالعودة إليه والتحاكم إليه ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ومتى أثمر في قلوبنا ، وأشرق في نفوسنا أشرقت بنا الأرض ، واستنارت بنا الدنيا ، وسعدت بنا البشرية .

﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً** ﴾ [النساء : ١٧٥] .

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وغمومنا ،،،،

السـنـة

قال ﷺ : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض » [صحيح الجامع : ٢٩٣٧] .

فكتاب الله تعالى هو الأصل الأول في التشريع، وحديثنا عن الأصل الثاني ، والجزء الباقي ، والقسم الآخر من أقسام الوحي ، وهو السنة المطهرة ، والطريقة المعصومة ، والمنهج الأحمدي ، والهدي النبوي . فهو أخو القرآن وشقيقُه ، وحميمه ورفيقُه ، فالمصدر مصدرُه والطريق طريقُه ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحْيٌ يوحى** ﴾ [النجم : ٣] .

يقول حسان بن عطية – رضي الله عنه – كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن .

فالسنة النبوية وحي من العظيم ، ونورٌ من الكريم ، وفيض من الحكيم تلي الكتاب في الفصاحة ، وتأتي بعده في البلاغة . نطق بها أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بياناً ، وأحسنهم خطاباً ، وأسدّهم لفظاً ، وأبينهم عبارةً ، وأصدقهم إشارةً . ألفاظه أرق من النسيم ، وأعذب من الشهد . ومعانيه إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل .

القرآن هو المعجزة القاهرة ، والآية الباهرة ، والحجة الباقية ، وقد تكفل الله بحفظه من التبديل والتحريف ، والتغيير والتصحيف إلى قيام الساعة . والقرآن هو كلام الله جل وعلا الذي نزل به الروح الأمين على

النبي ﷺ بلفظه ومعناه ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين** ﴾ [الشعراء : ١٩٤] .

ومن خصائص القرآن أنه متعبدٌ بتلاوته في الصلاة وخارجها ، وأنه لا تجوز روايته بالمعنى ، وأنه معجز بلفظه ومعناه . أما السنة فهي مُنزَّلة بالمعنى ، ولفظُها من النبي ﷺ ، ومن هنا جاز روايتها بالمعنى ، وهي ليست معجزة بألفاظها ، ولا متعبداً بتلاوتها، وهي كذلك لم تنزل على النبي ﷺ عن طريق جبريل فقط ، بل نزلت عن طريقه وعن طرق الوحي الأخرى ، من إلهام أو من وراء حجاب ، أو بإرسال مَلَك في اليقظة أو المنام ، وقد يأتي على صورته الحقيقية ، وقد يأتي متمثلاً في صورة بشر ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء** ﴾ [الشورى : ٥١].

السنة نور يتلألأ ، وبدر يضيء ، وسراج يزهر ، وعبق يفوح ، وعلم يتفجر ، وكنوز تنثر ، وصفحات تنشر . السنة مرآة النبوّة ، وروعة الرسالة ، وجمال المنهج ، وصفاء المبدأ .

السنة في معناها اللغوي تعني : الطريقة سواءً كانت حسنة أو قبيحة.

وهي في الاصطلاح : ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وهي مع الكتاب في مرتبة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بها على الأحكام الشرعية . صحيح أن القرآن أفضل منها منزلاً ، وأجل منها قدراً ، وأبعد منها مكاناً ، ولكنهما في مرتبة واحدة من حيث الحجية ، فهي وحي مثله ، لا يجوز تركها ، ولا يسوغ إهمالها ، ولا يصح مخالفتها . من عصاها فقد عصى القرآن ، ومن هجرها فقد خالف

البرهان ، ومن تنكر لها فقد أسخط الديان ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ [الحشر : ٧] ، ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ [النساء : ٦٥] .

ويقول ﷺ : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما جدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وإن ما حَرَّم رسول الله ﷺ كما حرَّم الله » [انظر صحيح الجامع : ٨١٨٦] .

ويقول ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » [صحيح الجامع : ٢٥٤٦٩] .

فالسنة مُتممةٌ للكتاب وشارحة له ، ومبينة لمُبْهَمه ، ومُفَصِّلة لمجمله، ومؤكدة لأحكامه ، ومقيدة لمطلقه ، وموضحة لمشكَله ، ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

فالكتاب هو القرآن ، والحكمة هي سنة رسول الله ﷺ ، يقول الإمام أحمد - رحمه الله -: « السنة تفسر الكتاب ، وتعرف الكتاب وتبيِّنه » .

ويقول ابن عبد البر - رحمه الله - : « والبيان منه ﷺ على ضربين :

الأول : بيان المجمل في الكتاب العزيز كالصلوات الخمس في مواقيتها

وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه ﷺ للزكاة وحدّها ووقتها ، وما الذي تؤخذ منه الأموال ، وبيان مناسك الحج» .

والثاني : زيادةٌ على حكم الكتاب ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وكتحريم الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، إلى أشياء يطول ذكرها .

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للقرآن أنه مبين له ، وموضح لمراميه وآياته ، حيث يقول تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ [النحل : ٤٤] .

ولقد اعتنى الصحابة – رضي الله عنهم – بالسنة النبوية عناية فائقة فتلقوها بالقبول ، وامتثلوها بالتطبيق ، والتزموا الحدود ، وامتثلوا الأمر ، واجتنبوا النهي ، واقتدوا به ﷺ في كل أعماله وعباداته ومعاملاته ، سواءً في حياته أو بعد مماته ، أخذوا عنه أحكام الصلاة وأركانها وهيئتها وصفتها ، عملاً بقوله : «صلوا كما رأيتموني أصلي» [رواه البخاري : ٥٩٥] وأخذوا عنه مناسك الحج وشعائره امتثالاً لأمره : «خذوا عني مناسككم» [رواه النسائي : ٣٠١٢] .

بل بلغ من اقتدائهم أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ، ويتركون ما يترك دون أن يعلموا لذلك سبباً أو يسألوه عن علته وحكمه ، «اتخذ النبي ﷺ خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب فقال النبي ﷺ : إني اتخذت خاتماً من ذهب» ، وقال : «إني لن ألبسه أبداً» فنبذ الناس خواتيمهم» [رواه البخاري : ٦٧٥٤] .

وبينما هو يصلي بأصحابه ذات مرة إذ خلع نعليه فوضعهما عن

يساره ، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم ، فلما قضى الصلاة قال : « ما حملكم على إلقاء نعالكم » ، قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا فقال ﷺ : « إن جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أن فيهما قذراً » [صححه الألباني في الإرواء : ٢٨٤] .

انظر إلى هذه المتابعة الصادقة ، ثم انظر إلى أحوال كثير من الناس اليوم ، تأتيهم بالحديث ، وتخبرهم بالسنة ، فيُقَطِّبون جباههم ، ويلوون أعناقهم ، وتضيق صدورهم، وتأبى قلوبهم .

ومن أعجب ما روي عن الصحابة في حرصهم على طاعة النبي ﷺ وامتثال أمره ، ما حدث من عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – فعن جابر قال : ولما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة قال : « اجلسوا » فسمع ذلك ابن مسعود فجلس على باب المسجد ، فرآه رسول الله ﷺ فقال : « تعال يا عبد الله بن مسعود » [رواه أبو داود: ٩٢٠] فانظر كيف بادر إلى امتثال الأمر وهو لم يدخل المسجد .

وهكذا حرص الصحابة – رضي الله عنهم – على اتباع أوامره ﷺ واجتناب نواهيه ، والأخذ بسنته ، والسير على محجته . وقد حفظوا العهد ، وصانوا الميثاق ، ومضوا على النهج بعد وفاته ﷺ ، وبلّغوا سنته ونشروا هدايته . امتثالاً لقوله ﷺ : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها ثم ذهب بها إلى من لم يسمعها ، فربَّ حامل فقه ليس بفقيه ، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » [صحيح الترغيب : ٨٥] .

وقوله ﷺ في حجة الوداع : « ألا هل بلّغت » قالوا : نعم قال : « اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع . . » [رواه البخاري : ١٦٢٥] .

وكانوا غاية في الصدق ، وآية في الأمانة ، مبرأين من الكذب ، منزهين عن العبث فهم الذين حفظوا عنه ﷺ قوله : « من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار » [صحيح الجامع : ٦٥١٩] .

وبقيت السنة سليمة من الأذى ، محفوظة من العدى ، بعيدة عن الردى لا يتجرأ حاسد للنيل من قدسيتها ، ولا يطمع منافق في تشويه جمالها ، أو العبث بكرامتها . وكيف يطمع أحد في ذلك وأبو بكر في الوجود ، وعمر على قيد الحياة . فلما أن قتل الفاروق ، وكسر باب الفتن ، وثلم حد الإسلام ، ودبت الفرقة ، ونشأت الصراعات ، وتطاولت الفتن ، وتسللت المحن التي بلغت ذروتها ، ووصلت غايتها بمقتل عثمان بن عفان – رضي الله عنه – بدأ الغش والدغل ، والخيانة والحقد ، والحسد والغل . وكما أوذي ﷺ في حياته ، وحورب في دعوته ، وعودي في رسالته ، وتألب عليه الخصوم ، وتكالب عليه الأعداء ، ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ [الأنفال : ٣٠] كما حدث ذلك في حياته ، حدث لسنته بعد وفاته . فامتدت الأيدي الآثمة ، واشرأبت الأعناق الماكرة ، ونفثت الأنفس الخبيثة ، ونطقت الألسن الكاذبة . أملاً منها في هدم الدين ، وطمعاً في تشويه السنة ، ورغبة في تزييف الحق ، وطمس الهدى ، وإطفاء النور . تظافرت جهود الخصوم ، وتواطأت قلوب الفجرة من المنافقين والملحدين والزنادقة والفرق الضالة والداخلين في الإسلام على دغل ومكيده ، وممن اتبعهم على جهالة وعمى بصيرة ، فسددوا سهامهم إلى السنة ، وأعملوا فيها سيوف باطلهم ، وخناجر بهتانهم ، ورماح أكاذيبهم، فَكَذَبُوا واخترعوا ، وزادوا ونقصوا ، ووضعوا ودسوا ، ومكروا وغدروا ، وعبثوا وفجروا . لكن ولله الحمد والمنة ﴿**رد الله الذين كفروا**

بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] . ارتدت سهامهم في نحورهم ، وعادت خناجرهم إلى صدورهم ، وصوبت رماحهم إلى قلوبهم ، لم ينالوا منالاً ، ولم يجنوا خيراً ، بل تميز الخبيث من الطيب والصالح من الطالح ، وازداد الحق ثباتاً ، والصدق رسوخا ، والنور ضياءاً ، والبرهان وضوحاً ، فكان الخير كل الخير في ثنايا الشر ، وكان الهدى أحسن الهدى في زوايا الأذى .

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طُوِيَتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاوَرَتْ
ما كان يُعرف طيبُ عَرفِ العُودِ

كانت تلك المكائد ، وهاتيك الدسائس سبباً في إيقاد نار الغيرة في قلوب المؤمنين، وتحريك الهمة في نفوس الموحدين ، وبعث الحمية في صدور المتقين . فبذلوا أوقاتهم ، وأتعبوا أجسادهم ، وكدوا أذهانهم، أسهروا ليلهم ، وأظمأوا نهارهم ، وشحذوا هممهم في دفاع صادق ، ونضال مخلص ، وجهاد مفلح . وأتوا بعلم لم يُعرف في الأولين ولا في الآخرين ، ولم يكن له مثيل في العالمين وهو علم مصطلح الحديث . فقعّدوا القواعد العلمية التي لا نظير لها في أمم الأرض ، فصانوا بها السنة وحفظوا بها الملة ، وحرسوا بها الشريعة .

وأهم الخطوات التي قاموا بها لحفظ السنة :

أولاً : دراسة إسناد الأحاديث ، فلا يقبلون منها إلا ما عرفوا طريقها ورواتها ، واطمأنوا إلى ثقتهم وعدالتهم .

يقول ابن سيرين فيما يرويه عنه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمُّوا لنا رجالكم، فيُنْظَر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».

ويقول ابن المبارك: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».

ثانياً: التوثق من الأحاديث وذلك بالرجوع إلى الصحابة والتابعين وأئمة هذا الفن. وكان الصحابة أنفسهم يرحل الواحد منهم شهراً كاملاً من أجل حديث واحد كما فعل جابر بن عبد الله حينما رحل إلى الشام ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى مصر من أجل حديث واحد، فلما سمعه عاد إلى المدينة من فوره ولم يحلّ رحله.

ويقول سعيد بن المسيب – رحمه الله –: «إن كنت لأسير في طلب الحديث الواحد مسيرة الليالي والأيام».

وخرج الشعبي –رحمه الله– من الكوفة إلى مكة المكرمة في طلب ثلاثة أحاديث.

وهذا إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – يقول: «رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور، والشامات، والموصل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعاً وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عدت إلى بغداد».

وإذا أردت أن تعرف من ذلك المزيد، وتقع على العجب العجاب من

أخبار السلف – رحمهم الله – ، فاسمع إلى أحدهم وهو الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي المتوفى عام ٢٢٧ هـ يقول : « وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فمالا يحصى ، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجت من البحرين قرب مدينة سلا ، وذلك في المغرب الأقصى إلى مصر ماشياً ، ومن مصر إلى الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرطوس ، ثم رجعت من طرطوس إلى حمص ، ومن حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد ، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة كل ذلك ماشياً » .

ثالثاً : أما الأمر الثالث من الأمور التي اتخذها السلف لحفظ السنة وتنقيتها فهو نقد الرواة ، وبيان حالهم من صدق أو كذب ، وهذا باب عظيم ، وصل منه العلماء إلى تمييز الصحيح من المكذوب، والقوي من الضعيف ، وقد أبلوا فيه بلاءً حسناً ، وتتبعوا الرواة ، ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم ، وما خفي من أمرهم وما ظهر ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا منعهم من تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج .

قيل ليحيى القطان العالم الحافظ الجهبذ : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة ، فقال : « لأن يكون هؤلاء خصمي أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول : لِمَ لَمْ تَذُبَّ الكذب عن حديثي » .

وقال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : « المقبول الثقة الضابط لما

يرويه ، وهو المسلم العاقل البالغ ، سالماً من أسباب الفسق ، وخوارم المروءة وأن يكون مع ذلك متيقظاً غير مغفل ، حافظاً إن حدّث من حفظه ، فاهماً إن حدّث عن المعنى ، فإن اختل شرط مما ذكرنا رُدَّت روايته» .

بهذه الطريقة العظيمة ، والقوانين البديعة ، والقواعد الدقيقة ، حفظ السلف سنة المصطفى ﷺ ، وصانوا أحاديثه ، وقد بلغت علوم الحديث والقواعد التي وضعها العلماء لحفظه ما يربو على الستين علْماً . فبقيت السنة عالية الذرا ، ناصعة الجبين ، واضحة المحجة ، ظاهرة الحجة ، داعية إلى الحق والهدى ، نابذة للضلالة والعمى .

وقد قيّض الله علماء أطهار ، ونجباء أبرار ، محققوا الدسائس ، وأتوا بالنفائس ، أرهقوا الأجساد والأرواح ، فجاءوا لنا بمختار الصحاح .

يقول الإمام مالك – رحمه الله – : «كتبت بيدي مائة ألف حديث» .

وأوسع المسانيد التي ضمت الأحاديث في القرن الثالث الهجري مسند الإمام أحمد ، ومسند بقي بن مخلد ، وقد ضم مسند الإمام أحمد أربعين ألف حديث ، وقد قال عن مسنده : «هذا كتاب جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألفا» ، ويقال : إن الإمام أحمد كان يحفظ ألف ألف حديث . ويضم مسند بقي بن مخلد حوالي ثلاثين ألف وتسعمائة وسبعين حديثاً .

وهذا الإمام البخاري – رحمه الله – صاحبُ أعظمِ وأصدق كتاب بعد كتاب الله تعالى ، أودع في كتابه ما يربو على سبعة آلاف حديث بالمكرر ، يقول عن كتابه : «أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث ، وما وضعت في كتابي حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت

ركعتين ، ويقول : كتبت عن ألف شيخ ، ورويت عن كل واحدٍ منهم عشرة آلاف وأكثر ، وما عندي حديث إلا أذكر إسناده » .

ونُقل عن الإمام مسلم أنه صنف صحيحه من ثلاثمائة ألف حديث وهو يضم اثني عشر ألف حديث .

وقال الإمام أحمد عن أبي زرعة – رحمه الله – : « هذا الفتى قد حفظ ستمائة ألف حديث » .

وهذا الإمام أبو داود – رحمه الله – الذي تحوي سننه حوالي خمسة آلاف ومائتين وأربعةً وسبعين حديثاً ، يقول : « جمعت كتاب السنن من ستمائة ألف حديث » .

وهذا يحيى بن معين – رحمه الله – يقول : « كتبت بيدي ألف ألف حديث » ، وهو الذي يقول : « لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه » .

وهذا علي بن عاصم مسند العراق ، أعطاه أبوه وهو شاب صغير مائة ألف درهم وقال له : اذهب ولا أرى لك وجهاً إلا بمائة ألف حديث ، فذهب وعاد إلى والده بمائة ألف حديث يحفظها عن ظهر قلب . فانظر كيف كانوا يربون أبناءهم ، وبماذا يعمرون أوقاتهم ؟!!

وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حمل العلم عن أربعة آلاف شيخ .

إلى غير ذلك من الهمم العالية ، والعزائم المتوقدة ، والجهود الجبارة التي بذلت لحفظ السنة ، وصيانة الملة ، ورعاية المنهج . فأولئك أركان الشريعة ، وأمناء الله من خليقته ، والواسطة بين النبي وأمته ، والمجتهدون

في حفظ ملته . أنوارهم زاهره ، وفضائلهم سائره، وآياتهم باهره ، ومذاهبهم ظاهره ، وحججهم قاهره . لم يعرجوا على الأهواء ، ولم يلتفتوا إلى الآراء فجزاهم الله أفضل وأكمل وأعظم الجزاء .

وبعد الصراعات الدامية ، والمعارك الضارية ، التي أرادت أن تستأصل شأفة السنة وتطمس أنوارها ، وتشوه أخبارها ، وتهتك أستارها ، كتب الله النصر للسنة وأربابها ، والحنيفية وحراسها ، فخرجت منتصرة مظفرة محفوظة مطهرة ، مضبوطة مقرّرة ، مكتوبة مدونة ، مهابة مكرمة ، بيضاء نقية ، ناصعة جلية ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا يتيه عنها إلا مخذول ، من أخذ بها نجا ، ومن تركها خسر .

يقول ﷺ : «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» ، قيل : ومن يأبى يا رسول الله؟ قال : «من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى» [رواه البخاري : ١٦٢] .

فيا خسارة من ترك مَحجّته ، وخالف سنته ، وهجر طريقته ، وتنكب ملته ، ولا صلاح لهذه الأمة إلا بالعودة الصادقة إلى الكتاب والسنة قراءة وتدبراً وتطبيقاً وعملاً . وأي أرض لم تشرق عليها أنوار الرسالة ، وشمس الهداية ، فهي أرض ملعونة . وأي قلب لم يستنر بضياء الكتاب والسنة ، فهو قلب مظلم . وإن ما تعيشه هذه البلاد من نعم ، وما ترفل فيه من فضل ، وتحظى به من أمن ، لهو ثمرة تحكيم الكتاب ، والعمل بالسنة ، والتطبيق للشريعة . نسأل الله تعالى أن يزيدها هدى وصلاحاً ، ونوراً وفلاحاً ، وتوفيقاً ونجاحاً، وأن يوفق ولاة أمورها ويرزقهم البطانة الصالحة ، والصحبة الناصحة ، وينفع بهم البلاد والعباد .. إنه سميع مجيب ،،،

جوامع الكلم

تحدثنا فيما سبق عن السنة النبوية من حيث مكانتها وعظمتها وحفظ الله لها ، وجهود العلماء في ذلك ، وحجيتها ، ووجوب التحاكم إليها .

وحديثنا هنا هو عن البلاغة النبوية ، والفصاحة المحمدية . عن البيان القويم ، والهدي الكريم في الدعوة والتعليم .

لقد كان ﷺ مؤيداً بالقرآن مصدقاً بالبرهان ، مدعماً بالمعجزات مصحوباً بالبينات ، ومع ذلك لم يغفل مهمة اللسان ، أو يهمل جانب البيان . لقد كان خلقه القرآن ، حتى في علمه وتعليمه ، وبلاغته وفصاحته ، وحسن بيانه ، وروعة برهانه ، فجاء كلامه في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم . فهو أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بيانا، وأحسنهم خطابا ، وأسدهم لفظا ، وأبينهم عبارة ، وأوضحهم إشارة . بيان معجز ، وأسلوب مشرق ، ألفاظه أرق من النسيم ، وأحلى من الشهد ، وأعذب من الماء الزلال ، ومعانيه إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، ومنتهى الفهم ، ﴿**وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى**﴾ ، حديث قلَّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه . ألقى الله له القبول ، وشرح له الصدور ، وأبهج به القلوب . جمع بين المهابة والحلاوة ، والجزالة والطلاوة ، وبين حسن الإفهام . وقلة عدد الكلام .

تقول عائشة – رضي الله عنها – : «ما كان رسول الله ﷺ يسرد

سردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصلٌ ، يحفظه من جلس إليه » [رواه البخاري : ٣٦٣٩] .

ولم يسمع الناس بعد القرآن بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .

ولا غرو في ذلك فقد نشأ في أفصح القبائل ، وأخلصها منطقاً ، وأعذبها بياناً . فكان مولده في بني هاشم ، وأخواله من بني زهرة ، ورضاعته في بني سعد ، ومنشؤه في قريش .

ويقول ﷺ : «أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لي الكلام اختصارا»، وفي رواية : «أعطيت فواتح الكلم ، وجوامعَه ، وخواتمه» [صحيح الجامع : ١٠٥٨] .

ومعنى ذلك أنه ﷺ أعطي البلاغة والفصاحة والتوصل إلى غوامض المعاني ، وبدائع الحكم ، ومحاسن الألفاظ والعبارات ، وواسع المعاني الجليلة الشاملة ، بلفظ موجز لطيف جامع ، لا تعقيد فيه ولا التواء ، ولا لبس ولا غموض .

وقد آتاه الله الحكمة البالغة ، والحجة البينة ، والعلوم الجمة ، وهو أميّ من أمة أمية لم يقرأ كتاباً ، ولا درس علماً ، ولا صحب عالماً ولا معلماً ، ولكنه جاء بما بهر العقول ، وأذهل الفطن ، من بيان متقن ، وكلام محكم ، ﴿ **وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾ [النساء : ١١٣] .

كان ﷺ بَيِّنَ التعليم إذا علَّم ، واضح الجواب إذا سئل ، ظاهر الحجة إذا جودل ، لا يتكلم في غير حاجة . دائم الفكرة ، طويل السكت ، أجمل الناس صمتا ، وأحسنهم سمتاً ، وأوجزهم كلاماً ، لا يظهر في كلامه هجنة التكلف ، ولا يتخلله فيهقة التعسف إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير .

لقد كان ﷺ يتفنن في الأسلوب ، ويتأنق في العبارة ، وينوع في الأداء ، ويجدد في العرض ، ويلون الحديث ألواناً كثيرة : فتارة يقدم ما عنده في ثوب من التشبيه قشيب ، وتارة في نوع من التمثيل بديع وتارة عن طريق السؤال والاستفهام ، وتارة عن طريق القصة المؤثرة ، والحادثة الموحية ، وتارة عن طريق الوسيلة التعليمية ، وتارة عن طريق اغتنام الفرصة ، واقتناص الحادثة ، وتارة عن طريق المحاورة والمناقشة الهادفة الهادئة ، فما ترك ﷺ من أسلوب إلا سلكه ، ولا لون من ألوان الكلام إلا استعمله ، ولا طريقة من طرائق الحديث إلا أخذ بها .

وسنعرض عرضاً سريعاً لبعض أساليبه البليغة ، وطرائقه البديعة ، من غير زيادة في الشرح ، أو توسع في التحليل ، أو توضيح لأسرار الجمال ، ومواطن الإبداع ، لضيق الوقت، ومراعاة المقام ، وإنما هي رحلة ماتعة ، وجولة رائعة في بستان السنة ، نقطف من ثمرها ، ونشتم من عبقها ، ونمتع القلوب والأفئدة بروعة المنظر ، وجلال المخبر.

من أساليبه ﷺ : التشبيه .

وهو عقد المماثلة بين أمرين ، وهو يكسو المعاني أبهة ، ويكسبها منقبة ، وإذا جاء في كلام كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، سريعاً إلى الحفظ ، قريباً من الفهم ، حبيباً إلى النفس ، وقد كثر التشبيه

في كلامه ﷺ ، وأتى منه بغرائب ، وجاء منه بعجائب ، ومن ذلك قوله ﷺ : «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» [مسلم ٢٥٤٧] ، وقول ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» [صحيح الجامع : ٦٦٥٤] .

ومن أساليبه ﷺ : التمثيل .

وهو نوع من أنواع التشبيه ، وتشبيه التمثيل في الحديث النبوي في قمة الجمال ، وغاية الجلال ، ينشر على المعنى تمام حلته ، ويظهر المكنون من حسنه وزينته . يأتيك المعنى في تمثيل رفيع ، وتصوير بديع . وكثيراً ما كان ﷺ يقرب الأمور المعنوية والمعاني العقلية في صور محسوسة ، وأشياء ملموسة ، لترسخ في الذهن ، وتنقدح في الفؤاد ، وتسكن في الضمير . وهو يعطيك فائدة علمية ، ومتعة فنية بما فيه من صورة ، وما يحويه من مثل . فإذا أراد ﷺ أن يبين رحمته بالناس ، ورفقه بهم ، وحرصه عليهم ، ويبين حاله معهم ، وموقفه منهم ، قدم ذلك عن طريق هذا التمثيل الجميل ، وصحبك في رحلة برية ماتعة تسرح فيها بخيالك وتنتقل بوجدانك ، ثم تعود منها بمعنى جليل ، وكسب جميل ، فأصغ سمعك ، ومتع فؤادك ، وضع يدك على قلبك وأنت تستمع إلى هذا البيان الخلاب ، والأسلوب الجذاب :

يقول ﷺ : «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش والهوام وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن بيده ، وهن يغلبنه فيقتحمن في النار ، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم هلم عن النار ، هلم عن النار ، وأنتم تفلتون من يدي فتقتحمون فيها» [انظر صحيح الجامع : ٥٨٥٨] .

ثم إذا ما أراد أن يبين أهمية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ووجوب الأخذ على يد السفية ، والوقوف في وجه أصحاب الضلال وأرباب الفساد ، وتحكيم الشرع ، وإقامة الحدود ، صحبك في رحلة بحرية تسرح فيها بفكرك وقلبك ، وتركب البحر ، وتصارع الأمواج وتمتطي السفن ، فيقول ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فقال الذين في أسفلها : لو أنا خرقنا في نصيبنا هذا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن هم تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن هم أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » [صحيح الجامع : ٥٨٣٢] .

وينتقل ﷺ من البحر إلى النهر ، فالصلاة وهي عمود الدين ، وروح الإسلام ، ولباب الأعمال ، وهي الماء الزلال ، والمشرب العذب والمورد النقي ، يبين ﷺ أهميتها، ويشرح مكانتها في هذا التمثل البهيج ، فيقول ﷺ : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء؟! » ، قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » [صححه الألباني في الإرواء : ١٥] .

ومن أساليبه ﷺ : الاستفهام والمسائلة .

ولهذا الأسلوب أثر عظيم في تحريك الذهن ، وشد الانتباه ، وإثارة المشاعر ، حيث يتعلق قلب السائل ، وتشرئب نفسه ، ويتطلع فؤاده إلى معرفة الجواب ، فإذا ما سمعه ارتسم في فؤاده ، وانغرس في ضميره ، ومن ذلك قوله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخيرٍ لكم من إعطاء الذهب والورِق ، ومن أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » قالوا : وما ذاك يا

رسول الله؟ ، قال : « ذكر الله » [صحيح ابن ماجة : ٣٠٧٢] .

ومن ذلك ، قوله ﷺ : « أتدرون من المفلس؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، – وهذا هو المقياس المادي ، والدليل الأرضي عند الناس أن المفلس والمحروم هو الذي ليس لديه المال ، ولا يمتلك الضياع ، ولا يحوز القصور والدور ، فأراد ﷺ أن يقلب هذا التصور ، وأن يعلم أصحابه أن المقاييس في الحكم على الناس ليست بما يملكون من حطام ، بل بما لديهم من طاعة الملك العلام – فقال : « إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » [انظر صحيح الجامع : ٨٧] .

ومن أساليبه ﷺ إجابة السائل على عكس سؤاله .

سأله رجل ، يا رسول الله : ما يلبس المحرم ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يلبس القميص والعمامة ، ولا السراويل والبرنس ، ولا ثوباً مسّه الورس أو الزعفران ، فإن لم يجد النعلين ليلبس الخفين ، وليقطعها حتى يكونا تحت الكعبين » [انظر صحيح الجامع : ٧٧٧٧] فهو لم يجب السائل عن الذي يجوز لبسه للمحرم لأن ذلك كثيرٌ جداً ، ويطول بيانه ، فأجابه عن الذي لا يلبس ، وما عداه يجوز لبسه .

ومن أساليبه ﷺ : اغتنام الفرصة .

في معركة من المعارك جاءت امرأة تبحث عن طفل لها فقدته ، فأقبلت والعاطفة تعمر فؤادها ، والهلع يكاد يخلع قلبها ، وثدياها

يسيلان بالحليب ، وهي تسعى بين الناس تبحث عن طفلها ، إذ وجدته فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته في غاية من الشوق ، ونهاية من الحنان وفيض من الرحمة ، والصحابة ينظرون إليها ، ويتعجبون من هذه الرحمة الغامرة ، والحنان المتدفق ، والرسول ﷺ يرمق الموقف عن كثب ، ويراقبه بدقة ، فلما رأى الانفعال بالموقف ، والتأثر بالحدث ، استغل هذه الفرصة ليزرع في قلوب أصحابه معنى هائلاً ، وحقيقة ضخمة لا تكاد الكلمات تؤديها ، ولا العبارات تصورها ، لجمالها وجلالها ، وروعتها وبهائها ، فقال لهم النبي ﷺ : «أترون طارحةً ولدها في النار؟» ، قالوا : لا يارسول الله ، وهي تستطيع ذلك ، فقال : «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» [انظر البخاري : ٥٩٩٩] .

وأهديت له ﷺ جبة من حرير فجعل الصحابة يلمسونها ويعجبون من رقتها ولينها، فأراد ﷺ أن يستغل هذا الحدث ، ويغتنم هذه الفرصة ليرتفع بفكر أصحابه ، ويرتقي باهتمامهم ، ويصرف نظرتهم عن الدنيا بشتى مباهجها إلى الآخرة ، حيث النعيم المقيم ، والأنس المستديم ، فقال لهم : «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ منها وألين» [مسلم : ٢٤٦٨] .

ومن أساليبه ﷺ : الوسيلة التعليمية .

لقد سبق ﷺ أصحاب التربية ، وأرباب التعليم الذين يقولون بأهمية الوسيلة التعليمية ، لتثبيت الدرس ، وتأكيد المعلومة ، صحيح أنه ﷺ لم يكن يمتلك الفلين ، ولا الألوان السحرية أو المائية أو الخشبية ، ولكنه كان يمتلك أصبعاً سحريه يخط بها على الثرى فيرسم به لوحة ترتسم في القلوب ، فلا يخرج منها أبداً .

يقول جابر - رضي الله عنه - : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فخط بيده في الأرض خطاً هكذا أمامه ، فقال : « هذا سبيل الله عز وجل » وخط خطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال : « هذه سبل الشيطان » ثم وضع يده في الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] » [صحيح ابن ماجة : ١١] .

ومن أساليبه ﷺ التعليم بالقصة .

فسرد القصص ، وذكر الأخبار ، وعرض الحوادث ، له في النفوس أثر بين ، ولقد استخدم ﷺ أسلوب القصص لزرع كثير من المعاني في نفوس أصحابه ، سواءً من ذلك ما كان تعليماً ، أو ترغيباً ، أو ترهيباً .. أو غير ذلك ، وذلك كثير جداً في أحاديثه ﷺ ، ومن هذا النوع قوله ﷺ : « بينما كلب يطيف بركيّة قد كاد يقتله العطش ؛ إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوقها ، فاستقت له به فسقته إياه ، فغفر لها به » [الصحيحة : ٣٠] .

ومن أساليبه ﷺ السجع غير المتكلّف ، مثل قوله : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » [صحيح الجامع : ٧٨٦٥] .

وأساليبه ﷺ كثيرة جداً ، ومنها التدرج والإيجاز ، والمداعبة والتأكيد بالقسم ، والتأكيد بالتكرار ، والتأكيد بتغيير الهيئة ، واختلاف الأجوبة باختلاف حال السائلين ، إلى غير ذلك مما يربو على الحصر ، ويزيد عن الوصف .

لقد كان ﷺ آية في البلاغة ، رائداً في الفصاحة ، سيداً في البيان .

يمتلك زمام اللغة ، ويتصرف في الكلام كيف يشاء ، من غير خللٍ أو زلل ، أو تقصير أو خطل ، فسبحان القائل : ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ [الجمعة:٢] فهو المعلم الأجل ، والمربي الأكمل ، والقائد الأمثل . هو الذي ارتوت من معينه أمم كثيرة ، وتخرج على يديه ملايين مملينة ، وشعوب مختلفة .

لفظ ناصع ، ولسان صادق ، ومنطق عذب لا يعتريه لبس ، ولا يتخلله نقص أحاديثه آلاف مؤلفة ، ومع ذلك أوجز الدين كله في ثلاثة أحاديث .

قال الإمام أحمد : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : «الأعمال بالنيات» ، «ومن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» ، وحديث : «الحلال بين والحرام بين» .

ويقول أبو داود – رحمه الله – : كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب ، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله ﷺ : «الأعمال بالنيات ، والثاني قوله ﷺ : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ، والثالث قوله ﷺ : «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه» ، والرابع قوله ﷺ : «الحلال بين والحرام بين» [انظر شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد] .

ويوجز ﷺ حقيقة البر والإثم في كلمات جامعة ماتعة ، فيقول ﷺ : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» [صحيح الجامع : ٢٨٨٠] .

ويغلق الباب في وجه كل مبتدع أو صاحب هوى ، فيقول ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [متفق عليه] ، ويقول : « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » [انظر خطبة الحاجة للألباني] .

ويحدد القاعدة الكبرى في الحلال والحرام ، فيقول ﷺ : «إنَّ الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات » [متفق عليه] .

ويبين الموقف من الأمر والنهي ، فيقول ﷺ : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم » [صحيح الجامع : ٥٨١٠] .

ويعرف الفرقة الناجية ، والفئة الفائزة فيقول ﷺ : « من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي » [انظر شرح الطحاوية] .

ويشرح الموقف من الدعاوى والشكاوى ، فيقول ﷺ : « البينة على المدعي واليمين على من أنكر » [صحيح الجامع : ٢٨٩٧] .

ويضع الميزان الأقوم للحكم على الناس ، فيقول ﷺ : «ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى » [انظر المسند : ٥ / ٤١١] .

ويضيف إلى اللغة العربية كماً هائلاً من الألفاظ والكلمات والأمثال ، ومنها ما لم يعرف قبله ، مثل قوله ﷺ : « مات حتف أنفه » [انظر اللسان - مادة حتف] ، وقوله ﷺ : « هذا حين حمي الوطيس » [انظر مسلم : ١٧٧٥] .

ويسلك أسلوب الترغيب ، فيصف الجنة وصفاً رائعاً ، ويعلق بها القلوب ، ويربط بها الأفئدة ، ويتيم بها العشاق ، فيقول ﷺ : «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين

القـوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن » [انظر صحيح الجامع : ٢١٨٢] .

ويعمد إلى الترهيب فيخلع القلوب ، ويهز النفوس ، ويلهب الأفئدة فيقول ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » [صحيح الجامع : ٨٠٠١] .

ويدعو إلى الوحدة ، ويأمر بالترابط ، و يحث على التآخي ، ويشرح موقف المسلم من المسلم ، فيقول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » [صحيح الجامع : ٥٨٤٩] .

ويرسخ عقيدة التوحيد ، ويناقش من في قلبه شك أو تعترضه شبهة فيقول ﷺ : « كم تعبد يا حصين بن عبيد » ، قال : سبعة ، ستة في الأرض ، وواحد في السماء ، قال : « من لرغبك ورهبك » ، قال : الذي في السماء ، قال : « اترك التي في الأرض واعبد الذي في السماء » [انظر المعجم الكبير للطبراني : ٣٩٦] .

ويستل أمراض النفوس ، ودخائل الباطل ، ونزغات الشيطان من النفوس بالمجادلة الحسنة ، والنقاش العقلي ، والحكمة الأسرة ، فينقلب العاصي عابدا ، والمسيء محسناً، والمفرط مواظباً .

جاءه فتىً شاب ، فقال : يا رسول الله : ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه ، فزجروه ، وقالوا : مه مه! فقال ﷺ : « ادنُ » ، فدنا منه قريباً ، فجلس ، فقال ﷺ له : « أتحبه لأمك » ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال ﷺ : « أفتحبه لابنتك » ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال :

« ولا الناس يحبونه لبناتهم » ، قال : « أفتحبه لأختك؟ » ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لأخواتهم » ، قال : « أفتحبه لعمتك؟ » ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال : « ولا الناس يحبونه لعماتهم » ، قال : « أفتحبه لخالتك » ، قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم » ، ثم وضع ﷺ يده عليه ، وقال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه » ، فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء . [رواه أحمد] .

هذه جولة سريعة في رياض السنة النضرة ، وإبحارة قصيرة في بحر البلاغة الزاخر ، رأينا فيها البيان في أجمل ثيابه ، والإبداع في أحسن مظاهره ، وقصدنا من ذلك الإمتاع والإقناع .

الإمتاع بتأمل هذه الفنون الآسرة ، والأقوال الساحرة ، والإقناع لكل من سلك سبيل التعليم ، وارتضى ميدان الإرشاد ، وامتطى سفينة الدعوة ، بأنه يجب الاقتداء بهديه ﷺ ، والسير على محجته والامتثال لطريقته ، فنرتقي بأساليبنا ، ونجدد في تعليمنا ، ونلون في عطائنا ، وننوع في توجيهنا ، فالدعوة والتعليم سنة كريمة ، وأمانة عظيمة ، ومن ارتضى حملها وجب عليه أن يقوم بحقها ، ويتألق في بذلها ، ويتأنق في عرضها .

ولنعلم أن ذلك كلَّه لا يغني عن المرء شيئاً إن لم يكن قبل ذلك كله داعية بسلوكه وتعامله وأخلاقه وشمائله ، ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ [فصلت : ٣٣] .

ولم يكن بيانه ﷺ مجرد عبارات براقة ، وكلمات رنانة ، ومواعظ

مدبجة ، وخطب مجلجلة ، ليس لها رصيد من الواقع ، ولا تصديق من الفعل ، بل كان أول الممتثلين لما يقول ، وأسرع العاملين بما يأمر ، وأصدق المنتهين عما ينهى ، أتقى الناس لله ، وأخشاهم له وأقربهم منه .

إن أهل الباطل ، وأرباب الضلال قد سبقوا في تقديم باطلهم ، وتزيين ضلالهم ، فما تركوا سبيلاً إلا سلكوه ، ولا مجالاً إلا امتطوه ولا باباً إلا طرقوه ، ولا ميداناً إلا استغلوه ، وتفننوا في عرض بضاعتهم بكل سبيل ، سواء مقروءةً أو مسموعةً أو مرئيةً .

والحق واحد لا يتعدد ولكنه لا بد له من رجال يحملونه ، وأفذاذ يدعمونه ،وعظماء يعرضونه ، وأنصار ينصرونه . يقدمونه في ثوب جميل ، ولون بديع ، وبصيرة نافذة ، وحكمةٍ بالغة ، ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة**﴾ [يوسف :١٠٨] .

البدعـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

حديثنا اليوم عن هذا النص النبوي الرائع ، والكلام المحمدي الماتع عن هذه الكلمات الجامعة المانعة ، والعبارات الصادقة الناصعة ، كان ﷺ يكررها في خطبه ، ويرددها في مواعظه . ولم يجعلها مقدمة لخطبه ، وتمهيداً لموعظة إلا لأمر هام ، وهدف عظيم ، وقصد بليغ ،

ذلك هو قولـه ﷺ :

«إن أصدقَ الحديث كتابُ الله ، وأحسنَ الهدي هديُ محمد ﷺ وشرُّ الأمور محدثاتها ، وكلُّ محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار» .

هذا الحديث ثورة على البدعة ، وبركان في وجه المبتدعة ، إنه سيف باتر يجتث رؤوس البدع ، ويختطف أعناق الضلال ، ويطيح بهامات المبتدعة ، إنه نورٌ كاشف يبدد ظلمات البدعة ، وسيلٌ عارم يقتل قلاع الضلالة ، ويدَمِّر كل باطل بإذن ربه ، وينسف جبال البدع نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا .

أصدق الحديث كتاب الله ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾ [النساء:٨٧] ، وهذا الكتاب الصادق هو الذي يقول : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [المائدة:٣] وهو الذي يقول : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ [النحل:٨٩] ، وهو الذي يقول : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [الحشر : ٧] .

وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ فلا هدي أحسن من هديه ، ولا شرع أكمل من شرعه ، ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [النجم : ٤] ، فمن اعتقد أن هدياً أحسن من هديه ، أو شرعاً أكمل من شرعه فقد كفر ، ولا يؤمن إنسان حتى يرضى بنهجه ، ويُسَلِّمَ لحكمه ، ويمتثل أمره ، ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] .

وشر الأمور محدثاتها ... الشرور كثيرة ، والآفات متعددة ،

والمخالفات متنوعة ، ولكن أشرّ الشر في أمر هذا الدين هو إحداث شيءٍ فيه ليس منه ، فذلك شرُّ الأمور ، وأدهى الشرور ، وأعظم المخاطر ، وأخوف المخاوف . وإن كل بدعة صغرت أم كبرت ، حسنت أم ساءت هي ضلالة ، والضلال وأهله في النار ، وبئس القرار ، وكلمة (كل) تدل على العموم الشامل لكل شيء ، فكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالةٍ في النار ، فهذا رد مفحم ، وجواب مسكت لكل من قال أن هنالك بدعةً حسنة، فقد نسفت كلمةُ (كل) جميعَ البدع ، وأتت على عموم المحدثات ، وقطعت كل الأصوات .

قال ابن عباس – رضي الله عنه – : كل بدعة ضلالة ، وإن رآها الناس حسنة » .

وقال مالك – رحمه الله – : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ [المائدة : ٣] فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم دينا .

وقد يقول أناس أن هنالك بدعةً حسنة مستدلين بقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حينما قال عن صلاة التراويح : «نعمت البدعة تلك» ، وهذا باطل لأن عمر قصد بالبدعة معناها اللغوي فقط، ولم يقصد بها إحداث شيء في الدين ليس منه ، فصلاة التراويح سنة من سنن النبي ﷺ ، ولكنه ترك الصلاة بها جماعة في المسجد خشية أن تفرض على أصحابه فأصبح الناس يصلون فرادى أو جماعات متفرقة ، فجمعهم عمر على إمام واحد ، ثم إن الرسول ﷺ لا يُعَارض قوله بقول أحد كائناً من كان ، فإذا قال كل بدعة ضلالة فليس هنالك بدعةٌ حسنة .

وقد يستدل أناس بقوله ﷺ : « من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله

أجرها وأجر من عمل بها من بعده . . » [صحيح الجامع : ٦٣٠٥] ، وهذا المقصود به إحياء سنة كانت موجودة ، أو أن من سَنَّ سُنَّة بمعنى سنها ابتداءً بالعمل بها لا ابتداعاً وتشريعاً .

فهي سُنَّةٌ ابتداء عمل مشروع ، لا ابتداع تشريع ، أو أن يفعل وسيلةً لأمر مشروع ؛ كبناء المدارس أو المساجد أو غير ذلك . .

البدعة فعل أخرق ، وعمل أحمق ، وخطر محدق ، وسبيل منكر وطريق مرذول، وجهد مردود « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، وكما أن حديث « الأعمال بالنيات » ميزان للأعمال في باطنها ، فهذا الحديث ميزان للأعمال في ظاهرها ، فكل عمل ليس عليه أمر الله وأمر رسوله ﷺ فهو مردود .

البدعة محبطة للعمل ، جالبة للغضب ، مسخطة للرب ، نافية للحب ، ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

البدعة مضادة للشرع ، ومناهضة للسنة ، ومعارضة للمنهج ﴿ **أم لهم شركاءُ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾ [الشورى : ٢١] ، وهي قدح في الرسالة ، ومخالفة للأمر ، ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ [النور : ٦٣] .

إثمها متجدد ، ووزرها مستمر ، « ومن سن في الإسلام سنةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يُنقص من أوزارهم شيء » [صحيح الجامع : ٦٣٠٥] .

يحبها الشيطان ويمقتها الرحمن ، قال ابن عباس – رضي الله عنه – :

إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع .

إنهـا ظـلامٌ حـــالـك ، ومـصيـرٌ هــالـك ، «وكل بدعـة ضـلالة ، وكل ضلالة في النار»، وبئس القرار .

البـدعـة فـيـهـا تـألٍّ على العظيم ، وتقـوُّلٌ على الكريم ، إتهـام لجلاله ، وتكذيب لمقاله ، وهو القائل : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [المائدة : ٣] ، وفيها انتقاص لنبيه ، ورميٌ له بخيانة المنهج ، ونقصِ الرسالة ، وعـدمِ البـلاغ ، وهـو الـذي تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهــارها لا يزيغ عنهـا إلا هالك .

يقـول أبو ذر – رضي الله عنه – : مـا ترك النبي ﷺ طائراً يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما .

ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – : قال ﷺ : «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمُه لهم ، وينذرهـم شرَّ ما يعلمـه لهـم» [رواه مسلم : ٣٤٣١] ، فالمبتـدع يعلـن بلسـان الحـال أن بدعتـه خيرٌ لكـن قصّر ﷺ في دلالتـنا عليه .

البدعـة عـدوٌّ لدودٌ للسنة ، وخصمٌ عنيد للحنيفيـة ، يقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداءُ السنن أَعْيَتْهُم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلُّوا وأضلوا» .

فهي أفتك بالدين من السم الزعاف بالجسم ، وأخطر على السنة من الجيوش المحاربة، والجنود المقاتلة ، والسيوف المشْرَعَة .

وهي حريق يشب في الشريعة ، ويلتهم السنة ،ويشتعل في الدين ، ولكن الله يقيض لها رجالاً بواسل ، يبادرون بإخمادها ، ويسارعون لإطفائها .

يقول أبو إدريس الخولاني – رحمه الله – : «لأن أرى في المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها أحبُّ إليّ من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها» .

البدعة مفتاحٌ لباب الفوضى ، ونافذة على الضياع ، وبوابة لتهاوي المثل ، وهي أحب إلى إبليس من المعصية ، وأحسن لديه من الخطيئة ، فهي حربٌ على السنة ، وتجاوزٌ للحد ، وتعدٍّ على المشرّع .

قال ابن تيمية –رحمه الله – : «العبادات مبناها على الشرع والاتباع لا على الهوى والابتداع ، فـإن الإسـلام مبنيٌّ على أصلـين أحدهما : أن نعبد اللـه وحده لا شريك له ، والثاني : أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا نعبده بالأهواء والبدع» .

إنها هجوم مسلّح على حصون السنة ، ومعاقل الشريعة ، وقلاع المنهج . ومن أوجب الواجبات على حُفَّاظ السنة وحرّاس الشريعة ، أن يقفوا صفاً كالبنيان المرصوص في وجه أهلها ، ودحض كتائبهم ، وردّ تجاوزهم ، وأن يُعدوا لهم ما استطاعوا من قوّة الحجة ، ومن رباط العلم ، ليرهبوا به عدو الله وعدوَّ سنة نبيه ﷺ .

قال الحسن البصري – رحمه الله – : «لن يزال لله نصحاءُ في الأرض من عباده يَعْرِضون أعمالَ العباد على كتاب الله فإذا وافقوه حمدوا الله ، وإذا خالفوه عَرَفُوا بكتاب الله ضلالةَ من ضل وهدى من اهتدى فأولئك خلفاء الله» .

البدعة رجس وخور ، ودنس وخطر ، إنها نقوش سوداء على صفحات السنة البيضاء ، إنها مرض يفتك بجسم الدين السليم ، وجرب يشوه تقاسيم السنة النقية .

أيها المؤمنون .. ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

يقول ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » [صحيح الجامع : ٢٥٤٩] .

وقد خط ﷺ لأصحابه خطاً مستقيماً ثم قال : « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم قرأ : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] » [حسّنه الألباني في المشكاة : ١٦٦] .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبعوا السبل** ﴾ ، قال : البدع والشبهات .

فالفوز في اتباع سنته ، والنجاة في السير على منهجه ، والفلاح في البعد عن مخالفته .

قال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى – : « سن رسول الله ﷺ وولاة الأمور بعده سنناً ، الأخذُ بها تصديقٌ لكتاب الله واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلُها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفها ، من اقتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » .

يا أخي المؤمن إحذر مزالقَ الشيطان ، وحبائلَ الردى ، ودسائس

الهوى ، إن هذا الكلام ليس تعصباً لشخص ، ولا تحيزاً لفئة ، ولا ميلاً لجماعة ، ولا تمذهباً لمذهب ، إنما دعوناك إلى كتاب الله - عز وجل - ، وحاكمناك إلى سنة رسول الله ﷺ ، وناجيناك بما كان عليه وحدث به أتباع رسول الله ﷺ .

احذر أن تنساق وراء العاطفة ، وتنجر بحبل التعصب المقيت ، وتهوي باتباع الهوى ، إذا جاءك مبتدع يدعوك إلى بدعته ، وضال يغريك بضلالته ، فقف منه موقف المسلم العاقل ، والمؤمن النابه ، والعاقل الرشيد، وَجِّه هذه السهام إلى قلبه المظلم ، قل له: هل ما تدعوني إليه قد أمر الله به ، فسيقول : لا ، فقل له : هل أنت أعلم أم الله ، وهو القائل : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾ [المائدة : ٣] فهل ترد كلامه تعالى ، وتكذب مقاله ، ثم قل له هل ما تدعوني إليه أمر به رسول الله أو فعله أو حث عليه أو أقرّه؟ فسيقول : لا ، فقل هل أنت أعلم أم رسول الله ﷺ ؟ وأين أنا من قوله تعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ..**﴾ ، وقوله ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [رواه مسلم : ٣٢٤٣] ، ولماذا لم يأمر به الرسول ﷺ ؟ هل جهله وعلمته أنت ؟ أم علمه فلم يبلغه فخان الرسالة ، وغش الأمة؟ ، ثم قل له : هل فعله الخلفاء الراشدون أو أمروا به، فسيقول : لا ، فقل هل أنت أعلم أم هم؟ وأتقى لله أم هم ؟ وأين أذهب من قوله ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» ، ثم قل له : هل فعله أعلام الصحابة؟ ، هل فعله التابعون لهم بإحسان؟ ، هل فعله أئمة الإسلام كالحسن البصري ، وسعيد بن المسيب ، وأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، والأوزاعي ، وأحمد، والبخاري ، ومسلم وغيرهم من أئمة الهدى ، وعظماء الملة ، وحراس الشريعة، وحفاظ السنة ؟ فسيقول : لا ،

فاصرخ في وجهه قائلاً : أأنت أعلم أم هؤلاء؟ ألا يسعني ما وسعهم ، ويكفيني ما كفاهم ، وهم أعلم الناس بالسنة ، وأكملهم حباً لرسول الله ﷺ ، وأعظمهم متابعةً لشرعه ، لو كان خيراً لسبقونا إليه .

وكيف يتقرب المرء إلى الله بعمل لم يرد في كتابه ، ولم يأمر به نبيه ولم يفعله خلفاؤه الراشدون ، ولا أعلام الصحابة ، ولا التابعون ولا أحد من علماء الشريعة في القرون المفضلة .

يقول ابن مسعود – رضي الله عنه – : «إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر» .

ويقول عمر بن عبد العزيز –رحمه الله تعالى– : «خذوا من الرأي ما يُصَدِّق من كان قبلكم ، ولا تأخذوا ما هو خلاف لهم فإنهم خير منكم وأعلم» .

وقال الأوزاعي – رحمه الله – : «اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكُفّ عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم» .

عن طريق القنوات الفضائية بدأت تنتشر كتائب البدع ، وتزحف دعوات الضلالة، لتعم بظلامها بلداناً كثيرة ، وأوطاناً عديدة ، وإن ذوي العلم القليل ، والفهم الضئيل ، والجهل بالسنة قد ينخدعون بما يشاهدون ، ويعجبون بما يرون ، مما تعج به كثير من البلاد الإسلامية من بدع منكرة ، واحتفالات زائفة ، ومناسبات ضالة ، تنقل عبر الشاشات في ثياب برّاقة ، ومظاهر جذابة ، وتلقى اهتماماً بالغاً ، وتشجيعاً عجيبا ويحضرها رؤساء وزعماء لا يُعرفون بدين ، ولا يذكرون بسنة ، إلا أنهم أسبق الناس في ميدان البدع ، وتشجيع المبتدعة ، وتلك سياسات لها ما

وراءها ، لا تخفى على ذوي البصيرة فلا تغرنكم تلك المظاهر ، ولا تمدُنّ أعينكم إلى هاتيك البهارج ، فهي ضلال وضياع ، وبدع وخور ، وجهل وظلام ، وزيغ وحيف ، وخيبة وخذلان ، ودمار وخسران ، واعلموا أن الرضى والهدى ، والأنس والسرور ، والفوز والفلاح هو باتباع السنة ، والسير على المحجة ، والاعتصام بالشريعة ، والسير على نهج القرون المفضّلة .

ولم يبق سالماً من هذه الترهات ، وتلك الخرافات ، إلا هذه البلاد فهي معقل السنة ، وميدان الحفاظ على التوحيد ، نسأل الله تعالى أن يحفظها بحفظه ، ويرعاها برعايته ، ويبارك في ولاة أمرها من الأمراء والعلماء ويجعلهم درعاً للسنة ، وحصناً للشريعة ، وحرباً على البدعة .

ومما يذكر من البدع ما يفعله بعض الناس في شهر رجب من طقوس مختلفة ، وعبادات معينة ، وما يكون من احتفالات بليلة السابع والعشرين منه ، على أنها ليلة الإسراء والمعراج وهذا أمر منكر ، وبدعة مردودة ، فالإسراء والمعراج لم يثبت أنه في السابع والعشرين ، ثم لو ثبت فما يفعله هؤلاء الناس ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة ، ولا هو من عمل الخلفاء الراشدين ، ولا الأئمة المهديين ، ومن العجيب أن هؤلاء المحتفلين بالإسراء والمعراج لا يحفل كثير منهم بما كان فيه ، ولا يلتزم بما أمر به الرسول ﷺ في ليلته من الحفاظ على الصلاة ، والبعد عن الغيبة والنميمة .. إلى غير ذلك ؛ فقد يحتفل بالإسراء والمعراج وهو لا يصلي مع الجماعة أو لا يصلي البتة ، فأي دين هذا، وأي عقول تلك .

أيها المؤمنون .. احذروا البدع فإنها داءٌ عضال ، ومرضٌ فتاك ، بدأ يغزو العالم ويجتاح الدنيا ؛ لضعف المسلمين ، وقلة العلماء ، وغيبة

الوعي ، وكثرة الفرق الضالة ، والدعوات الزائفة ، واعلموا أن النجاة هي فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، اللهم اعصمنا من الزلل ، واحفظنا من البدع ، وجنبنا خطر الهوى .

التجديد

هذه إطلالة عام جديد ، وزمن حديث ، فيه يهنيء الناس بعضهم ويباركون لأنفسهم ، ولا تدري لماذا تلك التهنئة ، وهاتيك التبريكات ، هل هي على جزءٍ من العمر انصرم ، وماضٍ من الحياة تقدم ، أم هي على زمن يستقبل ، ووقتٍ يُترقَّب لا يدرون ماذا ينتظرهم فيه ؟!! .

وكان الأولى أن يعزوا بعضهم بعضاً في موت جزءٍ من أعمارهم ، وهلاك وقت من أوقاتهم التي لو بذلوا أغلى ما لديهم لاستعادة دقيقة منها لما عادت إليهم « يا ابن آدم إنما أنت أيام كل ما ذهب يومك ذهب بعضك » فمن ذهب بعضه ، وانتُقص عمره هل يفرح أم يحزن؟ .

ولكن لعل تلك التهاني هي من باب التفاؤل المحمود ، والأمل المنشود .

العام الجديد .. تتجدد فيه الهمم ، ويستعاد فيه النشاط ، وتراجع فيه الأحوال ، وتتابع الأعمال ، وتحسب الأموال ، وتُتَرقّب الآمال .

عام جديد .. والجديد كلمة محبوبة ، وعبارة مرغوبة ، وأمنية مطلوبة .

كلمة الجديد .. تأنس لها النفس ، ويتطلع لها الفؤاد ، ويفرح بها القلب ، ويشرق بها الأمل ويُطرد بها الملل ، فالإنسان خلق ملولاً ، يمل

حتى النعيم إذا طال ، انظر إلى قوم سبأ كيف كانوا في نعيم مقيم ، وخير دائم ، ويسافرون من بلد إلى بلد وهم في ظلٍّ ظليل ، وأشجار ملتفة ، وبساتين مثمرة ، ويتمتعون بثمار يانعة ، لا يشعرون بتعب ولا يعتريهم نصب ، فوصل بهم الملل والخذلان أن تضجروا بهذه النعمة : ﴿ **وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرىً ظاهرةً وقدّرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين * فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ .

وهكذا يصل الملل بالإنسان ، فهو يمل النعيم ويمل الشقاء إذا طال ، ويمل الحرّ إذا دام ، والبرد إذا دام ، يمل الأكل الرديء إذا استمر عليه ، بل يمل الأكل الشهي اللذيذ إذا داوم عليه . وقديماً تضجر بنو إسرائيل حينما داوموا أكل المن والسلوى ، وهي من ألذ ما يذاق وأشهى ما يؤكل أنعم عليهم بها مولاهم ، ورزقهم إياها خالقهم ، فصرخوا في وجه موسى صرخة المتضجرِّ ﴿ **يا موسى لن نصبر على طعام واحد** ﴾ [البقرة : ٦١] .

ولذلك تجد الناس يفرون من الملل ، ويستعينون على طرده بالتنويع والتجديد ، والتغيير والتنقل ، حتى ولو كان من حسن إلى رديء ، فالمترف يمل الترف الذي يعيشه ، ويتمنى أحياناً لو ينام ليلة على حصير أو يأكل الخبز الجاف ، وتجد الناس يشتهون الطعام التافه بجانب الجيد ، ويشتاقون للسكن في البرِّ والخيام والخدور فراراً من القصور والدور ، فما أصعب الحياة الرتيبه ، وأشقها على النفس! ، إنها تميت القلب ، وتبعث على الخمول ، وتقتل الهمم ، وتميت الابتكار . والمتأمل لهذا الدين وشعائره ، بل للكون ومظاهره يجد أنها مراعيةٌ لهذا الجانب ؛ فهي مليئة بالتجديد ، متميزة بالتغيير ، بعيدة عن الرتابة ، طاردة للسآمة ، لذلك تجد الليل والنهار ، والشروق والغروب والحر والبرد ، والسهل والجبل ،

والسهول المتباينة ، والجبال المتغايرة . جبال معمّمةٌ بالثلوج ، وأخرى مكسوة بالأشجار ، وتلك صخرية جرداء ، ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٧] ، فقد أشار سبحانه إلى هذا التجديد والتغاير بين الثمار ، والأشجار ، والجبال ، والناس ، والدواب ، والأنعام .

قال سبحانه : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ [الغاشية : ١٧] .

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري
حتى أريك بديع صنع الباري
فالأرض حولك والسماء اهتزّتا
لروائع الآيات والآثار

وبين تعالى في آية أخرى نعمه على عباده بهذا التنويع المبهج ، وذلك الاختلاف الممتع في أنواع ما خلق لهم من الثمار ، وأنبت لهم من الجنان فاستمع إلى البيان الخلاب والأسلوب الجذاب ، قال عز من قائل : ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيءٍ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنتٍ من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ [الأنعام : ٩٩] .

والثمار والأزهار عالم عجيب وغريب ، تتعدد مناظرها ، وتتفاوت من حيث روائحها .

وتنوّعت بُسْط الرياض فزهرها
متباين الأشكال والألوان
من أبيض يَقِقٍ وأصفر فاقعٍ
أو أزرق صافٍ وأحمر قانِ

وهكذا ترى هذا التنوع المبهج ، والتجدّد الجميل ، جبال ووهاد، عيون وأنهار ، بساتين وأشجار ، جداول وخمائل . ولو كانت الحياة على وتيرة واحدة لضجّ بها الناس ، قال سبحانه : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا * وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا** ﴾ [الفرقان : ٤٧] .

ويقول تعالى ممتناً على عباده : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون** ﴾ [القصص : ٧٢] .

ومن يتأمل شعائر هذا الدين وعباداته ، يجد التنوع والجدّة ، فأعمال قلبية ، وأعمال قولية ، وأعمال عملية ، وأعمال مالية ، صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد ، وتسبيح وتهليل وتمجيد وتكبير . . بل انظر إلى الصلاة مثلا تجد التنويع فيها والتجديد ، فركعتان للفجر ، ثم أربع للظهر ثم أربع للعصر ، ثم ثلاث للمغرب ، ثم أربع للعشاء ، ثم منها ما هو جهري ، ومنها ما هو سري ، إلى غير ذلك من هذا التنويع البديع ، الذي يطرد الملل ، ويمنع الضجر . ولو كانت الحياة على نسق واحد ، والكون بمظهر واحد والنباتات والثمار من نوع واحد والعبادات في ثوب واحد ، لتعرض الناس لملل لا يطاق ، ولكانت الحياة عبئاً ثقيلاً لا يحتمل .

بل إن من سنن التجديد في الحياة هذا التجديد في الأجيال المتعاقبة حيث لا يمكن أن يُخلَّد جيل أو تدوم أُمّة بل يذهب جيلٍ وتخلفه أجيال جديدة ، ولكن الخلائق جميعاً ستُخلق خلقاً جديداً : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد** ﴾ .

أيها الأحبة .. أما ونحن بدأنا عاماً جديداً لماذا لا تهز هذه الكلمة أعماقنا ، وتوقظ وجداننا ، فنهرع إلى الجدّة والتجديد في أمور حياتنا ، وطرائق تفكيرنا؟ ، لماذا لا نجدد بتجديد العام ، ونغير بتغيير الزمان؟ ، حقاً إن كثيراً منا غيروا وجددوا مع تغير الزمان ولكنه تجديد إلى الأسوأ ، وتغيير إلى الأدنى ، وتقدم إلى الحضيض .

فليس التجديد بالتحلل من الخلق ، والتمرد على القيم ، والتنكُّر للدِّين ، والانسلاخ من الحياء ، فما ذلك إلا دمارٌ وضياع ، وتيهٌ وضلال ، قال تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم** ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

إننا نقصد التجديد إلى الأسمى ، والتغيير إلى الأفضل ، والانتقال إلى الأحسن في كل أمور حياتنا ، لماذا لا نجدد ، لماذا لا نُحَدِّث ، لماذ لا نطور ، لماذا لا نبدأ صفحةً جديدة مع ربنا ، ومع أنفسنا؟ ؛ صفحة جديدة في عباداتنا ، في فكرنا ، في تجاربنا ، في حياتنا ، في إنتاجياتنا ، في مسيرتنا كلها .

إن الإنسان مهما كان حجمه وموقعه ، يستطيع بقواه الكامنة ، وملكاته المدفونة فيه ، والفرص المحدودة ، أو المتاحة له ، يستطيع أن يبني حياته من جديد .

يخطىء من يظن أن الراحة والهناء هي في الكسل والخمول ، والراحة من العمل ، والتمدد على السرير المريح ، والفراش الوثير ، لو كان الأمر كذلك لما ملّ الناس هذه الراحة وتضجروا بها ، وفروا منها إلى العمل واستروحوا بالجد والتعب ، وأنسوا بالبذل والعمل . الراحة هي التغيير من حال إلى حال ، ومن عمل إلى عمل ، ولو كانت الراحة في عدم العمل لكان السجن أروح مكان . فما أحلى الراحة بعد التعب ، والنوم بعد الإرهاق ، واليقظة بعد النوم ، والجلوس راحة بعد الوقوف!!! وما أحلى العمل بعد الفراغ ، والفراغ راحة بعد طول العمل!! ، وما أحسن النظر إلى الصحراء بعد طول النظر إلى البحر ، والنظر إلى البحر بعد طول النظر إلى الصحراء!! وهكذا . .

إن أفضل الناس وأقدرهم هو من استطاع أن يتغلب على السأم والملل بالتغيير المناسب والتجديد الحميد ، في نفسه ، وفي غيره . وكثير من شرور هذا العالم سببها الملل والضجر . ففشل التلميذ وانصرافه عن الدراسة نوع من الملل ، وخمول الموظف وقعوده عن الجد في العمل وقلة إنتاجيته نوع من الملل ، والخمود السياسي والفكري والاجتماعي نوع من الملل ، والرغبة في الانتحار نوع من الملل ، وكثير من المشاكل الأسرية ، والقضايا العائلية ، والمشادة بين الزوجين أو بين الأب وأبنائه تكون بسبب الملل .

إن طريقة حياتنا أمرٌ يجب أن يُدرس بعناية ، وإذا كانت الحياة أمراً مهماً يجب الاهتمام به وحسن دراسته في كل عصر ومصر ، فإنها في هذا الزمن أصبحت أمراً مهماً حيث تقدمت الدنيا ، وتعقّدت الحياة وتشعبت أمورها ، وعظمت شرورها ، وكثرت البلايا، وتعددت الرزايا ،

ومع ذلك لا تزال طريقتنا في حياتنا وأعمالنا وتفكيرنا طريقة بالية قديمة إن الأمر إذا ارتقى وكثر تعقيده يصبح فناً يجب أن يدرس ، فهيا بنا إلى دراسة جادة لطرائق حياتنا ، وهيا بنا إلى التغيير والتحسين والتجديد ، تجديد ننطلق فيه مما لدينا من الثوابت والرواسخ ، إلى آفاق من البذل والعمل ، والحيوية والنشاط ، وحسن التعامل مع الواقع الجديد .

وقد سعد الناس بالحياة ، وسعدت الحياة بهم ، حينما كانت انطلاقتهم في أعمالهم وأفكارهم وحضارتهم من تلك القيم الراسخة ، والمثل العالية، والتعاليم الرابحة . وإن تجديد الحياة لا يعني إدخال بعض الأعمال الصالحة ، أو النيات الحسنة ، وسط ذلك الركام الهائل من العادات الذميمة والأخلاق السيئة ، فهذا الخلط لا ينشيء به المرء مستقبلاً حميداً ، ولا مسلكاً مجيداً ، بل لا بد من التجديد الذي يقوم على أساس التخلص من الرذائل إلى الفضائل ، ومن الأفكار الطالحة ، إلى الآفاق الصالحة . وإن البعد عن الله تعالى لا يثمر إلا علقماً ، ومواهب الذكاء والقوة والمعرفة والتجديد تتحول كلها إلى نقم ومصائب عندما تبعد عن توفيق الله وتحرم بركته .

يجب أن يجدد الإنسان نفسه ، وأن يعيد تنظيم حياته ، وأن يستأنف مع ربه علاقة أفضل ، وعملاً أكمل ، وأن يفكر بجدية وتجديد ماذا سيقدم لأمته ودينه من جديد ؟؟ .

ولعله من نافلة القول أن نبين أنه لا تجديد في شعائر الدين وعباداته وفرائضه ، فلا يأتي إنسان ليقول لماذ لا نجدد في الصلاة مثلاً ونغير في أركانها وشروطها ؟ فهذا وغيره من الثوابت التي لا تبديل فيها ولا تعديل ولا تجديد ولا تغيير « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [أخرجه

البخاري] ، ولكن التجديد فيها يكون بتجديد الإقبال عليها، وإحياء ما اندثر من معالمها ، يقول ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» [أخرجه أبو داود].

التجديد أمر مطلوب ، وشيء محبوب ، والنفوس تهتز ، والأعناق تشرئب ، إذا قيل فلان حصل على منزل جديد ، أو سيارة جديدة ، أو زوجة جديدة .. إن تجديد الحياة الزوجية أمرٌ مطلوب ، وليس ذلك بالضرورة عن طريق الزواج بزوجة ثانية أو ثالثة، ولكن يجب أن يتجدد الرجل لزوجته ، وأن تتجدد الزوجة لزوجها ، إذا أرادت أن تكسب ودّه وتضمن حبه ، وتطرد عنه السأم ، وتنفي عنه الملل . يجب أن يتجدد الرجل لزوجته في طريقة حياته ، في ملبسه ، في كلامه ، في هديته ، بل حتى في مواعيد دخوله البيت ، وخروجه منه ، وفي إقامته وسفره : فلا يخمد في البيت ليله ونهاره حتى يملّه البناء ، فضلاً عن النساء ، بل عليه أن يغيب أحياناً ليتحرك الشوق إليه ، وتتوق النفس إلى رؤيته.

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيه فاغترب تتجدد
ألم تر أن الشمس زيدت محبة
إلى الناس أن لسيت عليهم بسرمد

ولا يكثر الغياب والبعد عن المنزل حتى تمل الزوجة كثرة الترقب ، وطول الانتظار ، فتبدأ وساوس الشيطان ونزغاته ، ومكائد النفس وأهواؤها ، وكذلك الزوجة يجب عليها أن تتجدد لزوجها في ملبسها، ومأكلها ، ومشربها ؛ في بيتها وتنظيمه ، في مطبخها وترتيبه ، في غرفة

نومها وتزيينها ، في التحبب لزوجها وإسعاده . وبذلك تصبح الحياة الأسرية حياةً جميلة متجددة ، بعيدة عن الرتابة، خالية من السآمة .

يجب على المسلم أن يجدد في إيمانه ، في صلته بربه ، أن يغير في طريقة حياته وأعماله ونشاطاته الخيرية ، حتى تجري دماء التجديد في جسمه . يتخذ لنفسه برنامجاً جديداً حافلاً ؛ يقرأ القرآن ليجدد إيمانه ، يتأمل حياة النبي ﷺ ليجدد في أخلاقه وتعامله ، يزور القبور ليجدد لواعج الخوف في قلبه ، يزور المرضى ليكسب الأجر ويجدد وازع شكر النعمة على الصحة والعافية ، يعطف على الفقراء ، يسأل عن الأيتام ، ينفس عن المكروب ، يفرج عن المهموم إلى غير ذلك من الأعمال العظيمة التي يتجدد بها الإيمان ، وتتحرك فيها المشاعر ، وتأنس بها النفس .

ولقد دلّنا ﷺ على كثير من الأمور التي نجدد بها صلتنا بربنا وننوع فيها على أنفسنا فقال : « كل سلامى من الناس عليه صدقه ، وكلّ يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوةٍ تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » [رواه البخاري ومسلم] .

ويقول ﷺ : « على كل مسلم صدقة » ، قالوا : أرأيت إن لم يجد؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » ، قالوا : أرأيت إن لم يستطيع؟ ، قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قالوا : أرأيت إن لم يستطع ، قال : « يأمر بالمعروف أو الخير » ، قالوا : أرأيت إن لم يفعل ، قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة » [متفق عليه] .

يجب على التاجر أن يبدأ صفحة جديدة في تجارته ، فيحاسب

نفسه، وينظر إلى طريقة كسبه ، وأنواع تعامله ، وطرق مصارفه ، ومقدار إنفاقه ، وما ادخر لنفسه ، وقدم لآخرته ، ويعلم أنه «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن عمله ماذا عمل به» [رواه الترمذي].

يجب على الموظف أن يجدد في طريقة عمله وإدارة مكتبه ، وطريقة سيره مع الناس . قد يخيم الملل على الموظف ، ولكنه يستطيع أن يجدد في عمله ويغير في طريقته فيجعل من عمله شيئاً جديداً مثيراً مشجعاً .

يجب على المدرس أن يجدد لتلاميذه حتى لا يصبح ممجوجاً مكروراً هو هو من عشرات السنين ، بل يجدد في الطرح ، ينوع في الأسلوب ، يتفنن في الآراء .

يجب على الخطيب والداعية أن يجدد في خطبه ، وينوع في مواعظه ويتألق في عباراته ، ويطور في كلماته ، ويتحين الأوقات المناسبة ، ويختار العظات الموافقة ، ويتخول الناس بالموعظة خشية السئآمة عليهم .

غير لائق بالخطيب يعيش عشرات السنين دون تجديد في العرض ، وتنويع في الطرح ، وتقدم في الأسلوب ، ورقي في الإلقاء .

يجب على كل إنسان يريد أن يستمتع بالحياة ، ويأنس بالوجود ويسلم من العجز ، وينجو من الملل ، يجب عليه أن يجدد ، وينوع ، ويتفنن في إقامة حياته ليبقى سعيداً سالياً ، هادئاً مطمئنا . وأن ينظر دائماً إلى الأمام ، ويتطلع إلى المستقبل بنفس واثبة ، وقلب طموح ، وفكر نيّر ، ونيةٍ وضاءة ، وعزم صادق .

وقبل ختام الحديث يجب أن نضع نصب أعيننا : ***أنه ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي منادٍ : يا ابن آدم انا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزّود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة .***

عَمَر الله أيامكم بالسعادة ، وأعوامكم بالسرور ، وأزمانكم بالرضا ، وحياتكم بالإيمان ، ورزقنا خير هذا العام وبركته ، وأعاذنا وإياكم من شره وشر ما فيه .

ونيسرك لليسرى

الحمد لله الذي بيده مفاتيح الفرج ، والشكر له عدد ما سار سائر فوق الأرضين ودرج ، وعدد ما أشرق البدر وما تنفس الصبح وانبلج ، له الحمد وله الشكر وله الفضل ، فما جعل علينا في الدين من حرج والصلاة والسلام على النبي الأمين ، والرحمة للعالمين ، وصفوة الخلق أجمعين ، بعثه الله هادياً ومبشراً ، ومعلماً وميسراً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطاهرين ، وبعد ..

إن هذا الدين هو دين الفطر السليمة ، والنفوس القويمة ، دين اليسر والسهولة والرفق واللين ، والرحمة والإحسان ، والعفو والغفران ؛ دين يأبى العنت ، ويرفض المشقة ، ويكره التنطع ، ويمقت التزمت . أحكامه ميسرة ، وعباداته متناولة ، وأوامره سهلة ونواهيه محتملة ، لا يأمر بما يرهق ، ولا ينهى عما لا يطاق ، ولا يكلف بما لا يستطاع . اختياره نعمة ورسوله رحمة ، والتنكر له نقمة ، لا عنت ولا مشقة ، لا نصب ولا وصب ، لا آصار ولا أغلال ، لا تعقيد ولا تشديد ، لا إفراط ولا تفريط ﴿ **وكذلك جعلناكم أمةً وسطا** ﴾ [البقرة:١٤٣] ، تيسيرٌ لليسرى ، وبعدٌ عن العسرى ، فهو النهج الأكمل ، والطريق الأجمل والصراط الأمثل ؛ فالله تعالى أراد بنا اليسر ، ولم يرد بنا العسر ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، فجعل الدين ميسرا ، ولم يكلف نفساً إلا وسعها ، قال سبحانه : ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره**

لليسرى ﴾ [الليل : ٧] وجعل كتابه ميسراً ، فقال – جل وعلا – : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ [القمر : ١٧] .

وجعل نبيه مُيَسِّراً فيسره لليسرى ، وبعثه بالحنيفية السمحة ، وأوحى إليه : « أني رضيت لهذه الأمة اليسر ، وكرهت لها العسر » ، وأخبر تعالى أنه بعثه ليضع عن أمته إصرها والأغلال التي كانت في أعناقها .

يقول ابن كثير – رحمه الله – : « إن النبي ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ، وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم فوسّع الله على هذه الأمّة أمورها وسهّلها لهم » .

وقدأمر الله عباده أن يتوسلوا إليه ويدعوه بقوله : ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، فقد كُلِّفت الأمم قبلنا بأمورٍ شاقة مرهقة ، من قتل للنفس لمن أراد التوبة ، ومن قطعٍ لموضع النجاسة من الجلد والثوب ، ومن قتل من شتم أباه وأمه ، ومن عدم جواز أخذ الدية من القاتل حتى ولو كان خطأ ، ومن إحراق الغنائم ومن عدم التطهر بالتيمم .. إلى غير ذلك من الأمور التي يظهر فيها العنت ، وتتجلى فيها المشقة ، ويبدو فيها الحرج ، أعفانا الله تعالى منها ، وتجاوز لنا فيها ، ويسر لنا الشريعة ، وسهل لنا الملة ، وقرب لنا المغفرة . فالتشديد ممنوع ، والإصر موضوع والحرج مرفوع .

وبعد أن ذكر الله تعالى كلاماً عن أحكام الوضوء والغسل والجنابة والتيمم عند فقد الماء – وذلك في سورة المائدة – بعد أن ذكر ذلك ، بين أن الغاية من هذه التشريعات ليس الإعنات والمشقة ، إنما هو تكليف مع التخفيف للتطهير وإتمام النعمة ، فقال تعالى : ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** ﴾ [المائدة : ٦] .

وفي سورة الحج بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالركوع والسجود والإتيان بمجمل الطاعات من العبادة وفعل الخير والمجاهدة في الله حق جهاده ، عقب على ذلك بأنه لم يرد بعباده الحرج ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تتقون * وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم** ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقد فسر ابن عباس – رضي الله عنه – قوله تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ بقوله : إنما ذلك سعة الإسلام ، وما جعل الله فيه من التوبة والكفارات فليس هناك ضيق إلا ومنه مخرج .

ويقول تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] أي ما يسع الإنسان ويطيقه فلا يعجز عنه ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه . ومن دعاء المؤمنين : ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، فيقول الله تعالى : « قد فعلت » .

وقد بين تعالى أن طريق الجنة طريقٌ سهلٌ ميسر ، وبوسع كل إنسان أن يصل إليه ، فهي مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل الصالح من غير تحمل للصعب ، فهو طريق سهل يسير .

قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [الأعراف : ٤٢] .

فالحمد لله الذي يسر لنا الدين ، ورفع عنا الحرج ، ومنَّ علينا بالتخفيف ، فليس في ديننا مجال لمتنطع ، ولا سوق لمتزمت ، ولا مكان لمتشدد .

ولقد تجلى هذا اليسر واضحاً جلياً في نبي الرفق والتيسير ، وتعامل البشير النذير ، فكان يسيراً ميسراً ، هينا لينا ، حليماً مترفقاً يسره الله لليسرى ، فظهرت دلائل اليسر في حياته ، وتجلت أنوار الرفق في دعوته ، وعبقت نسائم اللطف من أخلاقه ، يُسْرٌ في أخلاقه يُسْرٌ في دعوته ، يُسْرٌ في عبادته ، يُسْرٌ في أحكامه ، يُسْرٌ في عقوبته ، يُسْرٌ في يده ، يُسْرٌ في لسانه ، يُسْرٌ في علمه ، يُسْرٌ في تصوره ، يُسْرٌ في تفكيره ، يُسْرٌ في أخذه للأمور ، يُسْرٌ في علاجه للأمور ، يُسْرٌ مع نفسه ، يُسْرٌ مع أهله ، يُسْرٌ مع أصحابه ، يُسْرٌ مع أعدائه ، يُسْرٌ مع الكبير ، يُسْرٌ مع الصغير ، يُسْرٌ يفيض نداه في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياته ، قال عن نفسه ﷺ : «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا مُتَعنِّتا ولكن بعثني معلماً ميسرا» [أخرجه البخاري] .

يُسْرٌ في دينه حيث يقول : «إن خير دينكم أيسره إن خير دينكم أيسره إن خير دينكم أيسره» [رواه أحمد] .

وقال ﷺ : «إنكم أمّةٌ أريد بكم اليسر» [رواه أحمد] .

ويقول : «إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا» [رواه البخاري] .

وأخبرنا أن اليسر والرفق من صفاته جل وعلا فقال : «إن الله رفيق يحب الرفق» [رواه مسلم] .

يُسْرٌ في دعوته : حيث يقول لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا» [أخرجه البخاري] .

يُسْرٌ في أموره : فما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً

يُسْرٌ في مناسكه : فما سئل في الحج عن شيء قُدِّم ولا أخر إلا قال : افعل ولا حرج.

يُسْرٌ في صلاته : واستمع إليه يقول : «إني لأقوم في الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه» [أخرجه البخاري] .

جاء رجل إليه ﷺ فقال إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما غضب ﷺ في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ ، فقال : «أيها الناس إن منكم منفرين ، فأيكم أمّ الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة» [أخرجه البخاري ومسلم] .

يُسْرٌ في صيامه وقيامه : «أما إني والله أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [صحيح الجامع].

وقال لمن أراد أن يصوم النهار ويقوم الليل : «افطر وقم ونم فإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً وإن لربك عليك حقاً وإن لزورك – أي زوّارك – عليك حقا» [رواه أحمد] .

ويُسْرٌ في دعوته ﷺ وتعليمه ، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه! ، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما

رأيتهم يُصمّتونني سكتُّ ، فلما صلى رسول الله ﷺ دعاني فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ، قال : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن» [أخرجه مسلم وأبو داود].

وبال أعرابي في ناحية من نواحي المسجد فزجره الناس فنهاهم رسول الله ﷺ ، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب – دلو – من ماء فأهريق عليه ، وقال لأصحابه : «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» [رواه النسائي] ، وفي رواية ثم دعاه وعلمه في رفق ولين ، وقال له : «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر ، وإنما هي لذكر الله وقراءة القرآن» [رواه النسائي] مما جعل الأعرابي يتأثر بهذا اللطف واليسر والرفق ، فيتجه إلى السماء قائلاً : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحدا .

ويقول ﷺ : «علِّموا ويسّرُوا ولا تعسروا ، وإذا غضبت فاسكت وإذا غضبت فاسكت ، وإذا غضبت فاسكت» [رواه أحمد] .

يُسْرٌ في تعامله مع السائل والفقير والمحتاج ، فكان الأعرابي يجبذه بردائه ، ويقول له : أعطني من مال الله الذي عندك فيبتسم في وجهه ويأمر له بعطاء .

يُسْرٌ مع الخدم والأجراء ، فما ضرب بيده شيئاً قط لا امرأةً ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله .

يُسْرٌ في لباسه فكان ﷺ يلبس ما تيسر من اللباس .

يُسْرٌ في طعامه وشرابه ، فكان لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً وما قرّب إليه شيء من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ، وما عاب طعاماً قط .

يُسْرٌ في نومه وانتباهه ، ينام على فراشه تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة .

يُسْرٌ في تعامله وبيعه وشراءه : «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى» [رواه البخاري] .

ويقول ﷺ : «دخل رجل الجنة بسماحته قاضياً ومتقاضياً» [رواه أحمد] .

ويقول ﷺ : «من أنظر معسراً – أو وضع له – أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه» [رواه الترمذي] .

يُسْرٌ في أخلاقه ومجالسه ، فكان دائم الابتسامة ، لطيف العبارة طلق المحيا ، حسن المداعبة ، صادق الممازحة ، متخول بالموعظة .

يُسْرٌ مع المذنب والمخطيء ، جاءه رجل فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليّ ، فلم يسأله النبي ﷺ عن ذلك الحد ونوعه ، ثم حضرت الصلاة ، فصلى مع النبي ﷺ فلما قضى الصلاة ، قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله إني قد أصبت حداً فأقم فيّ كتاب الله ، قال : «أليس قد صليت معنا؟» ، قال : نعم ، قال : «فإن الله قد غفر لك ذنبك» [أخرجه البخاري] .

يُسْرٌ حتى في الأسماء ، فمن كراهته للعسر والمشقة كان يغير من تسمى بما يوحي بذلك . جاءه رجل . فقال له : «ما اسمك؟» ، قال : حَزْن – أي صعبٌ وَعِرٌ – قال : «أنت سهل» [صحيح الأدب المفرد] ، وكانت امرأةٌ اسمها عاصية فسماها جميلة إلى غير ذلك .

لقد كانت سيرته ﷺ كلها صفحات من السماحة واليسر ، والهوادة

واللين والتوفيق إلى اليسر ، وذلك هو التيسير لليسرى الذي بشره به ربه جل وعلا ، فاتفقت الشخصية اليسيرة الميسرة مع الرسالة السهلة اليسرة الميسرة التي لا تكلف الناس حرجاً ، ولا تحملهم مشقة لقد كان حريصاً على المؤمنين ، عزيزاً عليه ما يعنتهم ، رؤوفاً رحيماً بهم ، وكان يقول ﷺ : «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» [رواه أحمد] .

وكان ﷺ يبتهل إلى ربه داعياً على من حمَّل أُمَّتَه عنتاً أو مشقة، فيقول : «اللهم من ولِي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به» [رواه مسلم].

وكان يبين درجة اليسر والسهولة فيقول : حُرِّم على النار كل هَيِّنٍ لِّينٍ سهلٍ قريبٍ من الناس» [أخرجه أحمد] .

ومن أيسر اليُسر في حياته ﷺ عرضه للإسلام ، وشرحه للدين ، وبيانه للمنهج . كان يُعرِّفه في أيسر أسلوب ، وأسهل عبارة ، وأقرب طريقة ، لا تعقيد ولا غموض ، لا تطويل ولا إملال ، لا تمحّل ولا تعنت حيث كان يأتيه السائل من مكان بعيد فيشرح له الدين في أوجز وقت .

جاء إليه رجل بعرفة ، فزاحم الناس حتى خلص إليه ، فأخذ بخطام راحلته ، ثم قال : شيئين أسألك عنهما : ما ينجيني من النار؟ وما يدخلني الجنة؟ فنظر النبي ﷺ إلى السماء ثم أقبل عليه بوجهه الكريم فقال : لئن كنت أوجزت المسألة لقد أعظمت وطوّلت فاعقل عني إذاً : أعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وأقم الصلاة المكتوبة ، وأد الزكاة المفروضة ، وصم رمضان» [رواه أحمد] .

اللهم يسر لنا الأمور ، وادفع عنا الشرور ، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً .

احفظ الله يحفظك

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » [رواه الترمذي] .

وفي رواية أخرى « احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشده ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليُخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكَرْب ، وأن مع العسر يسرا » [رواه أحمد] .

الحديث خطبة عظيمة ، وموعظة جليلة ، ووصية مانعة ، وكلمة جامعة ؛ البيان رائع ، والأسلوب ماتع ، المعنى جزل ، واللفظ سهل ، اللفظ يسابق المعنى ، والمعنى يسابق اللفظ ، يطرق القلب قبل السمع ، ويهز الوجدان ، ويثير الكيان ، قبل أن تلتقطه الآذان . لولا محاولةُ التذكير ببعض الفوائد التي حواها ، والمعاني التي أرساها لاكتفيت به خطبة ، وأنعم بها من خطبة ، وأكرم بها من وصية . إن الكلمتين الأوليين منه قد جمعتا أحكام الشريعة ، وروح الدين ، ولب الإسلام ، وخلاصة

الإيمان ، «احفظ الله يحفظك» ، فحقيقة الدين هي حفظ الله في أوامره ونواهيه ، وحقيقة الجزاء هي حفظ الله للعبد من كل مكروه في الدين والدنيا والآخرة .

إن هذا الحديث الهائل أصل عظيم في مراقبة الله تعالى وخشيته في السر والعلن ، وفي مراعاة حقوقه ، والتفويض لأمره ، والتوكل عليه ، وشهود توحيده وتفرده ، وعجز الخلائق كلهم وافتقارهم إليه جل وعلا .

كان ابن عباس - رضي الله عنه - خلف النبي ﷺ - أي رديفه - على دابته ، وهذه منزلة رفيعة ، وإكرام بالغ لمن يردفه النبي ﷺ معه على دابته . ومن حرص العلماء على بيان كل أمر من أمور حياته ﷺ فقد أحصى بعضهم عدد الذين أردفهم النبي ﷺ معه ، فبلغوا أكثر من أربعين رديفاً ، وقد كان عُمْرُ ابن عباس حينما ألبسه ﷺ هذه الحلة الرائعة ، وأسمعه تلك الوصية الجامعة ، كان عمره نحو عشر سنين وقد اختاره ﷺ لحمل هذه الوصية لعلمه ما يؤول إليه أمر ابن عباس ، وما سيكون له من منزلة رفيعة ، ورتبة عالية في العلم والمعرفة ، والدين والتقوى ، وكمال الأخلاق ، وحسن الأحوال . فقد أصبح عالم الأمة ، وحبر الملة ، وترجمان القرآن ، وفريد الزمان ، تطوى إليه المسافات ، وتضرب له أكباد الإبل ، وقوله ساطع ، ودليله قاطع ، ورأيه نافذ ، وكلامه حجه ؛ «إني أعلمك كلمات» ، فهي ليست خطبةً طويلة ، ولا كلاماً كثيراً ، وإنما هي كلماتٌ معدودة ، وعباراتٌ محدودة ، احفظ الله يحفظك . . .

كيف يحفظ المرءُ الله تعالى ؟

حِفْظ الله تعالى بحفظ حدوده ، وحفظ حقوقه ، وحفظ أوامره

ونواهيه ، يحفظ الأمر بامتثاله ، ويحفظ النهي باجتنابه ، ويحفظ الحد بالوقوف عنده ، ويحفظ الحق بأدائه . فمن حفظ هذه الأمور فقد حفظ الله تعالى ، فحقٌ على الله أن يحفظه ، ويكون من الحافظين لحدود الله الذين امتدحهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله ﴿ **هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ [ق : ٣٣] ، انظر إلى روعة الآية وانظر إلى تعريف الحفيظ ﴿ **من خشي الرحمن بالغيب** ﴾ [ق : ٣٤] ، فهو حافظ لله في سره وجهره ، في إقامته وسفره في حِلّه وترحاله .

ومن حفظ الإنسان لله تعالى ، محافظتُه على الصلاة ، قال تعالى : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، وقال ﷺ : «من جاء بهنّ لم يضيع منهن شيئاً كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة» [أخرجه النسائي] .

ومن حفْظ الإنسان لله تعالى ، حفظُ الرأس والبطنِ كما روي عنه ﷺ أنه قالَ : «الاستحياءُ من الله حق الحيا أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى» [أخرجه الترمذي] .

الرأس وما وعى : حفظُ الفكر ، حفظُ العقل ، حفظُ السمع ، حفظُ البصر ، حفظُ اللسان ، ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

البطن وما حوى : البعدُ عن أكل الحرام ، حفظُ الفرج ، حفظ القلب من الإصرار على المعصية ، ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ [البقرة : ٢٣٥] .

ومن أعظم ما يجب حفظه : اللسان والفرج ، قال ﷺ : «من حفظ

ما بين لحييه ، وما بين رجليه دخل الجنة » [أخرجه أحمد].

وقد أمر – عز وجل – بحفظ الفروج ، ومدح الحافظين لها فقال : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ [النور : ٣٠] ، فمن سافر إلى البلاد البعيدة ، واختفى عن أنظار الناس ، ليطلق العنان لفرجه في الحرام ، فليعلم أن الله تعالى خبير بما يصنع ، عليم بما يفعل .

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** ﴾ [النور : ٣١] ، فأي مؤمنة تسمع هذا النداء ثم تتنكر له ، فترمي لباس الحشمة ، وتخلع رداء العفة ، وتَعرض زينتها ، وتبرز مفاتنها ، وتدفق حياءها .

ويقول تعالى : ﴿ **والحافظين فروجهم والحافظات * والذاكرين الله كثيراً والذاكرات * أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما** ﴾ [الأحزاب : ٣٥].

يقول أبو إدريس الخولاني – رحمه الله تعالى – أول ما وصى الله به آدم عند إهباطه إلى الأرض : حفظ فرجه ، وقال : « لا تضعه إلا في حلال » .

هذا حفظُ الإنسانِ لله ، فما هو حفظُ اللهِ للإنسان ؟

احفظ الله يحفظك : مَن حَفظَ حدود الله ، وحفظَ حقوقه ، وحفظ أوامره ونواهيه كان جزاؤه أن يحفظه الله تعالى ، فالجزاء من جنس العمل كما قال تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم** ﴾ [البقرة : ٤٠] ، ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، فمن حفظ الله حفظه الله ، وهل من نعمة أجل من حفظ الله لعبده؟! عش ناعم البال ، وسر مطمئن

الخاطر ، وسافر هادئ النفس ، وارتحل سالي الفكر ، إذا علمت أن الله حافظك ، ومولاك حارسك . وحفظ الله لعباده نوعان :

أحدهما : حفظه له في مصالح دنياه ؛ يحفظه في بدنه ، يحفظه في ولده في أهله في ماله ، قال تعالى : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾ [الرعد : ١١].

قال ابن عباس : هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلّوا عنه .

ولقد كان من دعائه الجامع ﷺ قوله : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عورتي ، وآمن روعتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » [أخرجه أبو داود] .

وإن العبد إذا حفظ الله تعالى في حال صباه وقوته ، حفظه الله في حال كبره وضعف قوته ، ومتعه بسمعه وبصره ، وحوله وقوته وعقله .

كان أحد العلماء الكبار قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بعقله وقوته فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك ، فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر .

وقد يحفظ اللهُ العبدَ الصالح حتى بعد موته ، وذلك بحفظه لأبنائه كما في قوله تعالى : ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾ [الكهف : ٨٢] ، قال ابن عباس وغيره : إنهما حُفظا بصلاح أبيهما ، فمن حَفِظَ اللهَ حفظهُ اللهُ من كل أذى .

والنوع الثاني : من أنواع حفظ الله للعبد ، وهو النوع الأهم والأعظم هو : حفظُ الله للعبد في دينه وإيمانه ، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ، ومن الشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان . قال بعض السلف : إذا حضر الرجل الموت يقال للملك شُمَّ رأسه قال : أجد في رأسه القرآن ، قال شم قلبه ، قال : أجد في قلبه الصيام ، قال : شم قدميه ، قال : أجد في قدميه القيام ، قال : حفظ نفسه فحفظه الله .

وقد كان من دعائه ﷺ اللهم احفظني بالإسلام قائماً ، واحفظني بالإسلام قاعدا ، واحفظني بالإسلام راقدا ، ولا تشمت بي عدوا ولاحاسدا » [صحيح الجامع] ، فالله تعالى يحفظ على المومن دينه إذا حفظ حدود الله ، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه .

قال ابن مسعود : إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يُيَسَّر له ، فينظر الله إليه فيقول للملائكة : اصرفوه عنه فإني إن يسرته له أدخلته النار ، فيصرفه الله عنه ، فيظل يتطير يقول : سبقني فلان ، دهاني فلان ، وما هو إلا فضل الله عز وجل .

« احفظ الله تجده تجاهك » ، أي تجده معك بالحفظ والإحاطة ، والتأييد والإعانة ، حيثما كنت فتأنس به ، وتغنى به عن خلقه ، وفي الرواية الأخرى : « تجده أمامك » أي بالحفظ والتأييد ، والمعونة والنصرة ، والمعية والحفظ ، ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ [النحل : ١٢١] ، وخص الأَمَام من بين سائر الجهات إشعاراً بشرف المقصد وبأن الإنسان مسافر إلى الآخرة ، والمسافر إنما ينظر إلى الأمام دائماً ، فمن حفظ الله وجد الله أمامه في سفره في الدنيا وفي سفره للآخرة .

«وإذا سألت فاسأل الله» ، لأن الله تعالى هو الذي بيده خزائن الوجود ، وأزمتها إليه ، فلا قادر ولا معطي ولا متفضل غيره ، فهو أحق أن يقصد ويسأل ، وهو الذي يُحبّ السؤال ويأمر به «واسألوا الله من فضله» ، ويغضب ممن ترك سؤاله :

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبُنيّ آدم حين يُسأل يغضب

فلا فائدة من سؤال الخلق والتذلل لهم إذ لا يملكون نفعاً ولا ضرا لأنفسهم فضلاً عن غيرهم ، وإنما يميل القلب إلى المخلوق ويركن إليه لضعف يقينه ، وقلة توكله ، ووقوعه في الغفلة ، قال تعالى : ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ [الطلاق : ٣] .

وإن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين ، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر ، ونيل المطلوب ، وجلب المنافع ، ودرء المضار . ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده ، لأن ذلك هو حقيقة العبادة .

وكان الإمام أحمد يقول : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك .

وكان طاووس يقول : إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه وجعل دونها حجابه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك .

«إذا استعنت فاستعن بالله» ، فمن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله

الله فهو المخذول ، ولذلك كانت «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة» [متفق عليه] لأنها تضمنت براءة النفس من حولها وقوتها إلى حوله تعالى وقوته ، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولا .

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» .

فهي كلمات تزرع في النفس قوة الإيمان ، وروعة اليقين ، وجمال التوكل ، وحسن الرضا بالقضاء ، ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ [يونس : ١٠٧] وهذا من صميم التوحيد ، وهو الإيمان بأن الله تعالى هو النافع الضار .

ويروى في بعض الكتب الإلهية : «وعزتي وجلالي لأقطعنّ أمل من يؤمِّلُ غيري ولأُلبِسَنّه ثوبَ المذلة عند الناس ، ولأحْجُبَنَّه عن قربي ولأُبْعدَنّه عن وصلي ، ولأجعلنه متفكراً حيران . يؤمل غيري في الشدائد ، والشدائد بيدي ، وأنا الحي القيوم ، ويطرق بالفكر أبواب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب ، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني» .

وقال تعالى : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ..** ﴾ [التوبة : ١٥١] .

ومدار هذه الوصية على هذا الأصل المهم . فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد أبداً ، علم حينئذ أن الله وحده هو النافع الضار ، المعطي المانع ، فيوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ،

وإقراره بالطاعة ، وحفظ حدوده .

« تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشده » ، فالعبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده ، وراعى حقوقه ، في حال رخائه ، ووقت صحته، وحال طمأنيته وشبابه ، فقد تعرف إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فيعرفه ربه في الشدائد ، ويحفظه في الأهوال ، إكراماً لتعرفه إلى الله في الرخاء . فمن ذكر الله في الرخاء ذكره الله في الشدة ، ومن ضيع ربه في الرخاء ، ضيعه الله في الشدة والبلاء . وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا : الموت ، وما بعده أشد منه ، فمن حفظ الله في حال الرخاء حفظه الله في شدة الموت وأهواله ، وأما الفاجر المفرط ، والفاسق المتمرد ، فيقول : ﴿ **يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله** ﴾ [الزمر : ٥٦] .

قال أحد السلف قبل موته : كيف لا أرجو ربي وقد صُمْتُ له ثمانين رمضان؟! .

وقال الآخر عند موته لابنته : يا ابنتي لا تخافي عليّ فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام منذ أربعين سنة .

وختم أحد العباد القرآن وهو في ساعات الموت ، ثم نظر إلى السماء فقال : بحبي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع ، كنت أؤملك لهذا اليوم كنت أرجوك لا إله إلا الله .. ثم مات .

وقال أحد الزهاد عند موته : يا سيدي خبأتك لهذه الساعة ، ولهذا اليوم اقتنيتك ، حقق حسن ظني بك .

قال تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾ [فصلت : ٣٠] .

« رفعت الأقلام وجفت الصحف » ، هذه كناية عن تقدّم كتابة المقادير كلها ، والفراغ منها منذ أمدٍ بعيد ، والمعنى : أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدر عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له في ذلك الكتاب السابق ، قال تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ [الحديد : ٢٢] .

وفي الحديث : أن رجلاً قال : يا رسول الله فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؟ قال : « لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » ، قال : فيم العمل ؟ ، قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » [أخرجه مسلم] .

فلنحفظ أبناءنا وأهلينا وبناتنا ، فلا نعرّضهم لفتنة ، ولا نسير بهم إلى خطر ، كي يحفظنا الله تعالى في أنفسنا وأموالنا وأهلينا . لا تعجب من كثرة المصائب ، ونزول الكوارث ، وحلول الأمراض ، وتعدّد العاهات وتتالي النكبات ، ومحق البركات ، فلو حفظنا الله لحفظنا الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٩] .

أخي المؤمن .. هذه وصية رسول الله ﷺ إليّ ، وهذه وصيتي إليك ، ويجب أن تكون هذه وصيتك لنفسك ، ووصيتك لأهلك ، ووصيتك لأبنائك : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله يحفظك . . .

اللهم احفظنا بحفظك يا خير الحافظين ،،،

أهميــــة العلــم

الحمد لله المبتدئ بالنعم ، بارئ النسم ، ورازق الأمم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم ، وكان خير نبي إلى خير الأمم ، أخرجنا الله به إلى النور وأنقذنا من الظلم ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أولي الفضل والهمم ، والرشد والحكم وبعد ..

فيوم بدء الدراسة ، ومشهد حافل ، وملتقى هام ، في هذا اليوم تستأنف رحلة العلم ، وتبدأ مسيرة الفكر ، وتتجدد عزيمة الطالب ، وتفتح حصون العلم ، وتهيأ قلاع المعرفة ، وتجهز دور النور .

ففي هذا اليوم تكون إنطلاقة رجال التعليم ، وإشراقة حملة الفكر ، وميدان رواد التربية ، ولقاء مشاعل الهدى ، ووضاءة مصابيح الدجى . جعلها الله انطلاقة رشيدة ، وبداية حميدة ، ورحلة سعيدة ؛ يبرق فجر ذلك اليوم والناس أمامه أصناف ، والمستقبلون له ألوان ، بين محب وكاره، ومتقدم ومحجم ، ومتفكرٍ ومتحير ، ومتفائل ومتشائم ، وسعيد وتعيس .

كم من محب لهذا اليوم يترقب قدومه بفارغ الشوق؟! ، وكم من كارهٍ له يتمنى لو أن بينه وبينه أمداً بعيدا؟! ، مستقبل له يرى فيه سعادته وسروره ، وراحته وحبوره ، يرى فيه إشراقاً للنفس ، ونوراً للقلب

وإمتاعاً للعقل ؛ يزداد فيه علماً ، ويتعمق فيه فهماً ، يرتقي فيه درجات ، ويقطف منه ثمرات .

ومستقبل له يرى أنه شرٌّ لا بد منه ، ونكدٌ لا مناص عنه ، فَيُقْبِل عليه منغص العيش ، مكدر الخاطر ، عابس الوجه ، مظلم القلب . اضطر إليه لضغط المجتمع وضرورة الحياة ، أو خوف الأهل ، أو البحث عن الكسب ؛ فهو يرى ساعاتِه أياماً ، وأيامُه شهوراً ، وأعوامه دهوراً .

كم من أب ينتظر استئناف الدراسة بفارغ الشوق ، وعظيم الأمل؟ ، لأن له ابناً أو بنتاً سيبدأ رحلته التعلميه في ذلك اليوم ، فهو يعد أيام طفله ولياليه ، ولو كان بيده أن يستعجل الزمن أو يقدم السنين لجعل عمر طفله الذي يبلغ السنة ستَّ سنوات ليفرح بدخوله المدرسة ، ويأنس بحمله لحقيبة العلم ، وارتدائه لزي المدارس ، وملابس التعليم . يصطحب الأب ابنه أو الأم ابنتها في شعورٍ من الفرح ، وجميل من الأمل لا يعرف روعته ولا يتصور حلاوته إلا من مرّ به .

بداية طريق العلم والتعليم تثير في النفس أفكاراً متعددة ، وخواطر متنوعة ؛ لا أمتع من العلم وأخباره ، والفكر وثماره ، والبحث وأسراره ، والفقه وأنواره .

دعونا نتأمل وإياكم شيئاً من أخبار العلم ، وآثار الهدى ، ومعالم العلى ، ننظر إلى منزلة العلم في ديننا ، والفهم في شرعنا ، والفقه في نهجنا ، إنها المنزلة العظمى ، والمرتبة الأسمى ، والدرجة العليا . تعالوا بنا اليوم نعشْ مع العلم ومنزلته ، والعلماء وفضلهم ، والعظماء ودورهم ، والنجباء وأعاجيبهم ، لعل في ذلك تحريكاً للنفوس ، وشحذاً للهمم ، وتذيكراً للقلوب ، واستلهاماً للماضي ، وإعماراً للحاضر ، وإدراكاً

للواجب ، واعترافاً بالتقصير ، وإتلافاً للتفريط .

قال ابن القيم : العلم هادٍ ، وهو تركةُ الأنبياء وتراثهم . وأهله عصبتهم وورّاثُهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذّةُ الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيِّرين ، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال . وهو الحاكم المفرِّق بين الشك واليقين ، والغيّ والرشاد ، والهدى والضلال .

به يُعرف الله ويُعبد ، ويُذكر ويُوحّد ، ويُحمد ويمجّد ، وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومنه دخل عليه القاصدون ، وبه تعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال والحرام ، وبه توصل الأرحام ، وبه تعرف مراضي الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعها يوصل إليه من قريب .

وهو إمامٌ ، والعمل مأموم ، وهو قائدٌ ، والعمل تابع ، وهو الصاحب في الغربة ، والمُحدّث في الخلوة ، والأنيس في الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه ، والكهف الذي لا ضيعة على من أوى إلى حرزه . مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل الصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

العلم سلم قصر المجد كم سطعت
بنوره من كيانات وبلدان
والعلم في ديننا عنوان روعته
وفي هُدى المصطفى تحظى ببرهان
واقرأ عن العلم في القرآن تلمحه
في قصة الخضر مع موسى بن عمران

سنعرض في إيجاز سريع لبعض النصوص من الكتاب والسنة التي تدل على شرف العلم، ومنزلة الفكر.

إن ديننا الإسلامي دين العلم والتعليم، والهداية والإرشاد، والنور والبرهان، ولذلك نرى أن انطلاقة الوحي، وإطلالة النور، ونزول القرآن إعلان لأهمية العلم، وقيمة القلم، وشأن القراءة، فتهبط الآيات الأولى على قلب محمد ﷺ مستهلة بقوله تعالى: ﴿**اقرأ**﴾ فلا أمية بعد اليوم ولا استسلام للجهل، ولا ركون للظلام والضلال، ﴿**اقرأ**﴾ فإن هذا الدين عنوانه القراءة، ودستوره القرآن، وروحه العلم، وآلته القلم، وآفته الجهل، ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [العلق: ٥].

ويقسم الله تعالى بالقلم إعلاء لشأنه، فالقلم هو طريق العلم والتعلم ﴿**ن * والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون**﴾ [ن:٣].

هذا الدين يرفع شأن العلم وأهله ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ [المجادلة: ١١]، ويمقت الجهل وأهله ﴿**فلا تكونن من الجاهلين**﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ [الزمر: ٩].

ويقصر معرفة الله حق المعرفة وخشية الله عين الخشية على العلماء ﴿**إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء**﴾ [فاطر: ٢٨].

هذا الدين يدعو إلى العلم قبل العمل ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾ [محمد: ١٩].

وهذا إمام العلماء، وسيد البلغاء والفصحاء، وخاتم الأنبياء يدعو

أمتـه إلى نور العلم ودوحـة القراءة ، وميـراث النبـوة ، وينبـوع الحكمـة ، ونفض غبار الجهل ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكـيهم ويعلمـهم الكتـاب والحكمة وإن كـانوا من قـبل لفي ضـلال مبين** ﴾ [الجمعة : ٢].

وها هو يملأ الأسماع والقلوب بأحاديثه العطرة التي يبين فيها أهمية العلم ، وبركة العلم ، ونور العلم ، ولا يسمح المجال هنا لبسط القول حول العلم وأهميته وأجر العالم والمتعلم ، ولكن نشنف الأسماع بحديثين بين يدي كلامنا عن العلم والعلماء ، قال ﷺ : «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [أخرجه أبو داود والترمذي].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [أخرجه البخاري].

ولقد عرف الصحابة – رضوان الله عليهم – وعرف التابعون لهم بإحسان عرفوا منزلة العلم وأهميته ، وأن البشرية إذا جهلت وتركت العلم زاغت وضلت وتنكبت الصراط المستقيم فقاموا بواجب العلم والتعليم وحملوا إلى الأمة هدي الرسول ﷺ كاملاً مكملاً ، مجملاً ومفصلاً . وقد ضرب الصحابة والتابعون لهم بإحسان على مر العصور

أروع الأمثلة في الحرص على طلب العلم ، والتفنن في صيانته وتنقيته وتعليمه للأجيال المؤمنة . وسننقل إليك فيما بعد – إن شاء الله – طرفاً من ذلك الحرص ، ومقاطع من تلك التضحيات ، وعجائب من هاتيك المغامرات ، وروائع من الرحلات المضنيات التي قاموا بها طلباً للعلم ، ورغبة في الأجر ، ونشراً للحق ، وصيانة للمنهج ، وحراسة للشريعة ، وتعليماً للأمة ، وكشفاً للغمة .

أقول لها والعيسُ تحدج للسرى
أعدي لفقدي ما استطعت من الصبر
سأنفق ريعان الشبيبة جاهداً
على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الخسران أن لياليا
تمر بلا نفع وتحسب من عمري؟

العلمـــاء

العلماء هم ورثة الأنبياء ، وقدوة الأتقياء ، وأولي الأولياء ، بهم تستضيء البلدان ، ويدعى إلى الإيمان ، ويدل على الرحمن . أعظم الناس خشية للعلام ، وأكثرهم بركة على الإسلام ، خُصُّو باستنباط الأحكام ، وعُنوا بضبط الحلال والحرام ، هم في الأرض كالنجوم في السماء ، والدواء للداء ، والضياء في الظلماء ؛ فضلهم ظاهر ، وسلطانهم قاهر ، ودليلهم باهر . يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يُحيون بكتاب الله تعالى الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائه هدوه . ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، هم سُرُج الأزمنة ، فكل واحد منهم مصباح زمانه ، وسراج ميدانه ، وهم أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم ؛ لأن الآباء والأمهات يحفظون أبناءهم من نار الدنيا وأوصاب الحياة ، والعلماء يحفظونهم من نار السعير وتعاسة المصير .

لم يورِّث الأنبياء درهماً ولا ديناراً ، وإنما وَرَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، فيا الله ما أعظم المورِّث ، وما أسعد الوارث !؟ إنهم أُنس المَجالس ، وبهجة المُجالس . وما ظنك بقوم استشهد بهم المعبود على أعظم مشهود ، فقال جل من قائل ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾ [آل عمران : ١٨] فلم يستشهد بذوي الجاه ، ولا

بذوي النسب العريق ، ولا بذوي المال ، ولا بذوي السلطان ، إنما بذوي العلم ، وحملة المعرفة .

طاعتهم أفرض على الناس من طاعة الآباء والأمهات ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ [النساء :٥٩]، فهم أحد صنفي ولاة الأمر ، لأن ولاة الأمر هم الأمراء والعلماء .

فولاية أهل العلم : في بيان شريعة الله ، ودعوة الناس إليها ، وولاية الأمراء : في تنفيذ شريعة الله وإلزام الناس بها . والأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم ، ولذلك كان صلاح الناس بصلاح هذين الصنفين ، وفسادهم بفسادهم ، « أي العلماء والأمراء » .

فالعلماء كنز الملة ، وحُفَّاظ السنة ، وحملة الشريعة . أهل الجاه يذهب قدرهم بذهاب جاههم ، وأهل المال تموت قيمتهم بموتهم ، أما العلم فلا ينتهي سببه ، ولا ينقطع نسبه ، ولا ينقضي خيره ، ولا يخفت صيته ، ولا ينقطع أجره ، وأهله في درجة عالية في الدنيا والآخرة ، ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ [المجادلة : ١١] إذا فرح الناس بدنياهم ، سجدوا لله على ما آتاهم ، وإن شغل الملأ بالملذات ، شغلوا بتأمل الآيات البينات ، ومناجاة رب الأرض والسماوات . وإن أشربت قلوب الناس حبّ العرض الزائل ، وجدوا أنسهم وسعادتهم في تنقيح العلم وتأمل المسائل ؛ فهم منار سبيل الجنان ، وأقرب الناس إلى الديان ، وأعدى أعداء الشيطان . في الخير قادة ، وفي الهدى سادة ، يقتدى بأفعالهم وأقوالهم ، وتقص آثارهم وترمق أعمالهم ، وترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تحفهم ، وكل رطب ويابس يستغفر لهم حتى الحيتان في الماء .

قال ﷺ : « وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء » [أخرجه أبو داود والترمذي] ، فهل بعد هذا منزلة ، وأحسن منه مرتبة؟! ، ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ [الزمر : ٩].

الله جل جلاله يصلي عليهم ، وملائكته وأهل السماوات والأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في الماء . كلما سلكوا طريقاً يبتغون فيه علماً سهل الله لهم طريقاً إلى الجنة . أراد الله بهم خيراً في الدارين ، ففقههم في الدين ، وجعلهم الموقعين عن رب العالمين ، فهم النصحاء الأمناء النبلاء ، العلماء بأيام الله . إذا تذكروا عظمة الله ، طاشت عقولهم ، وانكسرت قلوبهم ، وانقطعت ألسنتهم ، حتى إذا استفاقوا من ذلك ، يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكية ، والأعين الباكية يعدون أنفسهم مع المفرطين ، وإنهم لأكياس أقوياء ، ومع الظالمين الخاطئين ، وإنهم لأبرار برءاء ، حيثما لقيتهم مهتمون مشفقون وجلون خائفون ، ﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾ [النور : ٤٠].

قصر الله خشيته حق الخشية ، ومعرفته حق المعرفة عليهم فقال : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ [فاطر : ٢٨] ، وهم الذين عرفوا أن العلم ليس عن كثرة الحديث ، وإنما العلم هو كثرة الخشية . لا يفضلهم أحد ، ولا يفوقهم بشر ، منزلتهم عظيمة ، ومرتبتهم كريمة ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾ [فصلت : ٣٣] هم دعاة الرضى والهدى : « ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » [رواه مسلم] ، وهم أقرب الناس

إلى درجة النبوة ، لأنهم يدلون الناس على ما جاءت به الرسل ، وهم أرقى الناس منزلة عند الله تعالى لأن الواسطة بين الله تعالى وبين عباده هم الرسل والعلماء ، ومن أراد النظر إلى مجالس الأنبياء ، فلينظر إلى مجالس العلماء ، وفضل العالم على العابد كفضل النبي ﷺ على أدنى أصحابه ، وذلك لأن العابد تابع للعالم متقيد به ، مقلد له في عبادته ، واجب عليه طاعته ولا عكس ، والعابد نفعه لنفسه ، أما العالم فنفعه للبشرية جمعاء .

ولحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب ، بلاه الله قبل موته بموت القلب . فهم مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ، وصفوة الورى ، وعنوان الرضى ، وأولوا الفكر والتقى ، صيتهم ذائع ، وتاريخهم رائع وقربهم ماتع ونهجهم ناصع . أرض لم تشرق فيها أنوارهم أرض مظلمة ، وبلاد لم تكتحل برؤيتهم بلادٌ قاتمة ، وأوطان لم تعرف قدرهم أوطان خاسرة ، وأمة لم تصدر عن رأيهم أمة تائهة . وإن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويثبت الجهل ، ويُشرَب الخمر ، ويظهر الزنا .

فهم المبلغون عن الله وعن رسول الله ، أمناء على الوحي ، حفاظ للشرع ، حراس للنهج ، خدم للسنة ، صادقون مع الأمة ، ناصحون للبشرية ، مشفقون على الإنسانية . ينام الناس ملء أعينهم ، وهم يوقدون الشموع ، وينثرون الدموع ، وينطرحون بين يدي ربهم والناس هجوع ، يسألونه غفران الذنوب ، وصلاح الشعوب ، وصفاء القلوب . يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، يجعلون جزءاً من وقتهم وحظاً من ليلهم ، وقسطاً من دعائهم ، لأئمة المسلمين وعامتهم ، يدعون لهم

بالصلاح ، ويرجون لهم النجاح ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وما أسوأ أثر الناس عليهم!! ، أفئدتهم من خشية الله مشفقة، وأعينهم باكية وقلوبهم مما عرفوا من الحق وجلة ، سعادتهم في بذل النصيحة ، وأنسهم في تبليغ الدعوة ، وراحتهم في ظلال العقيدة . أيقنوا أن تعلم العلم خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، فهم مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها ، وإذا خفيت عليهم تحيروا ، هم كالعين العذبة ماؤها زلال ، وجدولها رقراق ، ونفعها دائم . وإن لم يكن الفقهاء والعلماء العاملون هم أولياء الله فليس لله ولي ، تعلموا القرآن فعظمت قيمتهم ، ونظروا في الفقة فَنَبُل قدرهم ، وكتبوا الحديث فقويت حجتهم ومثلهم مع الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً نقية طيبة ، فقبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

هذا غيض من فيض قدرهم ، وقطرة من بحر فضلهم ، ونقطة من مداد نبلهم ، ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ [الرعد : ١٩] .

ولكن تلك المنزلة السامقة ، والرتبة العالية ، والميزة الغالية ، التي اختص بها العلماء ، وظفر بها الفقهاء ، منزلة لها تبعة ، ورتبة يترتب عليها ضريبة ، وميزة لها ثمن تلك المنزلة ، وهاتيك الرفعة إنما هي للعلماء الأتقياء ، والفقهاء الأولياء ، الذين عرفوا ربهم ، وأخلصوا قصدهم ، وصانوا علمهم ، واتبعوا نبيهم وقدوتهم ، فما أعظم أجرهم ، وأسعد حظهم!! .

أما من خان الأمانة ، وغش الديانة ، فوزره أعظم ، وجرمه أشنع ،

ومصيره أفظع ، قال تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين** ﴾ [الأعراف : ١٧٥] ، الويل كل الويل لمن أرادوا بعلمهم الدنيا وحظوظها ، والحياة ومتاعها ، قال عز وجل : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا** ﴾ [الإسراء : ١٨] ، والويل لمن طلبوا العلم ليماروا به السفهاء ، ويكاثروا به العلماء ، أو يصرفوا به وجوه الناس إليهم ، «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة : يعني ريحها» [أخرجه ابن ماجة وأبو داود] ، ما أعظم العقوبة ، وما أشد النكال ، وما أتعس المصير لمن فاته الإخلاص في علمه ، والصدق في قصده ، والتقوى في فقهه ، والخشية في نهجه! وكفى زاجراً وتخويفاً ما أخبر به المعلم المشفق ، والناصح الصادق ﷺ في هذا الحديث المرعب والخبر المفزع حيث يقول :

«إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» [أخرجه مسلم].

ما أسوأ المصير لمن لم يراقب الخلاق ، ولم يحترم الميثاق!! ، قال سبحانه : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا**

تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ [البقرة : ٥٩] .

ومما يروى عن داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى قوله : « إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي » .

وقال الحسن رحمه الله : « عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة » .

وقال يحيى بن معاذ : « إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا » .

وكتب أحد السلف إلى أخٍ له ينصحه فقال : « إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب ، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم » .

وقيل لإبراهيم بن عيينة : أي الناس أطول ندماً؟ قال : « أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ، وأما عند الموت فعالم مُفَرِّط » .

وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة ، مفهومات من خمس آيات من كتاب الله عز وجل ، وهي : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وهو الزهد .

أما الخشية فمن قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وأما الخشوع فمن قوله تعالى : ﴿ **خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾ [آل عمران : ٩٩].

وأما التواضع فمن قوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ [الحجر : ٨٨].

وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم** ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

وأما الزهد فمن قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا** ﴾ [القصص : ٨٠].

فالحمد لله الذي منّ علينا بالعلماء الناصحين ، والفقهاء الصادقين ، والأولياء المخلصين . نسأل الله تعالى أن يحفظهم ، وأن يبارك فيهم ، وأن يجعلهم ممن يرجون بعلمهم وجه الله والدار الأخرة، وأن يوفق جميع علمائنا وأمرائنا ووزرائنا إلى كل خيرٍ وفلاح، وهدى ونجاح ، وتوفيق وصلاح .

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ،،

من سير العلماء

نعيش هذه اللحظات الماتعة ، والدقائق الغالية ، مع نبذة يسيرة ، ومفاخر جليلة ، لأسلافنا العظماء ، ورجالنا النبلاء . نتأمل العظمة في أروع أحوالها ، والبطولة في أجمل أشكالها ، والتقوى في أحسن أثوابها .

نقف عند أناس تتضاءل الجبال الراسيات أمام عظمتهم ، وتتحطم الصخور أمام عزائمهم ، وتقصر الجوزاء عند هممهم ؛ صبر وتضحية تعب ونصب ، سهر ووصب ، حل وارتحال ، سفرٌ وانتقال ، همة وطموح غربة ونزوح ، عزم وتصميم ، كتابة وترقيم ، تعلم وتعليم جوع وألم ، دواة وقلم ، إخلاص ونقاء ، تألق وصفاء ، خشوع وبكاء إن في خبرهم سلوة ، وفي قصصهم عبرة ، قال تعالى : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ ، ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب** ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

١ ـ جابر بن عبد الله : يقول جابر عن نفسه : (بلغني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شددت رحلي ، فسرت إليه شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أُنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله؟ قلت : نعم ، فخرج عبد الله بن أنيس فاعتنقني ، فقلت حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الناس يوم القيامة عراةً غرلاً بُهْماً » قلنا : وما بُهْماً؟ قال : « ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة » ، قلت وكيف وإنما نأتي الله عراة بُهْماً ، قال : « بالحسنات والسيئات ») [رواه أحمد] .

٢ – وهذا سعيد بن المسيب – رحمه الله – يقول : كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد .

٣ – وهذا الشعبي – رحمه الله – المتوفى عام [١٠٣ هـ] خرج من الكوفة إلى مكة المكرمة في طلب ثلاثة أحاديث .

٤ – وهذا مكحول الشامي – رحمه الله – ، المتوفى عام [١١٢هـ] يقول طفت الأرض كلها في طلب العلم ، ويقول : لم أدع بمصر علماً إلا حويته ، ثم أتيت العراق ، فلم أدع فيها علماً إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت المدينة فكذلك ، ثم أتيت الشام فغربلتها .

٥ – وهذا علم الأعلام وإمام أهل السنة في الإسلام الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – المولود ببغداد سنة ١٦٤ هـ ، رحل إلى بلاد كثيرة جداً ، وكان يحفظ ألف ألف حديث ، يقول عن أسفاره : رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور والشامات ، والموصل والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعاً ، وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطرف ، ثم عدت إلى بغداد .

٦ – وهذا الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي المتوفى عام [٢٢٧ هـ] ،

يقول : وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا يحصى ، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجت من البحرين قرب مدينة سلا ، وذلك في المغرب الأقصى إلى مصر ماشياً ، ومن مصر إلى الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرطوس . ثم رجعت من طرطوس إلى حمص ، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته . ثم خرجت من حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرَّقة ، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة ، كل ذلك ماشيا .

٧ - وهذا الإمام الحافظ أبو سعد السمعاني التيمي المتوفى عام [٥٦٢هـ] بلغ من التطواف والارتحال ما لا يخطر على بال ، وكأن أخبار ارتحاله من الأساطير . وقد استمرت رحلاته زهاء عشرين سنة ، وهو لا يعرف الملل ولا الكلل ، وقد أحصى بعض العلماء الرحلات والأسفار التي قام بها الإمام السمعاني فبلغت قُرابة مئة وسبعين مدينة وبلدا .

٨ - وهذاالإمام الحافظ محمد بن طاهر المقدسي ، المتوفى في بغداد عام [٥٠٧ هـ] كان يمشي في ليلة واحدة قريبا من سبعة عشر فرسخا ، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخاً ، والفرسخ بمشي القدم يُقدّر بساعة ونصف تقريباً ، وهو نحو خمسة كيلو مترات أو أكثر ، بمعنى أن هذا الإمام كان يمشي في اليوم والليلة قدْر

مائة كيلومتر . وكان كثير السفر للحج والعمرة ماشياً ، وقد رحل إلى أكثر من أربعين مدينة ليسمع الحديث ، يقول عن نفسه . بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين ، مرة ببغداد ، ومرة بمكة ، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حر الهواجر ، فيلحقني لذلك التعب والمرض .

وما ركبت دابة قط في طلب الحديث إلا مرة ، وكنت أحمل كتبي على ظهري ، وما سألت في حال طلبي للعلم أحداً . وكنت أعيش على ما يأتيني من غير سؤال ، ورحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي الذي أخرجه مسلم في الصحيح « كان من دعاء رسول الله ﷺ اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » ذاكرني به بعض المحدثين بالليل فلما أصبحت ، شددت عليّ رحلي – أي وضع خرج كتبه على ظهره – وخرجت إلى أصبهان ، ولم أحلل عنه حتى دخلت على الشيخ أبي عمر ، فقرأته عليه عن أبيه عن أبي بكر القطان عن أبي زرعة ، ودفع إليّ أبو عمرو ثلاثة أرغفة ، وكمّثراتين وما كان وقع إليَّ تلك الليلة قوتي ، ولم يكن لي قوت غيره .

وأقمت بتنّيس مدة ، فضاق بي الحال ، ولم يبق معي غير درهم واحد ، وكنت في ذلك اليوم أحتاج إلي خبزٍ وإلى ورق للكتابة ، فكنت أتردد إن صرفته في الخبز لم يكن لي ورق للكتابة ، وإن صرفته في الورق لم يكن لي خبز ، ومضى علي هذا ثلاثة أيام ولياليهن لم أطعم فيها ، فلما كان بكرةُ اليوم الرابعِ قلت في نفسي : لو كان لي ورق لم يمكنني أن أكتب فيه شيئاً لما بي من الجوع ،

فجعلت الدرهم في فمي وخرجت لأشتري الخبز فبلعت الدرهم ، ووقع عليّ الضحك ، فلقيني أبو طاهر الصائغ وأنا أضحك ، فقال : ما أضحكك؟ ، قلت خيرا ، فألح عليّ وأبيت أن أخبره ، فحلف لتصدقني لم تضحك؟ ، فأخبرته ، فأخذ بيدي وأدخلني منزله ، وتكلف لي في ذلك اليوم ما أطعمه .

٩ – لقد كان أولئك – رحمهم الله – يعانون من الفقر والفاقة ولهم في ذلك قصص عجيبة ، ومن أولئك الإمام محمد بن جرير الطبري ، يقول : أبطأت عني نفقة والدي واضطررت إلى أن فتقت كُمَّيْ قميصي فبعتهما .

١٠ – وانظر إلى هذا الإمام العظيم يعقوب بن سفيان الفارسي يقول : أقمت في الرحلة ثلاثين سنة ، وكنت في رحلة فقلّت نفقتي ، فكنت أدمن الكتابة ليلاً وأقرأ نهاراً ، فلما كان ذات ليلة كنت جالساً أنسخ في السراج ، وكان شتاءً ، فنزل الماء في عيني فلم أبصر شيئاً ، فبكيت على نفسي لانقطاعي عن بلدي وعلى ما فاتني من العلم . فغلبتني عيناي ، فنمت فرأيت النبي ﷺ في النوم ، فناداني : يا يعقوب لم أنت بكيت ، فقلت : يا رسول الله ذهب بصري فتحسرت على ما فاتني ، فقال لي : ادن مني فدنوت منه فأمر يده على عيني كأنه يقرأ عليها ثم استيقظت فأبصرت ، فأخذت نسخي وقعدت أكتب » .

رحمهم الله رحمة واسعة ، وأحسن جزاءهم ، وأعظم ثوابهم ، وجمعنا بهم في جنات النعيم .

الهِمّة

بلوغ القمة في علو الهمة ، والفوز بالمقصود ببذل المجهود ، ومن جد وجد ومن زرع حصد ، والسابقون السابقون أولئك المقربون ، ومتى علت الهمة فلا تقنع بالدون ولا ترضى بالذل ، ولا تخضع للهوان ، ولا تستسلم للخور .

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام

ما تأخر المسلمون إلا بتأخر هممهم ، وما ضعفوا إلا حينما ضعفت عزائمهم ، وما ذلوا واستكانوا إلا حينما رضوا بالدنيا ، وتبايعوا بالعِينَة ، وأخذوا بأذناب البقر ، ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ .

يوم أن كانت الهمم عالية ، والعزائم شامخة ، والنفوس متوثبة ، والقلوب حية ، والبصائر نقية ، والآمال بعيدة ، والأهداف مجيدة ؛ هزّ المسلمون الدنيا ، وأيقظوا التاريخ ، وأذهلوا الزمان ، وأَقَضُّوا مضاجع الكفر والطغيان . وفي قرن من الزمان أصبحوا سادة الدنيا ، غرسوا ألوية الحق في قلب آسيا ، وارتفع أذانهم في أدغال أفريقيا ، وأطراف أوروبا ، وطار صيتهم من شرق الأرض إلى غربها . ذلك التاريخ المتوهج ، والمجد المتألق ، إنما كان ثمرةً للهمم الشامخة ، والمبادئ الراسخة ، هِمَمٌ تتحدى الجبال ، وعلم وإيمان بالواحد المتعال ﴿**أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾ [الزمر:١٨] .

ما أحوجنا في مثل هذه الأيام إلى إشعال جذوة الهمم في النفوس ، وبث روح العزائم في القلوب . هل حَدَّث المربون والمعلمون أنفسهم بأن ينطلقوا في رحلتهم السامية بهمم قوية ، ونوايا سامية ، وعزائم خلاقة؟ وهل حدث الطلاب أنفسهم بأن يقبلوا على العلم بقلوب مؤمنة ، وأنفس متوثبة ، وهمم سامقة؟ ، هل استعادوا بعد الإجازة نشاطهم ، واستردوا حيويتهم ، واشتاقوا لمقاعد الدرس ، ومراتع العلم ، ومغارس المعرفة؟ أم أن القنوات الفضائية والشهوات الأرضية ، والسهرات الشبابية قد ملأت القلوب عجزاً ، وأترعت الأجسام كسلاً ، وشحنت الأذهان عفناً ؛ فأخلدوا إلى الدنيا ، واثّاقلوا إلى الأرض ، واستأنسوا بالخمول ، وارتاحوا للتّوافه ، وعانقوا الآثام ، وصادقوا الخطايا ، وكرهوا لقاء المجد ، وسخطوا من تلَقي العلم؟!.

مَن يَهُن يسهل الهوان عليه
ما لجرحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ

الهمة سمة المؤمن ، وآية المسلم ، وعلامة الجاد ، وعنوان النبوغ ، ودليل التفوق ؛ الهمة العالية لا تعطي الدنية ، ولا تقنع بالسفاسف ، ولا تخلد للعجز .

فانهض إلى صهوات المجد معتلياً
فالباز لم يأو إلا عالي القلل
وَدَعْ من الأمر أدناه لأبعده
في لجّة البحر ما يغني عن الوشل

الهمة قلبٌ جياش ، ونفسٌ تواقة ، وهدفٌ سام ، وأمل بعيد ، وطموح مستمر . الهمة حرص على النبوغ ، ورغبة في المجد ، ومصارعة

للمخاطر ، وتَحَدٍّ للمتاعب ، ومنازلة للمصاعب ، إنها قلب حي ، وفكر نير ، ونفس شامخة ، وروح متوثبة .

لقد علمنا الإسلام علو الهمة حتى في الدعاء ومخاطبة المولى جل وعلا ، فقال ﷺ : «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه سرُّ الجنة» [رواه البخاري] – أي أفضل موضع فيها – .

وقال ﷺ : «إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه عز وجل» [صحيح الجامع] .

فيجب على المسلم أن يكون عالي الهمة ، قوي العزيمة ، متوقد القريحة ، يقول ابن القيم – رحمه الله – : (إن ضعف الإرادة والطلب ، من ضعف حياة القلب ، وكلما كان القلب أتم حياةً كانت همته أعلى ، وإرادته ومحبته أقوى ، فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بمراد المحبوب ، وسلامة القلب من الآفة .

وضعف الطلب وفتور الهمة إما من نقصان الشعور والإحساس ، وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة . والحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية ، والمحبة الصادقة ، والإرادة الخالصة . وأخس الناس حياةً أخسهم همة ، وحياة البهائم خير من حياته .

إن الهمم متفاوتة حتى عند الحيوانات ، فالعنكبوت من حين يولد ينسج لنفسه بيتاً ، ولا يقبل منّة الأم أو مساعدتها ، والحية تسكن ما حفر غيرها لأن طبعها الظلم ، والغراب يتبع الجيف ، والصقر لا يقع إلا على الحيّ ، والأسد لا يأكل البائت ، والفيل يتملق حتى يأكل ، والجعلان لا يرضى بمهنته بدلاً ، ولو وضعته في بستان من الورد لهرب . ومن أمثالهم : قيل للجعلان : لماذا امتهنت هذه المهنة ، قال : لسقوط همتي .

وفي الشريعة الإسلامية الكلب المعلم أفضل من الكلب الجاهل ، فيجوز أكل صيد الكلب المعلم ، ويحرم أكل صيد الكلب الجاهل .

فإذا علت الهمم ، جدت في كسب الفضائل ، وسعت لتحقيق الأماني ، وتجافت عن النقص .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

وقد أجمع العقلاء من كل أمة ، على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من آثر الراحة فاتته الراحة ، وأنه بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة ؛ فلا فرحة لمن لا همة له ، ولا لذة لمن لا صبر له ، ولا نعيم لمن لا شقاء له ، ولا راحة لمن لا تعب له بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً ، وكلما كانت النفوس أشرف والهمة أعلى ، كان تعب البدن أوفر ، وحظه من الراحة أقل .

بَصُرْتُ بالراحة الكبرى فلم أرها
تُنال إلا على جسرٍ من التعب

فيا أيها المعلم الجاد ، ابدأ عامك بهمة عالية ، ونية صافية ، وإرادة قوية ، ثم اسكب شذا همتك الزكي في قلوب ناشئة الإسلام ، وشبيبة الإيمان ، فإنهم يقتدون بك ، ويتعلمون منك ، ويسيرون بتوجيهك . ويا أولياء الأمور بثوا في نفوس أبنائكم وبناتكم روح الهمم العالية ، والعزائم الشامخة ، والآمال البعيدة ، والأمنيات الخلابة . ويا أيها الطلاب

والطالبات ابدؤوا عامكم هذا بأنفس تواقة ، وأفكار خلاقة ، وأخلصوا نياتكم ، وزكّوا أنفسكم ، وأقبلوا على دروب العلم والمعرفة بهمم تتحدى الصعاب ، وأنفسٍ تأنف الذل ، وتأبى الخمول . فالعلم سرّ تفوق الأمم ، وعنوان حضارتها ، وطريق رياستها . أنتم في زمن تصارعت فيه الأفكار ، وحارت فيه الألباب ، واختلطت فيه المفاهيم ، ولا سبيل لكم لاختراق هذا الظلام الدامس إلا بنور العلم ، ومصابيح المعرفة . فاحرصوا على ما ينفعكم ، واستعينوا بالله ولا تعجزوا .

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله
ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العُلا
يسيراً يعش دهراً طويلاً أخَا ذلِّ

وهذه بعض النماذج الفذة من تاريخ أرباب الهمم الشامخة ، والعزائم السامقة لبعض طلاب العلم والمعرفة ، نسوق طرفاً منها لأخذ العبرة ، ونيل العظة ، وتذكير النفوس ، وإحياء القلوب ، قال تعالى : ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة**﴾ [يوسف : ١١١] .

هذا معاذ بن جبل – رضي الله عنه – حينما حضرته الوفاة قال : «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل ، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد ، ولمزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَقِ الذِّكْر» .

ومعاذ بن جبل هو سيد العلماء ، إذا حضر العلماء يوم القيامة يأتي معاذ قبلهم برمية حجر ، مع أن مدة تحصيله للعلم هي حوالي عشر سنوات ، ولكنها الهمة العالية! .

وهذا عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه وأرضاه – يقول : « والذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ، ولا أُنزلَتْ آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه .

وهذا جابر بن عبد الله – رضي الله عنه وأرضاه – يرحل إلى الشام من أجل حديث واحد من أحاديث المصطفى ﷺ ، رحلة رواحها شهر وغدوُّها شهر .

وهذا عطاء بن أبي رباح – رحمه الله – كان أسود أعور أفطس أشلّ أعرج ، ثم عمي ، كان ركناً من أركان العلم ، وأميراً للمؤمنين في الحديث ، وكان فراشه في المسجد عشرين سنة لتحصيل العلم . وحج أكثر من سبعين حجة ، وأسندت إليه الفتوى في عهد بني أمية .

وهذا سفيان الثوري رحمه الله بلغ عدد شيوخه ستمائة شيخ ، وعدد الرواة الذين رووا عنه يربو عن الألف .

وهذا علي بن عاصم مُسْنِد العراق ، أعطاه أبوه وهو شاب صغير مائة ألف درهم ، وقال له : اذهب ولا أرى لك وجهاً إلا بمائة ألف حديث ، فعاد إلى والده بمائة ألف حديث ، وكان يجتمع إليه من الطلاب ثلاثون ألفاً .

وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك – رحمه الله – حمل العلم عن أربعة آلاف شيخ .

وهذا يحيى بن معين – رحمه الله – الإمام الحافظ شيخ المدينة يقول : كتبت بيدي ألف ألف حديث ، وهو الذي يقول لو لم نكتب

الحديث خمسين مرة ما عرفناه .

وهذا أمير المؤمنين في الحديث – رحمه الله – وصاحب أعظم كتاب في الإسلام بعد القرآن ، وهو محمد بن إسماعيل البخاري ، يقول : أخرجت هذا الكتاب من زُهَاء ستمائة ألف حديث ، وما وضعت في كتابي حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، ويقول : كتبت عن ألف شيخ ، ورويت عن كل واحد منهم عشرة آلاف وأكثر ، وما عندي حديث إلا أذكر إسناده .

هذه نُبَذٌ موجزة تعطيك دليلاً على عظمة أولئك الرجال ، وعلو هممهم ، وأنهم ما نالوا عزة الدنيا والآخرة إلا بعلو الهمم ، وقوة العزائم ، وصفاء النوايا . وَقِسْ عليهم غيرهم من علماء الأمة ، وعظماء التاريخ ، وقمم البشرية ، الذين عُمِرت القلوب ، وزكت النفوس ، وأنيرت العقول بنور جهودهم ، ونتائج هممهم . رحمهم الله جميعاً وجمعنا بهم في جنات النعيم ، ورزقنا السير على منوالهم .

آفـــــة الجـهـــل

قال المصطفى ﷺ : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جُهّالاً ، فَسُئلوا فأفتوا بغير علم ، فَضَلّوا وأضلوا» [متفق عليه].

الجهل كارثة عظمى ، ومصيبة كبرى ، ومصير أسود ، وظلام مطبق ، وخطر محدق . الجهل جائحة على الدين ، ونازلة بالعلم ، وفاجعة للأمم ، إذا خيم في مكان خيم معه الشيطان ، فأقام أركانه ، وشيد بنيانه ، وإذا حل بأرض ، حل معه الدمار ، والهلاك ، والفساد والفجور ، والعجز . والجاهل عدو نفسه ، وعدو غيره ، وكفى بالجهل نقيصة أن لا أحد يرضى بالانتساب إليه ، فهو نقيض العلم ، وعدو الفهم ، ما تفشى الجهل في أمة إلا دمرها ، وما خيم في بلاد إلا أهلكها ، وما استوطن في ديار إلا محقها .

ما عبد مع الله غيره إلا بالجهل ، وما حورب أنبياء الله إلا بالجهل، وما تجرأ الناس على المعاصي إلا بسبب الجهل ، وما زهد الناس فيما عند الله إلا بالجهل ، وما حورب الإسلام ودعاته إلا بالجهل ، وما طاف أرباب القبور على القبور إلا بالجهل ، وما دعي غير الله إلا بالجهل ، وما عبد الناس الدرهم والدينار إلا بالجهل ، وما تخلف المسلمون عن غيرهم إلا بالجهل .

وإنّ قصدنا بالجهل هنا الجهل بالله تعالى وكتابه وسنة نبيه ﷺ ، ولا

نقصد به الجهل بمظاهر الحياة الدنيا ، وأسباب الحضارة المادية ، فالعلم بهذه الأمور إذا لم يكن معه العلم بالله وكتابه ، وسنة نبيه ﷺ فلا قيمة له ، ولا بركة فيه ، وقد ذم الله تعالى أربابه وسفه أصحابه ، فوصفهم بعدم العلم ، حتى وإن علموا شيئاً من مظاهر الحياة ، ومباهج الدنيا ، فقال سبحانه : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ [الروم : ٧] .

وقد وصف الله تعالى أعداءه بأن أكثرهم يجهلون ، ووصف تعالى المعرضين عن شرعه ، والمتنكرين لهديه ، بأنهم كالأنعام بل هم أضل منها وليس معنى ذلك أنهم أغبياء في أمور الحياة ، وجهلاء في أسباب المعيشة بل لجهلهم وإعراضهم عن العلم الأجل ، والفقه الأهم ، والفهم الأكمل ، فقال تعالى : ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وقد حذر الله تعالى أنبياءه وأصفياءه وأولياءه من طرق الجاهلين ، ومسايرة الغافلين ، ومتابعة الضالين ، فقال لنبيه محمد ﷺ ﴿ **فلا تكونن من الجاهلين** ﴾ [الأنعام : ٣٥] ، وأمره بالإعراض عنهم فقال سبحانه : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقال تعالى عن موسى – عليه السلام – : ﴿ **قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ [البقرة : ٦٧] .

وقال تعالى لنوح – عليه السلام – : ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ [هود : ٤٦] .

وقال عن يوسف وهو يلوذ بربه ويسأله أن لا يجعله من أرباب المعاصي ، وأصحاب الفواحش ، وممن يجهل قدر مولاه ، وعظمة خالقه ،

فقال : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أَصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ [يوسف : ٣٣].

وقال تعالى عن عباده المؤمنين : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص : ٥٥].

وقال تعالى عنهم : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [الفرقان : ٦٣].

ومن أعظم عقوباته تعالى التي ألحقها بأعدائه ، وأنزلها بألدائه أن منعهم من علم كتابه ، وفهم خطابه ، ومعرفة فقهه ، فقال عز وجل : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾ [الإسراء : ٤٦] ، وإن الجهل والغفلة صفة من صفات أهل النار : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، فالجهل خلق ذميم ، وطابع وخيم ، ونهج سقيم . وقد امتن الله جل وعلا على عباده بأنه أخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم فأنار بالعلم قلوبهم ، وفتح به أذهانهم ، وشرح به صدورهم ، وأذهب به أحزانهم ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ [المائدة : ١٦].

وقال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأُمِّيين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [الجمعة : ٢] ، وقد سخط الله على اليهود ولعنهم لأنهم علموا فلم يعملوا

بما علموا ، ومقت النصارى ووصفهم بالضلال لأنهم عبدوا الله على جهل .

وإن العلم بالشرع ، والفهم للعقيدة ، والفقه في الدين ، علامة بارزة للخيرية ، وسمة ناصعة للأولوية ، وهبة جليلة ربانية ، قال ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » [متفق عليه] . ومفهوم المخالفة ، أن من لم يرد الله به خيراً لا يفقهه في الدين ، وما أكثرهم في هذا الزمن ! ، فقد فقه كثيرٌ من الناس أمور الحياة ، وأسباب المعيشة ، وعلوم الدنيا ولكنهم جهلوا دينهم ، وضيعوا نهجهم ، وأطفأوا نورهم . جهلوا أن العلم بمراد ربهم وسنة نبيهم فريضة عليهم ، وضرورة لنجاتهم ، وأن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلما .

وقد أمرنا الله تعالى أن نفرح بفضله ، وأن نبتهج بشرعه ، وأن نأنس بكتابه ، وأن لا يكون فرحنا بما نجمع ، وسعادتنا بما نحصد ونزرع ، فقال جل من قائل : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٨] ، فعكسنا مفهوم الآية ، وجهلنا حقيقة الهداية ، فأصبح فرحنا بما نجمع من الدنيا ، وسرورنا بما نرصد من الأموال إلا من رحم الله ، أما الهداية والعلم والشرع والقرآن فضاقت بها الصدور ، وحادت عنها النفوس ، وأظلمت لفقدها القلوب ، إلا من رحم ربك ، ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ [الأنعام : ٣٦] .

فلا تصحب أخا الجهل ... وإياك وإياه
يقاس المرءُ بالمرء ... إذا ما هو ماشاه

وقد بين الله تعالى أن شر الدواب وأسوأ المخلوقات هم الذين عطلوا منافذ العلم عن سماع الهدى وقبول الحق ، والإذعان للرشاد ، وأنهم

لسوء نواياهم ، وخبث طواياهم ، حرمهم الله من نور العلم ، وبركة الفهم ، وحجب عنهم سماع الخير ، وقبول الهدى ، فقال عزّ من قائل : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون** ﴾ [الأنفال:٢٣] ، ثم يأتي بعد هذه الآية النداء لأهل الإيمان بأن لا يكونوا مثل هؤلاء في الإعراض عن الحق ، والحرب على الشرع ، والتنكب للهدى ، وأن يبادروا إلى حياة قلوبهم ، ونور صدورهم في كتاب ربهم ، ونهج نبيهم ﷺ فيقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ ولقد أمر المولى جل وعلا بالفقه والتفقه ، والعلم والتعلم وأن لا ينصرف الناس عنه حتى ولو كان ذلك للجهاد في سبيله ، والحرب على أعدائه ، فقال سبحانه : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

والناس في هذه الحياة مع العلم على أربعة أصناف كما قال ابن القيم – رحمه الله – :

الأول : من رزق علماً وأُعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل به وهذا الصنف هم خلاصة الخلق ، وهم الموصوفون في القرآن بقوله : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ [البقرة:٢٥] .

والثاني : من حرم هذا وهذا – يعني لا علم ولا عمل – وهم الموصوفون بقوله : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، وهذا الصنف هم شر البرية ، وهم وإن كانوا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، إلا أنها عليهم عمى ، لأنهم عن الآخرة هم غافلون ، وهم أناس بالصورة ،

شياطين بالحقيقة ، ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة** ﴾ [المنافقون : ٤] .

الثـالـث : من فُتح له باب العلم ، وأُغلق عنه باب العمل فهذا في رتبة الجاهل أو شرٌ منه ، وجهله كان أفضل له من علمه ، فما زاده العلم إلا وبالاً وعذابا .

الـرابـع : من رزق حظاً من العزيمة ، وحظاً من الإرادة ، وشيئاً من العمل ولكن قلّ نصيبه من العلم والمعرفة ، فهذا إذا وفِّق له الاقتداء بداعٍ من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾ [النساء : ٦٩] .

وقال – رحمه الله – : أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به النبي ﷺ والظلم باتباع أهوائهم ، الذين قال الله فيهم : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ [النجم : ٢٣] .

قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه وأرضاه – : «القلوب أوعية خيرها أوعاها للخير ، الناس ثلاثة : فعالم ربّاني ، ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق» .

ولقد أشاد المولى بالعلم وأهله ، وبين أنهم أهل الخشية ، وذوي الرفعة وأرباب النهى . ولقد أوردنا نصوصاً عظيمة في ذلك إبّان حديثنا عن العلم .

قال تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقال ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » [أخرجه البخاري] .

وقال ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم » [أخرجه ابن ماجة والترمذي] .

تعلم فليس المرء يولد عالماً
وليس أخو علم كمن هو جاهلُ
وإن كبير القوم لا علم عنده
صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المحافلُ

فيجب على المسلم أن يتعلم أمور دينه ، ومطالب شرعه ، ومباديء نهجه ، ثم إذا ما أشكل عليه أمر ، أو جهل حكماً يلجأ إلى ذوي العلم ، ويتجه إلى حملة المعرفة ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] .

فعلى المرء أن يجالس العلماء ، وأن يسألهم عن أمور دينه التي تشكل عليه ، وأن يلجأ إلى ذوي العلم والعمل ، والصلاح والتقوى .

يقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – : « اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم تُجَلَّى لهم أمور صادقة ،

وذلك لقـرب قلوبهـم من الله ، وكلمـا قـرب القلـب من الله زالـت عنه معـارضـات السـوء، وكـان نـور كـشفـه للحق أتم وأقـوى . والعلم نـور يـقذفـه الله في القلب ، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب » .

أيهـا الأحـبـة . . إن تـعظيم العلمـاء والأدب مـعـهـم أدب مع الله ومع رسوله ﷺ : ﴿ **ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ [الحج: ٣٢] ، ومن لـم يستنر بنورهـم ، فهو يسير في ظلماء ، ويتيه في دهـماء ، ويخبط خبط عشواء .

اللهـم إنا نسـألك علمـاً نافعاً وعـملاً صالحاً متقبلا ، اللهـم إنا نعوذ بك من علـم لا ينفع ، ومـن قلـب لا يخـشع ، ومـن نفـس لا تـشـبع ، ومـن دعـوة لا يسـتـجـاب لهـا ، اللهـم لك أسلمنـا ، وبك آمنا وعليـك تـوكلنـا ، وإليك أنبنا ، وبك خاصمنا ، وإليك حاكمنا ، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسـررنـا ومـا أعلنا ، أنت المقـدم ، وأنـت المؤخـر لا إله إلا أنـت ، اللهـم إنا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهـواء .

الفـــــراغ

الفراغ : سم قاتل ، وداءٌ مهلك ، ومرضٌ فتاك ، وخطرٌ محدق ، وعدوٌّ متربص ، الفراغ : مفسدةٌ للعقل ، مهلكةٌ للنفس ، متلفةٌ للدين مصيدةٌ للشيطان ؛ من رحم الفراغ تولد الضلالة ، وفي أحضانه تنشأ البطالة ، وفي كنفه تعيش الشبهة .

إن الشـــبـــاب والفـــــراغ والجـــــده
مـــفـــســـدة للمـــرء أي مـــفـــســـده

نعمة الصحة ، وهبة الفراغ يغفل عنها أناس كثير ، ويجهل أمرها عدد كبير ، التغافل فيها عظيم ، والتفاوت بسببها بيّن . نعمتان جليلتان، ومسألتان عظيمتان ، قال ﷺ : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» [رواه البخاري] ، فكم من صحيحِ الجسم ، ناعمِ الحال ، ممدودِ الوقت ، يعيش بلا أمل ، ويسير بلا هدف ، ويمضي بلا غاية ، لا يفرق بين الجد واللعب ، ولا بين الحزم والهزل ، ولا الغواية ولا الهداية ، يقطع وقته سدى ، ويعيش حياته عبثا ، قال سبحانه : ﴿**أفحسبتم أنما خلقنا كم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم**﴾ [المؤمنون : ١١٦].

المؤمن لا يضيّع صحة جسمه ، وفراغ وقته ، وزهرة حياته ، فيما يبعده عن ربه ؛ فهو يجعل الاجتهاد غنيمة صحته ، والعمل فرصة فراغه ويأخذ من صحته لسقمه ، ومن شبابه لهرمه ، ومن غناه لفقره ، ومن

فراغه لشغله ، ومن دنياه لآخرته . لا يقضي عمره في غير منفعة ، ولا يتلف جسمه في غير طاعه ، ولا يصرف أمواله في غير مصلحة . منطقه ذكر ، وصمته فكر ، ونظره اعتبار ، قدم العقل على الجهل ، والهدى على الهـوى . ومن تبع العـقل سلم ونجـا وأفلح ، ومن تبع مطالب الحس وشهوات النفس هلك ، لأن الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا وشهواتها والحياة وملذاتها ، وأما العقل فينظر إلى المخلوقات فيعلم وجود الخالق ، ويعلم أنه قـد منع وأباح ، وأجـاز وحـرّم وأخـبـر تعـالى أني سـائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودي عندكم بترك ما تشتهون طاعة لي . ومن عمل بمقتضى العقل سلمت دنياه وأخراه ، وكان عيشه أطيب من عيش صاحب الهوى ، وحياته أسعد من حياة عابد الشهوة ، وإنما فُضِّل العقل بتأمل العواقب ، فأما قليل العقل فإنه يرى الحال الحاضرة ، ولا ينظر إلى عاقبتها . فاللص يرى أخذ المال وينسى قطع اليد ، والبطال الفارغ يرى لذة الراحة ، وينسى ما تجني من فوات العلم والرزق ، وشارب الخمر يرى لذة تلك اللحظة وينسى ما تجني من الآفات ، وتجر من النكبات في الدنيا والآخرة ، وقس على ذلك . .

ويا عجباً لأناس يقتلون أوقاتهم ، ويلعبون بأعمارهم ، ويصرفون طاقاتهم في التسلية المحرمة ، والسياحة المشبوهة ، والأمكنة الموبوءة لا دين يردع ، ولا حياءٌ يمنع ، ولا قيمٌ تنفع ، صُمَّت آذانهم عن نداء المولى جل وعلا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** ﴾ [البقرة : ٢٤] وذهلت عقولهم ، وشردت أذهانهم عن خبر الصادق المصدوق ﷺ : «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه؟ ، وعن شبابه فيم أبلاه؟ ، وماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه؟ ، وعن علمه ماذا عمل به؟ » [رواه الترمذي] ،

والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وليس معنى هذا أن تكون الحياة كلها جدٌّ صارم ، وعمل مرهق ، وكد متواصل! فلا بد من ساعة وساعة ، ولا بد من جد وهزل ، وكدٍّ وراحة ، وتعب واستجمام فالنفوس تكل ، والأفئدة تمل ، وإنما يستعان على الجد بالترويح ، وعلى البذل بالترفيه ؛ فالترويح مطلوب ، والترفيه محبوب ولكنه ترويح شريف وسياحة محتشمه ، يرضى بها الرب ، ويسلم بها الدين ويُصان بها العرض ، وتسعد بها النفس ، وتستجم بها الروح ، ويفرح بها الأهل ، ويسر بها الأبناء . وكل ذلك في غير ضراء مضرّة ولا فتنةٍ مضلة ، بعدٌ عن مراتع اللهو ، وهجر لأماكن الخنا ، وارتداءٌ لجلباب الحياء .

إن الناس في الإجازة الصيفية والعطلِ الرسمية على مذاهب ، وكل ينظر لها بنظر ، ويترقبها لهدف ، وينتظرها لغرض ، ويعد لها عدة . الأنفس مترقبة ، والأذهان متوثبة ، والأرواح متأهبة ، وكل الناس يغدوا : فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ، موفق يترقبها ليشغلها بصنوف البر ، وأنواع الخير ، من طلب للعلم ، أو كسب للرزق ، أو صلة للرحم ، أو نشر للخير ، أو بذل للمعروف ، أو تسليةٍ للأبناء، وإرضاء للأهل ، وإدخال للسرور عليهم ؛ ليطرد عنهم كآبة الامتحان وملل الدراسة ، وهم السجن وراء حيطان المنزل ، كي يعودوا بروح متغيرة ، ودماءٍ متجددة ، وقلوب نابضة ، وهمم شامخة ، ومخذول قد أعدّ العدة ، وهيأ الأغراض وبشر الأبناء ، وفرح البنات ، ولكن بجولات تعيسة ، وأفكار رخيصة ، وأماكن كافرة ، ومنتجعات فاجرة ومراتع سافرة ، لا يُعرف بها دين ، ولا تحفظ بها كرامة ، ولا تصان بها أعراض . يهتك فيها ستر الحياء ، ويمزق جلباب الإيمان ، وتداس كرامةُ الإسلام ، ولكن إذا لم تستح فاصنع ما شئت! . لن أطيل في ذكر أنواع الأسفار ، ولن أتلبث في تعديد النوايا

والأفكار ، والمطامح والآمال ، فهي أمور معلومة ، وقضايا مكشوفة ، وكلٌّ أدرى بنفسه ، وأعلم بمراده .

فيا أيها المؤمن الغيور ، ويا أيها المسلم المحتشم ، هذا نداء مولاك جل وعلا : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾ [الكهف : ٢٨] ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ [البقرة : ١٦٩] ، ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر** ﴾ [النور : ٢١] .

وإنني أهتف إلى الأسماع بموعظة صادقة ، وأخاطب القلوب بنصيحة ماجدة ، وكلمة جامعة مانعة ، نقلتها عن أبرّ الناس ، ورويتها عن أصدق الناس ؛ هو حديث عظيم ، وخبر هائل ، تهتز له النفس ، ويسعد به القلب ، ويرقى به الفكر ، ولنا معه وقفةٌ أطول ، وشرح أكمل ، ولكنني أذكركم بكلمتين منه ، ولفظتين فقط ، لو أخذ بها الناس لكفتهم ، ولو أصغى لها الملأ لحفظتهم ، وهي قوله ﷺ : «احفظ الله يحفظْك» ، احفظ الله يحفظك» فمن حفظ حدود الله ، وحفظ حقوقه ، وحفظ أوامره ، وحفظ نواهيه ، كان جزاؤه أن يحفظه الله تعالى . فيا أيها المؤمن عش ناعم البال ، وسر مطمئن الخاطر ، وسافر هادئ النفس ، وارتحل سالي الفكر ، إذا كان الله حافظك ، والمولى حارسك ؛ احفظ الله في دينك ، احفظ الله في نفسك ، احفظ الله في أهلك ، احفظ الله في أبنائك وبناتك ، يحفظك الله في دينك ، ويحفظ عليك صحتك ، ويحفظ لك أهلك ، ويحفظ لك أموالك ، قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين**

آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ... ﴾ ووقاية الأنفس والأهل أي حفظهم من دروب الضلال ومهاوي الردى ، وأسباب الفتن ومن ضيع نفسه ضيعه الله ، ومن ضيع دينه ضيعه الله ، ومن نسي ربه نسيه ربُّه ، قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٧] .

وأخيراً بمناسبة الحديث عن السياحة .. إن هذه البلاد قد منَّ الله عليها بمدنٍ جميلة ، ومصايف رائعة ، ومناظر خلابة ، وأماكن جذابة ، وقد اعدت عدتها ، وفتحت ذراعيها لتستقبل زوارها ومحبيها في جو رائع ، ومنظر خلاب ، ومظهر محتشم ؛ تزينت بالدين ، وتجملت بالطاعة ، وتميزت بالحياء ، وسلمت من الوباء . دينٌ ظاهر ، وأذان يُرفع ، وصلاة تقام ، وقرآن يُسمع ، فلا تتركوها إلى غيرها ، ولا تهجروها إلى سواها ، ليسلم لكم دينكم ودنياكم ، ومن حفظ الله حفظه الله .

طريقـــك للنجـــــاح

قال الله تعالى : ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ [النساء : ١٩] .

قد يكره الإنسان شيئاً ، وتظلم حياته ، وينغص عيشه لضجره من هذا الشيء ، سواءً أكان ذلك الشيء هدفاً لم يتحقق أو أمراً وقع وهو لا يريد وقوعه . والإسلام يعلم الإنسان درساً مهماً وهو أن يزرع بوارق الأمل في نفسه دائماً ، وأن لا يضيق ذرعاً أو يحمل هماً لأمر كرهه وتبرم به ، فيجب أن تُفتح أبواب الأمل ، وتشبع روح التفاؤل ، ويتحصن بحسن الظن والرجاء ، ولم تقل الآية خيراً فقط بل قد يكون من جرّاء هذا المكروه خيرٌ كثير ، فقد يكون الخير في ثنايا الشر وإن لكل شدة فرجاً ، ولكل ضيق مخرجاً ، ولكل عسر يسرا .

كثير من الناس في هذه الأيام يعيشون حالة من التوتر ، وأنواعاً من التعصب ، وألواناً من الهم ، وأشكالاً من الغم : ليلهم أرق ، ونهارهم نكد ، مساؤهم رجاء ، وصباحهم عناء ؛ الأعصاب متوترة والأذهان قلقة والأنفس متوثبة ، والقلوب مشغولة ، وذلك بسبب عدم القبول في الجامعات أو الكليات أو المعاهد أو ما شابه ذلك . فكثير ممن لم يحالفه الحظ ، ولم يكتب له القبول ، ولم تتح له الفرصة ، بدأوا ينظرون إلى الحياة نظرة سوداء ، وبدأ القلق والاضطراب والوساوس تصوب سهامها إلى قلوبهم وعقولهم حيث وجدت لها مرتعاً خصباً ، وميداناً رحباً ، وكأن

الدنيا أغلقت أبوابها في وجوههم ، وكأن الحياة أعلنت ساعة الصفر لرحيلهم ، وكأن أبواب الأمل أوصدت ، ودروب الرجاء أقفلت ، ومصادر الرزق قطعت ، وهذا من ضيق الأفق ، وقلة الفهم ، وضعف اليقين ، ونقص التوكل ، وبرود الهمم ، وخور العزائم .

إن المسلم بعزيمته يتغلب على الصعاب ، ويتحدى التحديات ، ويصارع الأحداث . إذا أقفل باب فالأبواب متعددة ، وإذا تعذر مجال فالمجالات متنوعة ، إنك حينما تنظر بعين البصيرة إلى مثل هذه الأمور تجد أن الاتكالية المفرطة ، والخمول المتأصل هما اللذان يجعلان المرء يقلق لمثل هذه الأمور . فالإقبال المتزايد على الجامعات والكليات ليس كله رغبة في العلم وحرصاً على المعرفة ، وطرقاً لأبواب الفكر ، بل جلّه بحثاً عن الوظيفة ، وطلباً للمعاش بطريقة سهلة ، وجهد يسير ، وهذه الوظائف مهما كان من نفعها فقد بثت في النفوس الكسل ، وزرعت في القلوب الوهن والاتكالية ، والرضى بالواقع ، وأصبح المرء رهن راتب يتقاضاه آخر الشهر ، ولا يأتي الشهر الآخر إلا وقد بسط يده وفتح فاه ينتظر الجرعة الأخرى وهكذا دواليك . إنني أقول لكل من لم يُقبل ملفُّه ، ولم يُلتفت إلى أوراقه لا تحزن لا تهتم ، لا تغتم ، فقد يكون الخير كل الخير فيما كرهت ، قال سبحانه : ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ [البقرة : ٢١٦] .

من كان حريصاً على العلم ، محباً للمعرفة ، فإنها ليست حكراً على الجامعات والكليات ، وصاحب الهمة العالية ، والعزيمة المتوقدة لا يقف في طريقه لتلقي العلم شيء . وإن عظماء العالم ، وأساطين الدنيا لم يقف أكثرهم على جامعة ، ولم يتردد معظمهم على كلية وانظر إلى

الثلة المثلى من علمائنا فهم خير مثل لذلك ، فامض في تحصيلك ، وسر في سبيلك ، وسوف يأتي اليوم الذي تسعى إليك الجامعات بدلاً من سعيك إليها بإذن الله تعالى .

ومن كان حريصاً على الوظيفة ، ومهتماً لكسب المال ، ومتحفزاً لحصول الرزق فلم تكن الجامعات والكليات في يوم من الأيام مصدراً للثراء ، وطريقاً للنماء ، وبوابة إلى الغنى ؛ بل قد يكون العكس من ذلك . فلماذا الحزن ، ولماذا الألم ، ولماذا القلق من عدم القبول؟! ، إن أبواب الرزق مشرعة ، وسبل العيش مفتحة ، والرزاق موجود ، ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون**﴾ [الذاريات : ٢٢] ، ونحن والحمد لله في بلد لا زال في عنفوان انطلاقته ، وشباب نهضته ، وهو بأمس الحاجة إلى مواهب متنوعة ، ومجالات متعددة .

أيها الآباء والأمهات ، أيها الأبناء والبنات ، لا داعي للقلق ، ولا مجال للهم ، وإليكم بعض التوجيهات الصادقة ، والتنبيهات الحانية والفوائد النافعة :

١ - لا تكرهوا من أمر الله شيئاً ، فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً .

٢ - الرضى بقضاء الله تعالى واختياره لكم ، وفي الحديث : «لا يقضي الله قضاء للعبد إلا كان خيراً له» .

٣ - حسن الظن بالله تعالى ، وحسن الاتكال عليه ، فإن كثيراً من الناس في غمرة الأحداث والمتاعب يتصور أن الرزق والخير هو فيما أمّله من الأمور ، وينسى أن الرزاق هو الله تعالى ، وأن خزائن السموات والأرض بيده ، فأحسِن الظن بالله ، وأحسِن التوكل عليه ، واعلم

أنه تعالى عند حسن ظن عبده به .

٤ – الصبر وانتظار الفرج ، «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا» [رواه أحمد] .

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً
فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

قال تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾ [الطلاق : ٤] .

كم فرج بعد إياس قد أتى
وكم سرور قد أتى بعد الأسى
من يحسن الظن بذي العرش جنى
حلو الجنى الرائق من شوك السفا

«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [رواه مسلم] .

٥ – التفاؤل : فإن المسلم يجب أن ينظر دائماً نظرة ملؤها الأمل والرجاء والتفاول ، وأن ينظر إلى الجانب المشرق من الأحداث ، وقد كان ﷺ يعجبه الفأل الحسن .

إن من ينظر إلى الحياة بنظارات سوداء يعيش كئيباً في ظلام سرمدي ونكد متواصل ؛ يسقم عقله ، ويهزل ذهنه . والمتفائل الجاد يزن كل شيء بدقة ، ويلاحظ النفع كما يلاحظ الضرر ، ويبصر الحسنة كما يبصر السيئة في تفسيره للحوادث .

٦ – ابتسم في وجه الأحداث ، واضحك وأنت تتلقى الصعاب ، ولا

تستسلم للأوهام والوساوس والقلق ، فالحياة كلها ليست إلا تمارين واختبارات وابتلاءات . والدنيا لا تعبس في وجه من يبسم لها ، ولا تظلم في عقل منير ، ولا تضطرب في قلب طاهر فلماذا الكآبة ، ولماذا القلق ولماذا التشاؤم؟ ، اعمل ، اجتهد ، لاحظ ، راقب ، افرح.

والعاقل الحصيف هو الذي يعجل فيبدد السحب التي تغشى ذهنه وتفكيره أحياناً ، ويسترجع تذوقه لجمالات الحياة وأفراحها ، وينطلق انطلاقة جديدة طموحة . والمبتسم في وجه الأحداث ليست ابتسامته العذبة دوماً عن فرح وسرور ، ولكنها ابتسامة يفرضها على نفسه ويرسمها على شفتيه في الساعات الحرجة بقوة وتجلد ؛ ثقة منه بالخير ، ورضى بالقدر ، وحسن أمل في المستقبل .

قلت ابتسم يكفيك أنك لم تزل
حياً ولست من الأحبة معدما
قال الليالي جرعتني علقماً
قلت ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنِّماً
طرح الكآبة جانباً وترنَّما

قد يقول قائل ، فإذا لم يقبل الإنسان في مجال من هذه المجالات ، وأخذ بهذه النصائح ، فصبر واحتسب ورضي بالقضاء ، وابتسم في وجه الأحداث ثم ماذا بعد؟ ما هو الحل؟ ما هو المخرج ؟ ما هو الدور الذي يؤديه ؟ كيف يبدأ ؟ كيف ينجح ؟ كيف يعوض ذلك ؟ هذه بعض الوصايا السريعة ، والطرق النافعة أسردها بإيجاز لكل من أراد أن يطرق مجالاً من مجالات الحياة ، ونشاطاً من نشاطات البحث عن السعادة

والرزق والبعد عن البطالة ، وليست خاصة بالطلاب الذين لم يقبلوا فقط بل يستفيد منها كل أحد ، يستفيد منها المتخرج الذي لم يحصل على وظيفة ، ويستفيد منها المتقاعد ، ويستفيد منها كل راغب في النجاح ومحبٍّ للتفوق :

١ – إخلاص النية لله تعالى ، وأن تزرع في قلبك حب الخير لك وللآخرين ، وأنك تأمل أن تكون عضواً نافعاً ناصحاً لدينك وأمتك ومجتمعك وأقاربك ، وأنك لا تريد أن تكون عالة على الناس ، وكلاً على أحد .

٢ – الاتكال على الله تعالى ، وطلب المعونة ، واستمداد التوفيق منه جل وعلا ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [الطلاق : ٣] .

٣ – إعمال الذهن وحسن التفكير قبل البدء في أي أمر من الأمور ، يجب أن تعطي فكرك وخيالك فترة من الزمن للتفكير الثاقب فيما يمكن أن يناسب مزاجك ، ويجد طريقاً للنجاح ، فكر بالنجاح ، وتحدث عن النجاح ، وعليك أن تصغي لدليلك الداخلي ، وما ينبعث من أعماق النفس لتتلقى إلهامات مفيدة تمشي بموجبها .
واعلم أن المرء يربح نصف المعركة بمخيلته الخصبة وتفكيره الخلاق ، ويربح النصف الآخر بتحقيق المشروعات التي ارتسمت في الذهن .
واعلم أن فكرة واحدة مدروسة قابلة للتنفيذ خير من مئة فكرة يهمل صاحبها تنفيذها ولا يشترط لكل فكرة رأس مال ضخم ، بل قد تبدأ مشروعاً من لا شيء . ومن أطرف ما قرأت في ذلك قصة رجل أمريكي سُرّح من عمله بغتة لاستغنائهم عن خدماته ، ولم يكن لديه شيء يقتات به ، ولا رأس مال يبدأ به ، فذهب إلى

خارج المدينة واستأجر غرفة قديمة في مزرعة ، وكانت الغرفة وما حولها مليئةً بالقمائم ، فبدأ بتنظيف المكان ، فإذا به يلاحظ أسراباً من الدود المتجمع على هذه القمائم ، وكان هذا الموقع قريباً من البحر، فخطر في ذهنه أن يأخذ من هذا الدود طعماً يصطاد به السمك فنجحت فكرته ، فعدل عن تنظيف المكان من الدود ، وعمل حوضاً من الإسمنت يجمعه فيه ، ليكون جاهزاً وقت اصطياد السمك ، فخطر في ذهنه أن يأخذ من هذا الدود ويبيعه على الصيادين بسعر زهيد فوجد إقبالاً على فكرته فوسع الدائرة ، وبدلاً من قتل الدود أخذ يُسمّنه ويربيه ، ويبيعه على الصيادين مما دفعه إلى إنشاء مزرعة كبيرة سماها مزرعة «الدودة السمينة» وأصبح بهذه الفكرة الساذجة من الأغنياء الكبار ، وعلى سذاجة الفكرة فإنها تعلمك عدم اليأس والقنوط والاستسلام للعجز والبطالة .

ولسنا بحاجة إلى مثل هذه القصص فديننا علمنا أهمية العمل والبذل وعدم الرضى بالعجز والكسل والذلة وسؤال الناس ، وأخبرنا أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

وقال ﷺ : «لأن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه» [رواه البخاري] ، وقال ﷺ : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ،وإن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده» [رواه البخاري] .

٤ – يجب أن لا يختار الإنسان من الأعمال والأنشطة إلا ما تميل إليه نفسه ، ويحبه قلبه، واعلم أن أخطر مشروعين في حياتك هما :

أ – اختيار نوعية العمل الذي سترتبط به في حياتك .

ب – اختيار الزوجة التي ستكون رفيقة دربك ، وإني أعجب من أناس يقبلون على أعمال معينة ، ومشاريع محددة وهم لا يحبونها ولا يميلون إليها ، فغالباً ما يكون مصيرها الفشل ، بل إن الطلاب الذين يتقدمون للجامعات والكليات كثير منهم يأتي وليس له هدف محدد ، أو طموح معين ، فكل همه أن يقبل فقط ، وفي أي قسم كان ، وقد لا يكون له ميل للدراسة أصلاً ، وقد لا يكون له ميل لبعض الأقسام التي التحق بها . والنتائج الوخيمة لهذه التصرفات تظهر منذ السنة الأولى ، حيث تجد مئات من الطلاب في قائمة المفصولين لفشلهم في الدراسة ، فلماذا ضيعوا هذا الوقت من أعمارهم ولماذا لم يبحثوا منذ الوهلة الأولى عن ما يعتقدون أنه يناسبهم ، وأنهم قد ينجحون فيه .

٥ – الاستشارة والاستخارة «فما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا افتقر من اقتصد» ومن أُعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل .

إن اللبيب إذا تفرق أمره
فتق الأمور مناظراً ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه
فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وإذا استخار الرجل ربه ، واستشار صحبه ، وأجهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ويقضي الله تعالى في أمره ما يحب .

٦ – الثقة بالنفس والسيطرة عليها . لكي تنجح عليك أن تخوض المعركة أن تلقي بنفسك في الميدان ، بكل عزم ومضاء وثبات وأن تقاوم كل

ما تلقاه من عراقيل ، وكل ما يعوق سيرك من عقبات ، ولن تستطيع أن تقف هذه المواقف إذا كنت هزيل الثقة بنفسك ، ترتجف لأدنى ضجة ، وتهرب لدى أول عقبة ، وتخشى أي اصطدام ، واجه العقبات برباطة جأش ، وقوة جنان ، قال تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ [العنكبوت:٦٩]

قرأت عن أحد أثرياء العالم أنه رهن مصاغ زوجته في بعض الأزمات عدة مرات ، وأنه كفله بعض أقاربه في الديون أكثر من ست مرّات ، ومع ذلك صبر وصابر ، وتعب وثابر حتى نجح .

٧ – الصبر والإصرار ، فليست دروب المجد سهلة .

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وإن المرء حتى ولو كان قليل الموهبة والكفاءة ، يبلغ بالجهد والنشاط والمثابرة والصبر والمصابرة مالا يبلغه العبقري حين يهمل نفسه ولا يسيطر عليها .

٨ – عدم اليأس ؛ احذر اليأس ، والقنوط والتشاؤم ، وتوقع الخير في مستقبلك ، ووسع أفقك ، وأحسن الظن بالله .

٩ – في أوقات فراغك وترقبك لفرصة عمل أو مشروع ، احرص على الاستفادة من وقتك بتعلم كثير من الأمور التي أصبحت من الضروريات مثل تعلم «الكمبيوتر» ، أو اللغات الأخرى ، أو فن الإدارة ، أو الالتحاق بأي دورة من الدورات المفيدة .

١٠ – لا تتعلل بأنك لست نابغة ، ولا أن الظروف لا تواتيك ، ونحو

ذلك ، فالعالم لا يحتاج إلى النوابغ وحدهم ، والنجاح ليس مقصوراً على النابغين وحدهم ، وبذرة الجوافة ليس من حقها أن تطمح في أن تكون شجرة مانجو أو شجرة تفاح ، ولكن ما ضرها أن تكون شجرة جوافة حلوة لذيذة ، والحياة تتطلب الجوافة كما تتطلب التفاح .

١١ - من أحسن الوسائل للنجاح أن يكون لك مثل أعلى عظيم تطمح إليه وتنشده دائماً ، وتضعه نصب عينيك ، وتسعى دائماً للوصول إليه . واعلم أن من عزم أن يسير كيلومتراً واحد أحس بالتعب بعد الفراغ منه ، ومن عزم على السير خمسة كيلو مترات سيقطع اثنين أو ثلاثة من غير تعب لأن غرضة أوسع وهمته أكبر .

واعلم أن نجاح الإنسان في الحياة ليس بما حصله من مال أو منصب فقط .

إن الغنى والنجاح إذا طلب يجب أن يطلب بجانبه غنى النفس وتسليحها بحب الخير والعمل للخير «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» [متفق عليه] .

«واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك» [رواه أبو داود وابن ماجة] ، «وقد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه» [رواه مسلم] ، ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ [هود : ٦] .

وفقك الله لما يحب وأخذ بيدك لكل خير ، ويسر لنا ولك دروب الرزق ، وطرق الفلاح والنجاح إنه سميع مجيب ،،،،

الامتحانات

هذه أفكار متناثرة ، وخواطر عابرة ، ومشاعر زاخرة ، قد يبدو بينها تباعد ، ولكنه يلفها سور واحد ، وهدف ماجد .

فهي وحي الموقف ، وصدى الواقع ، وثمرة التأمل ، ونتيجة المعاناة ، وتصوير الحال . خواطر لم تأت من فراغ ، ومشاعر لم تصطنع من عدم ، بل هي أثرٌ لتأثير ، وفكرٌ لتفكير ، وعِبرٌ للتذكير .

إننا نعيش في أيام الامتحانات في تحفز وتوتر ، وتطلع وترقب ؛ همٌّ ونصب سهر وتعب ، رَغَبٌ وَرَهبْ .

إن الامتحانات محنة للقلوب ، وفتنة للنفوس ، وكدٌّ للأذهان ، وتعب للأبدان . الأب يفرغ نفسه ، ويبذل ما في وسعه ، ويسخر وقته وجهده ، وماله ورفده ، وكل ما أوتي من قوة وأعطي من فتوة .

والأم فكرها يتكدّر ، وقلبها يتفطر ، تتجاذبها مشاعر الخوف والقلق والرقة والعطف ، والشفقة والرحمة ، فتراها تجري بين أولادها وبين محرابها ؛ تارة تهيء لهم ما يشتهون ، وتقرب ما يرغبون ، وتارة إلى سجادتها تصلي وتدعو ، وتتوسل وترجو ، ثم هي تحرص على توفير الهدوء وتهيئة الجو ، وتكتم أنفاسها وأنفاس صغارها حتى تكاد تخنقهم أحياناً لكي لا يؤذوا إخوانهم بالصياح ، أو يعثروا عليهم مسيرة النجاح .

والأبناء والبنات في فكر واستغراق ، تكاد تسقط الأحداق على الأوراق ، يضني أجسامهم الأرق ، ويكاد يودي بهم القلق .

هذا غيض من فيض ، وقطرة من بحر مما تعيشه البيوت ، وتمر به الأسر ويعانيه البشر في مثل هذه الأيام ، مع العلم أن هناك أناساً خلوٌ من هذا كله . فهم لا في العير ولا في النفير ، ولا فرق عندهم بين القمَّة والحضيض ، ولا بين الوزير والأجير ، قلوبهم ميتة ، ومشاعرهم باردة وأحاسيسهم خامدة .

أيها المؤمنات والمؤمنون ، أيها الآباء والمربون ، أيها المدرسون والدارسون ، تعالوا بنا نتذاكر عدداً من القضايا ، ونزْراً من الوصايا ، وتحفاً من الهدايا ؛ خواطر يسيرة ، ووصايا قصيرة ، ومواعظ مثيرة ، نقطفها من ثمار الاختبار ، ونسجلها من اسطوانات الامتحانات .

الخاطرة الأولى :

وجوب الوقوف بجانب الأبناء في هذه الأيام بالحث والتشجيع ، والمساعدة والمساندة ، والترغيب والترهيب ؛ نهيء لهم الجو المناسب ونيسر لهم المطالب ، ونذلل أمامهم المصاعب ، واعلموا أن الترغيب أفضل من الترهيب ، وبث روح التفاؤل أجمل من سريان ريح التشاؤم .

الخاطرة الثانية :

زرع الإخلاص في نفوسهم ، وبث الإيمان في قلوبهم ، وتعليمهم أن المسلم يجب أن يخلص أعماله كلها لمولاه ، ويخافه ويخشاه ، وأنهم يتعلمون ليطردوا عن أنفسهم الجهل ، ولينفعوا أمتهم ، ويخدموا دينهم ويرتقوا بمجتمعهم ، فإن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطأوا فلهم أجر الإخلاص ، وإحسان القصد ، ونقاء النية .

الخاطرة الثالثة :

المسلم كل يوم في امتحان ، والعجب منا أننا نبذل كل ما في وسعنا ونقدم كل ما في طاقتنا لكي يفوز أبناؤنا في الامتحان ، ونفرح غاية الفرح إن فازوا ، ونحزن غاية الحزن إن أخفقوا ، وهذا لا بأس به ، ولكن لماذا لا نحزن لهم إذا رأيناهم يخسرون الفوز الأهم؟ ، ويضيعون الهدف الأعظم؟ ، هذا الامتحان هو امتحان دنيوي لا يترتب عليه سعادة ولا شقاوة في الآخرة ، ومع ذلك نوليه غاية الاهتمام ، ونعطيه جل الرعاية ، فياليتنا نعينهم على الفوز الكبير كما أعناهم على الفوز الصغير . إن المسلم كل يوم في امتحان ، يمتحن ويختبر بأوامر الله ونواهيه ، إذا قام بالأوامر واجتنب النواهي فقد فاز في يومه ذلك وادخر أجره هنالك .

الخاطرة الرابعة :

تذكر الامتحان الأعظم ، وإعداد الإجابة لما أمامنا من الأسئلة ، فلا بد للسؤال من جواب ، فيا بشرى لمن أجاب وأحسن الجواب . ولنعلم أن أسئلة الدنيا ، وامتحان البشر يمكن التحايل عليه ، إما بالواسطة ، أو الغش ، أو الرشوة . ولكن الأمر هنالك عسير ، والموقف بين يدي الله خطير ، قال سبحانه : ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذي خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ [الأعراف : ٨] .

الخاطرة الخامسة :

الأمانة : الأمانة حمل عظيم ، وأمر جسيم ، قال تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، الأمانة أمر شامل ، ومعنى جامع ، يشمل التكاليف الشرعية كلها ، وأعمال الإنسان دقها وجلها ،

فالأبناء أمانة ويجب القيام بهذه الأمانة خير قيام .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنت تعلمون ، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

وإن الأمانة التي يجب التنبه لها ، والاهتمام بها ، أمانة المدرس مع طلابه ، والمعلم مع تلاميذه ، فمن الناس من يتهاون بها ويفرط فيها . فالتدريس أمانة ، وإذا أخفق الطالب وضعف المستوى بسبب إهمال المدرس وتقصيره ، فقد خان الأمانة وغش الأمة .

ووضع الأسئلة أمانة ينبغي اختيارها بعناية ، وانتقاؤها بدراية ، فلا توضع أسئلة القصد منها تعجيز الطالب ، والهدف منها تقنيط الدارس! وفي المقابل لا توضع أسئلة ساذجة ، واختبارٌ سخيف ، يفرح به البليد ، ويصدم به المجتهد ، بل خير الأمور الوسط!! .

والمراقبة في الامتحان أمانة ، فلا نستأسد على بعض الطلاب ونحد البصر لهم ، ثم نلين الجانب لغيرهم ، ونطلق الابتسامة لآخر لأنه قريب أو حبيب أو ابن زميل أو صديق! .

والتصحيح أمانة بل وأمانة عظيمة ، يجب على المسلم أن يتقي الله فيها ، وأن يعطي كل ذي حق حقه ، وأن لا يداهن ولا يجامل ولا يغش ، فإنه بذلك يضيع الأمانة ، ويدمر الجيل ، ويعلم الخيانة ، ويزرع الأحقاد ، ويعرض نفسه لسخط الجبار ، وغضب القهار .

قال سبحانه : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا ﴾ [النساء : ٥٨] .

حقيقـــة الخســـارة

الخسارة لفظ مزعج ، وكلمة ممقوته ، وعبارة بغيضة ، ومصير مؤلم ، الكل يتحاشاها ، والجميع يتفاداها ، لا يحبها أحد ، ولا يتمناها بشر ، مربكة للعقول ، قاصمة للظهور ، مدمرة للبيوت . تسهر الأعين لتسلم الخسارة ، وتكد الأذهان وتتعب الأبدان لتنجو من الخسارة ، ومع ذلك فمن الناس من يقع في شراكها ، ويتردى في أوديتها ؛ فالخاسر عينه ساهرة ، وطرفه باكٍ ، وحياته كئيبة ، وعيشه جحيم ، وحياته عذاب .

هذا بالنسبة للخسارة الدنيوية التي تعارف عليها البشر ، ولكن هنالك خسارة لا يعدلها خسارة ، وحرمان لا يوازيه حرمان .

وقد تكون خسارة الإنسان في الدنيا سبباً لفوزه في الآخرة ، وقد يكون فوز الإنسان في الدنيا خسارة له في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ [العصر : ٣] .

من هم الخاسرون ؟

١ - الكفر بالله :

﴿ **الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون** ﴾ [العنكبوت : ٥٢] ، ﴿ **والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون** ﴾ [الزمر : ٦٣] .

٢ - الشرك بالله :

﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [الزمر :٦٥].

٣ - اتخاذ الشيطان ولياً من دون الله تعالى :

﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبينا ﴾ [النساء : ١١٩].

﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ [النساء : ١٢٠].

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ [المجادلة : ١٩].

٤ - الصد عن سبيل الله :

﴿ الذي يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء * يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون * أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون * لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ [هود :١٩].

٥ - طاعة الكفار والركون إليهم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ [آل عمران : ١٤٩].

٦ - عبادة الله على حرف ، وطاعته على حسب المصلحة :

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الحج : ١١].

٧ - الاشتغال بالأهل والأموال والأولاد عن طاعة الله وحسن عبادته :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ [المنافقون : ٩] ، ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ﴾ [نوح : ٢١].

٨ - من خسر نفسه وأهله يوم القيامة :

﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الزمر : ١٥] ، ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾ [الزمر : ١٦].

وقال تعالى : ﴿ وتراهم يُعرضَون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفيٍ ، وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القِيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ [الشورى : ٤٥].

٩ - التكذيب بلقاء الله :

﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون * وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ [الأنعام:٣٢].

﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ [يونس : ٤٥].

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ [النمل:٤].

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه

فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ [الكهف: ١٠٥].

١٠ - من خفت موازينه فجاء بأعمال ناقصة، وعبادات باهتة:

﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ [الأعراف: ٨].

﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

١١ - من لم يسلم المسلمون من شرّه، ولم ينج المؤمنون من أذاه:

قال ﷺ: «أتدرون من المفلس؟»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» [رواه مسلم].

الغش

هذا الدين قائم على الطهر والنقاء ، والوضوح والصفاء ، والصدق والوفاء ، واضح في أحكامه ، جلي في تشريعاته ، صادق في توجيهاته ، إنه نور يشرق ، وضياء يتلألأ . واضح وضوح النهار ، ساطع سطوع الشمس ، نقي نقاء الماء الزلال . ﴿**نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ [النور : ٣٥] .

نور يبدد ظلمات الجهل ، ويطرد غياهب الخنا ، ويمقت دهاليز الرذيلة يرفض الغموض ، ويبغض الالتواء ، ويكره المخادعة ، شعائره لا تؤدَّى في سراديب مظلمة ، ولا زوايا مختبئة ، ولا أنفاق معتمة ، فهو قائم على الوضوح والصفاء في المظهر والخبر ، والسر والعلن ، والليل والنهار ، وأتباعه يجب أن يجللهم هذا الصفاء ، ويعمهم هذا النقاء ، ويسودهم ذلك الوضوح .

دعاهم إلى جمال الظاهر ، وحسن السمت ، وروعة الهندام ، وطهارة البدن ، وأمرهم بصفاء النفس ، وطهارة الفؤاد ، ونقاء القلب وسلامة الصدر ، والصدق في القول والعمل ، بل جعلها هي الأصل ، وبين أنها محل نظر الرب فقال : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [مسلم : ٢٥٦٤] .

ولقد حذّر القرآن الكريم ، وحذّر النبي ﷺ من كل الصفات التي تنافي جمال الظاهر والباطن ، وتخالف صدق المظهر والمخبر ، وتتنافى مع

صفاء الدين ووضوح الشرع ونصاعة المنهج ، ومن أسوأ الصفات التي نهى عنها الإسلام وحذّر منها الدين : ***الغش*** .

الغش كلمةٌ مأخوذة من الغشش وهو المشرب الكدر ، وللكلمة معانٍ عدة متقاربة فالغش بمعنى عدم النصح ، وبمعنى الغل والحقد ، وبمعنى ما يخلط من الرديء بالجيد ، وبمعنى سواد القلب وعبوس الوجه .

ومفهوم ***الغش*** مفهوم واسع ، فهو ليس فقط في البيع والشراء بل هو أشمل من ذلك وأعم ، فكل ما لم يصدق فيه المرء من نية أو قول أو عمل فهو غش ، والغش بكل أنواعه وجميع أقسامه يشمله حديث من جوامع كلمه ﷺ وهو قوله : «من غش فليس منا» [صحيح الجامع : ٦٤٠٦] فهذا تبرؤٌ من الغاش ، وتنكّر للخائن ، وثورة في وجه المخادع .

إن ***الغش*** من كبائر الذنوب ، وعظائم المعاصي ، وفظائع الخطايا ، يدل على خبث النفس ، وظلمة القلب ، وسواد الفؤاد ، وقلة الدين وسنوجز القول في بعض أنواع الغش لنبين فداحة أمره ، وسوء عاقبته وخبث سبيله .

أولاً : الغش للنفس :

إن أعظم أنواع الغش أن يغش الإنسان نفسه فلا يصدق لها في النصيحة ، ولا يقيمها على الدين ، ولا يهذبها بالشرع ، ولا يزكيها بالهدى ، وقد قال تعالى : ﴿**قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها**﴾ [الشمس : ١٠] ، فالذي غش نفسه مصيرة الخيبة وعاقبته الخسران ﴿**أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾ [آل عمران : ١٦٢] .

ثانياً : الغش في البيوع والمعاملات :

هذا ميدان الغش الواسع ومجاله الفسيح ، تزل فيه الأقدام وتكثر فيه الآثام ، ويتهاوى فيه الأنام إلا من رحم الملك العلاّم .

انظر إلى أرباب التجارة وأصحاب الحرف وذوي المهن وملاّك البضائع قليل منهم من يصدق في تجارته ، وينصح في بضاعته ، ويخلص في مهنته ، أما الأغلبية الساحقة فغش وخداع ، وزور وبهتان ، وكذب وخيانة ، وغدر وتغرير ، وبخْسٌ وتزوير .

إن ***الغش*** كبيرة من الكبائر ، ومحرّم أشد التحريم ، موجب لمقت الله جالب لسخطه ، سبب في عقوبته إنه أكل للمال بالباطل ، وإنبات للجسم من الحرام والسحت وأيما جسم نبت من حرام فالنار أولى به .

إن المجال لا يسمح لعرض كثير أنواع الغش في البيوع والمعاملات فهي أكثر من أن تحصى ، ولكن الحلال بيّن والحرام بيّن ، والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطّلع عليه الناس . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم** ﴾ [النساء : ٢٩] فنهى سبحانه عن أكل الأموال بالباطل والغش من الباطل ، وبيّن أن التجارة لا تحمد ولا تحل إلا إن كانت عن التراضي من الجانبين والموافقة من الطرفين ، وذلك لا يكون إلا بالصدق في البيع والبعد عن الغش والسلامة من الكذب .

كم من مسلم جمع أمواله وضيق على نفسه ومكث عمراً طويلاً يضع الريال على الريال أو الدرهم على الدرهم ليشتري سلعة يستعين بها في مسيرة حياتة ، ويصون بها نفسه ، ويسعد بها أهله من عقار أو سيارة

أو ماكينة . . أو غير ذلك ، ثم يضع ثقته في إنسان يتوهم في التدين ، ويظن به الخير ، فيوهمه بروعة السلعة ، وحسن فائدتها ، وعظم جودتها وزهادة سعرها ، وقد يغلف ذلك الكلام بأيمان مغلظة ، وحلف فاجر ، وبتمثيل خبيث ، وهو قد دَسَّ السم في العسل ، ونوى على الغش والدغل ، فينخدع له المسلم ، وينفر به المؤمن ، فيقع في الفخ ، ويذهب ضحية الغش ، ويبقى على الغاش الجرم والإثم ، واللعنة والسخط ، والبغض والمقت .

يقول ﷺ : «المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً فيه عيب إلا بينه له» [صحيح ابن ماجة : ١٨٣٧] .

ويقول ﷺ : «من غشّنا فليس منا والمكر والخديعة في النار» [حسّنه الألباني في الإرواء : ١٣١٩] .

ويبين ﷺ أن كتم العيب في السلعة والكذب في البيع محق للبركة قد يربح المرء ولكنه ربح منزوع البركة قليل الثمرة كبير الإثم فيقول : «البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ويمحقا بركة بيعها» [متفق عليه من حديث حكيم بن حزام وهو في الإرواء : ١٢١٨] .

ومرّ ﷺ على رجل وبين يديه صُبْرة طعام يبيعها وقد حسّنها فأدخل يده فيها فنالت أصابعهُ بللاً . فقال : «ما هذا يا صاحب الطعام؟» ، قال : أصابته السماء يا رسول الله ، قال : «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غشّ فليس مني» [أخرجه مسلم والسياق له وهو في الإرواء : ١٣١٩] ألا يكفي الغاش تهديداً تبرؤ الرسول ﷺ ، ومن تبرأ منه رسول الله ﷺ فقد تبرأ منه الله وتبرأ منه الدين ، انظر إلى أحوال كثير من الباعة وكيف

يعرضون الفواكه ويبيعون الثمار فيجعلون أعلاها حسناً جميلاً ، ويكون الذي في الأسفل رديئاً مغشوشاً .

ومن صور الغش في البيوع : بخس الكيل والميزان . قال تعالى : ﴿ **ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ [المطففين : ١ - ٣] .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً - يعني أهل المدينة - فأنزل الله عز وجل ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فأحسنوا المكيال بعد ذلك » [صحيح ابن ماجة : ١٨٢٢] .

وقد عدّ بعض العلماء ترك مكافأة من يستحق المكافأة من التطفيف لأنه بخس لحقه .

ويقول ﷺ : « إذا وزنتم فأرجحوا » [صحيح الجامع : ٨٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

ومن صور الغش في البيوع : إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، قال ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » ، فذكر منهم : « رجلاً باع رجلاً سلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك » [متفق عليه] ، انظر إلى هذا الحديث وقسْه على أحوال الناس اليوم ولا سيما بعد العصر وما يحدث في معارض السيارات وأنواع (الحراجات) .

قال الإمام الشعبي - رحمه الله - : إن رجلاً أقام سلعته أول النهار فلما كان آخره جاء رجل يساومه فحلف : لقد منعها أول النهار من كذا وكذا ، ولولا المساءُ ما باعها منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الذين يشترون**

بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[آل عمران : ٧٧] .

ما أكثر ما تسمع اليوم : (والله لقد جاني فيها كذا وكذا) ، (والله لو غيرك ما يأخذها بهذا المبلغ) ، (والله ما أعطيتك بهذا السعر إلا استفتاح الصباح) . . إلى غير ذلك من أنواع الحلف الكاذب ، والغش الفاضح .

ومن صور الغش في البيوع : ***التناجش*** ، وهو نوع من أنواع المكر والختل والخديعة ، وهو بمعنى أن يزيد الرجل في ثمن السلعة وهو لا يريد شرائها ، ولكن ليسمعه غيره فيزيد بزيادته ، وقد نهى ﷺ عن النجش وقال : « لا تناجشوا » [انظر صحيح الجامع : ٧٢٤٢] ، فهو حرام وخداع وتغرير بالمشتري وأيُّ مالٍ أو ربح حصل عن طريقه فهو مال حرام ، وكسب باطل .

أرسل عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – عاملاً له يبيع له بيعاً فلما باعه وعاد قال : لولا أني كنت أزيد فأنفقه لكان كاسداً ، فقال له عمر : هذا بخس لا يحل فبعث منادياً ينادي : إن البيع مردود وأن البيع لا يحل .

ولقد كان هذا ديدن السلف – رضي الله عنهم – فهم بعيدون عن الغش ، منزهون عن الكذب ، مترفعون عن الخداع ، مصونون من أكل الحرام .

كان لأبي بكر – رضي الله عنه – غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام أتدري ما هذا فقال أبو بكر : وما هو؟ قال : كنت تكهّنت لإنسان

في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه .

إن أمة يشيع فيها الغش ويكثر فيها الخداع ويظهر فيها الكذب ، لهي أمّة معرّضة للسخط ، بعيدة عن التوفيق ، محرومة من النجاح ، تعاقب في الدنيا قبل الآخرة ، تحل بها الكوارث ، وتنزل بها المصائب ويسلط عليها الأعداء ، يقول ﷺ : « خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط فيعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا – وتأمل اليوم : الزهري والسيلان والإيدز والسرطان وتليف الكبد .. وغيرها – ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم رلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » [صحيح ابن ماجة : ٣٢٦٢] .

ثالثاً : الغش في النصيحة :

وذلك بعكس الصدق في النصح والإخلاص في التوجيه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال ﷺ : « الدين النصيحة » قالوا لمن؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [رواه مسلم : ٥٥] .

ومن النصح للمسلم أن تحب له وتنصح له بما تحب لنفسك ، قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه – أو قال لجاره – ما يحب لنفسه » [رواه مسلم : ٤٥] .

رابعاً : الغش في الدعوة إلى الله :

وأكثر ما يحدث ذلك في بعض الجماعات وأرباب الحزبيّات ، الذين يبينون للمدعو أنهم هم أهل الحق وذوو الصدق ، وأن ما عداهم زور وبهتان وباطل وخسران ، فالقول قولهم والرأي رأيهم والطريق طريقهم ، من مشى مع غيرهم فقد ضل ، ومن استمع لسواهم فقد غوى ، فتنبت دواعي الحقد ، وتقوى عوامل الفرقة ، وتشتعل نيران الشتات ، والصدق في الدعوة أن تكون خالصة لله ، ملتزمة بهداه ، مقصوداً بها رضاه . ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ [فصلت : ٣٣] .

خامساً : الغش في الوظيفة :

وذلك يكون من الموظف بالتقصير في وظيفته ، وعدم القيام بحقها ، وعدم الصدق والنصح لمن وضعه فيها وأقامه عليها ، ويكون الغش باختيار الموظف أيضاً ، وذلك بعدم النصح في اختياره وإسناد الأمر له وهو ليس أهلاً له ، ولا مستحقاً إياه .

وصور الغش في الوظائف كثيرة : الغش في عدم العدل بين الموظفين الغش في الترقيات ، الغش في الترشيحات ، الغش في النقولات ، الغش في المسابقات ، الغش في التقارير . .

سادساً : الغش في المدارس :

وذلك بإعطاء الطالب ما لا يستحق وتقديمه على من هو أفضل منه أو إخباره بالأسئلة ، والذي يفعل ذلك يغش نفسه ، ويغش المدرسة ، ويغش الطالب ، ويغش الدولة ، ويغش الأمة ، ويكون كذلك من الطالب

الذي يغش في الامتحان ، فكلها من الغش المحرم ، ومن غشنا فليس منا .

سابعاً : الغش للرعية :

وهذا من أعظم أنواع الغش ومن أشدها عقوبة وأكثرها حرمة وأكبرها خطرا ، يقول ﷺ : «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة» [متفق عليه] ، وهي تشمل كل راعٍ : الوالي في ولايته ، والرئيس في رئاسته ، والمدير في إدارته ، والرجل في بيته ومع أهله وأبنائه ، والمرأة في بيتها ومع زوجها وأبنائها ، والغش للرعية من كبائر الذنوب ، وغش الرعية يكون بعدم حكمهم بما أنزل الله، وترك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وعدم إعطاء كل ذي حق حقه ، وعدم النصح لهم ، وعدم إحسان تربيتهم ، وإقامة العدل فيهم ، وكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

إن الغش يجمع أسوأ الصفات ، وأقبح المعاصي ، فهو يجمع الكذب والبتهان ، والزور ، والخداع ، والمكر ، والاحتيال ، والنصب ، وخيانة الأمة ، والتغرير ، وأكل المال بالباطل ، وعدم الرضا بقدر الله ، وما قسم من الرزق إلى غير ذلك من ذميم الأخلاق ، وسيء الخصال ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض ، أجارنا الله وإياكم من أهله وحفظنا من أربابه .

الرشـــــوة

لا أحـد أعلمُ بما ينفع الناس من ربهم ، ولا أحـد أعـرف بما يُصلح الخلق من خالقهم ، فهو العليم الحكيم ، اللطيف الخبير ، السميع البصير خلق الخلق لعبادته ، ودلهم لهدايته ، أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، فبين للناس ما ينفعهم ، ودلهم على ما يسعدهم ، وحذّرهم مما يضرهم ، ونهاهم عما يشقيهم ، فما أمر الإسلام بشيء إلا وفيه السعادة والرضى ، والكرامة والهدى ، وما نهى عن شيء إلا وفيه التعاسة والشقاء ، والضلالة والبلاء ، أمر من الأخلاق بأكملها وأجملها ، وأتى من التعاليم بأفضلها وأسهلها ، وقضى من الأحكام بأقومها وأعدلها ، فهو الدين العظيم ، والنهج الحكيم والصراط المستقيم : ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

إن هذا الدين قد حذر من صفات مقيتة ، وأفعالٍ مشينة ، وأخلاق ذميمة ، إذا أشربها قلب قسى وأظلم ، وإذا ارتضاها مجتمع خرب وتهدم وفسد وتحطّم ، صفات قد يستهين بها كثير من الناس وهي خطيرة ، ويستمرئها فئام من البشر وهي فاتكة ، جالبة للخطر ، مفسدة للبشر ، لا تبقي ولا تذر . ومن تلك الصفات : الرشوة ؛ وما أدراك ما الرشوة ، تلطخ بها أناس ، وعاش بها أقوام ، يسمونها بغير اسمها ، ويلقبونها بغير لقبها ، يغلفونها بعبارات جذابة ، ويقدمونها بألفاظ خلابة ، فهي : هدية ، وهي إكرامية ، وهي عشان خاطرك ، وهي رمز للحب والتقدير ،

وهي بدل أتعاب ، وهي مكافأة ، وإن هي إلا أسماءٌ سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان . فالرشوة رشوة وإن تعددت مظاهرها ، وتلونت مناظرها .

والرشوة بمعنى الجعل ، وهي تدل على التسبب للشيء برفق وملاينة والمراشاة بمعنى المحاباة . والراشي هو الذي يعطي من يعينه على الباطل ، والمرتشي هو الآخذ للرشوة ، والرائش هو الذي يسعى بينهما يستزيد لهذا ويستنقص لهذا ، وأصل معنى الرشوة مأخوذ من الرشاء الذي يُتوصل به إلى الماء ، قال الأعشى :

سـمـعت برحب البـاع والجـود والندى
فـأوليت دلوي فـاسـتـقـت برشـائكا

ومن تعريفات الرشوة أنها ما يعطيه الشخص لحاكم أو غيره لإبطال حق أو لإحقاق باطل . وقيل هي بذل المال فيما هو غير مستحق على الشخص ، ولا شك أن الرشوة تتباين درجاتها ، وتختلف مستوياتها ، فمنها ما هو شديد الحرمة ، بل قد يصل عند بعض العلماء إلى الكفر إذا كانت في تغيير حكم الله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

يقول ابن مسعود – رضي الله عنه وأرضاه – الرشوة في الحكم كفر ، وهي بين الناس سحت . ومن الرشوة ما هو أقل خطراً وأخف ضرراً من ذلك ، وأقل ما يمكن أن يقال في بعض أنواعها أنها شبهة ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . يقول ابن الأثير – رحمه الله – : وأما ما يعطى توصلاً إلى أخذ حق أو دفع ظلم فغير داخل في الرشوة .

تحريم الرشوة :

قال تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾ [البقرة:١٨٨] .

قال القرطبي – رحمه الله – : « والمعنى : لا تجمعوا بين أكل المال بالباطل ، وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة » ، وقيل المعنى : لا تصانعوا بأموالكم الحكّام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها .

وقال أبو حيان في هذه الآية : « يجوز أن تكون المناسبة بين هذه الآية وآية الصيام قبلها أنه سبحانه لما أوجب عليهم الصوم كما أوجبه على الذين من قبلهم خالف بين أهل الكتاب وبينهم فأحل لهم الأكلَ والشربَ والجماعَ في ليالي الصوم ، ثم أمرهم ألا يوافقوهم في أكل الرِّشاء من ملوكهم وسفلتهم » .

وقال الذهبي – رحمه الله – : لا تدلوا بأموالكم إلى الحكام : أي لا تصانعوهم بها ولا ترشوهم ليقتطعوا لكم حقاً لغيركم وأنتم تعلمون أن ذلك لا يحل لكم .

أما الأحاديث فيكفي تهديداً وتهويلاً وتخويفاً من أمر الرشوة أنه ﷺ : « لعن الراشي والمرتشي والرائش » [صححه الألباني في الإرواء : ٢٦٢١] .

قال العلماء : إنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أذية مسلم أو ليُدفع له بها ما لا يستحق ، أما إذا أعطى ليتوصل إلى حق له ، أو ليدفع عن نفسه ظلماً أو خطراً فإنه غير داخل في اللعنة ، أما الحاكم فالرشوة عليه حرام سواء أبطل بها حقاً أو دفع بها ظلماً .

ويقول ﷺ : « من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له هدية عليها فقبلها

فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا» [صحيح الجامع : ٦٣١٦] . إنه ﷺ يقدم بهذا الحديث درساً تربوياً عظيماً ، فهو يعلم أن بعض المسلمين قد يحتاج إلى شفاعة من أخيه فإذا شفع له وتحقق الأمر على يديه فإن المشفوع له قد يحرج فيتكلف بهدية لتكون مكافأة لأخيه على شفاعته له . وهو بهذا التوجيه لا يريد للمشفوع له أن يتكلف ولا يريد للشافع أن ينقص أجره . وأهم من ذلك كله بثّ روح العزة والارتفاع عن الدنيا وعدم تعليق نفع الناس والإحسان إليهم بحطامها بل يجب أن يكون سعي المسلم كله يرتجى فيه المثوبة والأجر من الله تعالى ، فإذا سادت هذه الروح في المجتمع زاد أمنه واستقراره وصلحت النفوس ، وساد الحب والوئام والتعاون والتراحم وأصبحوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ويقول ابن مسعود – رضي الله عنه – : السحت أن تطلب لأخيك الحاجة فتقضى فيهدي إليك هدية فتقبلها .

ويقول : من رد عن مسلم مظلمة فأعطاه على ذلك قليلاً أو كثيراً فهو سحت ، فقال الرجل : يا أبا عبد الرحمن ما كنا نظن أن السحت إلا الرشوة في الحكم ، فقال : ذلك كفر نعوذ بالله منه .

ويلفت النظر ﷺ في حديث آخر إلى مسألة مهمة أيضاً وهي أن بعض الناس قد يكون في منصب أوإمارة أو مسئولية فيجامله الناس لأجل ذلك المكان ، فيقبل الهدايا والعطايا ويستجيزها لنفسه ويعتبرها من أملاكه الشخصية .

استعمل ﷺ رجلاً من أصحابه على أحد البلدان فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي لي . فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله

وأثنى عليه ثم قال : «ما بال عاملٍ أبعثه فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تَيْعر» ، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتي إبطيه ثم قال : «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟» [رواه مسلم : ١٨٣٢] .

لقد عجب العالم من موقف إحدى الدول حينما انتهت فترة رئاسة أحد الرؤساء فقام بتجميع الهدايا والعطايا التي قدّمت له ليحملها معه إلى بيته فأمروه أن يعيدها مكانها وأن لا يأخذ منها شيئاً ، فقال هذه أهديت لي ، قالوا : ما أهديت لك إلا لأنك في منصب الرئاسة فهي ملك للدولة وليست لك .

إن هذه هي أخلاقنا وهي تعاليم ديننا وتوجيهات نبينا ﷺ ، وهي النهج الذي سار عليه الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم – لقد صادر عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – إبلاً لابنه عبد الله ولم يسمح له بامتلاكها والمتاجرة فيها خوفاً من أن الناس يجاملونه ويقدمونه ويقدمون إبله في الطعام والشراب والمرعى لأنه ابن أمير المؤمنين ، بل لقد كان يقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : «لا تولوا اليهود والنصارى فإنهم يقبلون الرشا ولا يحل في دين الله الرشا» ، لقد ذمّ الله اليهود بقوله : ﴿ **سمّاعون للكذب أكّالون للسحت** ﴾ [المائدة : ٤٢] ، والرشوة من السحت .

إن الرشوة من كبائر الذنوب ، ومما يجلب سخط علام الغيوب ، وهي حرام بإجماع المسلمين ، سواءً كانت للقاضي أو للقائم على بيت المال أو

لأي عامل في وظيفة من وظائف الدولة . إن الإسلام يحرمها لأنها أكل للمال بالباطل وشيوعها في المجتمع شيوع للفساد والظلم . إن الدولة تشتري من الموظف جزءاً من وقته للقيام بمصالح المسلمين ، وذلك مقابل راتب يتقاضاه ، فذلك الوقت لا يجوز صرفه في غير هذا العمل ولا يجوز أخذ أموال من الناس لإنهاء أمورهم التي كلّف لإنجازها وأعطي مرتباتها .

إن الرشوة تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وترفع الوضيع ، وتضع الرفيع ، وتذل العزيز ، وتعز الذليل ، تقدم من يستحق التأخير ، وتؤخر من يستحق التقديم ، تقدم السفيه الخامل ، وتبعد المجد العامل، وهي مهدرة للأموال ، جالبة للظلم ، داعية للبغضاء ، مثيرة للشحناء ، معطلة للمصالح ، مُجَرِّأةٌ للظلمة والمفسدين ، تساعد على الإثم ، وتعين على العدوان ، وتدفع إلى الإجرام ، تهين الكريم ، وترفع اللئيم ، تبطل حجة المحق ، وترفع حجة الكاذب .

وكنت إذا خاصمت خصماً كببته
على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غُلِّبت
عليّ وقالت قم فإنك ظالم

ليس هناك أجمل ولا أفضل وألا أعز ولا أكرم من المؤمن حينما يمتثل أمر ربه ويبتعد عن سخطه ، أنظر إلى القاضي أو المسئول أو الموظف في أي جهة كانت ، انظر إليه إذا قام بواجبه وأخلص في عمله وسعى في قضاء الحاجات وإنهاء المعاملات وعدل في الخصومات ، وكان مع ذلك تقياً نقياً زكياً عفيفاً لا يطمع في أحد ولا ينظر إلى أحد ، كم من المناقب يجنيها ومن المحاسن يرتديها؟ .

فهو أولاً أرضى ربه وقام بأداء الأمانة ، وثانياً استحل راتبه واستحق أجره ، وثالثاً أرضى ضميره وأراح قلبه ، ورابعاً كسب ثقة من ولاه ، وخامساً كسب الثناء والدعاء من الناس ، وسادساً ادّخر أجره كاملاً عند الله ، وسابعاً وهو من أهمها أنه صان نفسه وحفظ ماء وجهه ، فبقي عزيزاً معززاً كريماً مكرماً .

إن المجتمع إذا شاعت فيه هذه الصفة فهي مؤذنة بفساده ، معلنة عن دماره ، واضعة لقدره ، مذلة لكرامته ، ممتهنة لعزته ، كم يكون من الإكبار والإجلال والإعزاز لبلد لا يعرف رشوة ، ولا يقبل تزويراً ، صاحب الحق يأخذ حقه ، وصاحب العمل يقوم بواجبه دون تطلّع لأحد أو استشراف لعطاء ، تشعر فيه بالراحة وتجد فيه الطمأنينة ، وتوقن فيه بالإنصاف ، وكم يكون من الامتهان والاحتقار والضيق بالبلد الذي لا يقوم إلا على الرشوة ، ولا يتحرك إلا بالعطية ، ولا تحصل على الحق إلا بما هو أشق ، يُخدم فيه الراشي ، ويقدم فيه المعطي ، يضيع الحق في زحمة الأموال الباطلة ، ويُحرم الضعيف حقه لأنه لم يقدم رشوة ولم يأت بهدية .

رشوة في الأحكام ، ورشوة في الوظائف ، ورشوة في الحقوق ، ورشوة في المدارس ، ورشوة في المشاريع ، بل قد استساغتها بعض البلدان حتى أصبحت كأنها حق واجب .

إنها مرض عضال ، وداء مزعج ، وخطر فاتك ، ولذلك يجب على العقلاء أن يسعوا في قمعها ، وأن يتعاونوا لدحضها ، وأن يجتهدوا لتمزيقها .

إن الدولة حينما تضع العقوبات الصارمة والجزاءات الرادعة لكل من

يتعاطى الرشوة فهي بذلك تحفظ كيانها وتحمي بنيانها وتصون كرامتها ، وتعين كل ذي حق لأخذ حقه ، وتقمع كل ذي باطل من تحقيق باطله ، فتنال بذلك رضى ربها ، وتسعد في دنياها وآخرتها .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

الإســـراف

ديننا العظيم نهانا عن صفات ذميمة ، وأفعال مشينة ، وأخلاق بغيضة ، وما من عمل أو فعل أو قول يمجه العقل ، وتأباه الفطرة ، ويتحاشاه ذوو الألباب إلا وهو ممقوتٌ في الإسلام ، ممنوع في الشرع ، فالله جل وعلا لم يحرّم على الناس أمراً فيه صلاحهم ، ولم يحذرهم من فعل فيه فلاحهم ، بل نهاهم عن كل مدمّر لأخلاقهم ، ومفسدٍ لحياتهم ، ومضرٍّ لأبدانهم ، ومهلكٍ لأموالهم ، ومتلف لأحوالهم .

وإن من الصفات البغيضة في شرعنا ، الممقوتة في ديننا : الإسراف ، والإسراف هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان ، بل يشمل حتى الأمور المعنوية ، فكل ما زاد عن الحد من فعل أو قول أو فكر فهو إسراف والتبذير والإسراف بمعنىً واحدٍ تقريباً ، إلا أن الإسراف أعمّ من التبذير .

وأغلب ما يطلق الإسراف في الأموال والإنفاق والبذل ، والإسراف فيها هو تجاوز الحد في النفقة . فالإنفاق الممدوح والبذل المحمود شرعاً هو فيما أوجب الله جل وعلا على المسلم من الزكاة والصدقة والإنفاق على الأهل والعيال ، والإنفاق في أبواب الخير الكثيرة ، والمسلم المقتدر لا يعد مسرفاً إذا أكثر من البذل والإنفاق وجاد بالمال في وجوهه المشروعة : ﴿ **وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه** ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ويقول ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [صحيح الجامع : ٧٤٨٨] .

ولكن الإسراف هو في تجاوز الحد في الأمور المباحة للإنسان من ملبس ومطعم وكسوة ، والإسراف هو في تبديد المال كله حتى ولو كان في طاعة ، فلا يجدر بالمسلم أن يُذْهِب كل أمواله ، ويتلف ما لديه ، ويبقى صفر اليدين عالةً على الناس حتى ولو أنفقها في حلال والنبي ﷺ نهى الرجل أن يتصدق بماله كله وأجاز له الثلث ، وقال له : « والثلث كثير ، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم . . » [البخاري : ٢٧٤٢] .

بل انظر إلى لفتة عظيمة ، وإشارة بديعة ، ونكتة لطيفة في هذه الآية يقول تعالى : ﴿ **كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

أمر بالأكل مما أخرج الله لعباده من الرزق وما آتاهم من الثمرات ، ثم أمرهم بإخراج حقه ، وأداء زكاته يوم حصاده ، وختم الآية بالنهي عن الإسراف ، أي لا تسرفوا ولا تبددوا أموالكم حتى في أداء الحق الواجب فيها ، فالإسلام دين الوسط والاعتدال ، والطريقة المثلى في كل شيء ، أما إنفاق المال فيما حرّم الله فإنه إسراف وتبذير حتى ولو كان درهماً واحداً .

ومما دفعني للحديث عن هذا الأمر في هذه الأيام بالذات هو ما يرى فيها من مظاهر الإسراف والتبذير ، فهي أيام تكثر فيها المناسبات وتتعدد الحفلات ، وأصبح التباهي بالأموال المصروفة ، والصالات المستأجرة ، والموائد الممدودة هو ديدن كثير من الناس في هذه الأيام لدرجة أن المرء يتحمل أعباءً كبيرة ، وديوناً هائلة من غير ضرورة لها ولا داعٍ لأخذها ، بل لكي يجاري فلاناً وفلاناً ، ولأجل أن يتحدث أناس عن حفلته

أو وليمته أو مائدته ، فهذا عرّض نفسه لمحاذير عدّة ، وتعرض لسخط الله وعقوبته وبغضه وكرهه : ﴿**إنه لا يحب المسرفين**﴾ وعرض نفسه وأبناءه للمذلة والفقر وغلبة الدَّين وقهر الرجال ، ثم هو مع ذلك مذموم عند الناس ، فمن طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ..

فيجب على المسلم أن يراقب ربه أولاً وأخيراً ، ثم يسير على قدر حاله ولا يحمل نفسه ما لا تطيق .

ومن مظاهر الإسراف في هذه الأيام ما ينفقه كثير من الناس على أسفار متعددة ورحلات متنوعة لا قبل لهم بها ، ولا حاجة لهم فيها ، بل قد تكون مصحوبة بالمعاصي محفوفة بالأخطار ، مليئة بالأضرار .

إن الترويح محبوب ، وإدخال السرور على الأهل مطلوب ، والسياحة في أرض الله أمر مرغوب ، ولكن أن يكون ذلك في حدود معقولة ، وبضوابط مشروعة ، فلا يتكلف ما لا يطيق – فإن بعض الناس يستدين ليسافر – ولا يعرض المرء نفسه وأهله للفتنة ، ولا يجرهم للمحن ، ثم يظن أنه قد أحسن إليهم ، وأُجر في الإنفاق عليهم : ﴿**كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون**﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

أيها المسلمون .. يجب أن نعود أنفسنا على الاقتصاد في كل أمورنا وأن نحذر أنفسنا وأهلنا وأبناءنا من الإسراف والتبذير ﴿**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**﴾ [الإسراء : ٢٧] .

إن الإسراف ظاهر في كل أمور حياتنا تقريباً – إلا من رحم الله – إسراف في إنفاق المال ، إسراف في المباحات ، إسراف في الولائم ، إسراف في المياه ، إسراف في الكهرباء ، إسراف في تزيين البيوت ، إسراف في

حفلات الزواج ، إسراف في الأكل والشرب : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .

إن المباهاة بالعمائر والمزرارع والمراكب الفارهة ، والتنافس في ذلك ليس من سمات المؤمنين لأنهم يعلمون أن الحياة مرور ، والمسألة عبور : ﴿ **أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾ [الشعراء : ١٤٦ – ١٥٢]

إن الإسراف عاقبته وخيمة ، ونتائجه أليمة ، وتبعاته عظيمة ، وإذا كان المسلم نُهي عن الإسراف حتى في الأمور المباحة بل في الطاعات الواجبة فكيف به في غير حاجة . انظر إلى هذا الحديث العظيم :

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء ، فأراه الوضوء ثلاثاً ثلاثاً ، ثم قال : « هكذا الوضوء ، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » [صحيح النسائي : ١٣٦] .

فالزيادة على الحد حتى في الطاعة تعتبر إساءةً وتعدياً وظلماً ، وكيف بمن يفتحون حنفيات الماء سواء في بيوتهم أو في المساجد على أقصى ما يمكن فيصرفون من الماء ما يتوضأ به عشرون شخصاً ، وإن المرأة التي تصرف في مطبخها من الماء ما يكفي لبيوت عدّة لهي من المسرفين .

إن بث روح النظام والاعتدال والوسط والبعد عن الإسراف لهي سمة حميدة يجب أن يقوم بها كل مؤمن ، يقول ابن عباس – رضي الله عنه – في قوله تعالى : ﴿ **وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾ [سبأ : ٣٩] يعني في غير إسراف ولا تقتير .

إن قاعدة الوسطية هي أفضل وأكمل ما يسير به المسلمون ، ويمضي عليه المؤمنون الذين امتدحهم تعالى بقوله : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

إن أكمل وأفضل ما يسير عليه المؤمن هو ما رسمه الله تعالى له بقوله : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا** ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وما رسمه النبي ﷺ بقوله : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالط إسراف ولا مخيلة » [حسنّه الألباني في المشكاة : ٤٣٨١] .

إن الإسراف كما أشرنا هو تجاوز الحد في كل فعل من الأفعال ، وليس ذلك قصراً على الإنفاق فقط ؛ فإن الإنهماك في المعاصي ، والتمادي في الذنوب هو من الإسراف المقيت والفعل البغيض : ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ ، قيل هم الذين تجاوزوا وتعدوا حدود الله ، ولكن من رحمة الله تعالى أن المسرف على نفسه متى أعلن توبته ، وندم على فعله فإنه يجد رباً رحيماً غفوراً ودوداً : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [الزمر : ٥٣] .

قال رسول الله ﷺ : « كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مُتُّ فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليُعذّبني عذاباً ما عذّبه أحدا ، فلما مات فُعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجمعي ما فيك منه ففعلت ، فإذا هو قائم فقال : ما حملك على ما صنعت؟ قال : يا ربِّ خشيتك . فغفر له » [البخاري : ٣٤٨١] .

وإن ديدن المؤمنين دائماً قولهم : ﴿ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .

وكان ﷺ يقول : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني » [انظر صحيح الجامع : ١٢٦٤] .

ومن أنواع الإسراف وضع الشيء في غير موضعه ، وقد سمى الله تعالى فعل قوم لوط إسرافا : ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ [الأعراف : ٨٠ – ٨١] .

ومن أنواع الإسراف : الإسراف في القصاص من القاتل ، قال تعالى : ﴿ .. **ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا** ﴾ ، والإسراف في القتل يكون بأحد ثلاثة أمور :

١ – أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد كما كان يفعل العرب .

٢ – أن يقتل بالقتيل واحداً فقط ، ولكنه غيرُ قاتله فهو يختار أكبر أو أشرف منه ، وهذا قتل للبريء بذنب غيره ، وهو إسراف في القتل .

٣ – أن يقتل نفس القاتل لكن يمثل به ، لأن زيادة التمثيل إسراف في القتل .

إن الإسراف بكل صوره وأشكاله من إنفاق المال ومن المأكل والمشرب والملبس ومن تجاوز حدود الله تعالى ، ووضع الشيء في غير موضعه ، إنه أمر ممقوت مؤذن بخطر ، ومؤشر بهلاك ، ومعرض لسخط : ﴿ **إن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب** ﴾ [غافر : ٢٨] .

اللهم إنا نعوذ بك من الإسراف وأهله ، والتبذير وأصحابه ، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا إنك أنت الغفور الرحيم ،،،

أومن كـــان ميتـــاً

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَمَنْ كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

هذه الآية الكريمة على قصرها قمةٌ في البلاغة ، وآيةٌ في الفصاحة وروعة في الأسلوب ، وجمال في الكلمات . جمعت المعاني العظيمة في الألفاظ القليلة ، وجمعت من أساليب البلاغة أعظمها ، ومن فنون البيان أحسنها ، ففيها الاستفهام ، وفيها المقابلة ، وفيها ثلاثة تشبيهات ، وفيها استعارة ، ثم هي بمجموعها تصور الصورة المشرقة الوضاءة للإيمان بالله تعالى ، وتصور الصورة القاتمة للكفر به جل وعلا .

﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه ﴾ فالأعظم من الموت الحقيقي للإنسان هو الموت المعنوي ، ذلك بأن يكون الإنسان موجوداً حيّاً سميعاً بصيراً ولكنه ميت ؛ إنه ميّت القلب ، ميّت الضمير ، ميّت الوجدان ، ميّت المشاعر . الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الدائمة في جنان الله تعالى ورضوانه ، فهو موت ، والكفر انقطاع عن نور الله تعالى وهدايته ومعرفته والصلة به فهو موت ، والكفر انطماس لأجهزة الإنسان المستقبلة فهو موت : انطماس للسمع ، انطماس للبصر ، انطماس للأفئدة ، فأي موت إن لم يكن هذا؟! .

قال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا

يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

والإيمان اتصال بخالق الوجود فهو حياة ، والإيمان اطمئنان في القلب وجلاءٌ في البصيرة ، ونور في الأبصار فهو حياة ، والإيمان استمداد لمناهج الحياة من موجدها ، واستجابة لخالقها فهو حياة . فالفرق ما بين الكفر والإيمان كالفرق ما بين الموت والحياة .

فالإيمان هو روح الحياة وحياة الروح ، وسر العالم وعالم الأسرار ، وجمال الدنيا ودنيا الجمال ، ونور الطريق وطريق النور .

الإيمان واحة المسافر ، ونجم الملاّح ، ودليل الحيران ، وعدة المحارب، ورفيق الغريب ، وأنيس المستوحش ، ولجام القوي ، وقوة الضعيف . في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته ؛ وفيه خلق لا يسكنه إلا الفرار إليه ، وفيه نيران مسعرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له .

﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه ﴾ فانظر إلى الصحابة رضوان الله عليهم كيف كانوا قبل الإسلام ، ثم انظر إليهم بعد أن دبَّت روح الإيمان في قلوبهم ، وتغلغلت حقيقة الإسلام في نفوسهم ، وَجَلَتْ هداية القرآن بصائرهم ، أي حياةٍ عاشوها بعد ذلك؟!.

﴿ أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ، والسؤال هو : هل الإنسان الذي كان ميت القلب ، ميت الضمير ، ميت الأحاسيس ، ميت الجوارح ، ثم

نفخنا فيه روح الإيمان وأحيينا قلبه وأحاسيسه وجوارحه بالإسلام ، وأمددناه بنور كاشف يجلي له كل ظلمة في طريقه ، ويبدد كل حلكة في سيره ، هل هو مثل الإنسان الميت القلب الميت الأحاسيس الميت الجوارح ؟ وهو مع ذلك يعيش في ظلام حالك ، وليل قاتم ، يتخبط يمنة ويسرة، ولا يدري أين الطريق وأين المخرج من هذه الظلمات ، هل يستوي هذا وذاك ؟ .

الكفر حجاب للروح ، وختم على المشاعر ؛ فهو ظلمة ، وتخبط في الظلال والتيه ؛ فهو ظلمة ، الكفر جهل بالحياة وبموجدها ، وبالآخرة وحقيقتها ؛ فهو ظلمة ، ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا صمٌ وبكم في الظلمات** ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

الكفر ضياع للطريق القويم ، وبعد عن الفطرة السليمة ، وحرمان من الأمن النفسي والاطمئنان القلبي ، فهو ظلمة وقلق .

قال تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كَصَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين** ﴾ [البقرة : ١٧] .

أما الإيمان فهو تفتح وإدراك ، ورؤية وصفاء ، وإدراك ومعرفة ، وصلاح واستقامة ، وثبات واطمئنان ؛ فهو نور وضياء .

الإيمان جلاء في البصيرة ، وفهم لحقيقة الحياة ، ومعرفة بالآخرة ، وتسليم بالقضاء والقدر ، وانشراح في الصدر ، وحلاوة في القلب . فهو الحياة ، وهو النور ، وهو الضياء ، وهو الظل الممدود ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾ [النور : ٤٠] .

الكافر نبتةٌ ضالة لا جذور لها ولا رسوخ ، ولا رابطة تربطها بالوجود ؛ فهو منقطع الصلة بخالق الوجود ، منقطع الصلة بالوجود ، ليس له هدف ، ولا يسعى لغاية ، بل يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام والنار مثوى له .

أما الصلة بالله فهي تصل الإنسان الفاني بالأزل القديم والأبد الخالد ، وتصله بموكب النور والإيمان منذ فجر الحياة ومنذ وجود الإنسان . يجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن من شئون حياته ، وفي كل أمر من أموره ؛ يجد الوضوح في نفسه ، في قلبه ، في نواياه . يجد الإنسان نور الإيمان فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه ، يجد الراحة في باله وحاله ومآله ، يجد روعة التسليم لله ، والاتباع لأمره والرضى بقضائه وقدره ، فهو حياة هانئه، ونور يتلألأ ، قال سبحانه : ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ [الأحزاب:٤٣] .

﴿ **كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ ، وهذا تشبيه أيضاً ؛ أي مثل هذا التزيين الذي ورد في الجملة السابقة وهو تزيين نور الهدى والدين لمن أحياه الله تلك الحياة المعنوية العالية ، وتزيين الظلمات والضلال والكفر لموتى القلوب ، قد زين للكافرين ما كانوا يعملون من الآثام .

فإن الإنسان إذا ارتضى ظلمة الفكر ، وضلال المنهج ، وانحراف السلوك ، يزين له الشيطان تلك الحياة ، ويرى أنه لا أفضل منها ، وتعجبه تلك الظلمات حتى إنه لو رأى النور لفرّ منه لأنه اعتاد الظلمة وتَشَرَّب الضلالة ، واستمتع بالجهالة . هذه إشارة سريعة ، ولمحة عابرة

للمعاني الأساسية في هذه الآية .

ومما يتعلق بهذه الآية من المعاني والأفكار ، والفوائد والتوجيهات ما يلي :

١ - من طريقة القرآن وحسن أدبه أنه في أحيان كثيرة يسند الأمور الطيبة والأشياء المستحسنة ، يسندها إلى الله تعالى مباشرة ، أما الأفعال المشينة أو الأحداث المهولة التي تحمل معاني البأس والانتقام أو غير ذلك من الأمور المكروهة فإنها في الغالب لا تسند إلى الله تعالى مباشرة مع العلم أن كل ما يجري في الكون هو بأمره وتقديره جل وعلا ، فانظر إلى هذه الآية مثلاً في الامتنان بنعمة الحياة والإيمان ، قال : ﴿ **أحييناه** ﴾ فالفضل لله والمنة له جل وعلا ، فهو الذي أحيا ، أما الكفر والإماته المعنوية فلم يقل تعالى : أو من أمتناه، بل قال : ﴿ **أَوَمَنْ كان مَيْتاً** ﴾ ، ثم في نور الإسلام وهداية القرآن والامتنان بها قال : ﴿ **وجعلنا** ﴾ فأسند الجعل إلى نفسه . وفي ظلام الكفر وضلال الفكر لم يقل : كمن مثله من جعلناه في الظلمات ، بل قال : ﴿ **كمن مثله في الظلمات** ﴾ ، فهو الذي ارتضاها لنفسه ، ثم في تزيين الإيمان في قلوب المؤمنين يسنده تعالى لنفسه فيقول : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم** ﴾ [الحجرات : ٧] .

أما تزيين الكفر وأعماله للكفار ، فيقول تعالى : ﴿ **زين للكافرين** ﴾ فالشياطين من الجن والإنس هم الذين زيَّنو لهم وأغروهم بذلك ، ﴿ **ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، ﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان**

أعمالهم ﴾ [النحل : ٦٣] ، وهذا كثير في القرآن الكريم ، فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ **وأنَّا لا ندري أشَرٌّ أُرِيد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾ [الجن : ١٠] ، وانظر إلى الفاتحة التي نقرؤها ونرددها كل يوم يقول تعالى : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ فأسند النعمة له تعالى ، ولا نقول غير الذين غضبت عليهم ، ولا من أضللتهم ، بل نقول : ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ ، وهكذا نجد آيات كثيرة على هذا المنوال تسند الأمور المحببة والمنن المباركة إليه تعالى مباشرة أدباً مع الله ، وتحبيباً للخلق فيه ، وإشارة إلى مَنِّه وكرمه بكل نعمة .

٢ - كثيراً ما يأتي في القرآن الكريم وصف الكفر وأهله ، والضلال وأتباعه بالموت ، ويأتي وصف الإسلام وأهله والإيمان وذويه بالحياة ، وهنالك تشبيهات أخرى وردت في القرآن الكريم للكفر والإيمان ، فقد شُبِّهتْ بالنور والظلمة ، وبالعمى والبصر ، وبالسمع والصمم ، وبالظل والحرور .

قال تعالى : ﴿ **الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون** ﴾ [هود: ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ **إن شَرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ [الأنفال : ٢٢] .

وجمعت هذه التشبيهات كلها في قوله تعالى : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي**

الأحيـاء ولا الأموات إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسْمِعٍ من في القبور﴾ [فاطر : ٢١].

٣ – حسن المقابلة بين الموت والحياة ، والنور والظلمة .

٤ – أن الآية تحمل في طياتها التذكير بالمنة العظمى من الله تعالى لمن أنار الله بالإيمان قلبه ، وشرح بالإسلام صدره ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس . لا حيرة ولا قلق ، لا تردد ولا شكوك ، لا تخبط ولا ضلال ، لا تيه ولا ظلام ، فتلك نعمة كبرى ، وهداية عظمى ، يجب أن يشكر المولى – جل وعلا – عليها فله الحمد والشكر على الإيمان ، وله الحمد والشكر على الإسلام ، وله الحمد والشكر على القرآن ، وله الحمد والشكر على نعمه كلها ظاهرة وباطنة .

الـــدَّيْـــن

مشكلة كبرى ، ومعضلة عظمى ، ظاهرة انتشرت في الناس انتشار النار في الهشيم ، لا يكاد يسلم منها أحد ، ولا ينجو من شرها إنسان ، جثمت على القلوب ، وخيمت على النفوس ، وحَيّرت الألباب ، وفرقت الأصحاب . كم من أذهان بِهَـمِّـها مشغولة! وكم من عقول لهولها مذهولة! ، وكم من قَدَمٍ لرقها معقولة! ، كم لها من الضحايا! ، وكم أحدثت من الرزايا! ، فما هي تلك الظاهرة المخيفة ، والبلوى العنيفة؟ ، إنها مشكلة « الديون » ، الديون التي أضحى كثير من الناس ضحيتها ، وأمسى عدد من الرجال فريستها ، أقضّتْ مضاجعهم ، وأقلقت حياتهم ونغصت عيشهم ، وأرغمت أنوفهم وخفضت رؤوسهم . إن الغنى نعمة عظمى ، والثراء هبة كبرى ، ومن سعادة الحياة أن يعيش المرء مستغنياً عن الناس ؛ فكم أرغم الفقر أنوفاً! ، وكم أذلت الحاجة رؤوساً! ، وكم أتعبت الفاقة نفوساً! ، ولقد تعوذ ﷺ من الفقر والكفر ، وتعوذ من غلبة الدين وقهر الرجال .

يروى أن لقمان قال لابنه : يا بني أكلتُ الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمرّ من الفقر ؛ فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك ، ولكن اسأل الله تعالى من فضله فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه ، أو دعاه فلم يجبه ، أو تضرع إليه فلم يكشف ما به؟ .

يروى أن العباس كان يقول : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع

للشمس ، وهو عندهم أعذب من الماء ، وأرفع من السماء ، وأحلى من الشهد ، وأزكى من الورد ؛ خطؤه صواب ، وسيئاته حسنات ، وقوله مقبول ، يُرفع مجلسه ، ولا يُملّ حديثه .

والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب ، وأثقل من الرصاص لا يُسَلّم عليه إن قدم ، ولا يُسأل عنه إن غاب ، إن حضر ازدروه ، وإن غاب شتموه ، وإن غضب صفعوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة .

يمشي الفقير وكل شيء ضده
والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب
ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروةٍ
خضعت لديه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً
نبحت عليه وكشرت أنيابها

وقال أحد الحكماء : نظرت إلى كل ما يذل القوي ويكسره ، فلم أر شيئاً أذلّ له ولا أكسر من الفاقة .

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يُعَظّمون أخا الدنيا فإن وثبت
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وكان رجل يمشي في طرقات المدينة متقنعاً وقد تحمل ديوناً كثيرة

فرآه أحد أمراء المسلمين ، فقال له : يا فلان إن لقمان كان يقول : القناع بالليل ريبة وبالنهار مذلة ، فقال لـه : إن لقمان لم يكن عليه دين .

إن الناظر إلى أحوال الناس اليوم يجد أن أكثرهم قد طوقته الديون وعظمت عليه الحقوق ، حتى أصبحتَ لا تكاد ترى رجلاً إلا وهو مدين وإن أكثر الناس اليوم في مظاهر الأغنياء ، ويتزيون بزي الأثرياء ، ولكنهم فقراء ؛ فالمنزل أقام بنيانه بالدين ، والسيارة التي يركبها بالدين ، بل وصل الحال ببعضهم إلى أن أصبح إبريق الشاي وثلاجة القهوة و« البتوجاز » بالدين عن طريق مؤسسات التقسيط ، وهذا خطر عظيم ، ومغامرة رهيبة إن الإنسان بذلك يعرض حياته للذِّلة والنكد ، والتجريح والإهانات ، والسجون والشكايات ، وأعظم من ذلك كله يتعرض للعقوبة العظمى من الله تعالى لو مات وحقوق الناس وأموالهم برقبته .

وكان ﷺ يؤتى بالرجل المتوفى وعليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى عليه ، وإلا قال : صلوا على صاحبكم ، وهذا كان في أول أمر الإسلام ، « فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فَعَلَيّ قضاؤه » [رواه ابن ماجة] .

ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه ، وروي عنه ﷺ : « والذين نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل في سبيل الله ، ثم عاش ثم قتل في سبيل الله ، ما دخل الجنة حتى يقضي دينه » .

فلماذا يتهاون الناس بهذه المسألة ، ويتجرأون على الإغراق في الدين والإثقال على النفس ، والتحمل لما لا يطاق ؟!.

قنعتُ بالقــوت من زمــاني
وصُنت نفــسي عن الهــوان
خــوفــاً من الناس أن يقــولوا
فَــضْلُ فــلان على فــلان
من كنت عن مــاله غنيــاً
فــلا أبالي إذا جــفــاني

إن كثيراً من الناس قد أثقل نفسه بالدين لغير حاجة ، وتحمل الحمالات العظيمة بدون ضرورة ، وكثيراً من الناس يؤمّل فيه الخير ، ويتوقع منه الأداء فيثق فيه الناس ، ويقرضونه أموالهم ثم يتنكر لهم ، ويتمرد عليهم ، ويمكر بهم ؛ كثر غرماؤه ، وتعدد خصماؤه ، فلا معروف يرد ، ولا دين يقضي .

يقول أحدهم وقد كثر غرماؤه :

جــاءوا إلي غــضــاباً يلفظون مــعــاً
يشــفي أذاتهــمُ أن غــاب أنصــاري
لما أبوا جــهــرة إلا مــلازمــتي
أجــمــعت مكراً بهم في غــيــر إنكار
ومــا جلبت إليــهم غــيــر راحلة
رديئــة وبســيف غــيــر بتــار
إن القــضــاء ســيــأتي دونه زمن
فــاطوِ الصحيفة واحفظها من الفــار

وقــال الآخــر :

ولو علقــتــمــوني كل يوم
بــرجــلــي أو يــدي فــي المــنــجــنــيــق

لمـا أعـطيتكـم إلا تـرابـاً
يُـطَيَّـر في الخـياشِمِ والحلوق

وأما الآخر فقد تحمل ديوناً كثيرة فكلما هجم عليه غرماؤه فرّ منهم وقال :

فلو كنت الحـديد لكسَّـروني
ولـكـني أشَـدُّ من الحـديد

ويكفي وعيداً لمن يأخذ أموال الناس ، ويقترض من ذوي الفضل؛ ثم لا ينوي أداء الحق وإعادة الدين ، يكفيه وعيداً قول المصطفى ﷺ : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » [رواه البخاري] .

إن لكثرة الديون على الناس أسباباً عديدةً ، وهذا الأمر يحتاج إلى كثير عناية ، وإلى عظيم دراسة ، ولكنني أجمل بعض الأسباب التي تجعل كثيراً من الناس مُسْتَرقّين بِرِقِّ الدين ، ومنها :

١ - محق البركة في الرزق ، بحيث أصبح الإنسان له راتب طيب أو دخل مناسب ولكنه ممحوق البركة ، ولذلك أسباب عديدة منها : الربا ، الذي هو حرب على الله ورسوله ، والذي درهم منه أشد من ست وثلاثين زنية ، ومنها عدم الإخلاص في العمل أو الوظيفة ، فقليل من الناس اليوم من يأخذ راتبه حلالاً زلالاً قد أدى عمله على أتم وجه ، بل تجد التمرد والإهمال ، والغياب ، والكسل ، والتأخر ، إلى غير ذلك من التفريط في حق العمل . ومنها عدم أداء الزكاة التي هي مطهرة للمال والرزق ونماءٌ له وبركة فيه ، ومنها عدم صدق النية في البيع والشراء ، فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما

في بيعهما ، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويُمْحقا بركة بيعهما .

٢ – الصدق بين الشركاء ، يقول ﷺ :« قال الله تعالى :أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما » [رواه أبو داود] ، ومنها إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، قال ﷺ : « اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب » [رواه أحمد] .

٣ – التورط في مشاريع بدون دراسة : لا بد للإنسان قبل أن يقدم على أي مشروع صغير كان أو كبير أن يدرسه دراسة وافية من جميع جوانبه حتى لا يزج بنفسه في أمر لا تحمد عواقبه ، وبتجارة لا تفلح فكرتها ؛ فلا بد من دراسة الجدوى ، ومعرفة الثمرة ، وحساب النتيجة .

٤ – عدم التفكير وإعمال الذهن ، وإيقاد القريحة : فالتجارة تحتاج إلى همة عالية ، وذهن متوقد ، وترقب للفرص ، وذكاء في العرض ، وتريث في الطلب . وحسن النية وحده لا يكفي في التجارة .

٥ – استعجال الربح : فبعض الناس يبدأ بمحل تجاري ، ويظن أن الأرباح ستنكب عليه من أول شهر أو شهرين ، فإذا لم يجد شيئاً أغلق متجره وأنشأ متجراً آخر ، وهكذا حتى يورط نفسه، وكان الأولى له الصبر والتريث ، فإن الأمر يحتاج إلى زمن . والإنسان لكي يؤسس محلاً وعلاقات وزبائن يحتاج إلى سنوات وليس إلى أشهر .

٦ – التورط في مسألة التقسيط : ظناً من الناس أنها حل ومخرج من الورطات ، وهي في الحقيقة عناءٌ إلى عناء وهم إلى هم ، ويجب أن لا يلجأ إليها إلا في الضرورة القصوى إذا بارت الحيل .

٧ – الإغراق في الكماليات التي لا ضرورة لها : والواجب على المسلم أن يقتصد في الإنفاق ، ولا يشتري إلا ما تدعو إليه الضرورة ، فإن الرضى بالقليل خير من العيش وأنت ذليل .

٨ – مجاراة الواقع في كثير من الأمور : كالبذخ في حفلات الزواج وغيرها ، وكالأسفار بالعوائل إلى أمكنة بعيدة ؛ فالأسفار مكلفة جداً ، ومتلفة للمال ، والواجب أن لا يُحَمّل الإنسان نفسه ما لا يطيق لكي يرضي فلان أو فلانة ، ويجاري علان أو علانـــة .

٩ – ترك المبالغ الكبيرة في المحفظة ، فإن المال كل ما كان سهل التناول يضيع ويذهب ، ولا يتردد الإنسان في شراء أي شيء يراه ، فالأحسن أن لا تبقي في محفظتك إلا مبلغاً يسيراً . وإذا استغنيت عن بطاقة الصراف فذلك أفضل وأفضل ، فلها من اسمها نصيب فهي صراف متلاف .

١٠ – لا تكثر التردد إلى الأسواق الكبيرة المسماة بـ « السوبر ماركت » فهي أشبه شيءٍ بالسحر ، تدخل لتشتري منها بريال أو خمسة فتخرج وقد صرفت خمسمائة ريال.

١١ – عدم وضع ميزانية معيشة للمصروف ، حيث لا يتجاوزها الإنسان إلا للضرورة .

هذه بعض النصائح الموجزة لمن أراد أن يحفظ نفسه وماله ، ولا يتعرض لهم الدين وقهر الرجال .

مع كل ما ذكر فليس الدين إذا كان في محله عيباً ، وليس نقصاً للمروءة ، فقد استدان أشرف الخلق ﷺ ومات ودرعه مرهونة في ثلاثين

صاعاً من شعير ، والله تعالى يقول : ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ ، والقرض قربة ومثوبة للإنسان وصدقه ، وهو من باب تنفيس الكرب على الناس ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : «رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ، قال :لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة»

ولكن المشكلة الكبرى هي في تورط بعض الناس في كثير من الديون التي كانوا في غنىً عنها ولم تلجئهم إليها ضرورة ، ولم تدعهم حاجة ، فأوقعوا أنفسهم في حرج ، وعاشوا حياتهم في نكد ، وعجزوا عن الوفاء لأصحاب الديون ، مما جعل أكثر الناس لا يقرض أحداً أبداً مهما كانت الظروف ، نتيجة لما رآه من عدم الوفاء والحياء. ونختم الكلام بهذه الأحاديث الرائعة الماتعة لأصحاب الأموال الكثيرة، والنفوس الطيبة ، والقلوب المؤمنة .

قال ﷺ : «إن رجلاً لم يعمل خيراً قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا ، فلما هلك قال الله له : هل عملت خيراً قط؟ قال : لا إلا أنه كان لي غلام وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا ، قال الله تعالى : قد تجاوزت عنك» [رواه النسائي].

وقال ﷺ : «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله تعالى : نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : «من يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة» [رواه ابن ماجة].

ويقول ﷺ من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» [رواه الترمذي].

سبحانه ما أرحمه وأحلمه وأكرمه!! ، يظلّ العبد تحت ظل عرشه يوم القيامة لماذا؟ ؛ لأنه أنظر عبداً معسراً من عباد الله ، فله الحمد على عطائه ، وله الفضل على كرمه وجوده .

وختاماً إليك هذا التوجيه النبوي الكريم ، والحديث الماتع العظيم ، يقول ﷺ : «اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم . ربنا ورب كل شيء . فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء . وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء . وأنت الباطن فليس دونك شيء . اقْضِ عنّا الدَّيْنَ وأغننا من الفقر» [رواه مسلم : ٢٧١٣] .

أنت غنيٌ ولست فقيراً

يقـول ﷺ : « انظروا إلى من هو أسـفل منكـم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » [رواه ابن ماجة].

هذه لفتةٌ عظيمة ، وفكرة قويمة ، وتوجيه سديد ، ورأي رشيد ، إننا حينما ننظر إلى أحوال الناس ، نجد أن أكثرهم قد أصيب بإحباط وعاش في قلق ، وتلظى في نكد ، وبقي في شقاء . وماذاك إلا بسبب نظرهم إلى من هم فوقهم ، وتطلعهم إلى ما بأيدي غيرهم ، وظنهم أن أولئك هم السعداء بما في أيديهم ، وأنهم هم الأشقياء المعدمين ، فينعكس ذلك في نفوسهم ، ويقلل من شكرهم لربهم ، ومعرفتهم بأنفسهم ، ويؤثر في حياتهم ، ويثبط من سيرهم . وإن الإنسان يستطيع أن يعيش سعيداً ، ويحيا غنياً ، ولو لم يكن لديه شيء من مباهج الحياة وزينتها ؛ فالسعادة سعادة القلب ، والبهجة بهجة النفس وتمام النعمة في الدين ، وكمال المنة بالإيمان ؛ والسرور بالحياة هو بحسن النظر إليها ، وفن التعايش معها ، وأن يرضى المرءِ بالقليل ، ويشكر على الكثير ، ولا يتيه فرحاً بموجود ، ولا يموت أسىً على مفقود ، وما من أحد إلا ولله عليه منة ، وله عليه نعمة ، قال سبحانه : ﴿ **قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾ [تبارك : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ **ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين** ﴾ [البلد : ١٠].

فليعلم المرء مهما كان مكانه ، ومهما قل إمكانه ، أن نعم الباري

عليه عظيمة ، ومنن المولى عليه جسيمة ، قال تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

أليس من السعادة أن ينطلق المرء من بيته معافىً في جسده ، سليماً في عقله ، متمتعاً بجوارحه ، يسعد باستنشاق الهواء العليل ، وشم الزهور العبقه ، والروائح الطيبة؟! .

يسعد بالنظر إلى الشمس وتأمل أشعتها الذهبية ، بمنظر إشراقها ومنظر غروبها ؛ يسعد بانطلاق لسانه وقدرته على الكلام ، وتحدثه مع الآخرين ، وإفصاحه عن حاجته ، وإبانته عن مكنونه ، وتعبيره عما يجيش في صدره .

يسعد بسماع الأصوات الجميلة والأحاديث المختلفة ؛ يلتقط ترانيم الأذان ، ويتذوق حلاوة القرآن .

يسعد بقدميه السليمتين ، ويديه القويتين ؛ يسعد بحسن تفكيره ، ورجاحة عقله ، وروعة أدائه ، يسعد بتأمل الطبيعة الغناء ، والمناظر الساحرة ، بالطيور المغردة ، بالشمس المشرقة ، بالبدر المنير ، بالنجوم الساحرة ، بالجبال الشاهقة ، بالأنهار الجارية ، بالمروج الخضراء ، بالحيوانات العديدة ، والمخلوقات المتنوعة .

يسعد بأولاده ، ببناته ، بإخوانه ، بأخواته ، بزوجته ، بأمه ، بأبيه بأقاربه ، أليست هذه كلها سعادة ، وجميعها سرور؟! ، إنك تمتلك الملايين المملينة ، ولكن لا تشعر بذلك ، فإذا أردت أن تشعر به فانظر إلى بصرك هل تبيعه بملايين الريالات ؟ وهل تبيع ساقيك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع سمعك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع يديك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع أبناءك أو عائلتك بملايين الريالات ؟ وهل تبيع جهازك الهضمي

أو لسانك أو قلبك السليم بملايين الريالات ؟ كَلاًّ لن تفعل ذلك! . إذاً أنت تملك ما يساوي ملايين الريالات بل بلايين الريالات ، فأنت غني ولست فقيراً ، وأنت سعيد ولست شقياً . فلو أن المرء يتفكر فيما وهبه الله من النعم لما نغص حياته ، وأتعب نفسه في التفكير البائس ، والهم القاتل بالنظر فيما عند الآخرين .

دخل رجل في تجارة فأفلست تجارته ، وفشلت تجربته ، وتحمل ديوناً ثقيلة ، وأعباء جسيمة ، فضاقت به نفسه ، وتنغص عيشه . وبينما هو يمشي في طريقه قد ملأ الأسي قلبه ، وسكن الغم فؤاده ، واستولى القلق على حياته ، إذا به يرى رجلاً مبتور الساقين يمضي على عربة يحركها بيديه وهو يعبر الشارع ، فلما اقترب منه ناداه والابتسامة العريضة على شفتيه قائلاً له : صباح الخير ، إنه صباح جميل ، ويوم سعيد أليس كذلك ؟ يقول الرجل فخجلت من نفسي واستحقرت موقفي ، واستعدت همتي ، وقلت : الحمد لله أن معي ساقين سليمتين وأستطيع أن أمشي وأتنقل في حرية ، إذاً لماذا الهم ؟ ولماذا القلق وأنا أمتلك هذه الثروة الكبيرة؟! .

فيجب على الإنسان لكي يسعد بالحياة أن يعدد أشياءه المباركة ، وليس متاعبه ، وأن ينظر إلى مكاسبه فيها وليس إلى خسائره ، بل حتى المصائب والكوارث يجب أن ينظر إلى الجانب الإيجابي فيها ، فهي لا تخلو من ذلك ، ولولم يكن إلا أجر الصبر عليها ، وثواب احتسابها لكفى به عزاءً ، قال تعالى : ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ [لقمان : ٢٠].

كان ﷺ يربط الحجارة على بطنه من الجوع ، ويمكث الشهر

والشهرين لا يوقد في بيته نار ، ويخرجه الجوع من بيته أحياناً كثيرة وقتل أصحابه ، ومزق بعض أتباعه ، وفقد كثيراً من أحبابه ؛ حلت به الكوارث ونزلت به المصائب ، ولم يكن له مركب فاره ، ولا قصر فاخر ، ولا رصيد متضخم ، ومع ذلك قال له الله تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ﴾ [المائدة : ٣] فأيّ نعمة تلك وقد نام على الحصير حتى أثّر في جنبه ؟ إن النعم إذاً لا ينظر فيها إلى الجوانب المادية فقط فهنالك نعمٌ أجل ومنن أكبر .

وقال ﷺ حينما سئل عن كثرة قيامه حتى تفطرت قدماه ، قال : « أفلا أكون عبداً شكورا » [رواه البخاري ومسلم] .

ولقد عاش ﷺ أسعد إنسان : أسعد نفسه ، وأسعد من حوله ، وهو لم يمتلك من حطام الدنيا شيئاً ، فليست المنة بالمال وحده والثراء أو الممتلكات ، فالإيمان نعمة بل أعظم نعمة ، والحياة نعمة ، والجوارح والعافية نعمة ، والعقل نعمة ، والتوفيق للعبادة نعمة .

مما روي أن عبداً عبد الله خمسمائة سنة فيوقف يوم القيامة ويقول الله : أدخلوا عبدي الجنة برحمتي ، فيقول : بل بعملي ، فيقول الله : قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله فوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادته خمسائة سنة ، وبقيّة نعم الجسد فضلاً عليه ، فيقول : أدخلو عبدي النار ، فيجر إلى النار ، فينادي : رب برحمتك أدخلني الجنة ، فيقول : ردوه ، فيدخله الله الجنة برحمته .

إن الإنسان المبتهج بالحياة يزيده الابتهاج بالحياة قوة فيكون أقدر على الجد وحسن الإنتاج ومقابلة الصعاب ، وما الحياة وما قيمتها ؟ وما هي

الدنيا وما أهميتها ؟ ، لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء . فهي مرحلة عابرة ، ورحلة قصيرة ، لا تستحق أن ينغص الإنسان فيها نفسه بكثير التحسر على ما فات منها والألم على مباهجها ؛ حرامُها عقاب ، وحلالها حساب، وإن الأكثرين في الدنيا هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا – بالصدقة ووجوه الخير – عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٨] .

فيجب على المسلم أن لا يكثر الهموم على نفسه ، فالدنيا لا تستحق ذلك ، يجب أن يكون همه في الآخرة في يوم الوقوف على الله في ظلمة القبر ، في النفخ في الصور في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، هنالك « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدّة قط ؟ فيقول : لا والله ، ما مرّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » [رواه مسلم].

يقول ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه » [رواه مسلم] .

نسأله تعالى أن يقنعنا بما آتانا ، وأن يجعلنا من الشاكرين لنعمه المعترفين بكرمه .

في الحديث المروي عنه ﷺ أنه قال : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » [رواه الترمذي وابن ماجة] .

قال هارون الرشيد – رحمه الله – لرجل : عظني ، فأراد الرجل أن يذكره بنعم الله عليه ، وكان الرشيد قد أُتي بماء ليشربه ، وقد أمسكه بيده ، فقال له : «يا أمير المؤمنين لو حُبستْ عنك هذه الشربة ومُنعت منها أكُنت تفديها بملكك؟ ، قال : نعم ، قال : فلو شربتها وحبس عنك إخراجها أكنت تفديها بملكك؟ ، قال : نعم ، قال فما خيرٌ في ملك لا يساوي شَرْبة ولا بَوْلة» .

وإن هنالك من النماذج العظيمة في تاريخنا ما يسلي النفس ، ويسعد الخاطر ، ويثير العجب من أناس أيقنوا حقيقة النعم التي وهبوها ، والمنن التي منحوها ، فكانوا مثالاً في الشكر ونماذج في الصبر .

عروة بن الزبير – رضي الله عنه – لما نصحه الأطباء ببتر قدمه فبترت نظر إليها وهي مبتورة فقال : «الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية» ثم مات أحب أولاده إليه في نفس اليوم ، فابتهل إلى ربه قائلاً : «اللهم لك الحمد على ما قضيت ، كان لي أربعة أطراف فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، وأعطيتني أربعة أبناء فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلك الشكر على ما أعطيت والحمد على ما قضيت» .

ومرّ أناس برجل يوم القادسية وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يضحك ، ويقول : «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا» .

ودخل رجل على رجل قد نزلت به بلوى عظيمة ومرض شديد ، فقال له كيف تجدك؟ قال : أجد عافيته أكثر مما ابتلاني به ، وأجد نعمه عليّ أكثر من أن أحصيها ، ثم بكى ، وقال : أسلي نفسي عن ألم ما بي بما وعد عليه سيدي أهل الصبر ، من كمال الأجور في مشهد يوم عسير.

ودخل رجل على مريض قد أكلت الآكلة أطرافه ، فقال له : كيف أصبحت ، قال : أصبحت والله وكل عضو مني يألم على حشدَته من الوجع لو أن الروم في شركها وكفرها اطّلعت علي لرحمتني مما أنا فيه ، وإن ذلك لبعين الله أَحَبُّه إليّ ، أحبُّه إلى الله ، وما قَدْرُ ما أخذ ربي مني؟ وددت أن ربي قد قطع مني الأنامل التي بها أكتسبت الإثم ، وأنه لم يبق مني إلا لساني يكون له ذاكراً .

ودخل رجل على إنسان مجذوم ، مقطوع اليدين والرجلين أعمى ، فقال له : ألا أزوجك امرأة تنظفك من هذه الأقذار؟ فبكى ، ثم قال : تزوجني ومُلْك الدنيا وعروسها عندي ، فقال له : وما الذي عندك من ملك الدنيا وأنت مقطوع اليدين والرجلين أعمى؟ فقال : رضاي عن الله عز وجل إذ أبلى جوارحي وقطعها وأبقى لساني أذكره به .

والقصص كثيرة ، والعجائب عديدة عن أولئك العظماء الذين عرفوا حقيقة النعمة ، وعظمة الصبر ، وروعة الأجر ، قال تعالى : ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ [التكاثر : ٨].

وقد أردنا من هذا كله تنبيه كثير من الناس ، الذين غفلوا عن شكر ربهم ونغّصوا حياتهم ، وأقلقوا أنفسهم ، وأرهقوا أفكارهم ، وجلبوا الهموم والغموم إلى حياتهم ، بكثرة نظرهم إلى ما عند الآخرين ، وتطلعهم لما في أيد الغير ، واعتبارهم أنفسهم محرومين أشقياء ، مع أن عندهم من النعم ولديهم من الملكات والطاقات ما يجعلهم يعيشون سعداء ، ويعدون أنفسهم أغنياء . وليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس . فاشكروا الله على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة ، قال سبحانه : ﴿ **ولئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ ، وقد عدد الله تعالى بعضاً من

نعمه على عباده ثم قال جل وعلا بعد ذلك : ﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ [النحل:٨٣] اللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك ، المعترفين بكرمك ، المقدرين لجودك ، السعداء بما أعطيتنا ، الأغنياء بما وهبتنا .

قصة قارون

فتح الله عليه أبواب النعيم ، وسبل الرزق ، وطرق الكسب ، فعظمت أموالُه ، وكثرت كنوزُه ، وفاضت خزائنه ، وأوتي بسطة في الرزق ، ورخاءً في العيش ، وكثرة في المال ؛ فعاش في ترف وبذخ ، وكبرٍ وبطر ، وفخر وخيلاء . طغى وتجبّر ، فسق وتمرّد ، تطاول وتمادى، زاد نهمه ، وكثر خدمه ، وعظم حَشَمُه ، حتى ظن أن لن يقدر عليه أحد ، عميت بصيرته ، وعظم زهوه ، وزاد غروره ، واغتر به كثير من الناس ، ورنت إليه بعض الأبصار ، وتمنت مكانه فئام من البشرية . فلما بلغ الأمر مبلغه ، والفتنة أشُدَّها ، والتمادي منتهاه ، حلت العقوبة ، وكانت الفاجعة ، ونزلت الكارثة ، وعظمت العبرة .

فمن هو هذا الغني ، ومن يكون ذلك الثري ، وما هي قصته ، وكيف كانت نهايته؟!! .

استمع الآن إلى البيان المعجز ، والخبر الصادق ، والنبع الصافي ، ليروي لك القصة ، ويسرد لك الحكاية ، ويُعْلمك بالنهاية :

قال الله تعالى : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة** ﴾ [القصص : ٧٦].

بدأت القصة بتحديد البطل ؛ فبطل القصة : قارون ، وحددت قومه ﴿ **من قوم موسى** ﴾ ، ويقال ابن عم موسى عليه السلام ، وقررت مسلكه مع قومه ، فهو مسلك البغي ، وقررت سبب ذلك البغي ، وهو الثراء

وكثرة الأموال .

فقارون موجود في زمن نبي من أنبياء الله وهو موسى عليه السلام ، وهنا إشارة إلى أمرين مهمين :

الأمر الأول : أن قارون لم يستفد من وجود هذا النبي الكريم ، ولم يتعظ بمواعظه ، ولم يستجب لدعوته ، ولم يتخلق بأخلاقه .

والأمر الثاني : الإشارة إلى أن قرابته لموسى ، وصلته به ، لم تغن عنه شيئاً من عذاب الله تعالى .

﴿ **فبغى عليهم** ﴾ فلم يحدد نوع ذلك البغي ، وهذه إشارة على عظمته وشناعته وتنوعه . بغى علهيم بالكبر ، بغى عليهم باغتصاب أموالهم ، بغى عليهم بمنعهم حقوقهم في هذا المال ، بغى عليهم بالظلم بغى عليهم بكل ما تحمله كلمة البغي من معانٍ .

﴿ **وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة** ﴾ : آتيناه فالرزق من عندنا ، والمال من لدنا ، وليس بمهارة قارون ، ولا بعلمه ولا بأفضليته ، فالأرزاق بيد الله ، وهو الذي يقسم أرزاقه على عباده، وليس في إعطائه للعبد دلالة على رضاه عنه ، وليس في منعه عن العبد دلالة على سخطه عليه ، بل قد يكون الأمر على العكس من ذلك .

هو الرزق لا حل لديك ولا ربط
ولا قلم يجدي عليك ولا خط
فطير يطوف الأرض شرقاً ومغرباً
وآخرُ يعطى الطيبات ولا يخطو

يقال إن مفاتيح خزائن قارون إذا انتقل من مكان إلى مكان كانت تحمل على ستين بغلاً أغرَّ محجلاً .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة ، رجل من قوم موسى ، وصل إلى قمة الثراء ، بغى على قومه .

المشهد الثاني : مشهد أهل الخير والصلاح ، والنصح والإرشاد ، والعلم والهدى ، قاموا بمسئولية البلاغ ، وواجب النصيحة ، فحينما رأوا قارون تمادى في طغيانه ، وزاد في بغيه ، مع غرور واستئثار ، وبطر واستكبار ، حاولوا أن يثيروا فيه روح الخير ، وينبهوه من غفلته، فنصحوه أن لا يغويه المال ، ولا يغره الثراء ، فيحول بينه وبين الإحسان إلى قومه ، والمراقبة لربه ، والأخذ من الدنيا بنصيب ، ومن الآخرة بنصيب فإن لله حقاً ، وللناس حقاً ، وللنفس حقاً ، وللزوجة حقاً ، فيجب أن يعطى كل ذي حق حقه . ونهوه عن الفرح الذي يدفع إلى الزهو والغرور ، وبينوا له أن الله تعالى يمقت الفساد والمفسدين ، وأن هذا المال ظلٌّ زائل ووديعة مستردة ، فلا يفرح ولا يغتر ، بل يجب أن يتخذه وسيلة لقضاء مآربه في الدنيا ، وطريقاً لسعادته في الآخرة . وقد أوجز القرآن لك الموعظة البليغة التي وعظ بها قارون ، فقال تعالى : ﴿**إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين**﴾ [القصص : ٧٧] .

فماذا كانت ثمرة الموعظة ونتيجة النصيحة؟ ، أجابهم بجملة واحدة ولكنها تحمل شتى معاني الفساد والإفساد ، جملة تحمل في طياتها الكبر والبغي والطغيان ﴿**قال إنما أوتيته على علم عندي**﴾ .

أوتيته بعلمي ، بمهارتي ، بقدراتي ، بأفضليتي واستحقاقي لهذا المال فكان متطاولاً في كلامه ، جافياً في رده ، جريئاً في مقولته ؛ مقولة المغرور المطموس الذي نسي مصدر النعمة ، وتنكر لصاحب الفضل ، وكفر بمن يستحق الشكر .

ولذلك جاء التهديد والإشارة بالوعيد ، والرد على مقولته الفاجرة، جاء ذلك قبل تمام الآية ، ونهاية القصة ، فقال تعالى : ﴿ **أولم يعلم أن الله أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ [القصص : ٧٨].

كانت المشاهد الأولى تحكي البغي والتطاول ، والإعراض عن النصح ، والتعالي عن العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال، والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران .

ثم يجيء بعد ذلك مشهد من مشاهد القصة ، وهو المشهد الذي يخرج فيه قارون على قومه في زينته ، وكأنه بذلك يكيد للذين نصحوه ويستخف بمشاعرهم ، ويبالغ في إيلامهم ، فيخرج في منتهى الزينة ، وغاية الكبر ، ونهاية الغرور ، فتطير لذلك قلوب فريق من القوم ، وتتهاوى أنفسهم لمثل ما أوتي قارون ، ويرون أنه صاحب حظ عظيم ، وخيرٍ عميم . وذلك لأنهم أصحاب نظرية مادية ، وأفكار دنيوية .

﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ [القصص : ٧٩] ، وهنا يتدخل أهل العلم والحكمة مرة أخرى ، ويتأنقون في النصيحة ، ويجتهدون في الموعظة ، قال تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾ [القصص : ٨٠].

فذكّروهم بالرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثوابه ، والفرح بعبادته ، فيجب أن يكونوا أعلى نفساً ، وأكبر قلباً ، ﴿ **ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾ ، الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم ، الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها ، الصابرون على الفقر ومعاناته ، الصابرون على شظف العيش ومقاساته ، الصابرون على الحرمان من كثير من متع الدنيا ، لأنهم علموا أن الصابرين يوفَّون أجورهم بغير حساب .

ثم يجيء المشهد المرعب في القصة ، مشهد الخاتمة المشينة ، والمصرع الوخيم ، والانتقام العظيم ، ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين** ﴾ [القصص:٨١] هكذا كانت النهاية بعد أن عظمت الفتنة ، واشتدت المحنة . هذه نتيجة الكبر والبطر والغرور والخيلاء ، والجحود والإصرار ، والتألي على عباد الله ، ابتلعته الأرض ، وساخت فيها أمواله وقصوره .

يقول ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » [رواه أحمد] .

وبعد هذه النهاية الخاسرة ، أصبح الذين تمنوا مكان قارون يحمدون الله أن من عليهم ونجاهم من الخسف ، قال تعالى : ﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ [القصص : ٨٢] .

ثم تختم القصة بهذا المقطع الجميل الذي يؤكد أن الفوز والفلاح هو في الدار الآخرة وأن الله تعالى يجعل جناتها ونعيمها ، وأنسها وسرورها وأنهارها وحورها ، لأهل الإيمان والتواضع والتقوى والإحسان ، والبعد

عن الفساد ، قال سبحانه : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

بعض الدروس المستفادة من القصة :

١ – أن نسب الإنسان وحسبه لا يغني عنه من الله شيئاً .

٢ – أن الرزق هو من عند الله تعالى فهو مقدر الأقدار ، ومقسم الأرزاق .

أما ترى البحر والصياد منتصبٌ
لرزقه ونجوم الليل محتبكه
قد غاص في لُجّة والموج يلطمه
وعينه لم تزل في كلكل الشبكه
حتى إذا بات مسروراً بليلته
بالحوت قد شق سفُّود الردى حنكه
شراه منه الذي قد بات ليلته
خلْواً من البرد في خير من البركه
سبحان ربي يعطي ذا ويحرم ذا
هذا يصيد وهذا يأكل السمكه

٣ – عدم الفرح بالدنيا ، فرح زهوٍ وكبر وغرور ، فإن هذه هي المهلكة الكبرى ، والداهية العظمى ، فالكبر والغرور عاقبتها وخيمة .

يقول أحد المتكبرين :

أتيه على جن البلاد وإنسها
فلو لم أجد خلقاً لتهت على نفسي
أتيه فما أدري من التيه من أنا
سوى ما يقول الناس فيّ وفي جنسي

٤ – مقياس السعادة والسرور في الدنيا هو بطاعة الله تعالى والإحسان إلى عباده ، وليست السعادة ولا الريادة بكثرة الغنى .

٥ – أن الإسلام يدعو إلى إعمار الأرض والسير في مناكبها ، والأخذ بنصيب من الدنيا ، ولكن يجعل ذلك كله طريقاً إلى الدار الآخرة ، ويحسن الإنسان كما أحسن الله إليه .

٦ – أن الفساد وأهله ممقوتون بعيدون من محبة الله . فويل لمن سخَّروا أموالهم لإفساد عباد الله ، أين يذهب أصحاب الأموال الطائلة من ربهم ، وقد سخروا أموالهم في إفساد الناس ، ونشر الفاحشة ، والدعوة إلى الرذيلة؟! .

٧ – يجب على أهل العلم والخير أن يقوموا بمسئولية الدعوة وواجب النصيحة .

٨ – أن الصبر سبب للخير والفلاح ، والتوفيق والنجاح في الدنيا والآخرة .

٩ – أن العاقبة للمتقين ، والفوز للصالحين ، والآخرة للمؤمنين المجتهدين المتواضعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

قصـــة ســـبأ

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل خمطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور * وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرةً وقدّرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين * فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [سبأ : ١٥ – ١٩] .

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمال .. ﴾ .

كانت سبأ موطن ملوكُ اليمن وأهلُها ، ومنهم بلقيس صاحبة سليمان – عليه السلام – وكانوا في نعمة لا تبارى ، وغبطة لا تجارى. كانت اليمن بلاداً مستفيضة الرقعة ، ذات أودية عريضة ، وتربة خصبة ، ولكنها كانت شحيحة بالماء ، مقفرةً من الأنهار ، إلا وابلاً من المطَر يتحدّر من سفوح الجبال ، ثم يمضي قدماً إلى الصحراء، فلا يلبث إلا كما يلبث الطيف ، أو تقيم سحابة الصيف ، فهداهم حسن تفكيرهم بعد توفيق الله لهم ، وألجأتهم الحاجة إلى أن يبتدعوا أمراً يَتَوَقَّون به زحف السيول الهادر ، ويحجزونها في أرضهم لكي ينتفعوا بها ، وهُدُوا إلى طريقة السدود والحواجز يقيمونها بين الأودية ، وذلك دليل على قوة همّتهم ، وشدّة عزيمتهم ، وقد كثرت تلك السدود ، وتعددت الحواجز ، ولكنَّ سدّ مأرب كان أقواها وأمتنها ، وأجداها وأنفعها ، فقد كان سدّاً عريضاً

منيعاً حصينا ، قوياً مكيناً ، وجعلوا له عيوناً تُفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة ، فإذا بالوادي المقفر يتحول إلى حديقة غناء ، وإذا بالوهاد الشاحبة بساطاً أخضر ، وإذا بالبلد القاحلة تكتسي حلّة خضراء، وترتدي ثوباً قشيباً . منظرٌ يسرُّ العين ، ويبهج القلب ، ويمتع الفؤاد، حدائق غناء ، وزروع خضراء ، وماء متدفق ، وعيون تجري ، وقطوف دانية ، وثمار يانعة ، وفواكه مختلفة ، وأشجار وأزهار ، وغصون وورود ، ورياحين وياسمين ، وشيحٌ وكادي ، متعةٌ للذوق ، ومتعة للقلب ، ومتعة للنظر ، ومتعة للفكر ، ومتعة للسمع بأصوات الطيور المغرّدة ، والبلابل الصداحة .

تسير المرأة في وسط هذه الحدائق المبهجه ، وبين الأشجار الملتفَّة ، وعلى حافات القنوات التي تنساب المياه العذبة ، تسير المرأة حاملة مكتلها فوق رأسها ، فلا تمضي مسافة يسيرة حتى يكون المكتل قد امتلأ من الثمر المتساقط الذي لا يكلف حتى القطاف .

وهكذا اتسعت النعمة ، وعَظُمت المنة ، وفاض الخير ، وغنت بلال السعد ، وخيمت أيام السرور ، وتدفق العطاء ، وساد الرخاء ، واتسع الغنى ، وعمّ الهنا ، وطابت الأرض ، وحسن المقام ، واعتدل الهواء ، وصحّ المزاج ، ولم يبق في الحياة شيء يعكِّر الصفو ، أو يكدر الأنس ، ولقد خلت أرضهم من كل منغص حتى من الذباب والبعوض ، والبراغيث والحشرات والهوام . كل ذلك عنايةٌ من الباري، وجودٌ من الكريم ، وعطاءٌ من العظيم ، وهبةٌ من المنعم ، كلوا من رزق ربكم ، تمتعوا بنعمه ، اهنأوا بعطائه ، التذوا بأرزاقه ، والمطلوب منكم هو شكره على النعمة ، وإفراده بالعبادة ، والإحسان معه بالطاعة ،كلوا من رزق

ربكم واشكروا له ، فالمقام طيب ، والبلدة طيبة ، والحياة طيبة ، والثمار طيبة ، والهواء طيب ، وأطيبُ من كل ذلك ، وأعظم مما هنالك أن الرب طيبٌ غفور ، فاجتمع لهم طِيْبٌ في الأرض ، وطِيْبٌ في السماء ، سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة في السماء بالعفو والغفران فهل بعد هذا الهناء من هناء ؟ . وهل بعد هذه النعمة من نعمة؟ فهل عرفوها؟ وهل قدروها؟ ، وهل شكروها؟ .

﴿ **فأعرضوا** ﴾ — نعوذ بالله من الخسران ، وقلة التوفيق ، وضيق الأفق وغلبة الهوى ، ومحق البركة – أهكذا يكون الجزاء؟ ، أهكذا تشكر النعمة؟ ، أهكذا يقابل الإحسان؟ ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ ، يَخْلق ويُعْبَد غَيْرُه ، يُعْطي ويُشكَر غيره، يَرْزق ويُتجه إلى سواه .

﴿ **فأعرضوا** ﴾ .. انظر إلى عظمة القرآن وإعجازه وإيجازه ، أوجز معاصيهم كلّها ، وأخبر عن جرائمهم جميعها بهذه الكلمة . إن إعراضهم الذي استحقوا به العقوبة الصارمة ، والجزاء المخيف لم يكن شيئاً سهلاً ، أو أمراً هيّناً . ولا شك أن أعظم ذلك الإعراض هو الشرك بالله تعالى ، والمعاندة لشرعه ، والتخلي عن هدايته ، ومخالفة رسله أو محاربة أوليائه ، والتنكر لنعمه ، والكفران لجوده ، وقد ترك الإعراض مبهماً دون تفسير لحقيقته ، وبيان لأنواعه لتهويل الأمر ، وإظهار فظاعته والإشارة إلى شناعته ، ولك أن تتصور الإعراض في جميع أشكاله ، وشتّى أنواعه .

﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل** ﴾ يالله ما أسرع الانتقام ، وما أشد العقوبة ، وما أعظم البلية ، ﴿ **فأعرضوا فأرسلنا** ﴾ كأنه لم يكن بين الإعراض وإرسال

العذاب إلا غمضة عين ، ولا شك أنهم قد عاشوا مدة طويلة في النعيم ، وأعطوا مهلة للتوبة ، ولكن ساعات الهناء محدودة ، ولحظات السرور معدودة ، وزاد من قلتها ومحق بركتها ذلك الإعراض المقيت ، فأرسلنا عليهم سيل العرم ؛ دمّرهم بالذي كان مصدراً لسعادتهم ، وسبباً لسرورهم ، بالماء الذي شربوا من زلاله ، واستقوا من ينابيعه ، واستمتعوا بخريره ، واستأنسوا لهديره ، سقوا به زروعهم ، وارتوت منه أراضيهم وأفئدتهم وبهائمهم ، ﴿ **أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾ [السجدة : ٢٧] هذا الماء الذي سعدوا به هو الذي دمّرهم الله به ، فأدخل به الرعب إلى قلوبهم ، وطاشت لهوله عقولهم ، ودُمِّرت به منازلهم ، واجتُثت به مزارعهم ، وقُصفت به ممتلكاتهم ، وقُوِّضت به أبنيتهم ، ونسفت به سدودهم ، غرقَ الزرع ، وهلك الضرع ، وإذا بالواد الأخضر يمسي وهو مقفر ، وإذا بالحدائق الغناء صحاري جرداء ، وإذا بالثمار اليانعة يحل مكانها الخمط والأثل نبات مرٌّ بشع ، والسدر الذي يمكن أن يؤكل لم يوجد منه إلا قليل ، وإذا بالطيور الصداحة ، والبلابل الغناء تغادر ليحل محلها البوم والغربان ، تصيح فوق البيوت المهدمة ، والزروع المدمِّرة ، وإذا بالأسر تمزّق ، والأهل يُشرّدون ، والأحبة يتفرّقون وإذا بالبلاد تُهجر ، والأوطان تُغادر بقلوب محترقة ، وأعين دامعة ، ونفوس متحسره ، ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ .

وهكذا التنويع في أخذ الظالمين ، والتشكيل في عقوبة المجرمين ﴿ **فكلاً أخذنا بذنبه . فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرىً ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيّاماً آمنين ﴾ .

هذه مواصلة للحديث ، وعودة إلى الخبر عن جود الله عليهم ونعمه لهم ، فقد كانوا في عيش رغيد ، ونعمة عظيمة ، وبلاد طيبة وأماكن آمنة ، وقرىً متواصلة ، ومدائن متقاربة ، مع وفرة في الأنهار وكثرة في الأشجار ، وقد كانوا يسافرون من بلادهم إلى الشام ، وإلى بلدان كثيرة ، وهم في أمن وأمان ، وأنس وسرور ، وعطاءٍ ونماء لا يحتاجون إلى حملٍ للزاد ، ولا تزود بالماء ، فحيث ما نزلوا وجدوا ماءً زلالاً ، وثمراً يانعاً ، ويقيلون في قرية ، ويبيتون في الأخرى ، لا يشعرون بتعب ، ولا يعتريهم نصب، ولا يُعانون من وصب ، فهم يسيرون في قرى واضحة ظاهرة آمنة فبطروا النعمة ، وجحدوا المنّة فقالوا ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا ، دعوا على أنفسهم بطول المسافات ، وتباعد الأسفار ، بطراً منهم وحسداً لأنفسهم ، ومللاً من الرخاء ، وضيقاً بعيش الهناء، فكانت العقوبة الصارمة ، والانتقام المقيت ، **﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾** .

أحاديث يروي الناس أخبارهم ، ويحكون قصصهم ، ويتندرون بفعلهم ، أصبحوا حديث المجالس ، وكلام الناس في أنديتهم ، ومجالس سمرهم .

بينا ترى الإنسان فيها مخبراً
ألفيته خبراً من الأخبار

﴿ ومزقناهم ﴾ .. ما أعظمها من كلمة ، وما أجلها من عبارة ، تحمل في طياتها أقسى أنواع العذاب ، وأشد ألوان النكال ، مهما فتشت في اللغة ، ونقبت في المعاجم فلن تجد كلمة أجمع ولا أبدع من هذه الكلمة

فهذه نهاية الكفران ، وهذه عاقبة الجحود ، فكأنهم ورقة سحبت من سجل التاريخ ثم مزقت وقُطِّعت ورمي بها في سجل المهملات ﴿**فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً**﴾ [مريم: ٩٨] ، تمزيقٌ أُسَري ، وتمزيقٌ في المكان ، وتمزيقٌ في الزمان ، وتمزيقٌ في المشاعر ، فهل من مُدَّكر ، وهل من معتبر .

﴿**إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾ .

شــــعيب عليــه الســلام

كان أهل مدينٍ عرباً يسكنون أرض معان من أطراف الشام ، وكانت هذه الأرض مؤمنةً صالحة ، فتغير بها الحال ، ومرت بها السنون ، وطال بها الأمد ، حتى ظهر الفساد في أهلها ، وانتشر الشرك في جبلها وسهلها وأظلمت القلوب ، واسودت النفوس ، وتدنس الناس بدنس المعاصي ، وارتموا في أوحال الذنوب والشهوات، فلما جلّ الخطب ، وفدح الأمر ، وعظُم الفعل ، أرسل الله إليهم شعيباً عليه السلام ، وآزره بالمعجزات ، وأيّده بالبينات ، فدعاهم أول ما دعاهم إلى تصفية العقيدة ، وتحقيق التوحيد ، وإعلان العبودية لله وحده ، ثم حذرهم من الذنوب التي تواطؤوا عليها ، ونهاهم عن المعاصي التي درجوا عليها ، أَلفتها نفوسُهم، وارتضتها قلوبهم ، حتى أصبحت جزءاً من حياتهم ، وشيئاً من كيانهم، بل أصبح إنكارُها هو المنكر ، وهي ذنوب مؤذنةٌ بفساد ، ومعلنة بدمار ، ذكّرهم بنعم الله عليهم ، وحدثهم عن جود المولى لهم ، وانطلق في مسيرته الدعوية ، والقيام بواجبه الإصلاحي في يُسرٍ وتَرفُّق ، ولينٍ وتلطُّف ،بالكلمة الصادقة والموعظة الحسنة .. ﴿ .. **قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينةٌ من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراطٍ توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتمً قليلاً فكثَّركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

وهنا تتجلى أعظم المنكرات التي كان يقع فيها قوم شعيب ، وهي :

١ – الشرك بالله تعالى .

٢ – عدم إيفاء الكيل والميزان ، فقد كانوا إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، وهذا من الذنوب العظيمة التي توعد الله أصحابها بالويل والهلاك .

٣ – بخس الناس أشيائهم ، وانظر إلى روعة كلمة أشياء ، فليس شرطاً أن يكون ذلك البخس للحقوق المادية فقط ، بل تتنوع مظاهر بخس الناس أشيائهم وهضم حقوقهم سواء كان ذلك في الأمور المادية أو في الأمور المعنوية .

٤ – تعمد الفساد في الأرض بعد إصلاحها ، وتعمد إفساد أهلها ، وإبعادهم عن دينهم، وجرهم إلى الرذيلة ، ودعوتهم إلى الخطيئة .

٥ – القعود في وجه الدعوة ، والحرب على أنصارها وأتباعهم ، والحملة الجادة للصد عن سبيل الله ، والسلوك بالناس والحياة الطريق الأعوج والبعد عن الطريق المستقيم .

فقد جمعوا أسوأ المعاصي ، وأخطر الآثام ، وأقبح الذنوب : الشرك بالله ، والصد عن سبيله ، وأكل حقوق عباد الله ، وبخس الناس أشياءهم .

وقد استخدم شعيب عليه السلام عدداً من الوسائل لدعوتهم والتأثير في نفوسهم وجذب قلوبهم للحق ، كل ذلك في نفس مؤمنة، وقلب مشفق ، وفؤاد صادق ، ونُصْحٍ مُتَرَفِّق ، فقد ذكَّرهم أولاً بالبينة الواضحة من ربه ، والمعجزة الصادقة على نبوته ، ثم تلطف في ندائهم ، وبين لهم

أنه واحد منهم ، وأن الرائد لا يكذب أهله ، وابن العشيرة المخلص لا يخون عشيرته ، فقال : « يا قوم » – وقد تكرر استخدام شعيب لهذه الكلمة لتكون أوقع في النفوس ، وأدعى للقبول – ثم ذكَّرهم بوحدانية الله تعالى ، وأنه المتفرد بالعبودية ، وأنه الواحد الأحد الخالق الرازق المستحق للعبادة وحده دون شريك .

ثم ذكرهم بنعمة الله عليهم إذ كانوا قليلاً مستضعفين لا قوة لهم ولا منعة ولا حول ولا طول ، فكثرهم وقواهم وآزرهم ونصرهم ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم** ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

ثم ذكرهم بمصارع الأمم السابقة قبلهم ، وحذرهم أن يصيبهم ما أصابهم ، ﴿ **ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ [هود : ٨٩] .

ثم أمرهم بالاستغفار ، ودعاهم إلى التوبة، وبين لهم أن الله تعالى رحيم ودود وسعت رحمته كل شيء ﴿ **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود** ﴾ [هود : ٩٠] ، فهل نفعت فيهم الدعوة ، وهل أثمرت فيهم الموعظة ، وهل أَجْدَت فيهم النصيحة .

﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملّتنا ..** ﴾ [الأعراف : ٨٨] هكذا قابلوا دعوة الداعي الناصح ، والرسول الصادق ، وأول من يتبنى الوقوف في وجه الحق دائماً هم المستكبرون والمتغطرسون في كبريائهم ومناصبهم وأموالهم وعشائرهم ، ثم يسير الناعقون والمصفقون والمنتفعون والغوغائيون في ركابهم ، وقفوا في وجه شعيب ، واستهزؤوا بقوله ، وسخروا منه ، وتهكموا به و ﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن**

نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [هود : ٨٧] ، هل دعوتك وعبادتك وصلاتك ستكون مهيمنة على أعمالنا وسلوكياتنا ، وتنهانا أن نعامل الناس كما نحب ونشتهي ، وندع ما درجنا عليه ونشأنا فيه وكثرت أموالنا من طريقه .

وهكذا نرى إنكارهم لهيمنة الدين على حياتهم ، وهو القصور الجاهلي المقيت الذي يتردد في كل زمان ومكان ، ها أنت تسمع اليوم كثيراً من هذه الدعوات التي إن وافقت على الدين والعبادة فإنها تحصرها في المسجد فقط ، فيقولون ما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام ولحرية المرأة ولباسها؟ ما للإسلام والجنس؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام والعري في الشواطيء والرقص المختلط في النوادي؟ ما للإسلام والقنوات الفضائية وتلبية جميع الرغبات؟ وما للإسلام والمعاملات الاقتصادية والربوية؟ ما للإسلام والسياسة؟ وهكذا يحكم على الإسلام بالسجن في زنزانة انفرادية لا يسمح له بمغادرتها ، كم يتوهم كثير من الجاهليين والعلمانيين والمنافقين ، وهكذا يقف هؤلاء المردة في وجه الحق ، وطريق الخير ، يصدون عنه ، ويحاربون دعاته ، ويخذلون أتباعه ، يهددونهم بالقتل ، ويخوفونهم بالطرد ، ويعدونهم بالأذى .

وقد تحمل شعيب جفوة قومه ، وصبر على أذاهم ، وغض الطرف عن سخريتهم واستهزائهم ، وتلطَّف في جدالهم ، وحاول استمالتهم باللين ، واجتذابهم بالرفق ، وبين لهم أن ظهور البينة له من ربه ، وكثرة نعم الله عليه تحولان بينه وبين الانسياق في طريقهم ، والاندفاع في غيِّهم ، وتمنعانه من التفريط في وحي الله والتهاون في تكاليفه ، وأنه لن ينهى

عن العمل بهذه الدعوة ، ولن يكرههم على اتباعه ، ولن يأمرهم إلا بشيء رضيه لنفسه ، ولن يفعل ما ينهاهم عنه ، وهو لا يطلب منهم أجراً على دعوته ، ولا جزاء على هديه لهم وإرشاده إياهم ، بل يريد الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] .

فانظر إلى روعة الكلام ، وجمال الحديث ، وهو يعلم العقيدة والتوحيد والأدب مع الله تعالى ، ووجوب اللجوء إليه في ثنايا كلامه معهم ، ونقاشه لهم ، فيلمح لهم إلى أن الله تعالى هو الذي رزقهم رزقاً حسناً ، وكان الواجب أن يشكروه ، ويلفت انتباههم إلى أن التوفيق منحة ربانية من الله جل وعلا ، وأن التوكل الحق هو على الله تعالى ، ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [الطلاق : ٣] وأن الإنابة والتوبة يجب أن يبادر بها الإنسان إلى ربه جل وعلا .

فلما وعظهم وأحسن موعظتهم ، وجادلهم فأحسن جدالهم ، وأظهر لهم فساد اعتقادهم ، وبين لهم عاقبة ظلمهم ، وخوفهم من بأس الله تعالى وعذابه ، وأيّد أقواله بالحجة البالغة والآيات البينة والبرهان الساطع، لجؤوا إلى المراوغة في القول ، ومدافعة الحجة بالشتم ، ورد البينة بالسباب ، والتمرد على الموعظة بالمغالطة ﴿ **قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾ [هود : ٩١] ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا ، ولا منفذ إلى عقولنا ، وأنت مستضعف ذليل ، ولم يمنعنا من إلحاق الأذى بك إلا مكان عشيرتك ،

وحرمةُ قبيلتك ، فلما كشَّر الباطل عن أنيابه ، وزاد الأمر عن حدّه ، لم يطأطىء شعيب رأسه أمام عزتهم ، ولم يضعف أمام قوتهم ، بل هب يدفع باطلهم بالحق ، ويمحق زورهم بالبينة ، وتملّكته العزة بنصرة الله ، والثقة بمعيته لأولياءه ، وصرخ في وجوههم غاضباً من قولهم المقيت ، وردّهم السفيه ، وبين لهم أن رهطه وقبيلته ليسوا أرفع قدراً ، ولا أشد قوة ، ولا أمنع جانباً من الله جل وعلا ، وأنهم لو كانوا يعقلون ما جعلوا القبيلة والعشيرة أعزَّ عندهم وأولى بالمراعاة من الله جل وعلا ﴿ **قال يا قوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ [هود : ٩٢] .

ولم يُضعف تهديدهم قوَّته ، ولم يفلَّ وعيدُهم عزمه ، بل تحدّاهم ودعاهم إلى أن يبذلوا ما يملكون من قوة لإيصال الشر إليه ، وأعلن لهم أنه لن يألو جهداً في سبيل دعوته ، فثقته بالله أكيدة ، وإيمانه راسخ ، ويقينه جازم ، وموعود الله له صادق .

فاستمر القوم في إصرارهم على الكفر ، وتماديهم في الضلال ، وسخريتهم بشعيب وأتباعه ، وتكذيبهم لهم ، وتهديدهم بالأذى والرجم والطرد من البلاد ، وتحديهم لله ورسوله ﴿ **وما أنت إلا بشرٌ مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ [الشعراء : ١٨٧] .

فلما أن ضاقت السبل ، وبارت الحيل ، وعظم إصرارهم ، وكبر جحودهم ، وتطاولوا على نبيهم ، وسخروا بأمر ربهم ، حلت العقوبة ، وجاءت النقمة ، فابتلاهم بالحر الشديد ، فكان لا يروي ظمأهم ماء ، ولا تمنعهم ظلال ، ولا تقيهم المنازل ، ففروا هاربين من الحرّ ، وخرجوا مسرعين من الجحيم ، ولم يعلموا أنهم إنما فرّوا إلى حتفهم ، وخرجوا إلى

هلاكهم ، فقد تجلّت لهم سحابة في السماء فظنوها واقية من الشمس ، دافعة للحر ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، ويستروحوا فيئها ، ويستبشروا بغيثها الهنيء المريء ، حتى إذا تكامل عددهم ، وتألف جمعهم ، رمتهم بشرر وشهب ، وأمطرتهم بعذاب وسخط ، وجاءتهم صيحة من السماء ، وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ، فاشتد خوفهم وعظم قلقهم ، وطاشت عقولهم ، وذُعرت نفوسهم ، وخَفَقَتْ قلوبهم ، وخارت أقدامهم ، جاءتهم الصيحة ، وأخذتهم الرجفة ، علا صياحهم ، وضج بكاؤهم ، وادْلهمَّ خطبُهُم ، وارتفع نحيبهم ، فَدُمِّرت أجسادهم ، وزَهقت أرواحهم ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٧٨] ، ﴿ **الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] .

فلما رأى شعيب ما حل بقومه أعرض عنهم ، وتنحى جانباً وقد أثقله الحزن على ما أصابهم ، وتملكه الهم لما حل بهم ، ولكنه تذكر كفرهم وعنادهم ، وظلمهم وعدوانهم ، وتسفيههم واستهزاءهم ، ووقوفهم في وجه الحق وطريق الخير ، فخفف ذلك من وجده ، ولطّف من أساه ، ثم تولى عنهم ﴿ **وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قومٍ كافرين** ﴾ [الأعراف : ٩٣] .

يونس عليه السلام

وقبل أن نغادر ساحل البحر أرى من الواجب علينا أن نتلبث قليلاً مع بعض الأحداث العظام، والأخبار الجسام، والقصص الخالدة والمواقف الرائدة التي لنا مع البحر. ومن أعظم ذلك قصةُ موسى عليه السلام، وقصةُ يونس عليه السلام، ولطول قصة موسى عليه السلام من جهة، ولشهرتها من جهة أخرى نرجيء الحديث عنها إلى وقت آخر، ونجعل حديثنا اليوم عن قصة نبي الله يونس عليه السلام المعروف بذي النون. والنون هو الحوت، وذو النون بمعنى صاحب الحوت، فهيا بنا ننطلق في سفينة من سفن الاعتبار، وباخرة من بواخر العظة، نمخر بها عباب التاريخ السحيق العميق الهائل، لنحصل على بعض اللآلي والياقوت والمرجان من قوله تعالى: ﴿ **بسم الله مجريها ومرساها** ﴾ [هود: ٤١].

وردت قصة يونس عليه السلام في ثلاثة مواطن من كتاب الله عز وجل. في سورة الأنبياء، وفي سورة الصافات، وفي سورة القلم، وقد سميت سورة كاملة باسمه، وورد فيها الإشارة إلى إيمان قومه، وقد وردت قصة يونس عليه السلام بإيجاز في سورة الأنبياء ثم وردت بنوع من التفصيل في سورة الصافات، ثم وردت بإيجاز في سورة القلم، وفي كل مرة وردت فيها القصة، تأتيك في ثوب جديد، ولون فريد، وأسلوب آخر، وعبارة مختلفة، وتجد فيها ما لا تجد في غيرها، وهذه عظمة القرآن ومميزاته، وروعة أساليبه، وتفرد بيانه.

قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقال تعالى في سورة الصافات ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون * فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾ [الصافات : ١٤٧].

وقال تعالى في سورة القلم : ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتبه ربه فجعله من الصالحين** ﴾ [القلم : ١٥٠].

ولعل هنالك سراً أو تناسباً بين مطلع هذه السورة ﴿ **ن** ﴾ وبين ورود قصة ذي النون ، ولنبدأ الآن في ذكر موجز للقصة ، فإن في قصصهم عبرة .

موجز القصة : أن الله تعالى بعث يونس عليه السلام إلى أهل « نينوى » وهي قرية من أرض الموصل قريبة من البحر ، كانت تعيش تحت ظلال الأصنام ، وبين حنادس الجهل والشرك ، فأشعل يونس عليه السلام قبس الإيمان ، وقدح زند الهداية ، وحمل علم التوحيد ، ودعاهم إلى الله عز وجل فثاروا في وجهه ، وتمردوا على دعوته ، ورفضوا هدايته ، ولم يجد منهم إلا الجحود والإنكار ، والبغي والإصرار . فبعد أن يئس منهم ، ولم تُجد دعوتهم باللطف واللين ، والرفق والإقناع ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، أَنذرهم عذاباً واقعاً ، وبلاءً نازلاً ، وهلاكاً قريباً ، فقالوا له : ما

نحن بمستجيبين لدعوتك ، ولا خائفين من وعيدك ، فلم يطق يونس صبراً ، وضاق بهم ذرعا ، ويقال عنه عليه السلام أنه كان في صدره ضيق فتضجر من موقفهم، وقطع الرجاء فيهم ، ويئس من إيمانهم ، فخرج من بينهم مغاضباً لهم، وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فعل ، فألقى عبء الدعوة وذهب مغاضباً ضيق الصدر ، حرج النفس ، مكدر الخاطر ، فغادرهم ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهي فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ، ولم يتحمل أذاهم .

قال تعالى : ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه**﴾ ، ومعنى ﴿**ظن أن لن نقدر عليه**﴾ : أي نضيق عليه .

يروى أن ابن عباس – رضي الله عنه – دخل على معاوية فقال له معاوية : «لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك» ، قال : «وما هي؟» ، فقرأ معاوية قوله تعالى : ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾ ، وقال : «أو يظن نبيُّ الله أن الله لا يقدر عليه؟» قال ابن عباس : «هذا من القدْر لا من القدرة» يعني التضييق عليه .

ولم يكن يونس يبتعد عن القرية قليلاً حتى وافت أهلها نذُر العذاب واقتربت منهم طلائع الهلاك ؛ فإذا بالسماء تظلم ، والجو يغبر من حولهم ، وإذا بألوانهم تتغير ، ووجوههم تتشوه ، فدب إليهم الذعر ، وداخلهم القلق ، وساورهم الخوف ، وعلموا أن دعوة يونس حق ، وإنذاره صدق ، وأن العذاب واقع بهم ، وأنه سيصيبهم مثل ما كانوا قد سمعوا عن عاد وثمود وقوم نوح ، فوقع في نفوسهم أن يلجؤوا إلى الله ، وأن يعتصموا بإله يونس ويؤمنوا به ، ويتوبوا إليه ويستغفروه ، فخرجوا إلى

شعاف الجبال وبطون الصحراء ، شاكين متضرعين ، باكين متوسلين . وفرّقوا بين الأمهات وأطفالهن ، وبين الإبل وفصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ، ثم ضجروا إلى الله بالبكاء ؛ وارتفع العويل ، وعظم الضجيج ؛ صرخ الأطفال ، صاحت الأمهات ، ورغت الإبل ، وخارت البقر ، وثغت الغنم ، وكل ذلك أمام من؟ وبين يدي من؟ ويدعون من؟ ويرجون من؟ وينطرحون لمن؟ ويبكون لمن؟ ويتذللون لمن ؟!! لله الواحد القهار ، لله الراحم الغفار، فبسط الله عليهم جناح الرحمة ورفع عنهم سحائب النقمة ، وتقبل منهم التوبة والإنابة ، لأنهم أخلصوا في توبتهم وصدقوا في إيمانهم ، قال سبحانه : ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾ فعادوا إلى ديارهم آمنين ، وقلوبهم تتطلع إلى يونس ، ويودون لو أنه يعود إليهم ، فيعرفون قدره ، ويحترمون رأيه ، ويتبعون نهجه ، فأين هو يونس يا ترى؟ وماذا كان من أمره؟ .

يونس قاده غضبه الجامح ، وضيقهُ الخانق ، إلى شاطيء البحر ، فوجد سفينة مشحونة ، فركب فيها ، وأنزلوه بينهم منزلاً كريما لما رأوا على وجهه من علامات الكرم والطهر والصفاء ، فلما ابتعدوا عن الشاطيء ، هاجت الأمواج ، وهبت الأعاصير ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وانخلعت القوائم ، وأيقنوا بالهلاك ، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا من الركاب ، وأنه لا بد من إلقاء أحدهم على الأقل ، ليسلم البقية ، فساهموا فجاء السهم على يونس ، ولكنهم ضنّوا به على البحر تكريماً لشأنه ، ولما رأوا من مكانه فعادوا للمساهمة فعاد السهم على يونس ، وكذلك المرة الثالثة .

فألقى يونس بنفسه في اليم ، وأسلم نفسه للأمواج ﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ ، أي مستحق للرمي لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله لها ولم يصبر على تكاليف الرسالة ، وترك قومه قبل أن يأذن له الله تعالى . فأوحى الله إلى الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطنك تكون له سجناً . وعندما أحس يونس بالضيق في بطن الحوت ، في تلك الظلمات الهائلة ، ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وضاق صدره ، واعتلج همه ، وعظم كربه ، فزع إلى الله تعالى : إلى غياث الملهوف ، وملجأ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة ، وانطلق لسانه بكلمات كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ وتأتي الاستجابة السريعة ، وانظر إلى التعقيب بالفاء ، حيث قال تعالى : ﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ .

فأوحى الله إلى الحوت ، أن يلقي يونس بالعراء فخرج على الشاطىء سقيماً هزيلاً مدنفاً عليلاً ، فتلقته عناية الله ، وحفت به رحمته . فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهو نبات لا ساق له وله ورق عريض . ودبت إليه العافية ، وظهرت فيه تباشير الحياة ، فعاد إلى قومه ، ورجع إلى بلده ، فإذا به يجدهم في أحسن حال ؛ هجروا الأصنام ، وتركوا الأوثان ، وأقبلوا على الرحمن ، وآمنوا فنفعهم الإيمان . اللهم ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان ، وصل اللهم وسلم على يونس وعلى إخوانه من أنبياء الرحمن .

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – : أن يونس عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت

فقال : «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» أقبلت الدعوة تحف بالعرش ، قالت الملائكة : «يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة» ، فقال الله تعالى : «أما تعرفون ذلك؟» ، قالوا : «يا رب ومن هو؟» ، قال عز وجل : «عبدي يونس» ، قالوا : «عبدك يونس الذي لا يزال يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟» ، قالوا : «يا رب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء» ، قال «بلى» ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء .

وروي في حديث آخر ، أنه ﷺ قال «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى» ، فقال سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ ، قال : «هي ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين**﴾» .

بعض الدروس المستفادة :

١ – أدب الأنبياء مع الله عز وجل ، فانظر إلى روعة هذا الدعاء ، وجمال هذا النداء ، أعلن أولاً توحيده لله عز وجل ، وأنه الله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو ؛ فلا ملجأ إلا بالله ولا مفر منه إلا إليه ، ولا اعتصام إلا به ، ولا توكل إلا عليه ، ولا رجاء إلا فيه عز وجل ، فتقدم بهذه البطاقة العطرة من الثناء الأجل بين يدي دعوته ، ثم سبح الله وأثنى عليه ونزهه ، ثم اعترف بذنبه وتقصيره وفقره إلى عفو الله عز وجل ولطفه ورحمته . وهكذا أدب الأنبياء عليه السلام

ولا يسمح المجال هنا للتفصيل في هذا الجانب ، وإلا لرأيت العجب العجاب من أدبهم مع الله ، وحسن مناجاتهم له ، انظر إلى أيوب قبل ذا النون بعد ذلك الكرب الشديد ، والعناء الجسيم ماذا قال ﴿ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ ، ولو تأملت في أحاديث النبي ﷺ وأدبه مع ربه في دعائه ومناجاته لرأيت ما يبهج القلب ، ويمتع الفؤاد ، ويسلي الخاطر « اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني » [رواه الترمذي] ، انظر مثلاً إلى سيد الاستغفار « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي . فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » [رواه البخاري] ، ما أروعه من كلام ، ولذلك استحق من قاله ثم مات أن يدخل الجنة .

٢ - وجوب الصبر على الدعوة إلى الله تعالى والتحمل في سبيلها ، وعدم استعجال النتائج ، وعدم اليأس من صلاح الناس .

٣ - ينبغي أن يكون الداعية منشرح الصدر واسع الخاطر حتى يستطيع القيام بمهمته.

٤ - لطف الله تعالى بعباده المخلصين وحفظه لهم واستجابته لهم إذا تابوا إليه وأنابوا .

٥ - أن الداعية قد يصاب بالمصائب ، وتلحق به النكبات ليكون ذلك تربيةً له وصقلاً لفؤاده ، وتطهيراً لنفسه .

٦ - أن العبد المؤمن الذي عرف الله تعالى في الرخاء يعرفه الله في الشدة ويلهمه رشده ، ويدله على الفلاح والنجاح .

٧ – أن الداعية الصادق يشق عليه أن يكذبه الناس ويتهموه ، ولكن ذلك جزء من تكاليف الرسالة ، وتبعات الدعوة ، فعليه أن يصبر له .

٨ – عدم القنوط من رحمة الله أو اليأس من روحه ، فإن الأمور إذا ادلهمَّت ، والحياة إذا تأزمت ، والأبواب إذا أغلقت ، جاء من الله الفرج ، وحدث النصر ، ونُفِّس الكرب .

٩ – إن أفضل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه وأجمل ما يستدرّ به رحمته وعفوه هو إشراب القلب معنى الوحدانية ، وإعمار النفس بحقيقة الألوهية « لا إله إلا أنت سبحانك » .

هنيئاً لك أبا عمرو

هذا الدين الذي نتفيأ ظلاله ، وننعم بروعته ، ونسعد بالانتساب إليه قد هيأ الله له رجالاً عظماء ، عرفوا منزلته ، وحفظوا أمانته ، ورعوه فأحسنوا رعايته . قدموا في سبيله رقابهم ، وأسالوا دماءَهم ، وبذلوا أموالهم ، وهجروا أوطانهم ؛ صبروا على الأذى ، وتحملوا أصناف التعذيب ، صدقوا الله فصدقهم ، واستنصروه فنصرهم ، واستعانوه فأعانهم ، طابت سرائرهم ، وزكت ضمائرهم ، وحسنت أعمالهم ، وعذبت أفعالهم ؛ كان لهم في نبيهم قدوة ، واتخذوا منه أسوة . رجال لم يشهد لهم التاريخ مثيلا ، ولم تعرف لهم الدنيا شبيها ، إيمان وتقى ، خشوع وخضوع ، صدق وطهارة ، عفة ونقاء ، تألق وصفاء ، برّ وإخاء ، جهاد وتضحية .

قال سبحانه : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

نريد أن نقف مع بعض أولئك العظماء لنتأمل سيرهم ، ونرى عظمتهم ، ونتلمس أخبارهم ؛ فهم المثال الذي يحتذى ، والأنموذج الذي به يقتدى . نقف مع بعضهم لنعرف قيمة القدوة الحسنة في زمن تضاءلت فيه القدوات الشامخة ، وغابت عن الأعين النماذج العظيمة ، والأمثلة الرائعة ، والمواقف النبيلة . كثير من الناس أصبحت هممهم باردة

وعزائمهم خامدة ، وقدواتهم تافهة . أصبح كثير من الهابطين ، وعدد من التافهين ، قدوات تُحتذى ، ونماذج تحترم ، وشخصيات تحب ، يُنظر إليهم بإكبار ، ويُلتفت إليهم بإعجاب ، وتُؤخذ أخبارهم باهتمام ، يقلدون في حركاتهم ، ويمجدون في أفعالهم ، ويعتنى بأحوالهم وأخبارهم « والمرء مع من أحب » [متفق عليه] ، فأين الأجيال المؤمنة عن ذلك الجيل الفريد ، وأين الشبيبة المسلمة عن تلك القدوات الرائعة التي ملأت الأرض طهراً وصفاءً ، وعدلاً وإيماناً ، وحقاً ويقيناً .

وقوفنا اليوم مع أحد أصحابه ﷺ الذين عظمت مواقفهم ، وتألقت كلماتهم ، وسطرت تضحياتهم ، إنه سعد بن معاذ الأنصاري – رضي الله عنه وأرضاه – ، وقبل أن ندلف للحديث عن سعد ، ألفت انتباهكم إلى أن سعداً له حوالي عشرة أسطر من الكلمات التي أصبحت تاجاً على هامة التاريخ ، ودرراً على جبين الزمان ، وهي والله تعدل مئات من المجلدات ، وآلاف من الكلمات .

أسلم سعد بن معاذ – رضي الله عنه – في العام الواحد والثلاثين من عمره على يد مصعب بن عمير – رضي الله عنه – ، وتوفي وعمره سبع وثلاثون سنة ، مات شهيداً – رضي الله عنه وأرضاه – في زمن قصير عاشه منذ إسلامه إلى وفاته . ولكنها سنوات عظيمة مليئة بالتضحيات الرائعة ، والمواقف الناصعة ، حيث كان لإسلامه أعظم الأثر على الإسلام والمسلمين .

كان سعد رجلاً أبيض ، طوالاً ، جميلاً ، حسن الوجه ، أَعْيَن ، حسن اللحية ، بدين الجسم . سمع القرآن من مصعب بن عمير فَرَقّت له نفسه ، ولان له فؤاده ، وانشرح له صدره ، فأعلن إسلامه ، وصدع بإيمانه

ثم ذهب إلى قومه فقال : « يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ » ، قالوا : سيدنا فضلا وأيمننا نقيبة ، قال : « فإن كلامكم عليّ حرام رجالكم ونساؤكم حتى تؤمنوا بالله ورسوله » ، فما بقي رجل ولا امرأة في دار بني عبد الأشهل إلا وأسلموا . [السيرة النبوبة لابن هشام] ، وحينما قدم ﷺ المدينة مهاجراً كانت بيوت بني عبد الأشهل مشرعة أبوابها لاستقباله .

وتجيء غزوة بدر ، ويجمع النبي ﷺ أصحابه ليشاورهم في الأمر وييمّم وجهه شطر الأنصار يريد أن يسمع رأيهم ، ويقول : « أشيروا عليّ أيها الناس » ، فيفهم سعد بن معاذ قصد النبي ﷺ ، وأنه يريد أن يطمئن إلى موقف الأنصار ، ورأيهم في الجهاد ، فيثب وثبة الأسد ثم يقول :

« يا رسول الله : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك : فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غداً . إنا لَصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » [السيرة النبوية لابن هشام] ، فسر رسول الله ﷺ لقوله ونشطه ، وتهلل وجهه فرحاً بهذا الموقف العظيم .

وتأتي غزوة أحد ، فيجاهد فيها سعد بن معاذ جهاد الأبطال ، ويناضل نضال العظماء ، ويجعل صدره ونحره دون رسول الله ﷺ ويدافع عنه في شجاعة واستبسال .

ثم تأتي غزوة الخندق ، وهي غزوة بعيدة الأثر ، عظيمة الشأن ،

امتحن فيها المسلمون امتحاناً شديداً ، وزلزلوا زلزالاً أكيدا . فقد تكالبت اليهود وغطفان وقريش ، وأعدوا العدة لاستئصال شأفة النبي ﷺ وأصحابه وإبادتهم جميعاً . وقد اجتمع فيها ما يربو على عشرة آلاف مقاتل ، وكانت هذه الغزوة بتحريض وتحريش من اليهود الفجرة الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد واتفاق ، فنقضوا الميثاق، وخانوا العهد ، وذلك ديدنهم على مر العصور ؛ لا يحفظون عهداً ، ولا يصدقون وداً ، ولا يحترمون موثقاً .

وقد أرسل إليهم المصطفى ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ليتأكدا من صحة الموقف فوجدوهم على شر مما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : «من رسول الله؟! ، لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد» وهذا ليس بمستغرب من الخونَة الفجَرَة أصحاب الغدر والمكر على مرّ التاريخ ، قال عز وجل : ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ [الرعد : ٢٥] .

فاشتد الكرب على النبي ﷺ وعلى الصحابة ﴿ **إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا** ﴾ [الأحزاب : ١٠] .

ولقد عزّ على النبي ﷺ أن يُعَرِّض أهل المدينة لهذا الغزو المدمِّر ، والحصار المنهك . ففاوض زعماء غطفان على أن يَنْفُضُوا أيديهم من هذه الحرب ويعطيهم لقاء ذلك ثلث ثمار المدينة ، ورضي قادة غطفان بذلك وهم يمثلون نصف الجيش تقريباً . فأراد النبي ﷺ أن يسمع رأي أصحابه ومشورتهم في هذا الأمر ، وكان يهمه أن يسمع رأي سعد بن معاذ

وسعد بن عبادة ، فتقدما إلى النبي ﷺ في إجلال وإكبار ، وحياءٍ وأدب فقالا : «يا رسول الله : أهذا رأي تختاره أم وحيٌ أمرك الله به؟» ، قال ﷺ : «بل أمر أختاره لكم والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ مّا» ، فقال سعد بن معاذ : «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا!! ، والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» فعدل رسول الله ﷺ عن رأيه

وشهدت المدينة حصاراً رهيباً وموقفاً شديداً ، فخرج سعد بن معاذ حاملاً سيفه مرتجزاً منشداً يمشي يهز الأرض هزاً ، فَرُمِي بسهم وبيل قطع منه الأكحل ، وتفجر الدم من وريده - والأكحل هو عرق وسط الذراع وتسميه العرب نهر البدن ، وإذا قطع يؤدي إلى الموت غالباً - فابتهل سعد إلى ربه قائلاً : اللهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحبُّ إليّ من أن أجاهدهم فيك من قوم آذوا نبيك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم إن كنتَ وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تُمِتْنِي حتى تقرَّ عيني من بني قريظة» [السيرة النبوية لابن هشام] .

فَيُحْمل سعد إلى مسجد النبي ﷺ الذي أمر أن تضرب لسعد خيمة فيه ، ليعوده من قريب ويطمئن عليه عن كثب .

وقد رد الله الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وانصرفوا عن المدينة ،

ووضعت الحرب أوزارها فعزم النبي ﷺ على السير إلى بني قريظة الذين خانوا العهد ، ونقضوا الميثاق ، وَأَلَّبوا القبائل على الحرب . ونادى في أصحابه قائلاً من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنّ العصر إلا في بني قريظة ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، ونزلوا على حكم النبي ﷺ فدعا بسعد بن معاذ ليحكم فيهم ؛ فهو سيد الأوس ، وهو الذي كان يحن على اليهود ويحسن إليهم فجاء سعد محمولاً على دابته فلما أقبل قال النبي ﷺ للأنصار : قوموا إلى سيدكم فقاموا إليه وَحَيّوه وأنزلوه ، ثم قال سعد : «لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء» ، قال ﷺ : «لقد حكمت فيهم بحكم الله» [رواه أحمد].

فانفجر جرح سعد بعد ذلك وانفتق عِرْقه ، فعجل إليه النبي ﷺ فأسنده إلى صدره ، فوضع رأسه في حجره ، والدماء تسيل عليه ، فجاء أبو بكر يصيح ويبكي : وانكسار ظهراه على سعد!! ، فقال له النبي ﷺ مهلاً يا أبا بكر ، ثم جاء عمر فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وابتهل النبي ﷺ إلى الله قائلاً : «اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك وصدّق رسولك ، وقضى الذي عليه فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحاً» ، وحينما سمع سعد هذه الكلمات التي نزلت على قلبه برداً وسلاماً فتح عينيه في جهد ليودع الدنيا بنظرة إلى وجه النبي ﷺ ثم قال : «السلام عليك يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله» ، ثم فاضت روحه – رضي الله عنه وأرضاه – ، فقال ﷺ : «هنيئاً لك أبا عمرو» ، ثم قال لأهل البيت : «استأذن اللهَ من ملائكته عددُكم في البيت ليشهدوا وفاة سعد» [سير أعلام النبلاء].

ثم حُمِلَ سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى القبر ، وكان رجلاً بادناً فلما حملوه وجدوا جنازته خفيفة ، فقال رجل من المنافقين : «والله إن كان لبادناً ، وما حملنا أخفّ منه» فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «إن له حملة غيركم والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش» [سير أعلام النبلاء] ، وروي أنه قد شيعه من الملائكة سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك .

يقول أبو سعيد الخدري – رضي الله عنه – : كنت أنا ممن حفر لسعد قبره بالبقيع ، وكان يفوح علينا المسك كلّما حفرنا طبقة من تراب حتى انتهينا إلى اللحد .

وبكت أم سعد على فقده بكاءً مريراً فقال لها ﷺ : «ألا يرقأ دمعك ويذهب حزنك فإن ابنك أول من ضحك الله إليه واهتز له العرش» [سير أعلام النبلاء] .

ولقد كان طيف سعد – رضي الله عنه – وذكراه لا تفارق النبي ﷺ فهو الوفي لأصحابه العارف بمنزلتهم المقدر لحقوقهم . فيأتي الحديث عن القبرِ وعذابه وضمته ، فيقول ﷺ : «إن للقبر ضغطةً ، ولو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ [رواه أحمد] .

وتُهدَى له ﷺ جبة من ديباج منسوجة بالذهب فلبسها فجعل الناس يمسحونها وينظرون إليها ، ويعجبون من لينها ورقتها ، فقال لهم ﷺ : «أتعجبون من هذه الجبة؟» ، فقالوا : يا رسول الله ما رأينا قط أحسن منها ، قال : «فوالله لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين» [رواه مسلم والترمذي] .

صلى الله على النبي الأمين ورضي عن الصحابة أجمعين وجمعنا بهم في جنات النعيم ،،،

الدنيـــــا

عشقها العاشقون ، وهام بها المحبون ، كم لها من عاشق متأوه ، ومتيّم متحسر ، ومحب متألم؟! ظهرت في زينتها ، وعرضت في فتنتها وتبدّت في محاسنها ، فخدع بها أُناس ، وافتتن بها فئام ، ظنوا أنها صادقة في الحب ، مخلصة في الشوق ، تواقة للغرام ، وفيّةٌ للأحباب ، ناصحة للأصحاب ، فتنافسوا في كسب ودها ، واقتتلوا للظفر بقربها ، فأردتهم صرعى ، وتركتهم هلكى ، وذلك جزاء الحمقى . والعجب أن خُطَّاب ودها ، وطلاب مجدها ، لم يعتبروا بإخوانهم من العشاق القدامى ولم يتعظوا بمن خدعتهم من الندامى فارتموا في أحضانها ، وتسابقوا في ميدانها ، وهي لا زالت تتفنن لهم في إبداء زينتها ، وتتحبب لهم ببعض مباهجها ؛ حتى إذا أحكمت الزمام ، غدرت وفجرت وفتكت وقتلت ، كم لها من محروم يتألم ، ومهضوم يتظلم؟! كم ذبحت من فارس على مخدة الترس ، وعروس على منصة العرس؟! فمن هي هذه الفاتنة ، ومن تكون تلك الخائنة ؟!!

إنها **الدنيا** ؛ الدنيا التي لها من اسمها نصيب ، الدنيا التي عشقناها ، بل همنا في حبها ، وتنافسنا في قربها ، وأمهرناها أنفسنا ومشاعرنا وقلوبنا ، إلا من رحم ربك . لو تأمّلنا أحوالنا بل وأحوال من سبقنا لوجدنا أن الدنيا وحبها ، والحياة وطيبها ، هي سبب رئيس في كل نازلة ، وعنصر مهم في كل قارعة ، فما طغى فرعون وأمثاله إلا حينما

أخلدوا إلى الأرض ومباهجها ، وخدعوا بالحياة وزينتها . وما بغى قارون وأمثاله إلا حينما فتنوا بنعيم الحياة ، وغرهم المال والجاه ، قال تعالى : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ [القصص : ٧٧].

ولقد فُتِن عبّاد المادة وعشّاقُ الحياة الدنيا بما عندهم من المال والزينة ، قال سبحانه : ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ [القصص : ٨١].

وهكذا على مرّ العصور تجد أن عشق الحياة ، والتعلق بأذيال الدنيا ، سبب في الشقاء ، وطريق للعناء ، كم ذهب لأجلها من نفوس؟! وكم تطاير من رؤوس؟! وكم سحق من جماجم؟! وكم أريق من دماء؟! وكم شرّد من أناس؟! وكم عذب من أقوام؟! وما ارتقى المسلمون إلا حينما تجافوا عن الدنيا وأقبلو على الآخرة ، وما خفضت رؤوسهم ، ونكست أعلامهم ، وذهبت عزتهم ، إلا حينما رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، فأقبلوا عليها ، وتنافسوا فيها ، وتركوا الجهاد ، وأكلوا الربا ، وأخذوا بأذناب البقر .

أيها المومنون تعالوا بنا نقف وقفة تأمل وعظة ، وتفقه وعبرة ، مع هذا العدو اللدود ، والغاشم الغادر ، فقد فنيت أعمار كثير منا ، وانصرمت أيام فئام منا ، وهم لا زالوا في غمرة الدنيا ، وسكرة الحياة، فيا

عجباً لمن جاءه العام تلو العام ، ومرت به السنة بعد السنة، تذكره بالحياة الآخرة ، وتدعوه إلى النعمة الدائمة ، وهو في غفلته وشروده ، وبعده وجحوده !! . فيا من قضيت العمر وراء شهواتها ، ألم يأن لك أن تنظر في أمرك؟! ويا من انصرمت أيامه في الدنيا وملذاتها ألم تبك على عمرك؟! ويا من عشت تبيع دينك بعرض من الدنيا قليل ألم تعتبر بالذين مروا من قبلك؟! ويا من عشت تأكل الدنيا بالدين ، وتكسب الغُنْم بالعلم ، وتمتهن النفاق لنيل الأرزاق ألم تراقب الخلاق؟! يا من أقبلت على الدنيا بحلالها وحرامها ، وفتنت في غرامها ، ألم تفكر في النهاية ، وتتأمل في النتيجة؟!.

الدنيا إذا وصلت فتبعات موبقة ، وإذا فارقت ففجعات محرقة ، ليس لوصلها دوام ، وما من فراقها بد . وصفها خالقها ، وموجدها بأنها لهو ولعب وزينة ، فقال جل وعلا : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [الحديد : ٢٠].

فالحياة الدنيا حينما تقاس بمقاييسها الدنيوية ، وتوزن بموازينها تبدو في العين والحس أمراً عظيماً هائلاً ، وشيئاً جميلاً رائعاً ، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود ، وتوزن بميزان الآخرة ، تبدو شيئاً زهيداً تافهاً ؛ فهي لعب وضياع ولهو وتفاخر ، وغرور خادع ، وأمل كاذب، وظل زائل.

قال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾ [الكهف : ٤٥].

مر ﷺ بالسوق والناس كنفيه - أي على جانبيه - فمرّ بجدي أَسَكّ ميت فتناوله ، فأخذ بأذنه ثم قال : «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» ، فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ ثم قال : «أتحبون أنه لكم؟» قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أَسَكّ ، فكيف وهو ميت؟ ، فقال ﷺ : «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» [رواه الترمذي وابن ماجة].

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : مثل الدنيا مثل الحية ليّنٌ مَسّها ، قاتل سمها ، فأعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها ، لما أيقنت من فراقها ، وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها ، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور ، أبعده عنها مكروه ، وإن سكن منها إلى إيناس ، أزاله عنها إيحاش .

فهي لا تصفو لشارب ، ولا تبقى لصاحب ، ولا تخلو من فتنة ، ولا تُخْلِي من محنة ، نعيمها يتنقل ، وأحوالها تتبدل ، ولذاتها تفنى ، وتبعاتها تبقى .

قال تعالى : ﴿**وما أوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين**﴾ [القصص : ٦١].

قال المسيح عليه السلام : «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» .

فمن نظر إليها بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ، وحياتها عناء

وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل : إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ؛ هي دار حلالُها حساب ، وحرامها عقاب ، المكدود فيها شقيٌّ إن ظفر ، ومحروم إن خاب . إن أخذ مالها من حله حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن أحبها أذلّته ، ومن تبعها أعمته .

لما بلغ أحد الملوك العظماء من الدنيا مراده ، ووصل إلى ما سمت إليه نفسه ، نبذها وصرخ قائلاً : هذا سرور لولا أنه غرور ، ونعيم لولا أنه عديم ، ومُلْك لولا أنه هُلْك ، وغناء لولا أنه فناء ، وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود ، وارتفاع لولا أنه اتضاع ، وغلاء لولا أنه بلاء ، وحُسْن لولا أنه حزن ، وهو يوم لو وثق له بغد .

هي الدار دار الأذى والقذى
ودار الفناء ودار الغِيَرْ
فلو نلتها بحذافيرها
لمُتّ ولم تقضِ منها الوطرْ

فهي ظل الغمام ، وحلم النيام ، من عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق .

قيل لبعض الزهاد ، قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها؟ فقال : أيقنت أني أخرج منها كارها فرأيت أن أخرج منها طائعاً .

قال ﷺ : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالماً ومتعلماً» [رواه الترمذي وابن ماجة].

عوتب أحد الصالحين في كثرة الصدقة ، فقال : لو أن رجلاً أراد أن

ينتقل من دار إلى دار أكان يُبقي في الأولى شيئاً؟.

وقيل لأحدهم : ترك فلان بعد وفاته مائة ألف درهم ، فقال : ولكنها لا تتركه .

فالسعيد من اعتبر بأمسه ، واستظهر لنفسه ، والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه ، وما طلعت شمس إلا وعظت بأمس .

قرأ ﷺ قوله تعالى : ﴿ألهاكم التكاثر﴾ ، ثم قال : «يقول ابن آدم مالي .. مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت» [رواه مسلم].

إذا اختبر الدنيا لبيبٌ تكشفت
له عن عدو في ثياب صديق

فالعاقل لا ينخدع بها ، بل يعتبر بمن مضى من الأمم السابقة ، والقرون الماضية ، كيف عفت آثارهم ، واضمحلت أنباؤهم .

أَبَنيْ أبينا نحن أهل منازلٍ
أبداً غراب البين فيها ينعق
نبكي على الدنيا وهل من معشرٍ
جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى
جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى فحواه لحد ضيق

يقول ﷺ : «إن الدنيا حلوة خَضِرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم

فيها ، فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» [رواه مسلم].

وكان ﷺ يقول : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» [متفق عليه].

فالدنيا مهلكة ، والفرح بها متلفة ، والانخداع بها مصيبة ﴿ **وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع** ﴾ [الرعد :٢٦] ﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى** ﴾ [النازعات : ٣٩].

قال ﷺ : «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» [متفق عليه].

فإن كان قد فتح على الناس من زهرة الدنيا وزينتها فيما مضى فلم تر البشرية زينة ولا فتنة ولا بهرجاً مثل ما عرفه الناس في هذا الزمان ، فتنٌ محدقة ، وشهواتٌ مغرقة ، وقنوات هابطة ، وشاشات مدمرة ؛ زُيِّنت الشهوات ، وقُرِّبت الملذات ، وأصبح الملتزم بدينه والمحافظ على نفسه وأهله ، كالقابض على الجمر ، فيا بشرى لمن صان نفسه ، وحفظ دينه ، وطهر بيته ، وصدق في تربيته ، قال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [البقرة:٤٥].

أيها الناس لا يقصد بذم الدنيا تركها بالكلية ، والتجافي عنها تماماً ، وإنما القصد من ذلك ترك بهرجها الزائف ، وبريقها الخادع ، وعدم الاغترار بها . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فالمؤمن يتخذها طريقاً للجنة ، ومزرعة للآخرة ، وتزوداً للتقوى .

ذم رجل الدنيا عند علي بن طالب – رضي الله عنه – فقال له : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاح لمن فهم عنها ، ودار غنىً لمن تزود منها ، ومهبط وحي الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر

أوليائه ، ربحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة .

قال تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ [القصص : ٧٧] .

يقول ﷺ : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم » [رواه البخاري] .

فيا من فتنت بالدنيا ألم تعتبر بمن سبقك بها؟ ، هل خلدوا فيها هل دامت لهم ، هل راحوا منها بغير الأكفان؟!! .

هل أنت معْتبرٌ بمن خَرِبتْ ... منه غداة قضى دساكرُهُ
وبمن أذل الدهرُ مصرعه ... فتبرأتْ منه عساكرُهُ
وبمن خلت منه أَسِرَّتُه ... وتعطلت منه منابرُهُ
أين الملوك وأين عِزُّهُم ... صاروا مصيراً أنت صائرُهُ
يا مؤثر الدنيا للذته ... والمستعد لمن يفاخرُهُ
نل ما بدا لك أن تنال من الد ... نيا فإن الموت آخرُهُ

سئل ﷺ من أكْيس الناس ؟ فقال : « أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » .

ويقول علي بن أبي طالب : يا أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلتم سمع ، وإن أضمرتم علم ، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم ، وإن أقمتم أخذكم .

فخذ من نفسك لنفسك ، وقس يومك بأمسك ، وكف عن سيئاتك

وزد في حسناتك ، فإنك راحل لا محالة ، وسائر في الطريق الذي سار فيه الآباء والأجداد والأصحاب والأحباب .

ما للمقابر لا تجيب إذا دعاهن الكئيبُ
حُفرٌ مسقّفة عليهن الجنادل والكثيبُ
فيهن ولدان وأطفالٌ وشبان وشيبُ
كم من حبيب لم تكن نفسي بفرقته تطيبُ
غادرته في بعضهن مجندلاً وهو الحبيبُ
وسلوت عنه وإنما عهدي برؤيته قريبُ

البحر

كنت في سفر إلى إحدى المدن فمررت بالبحر ووقفت أمامه برهة من الزمن فثارت في نفسي مشاعر جمّة ، وخواطر متعددة ، وأفكارٍ متباينة ، فتعالوا بنا إلى نقلة سريعة ، ورحلة بحرية ، نترك فيها البر جانباً ، وننتقل إلى البحر ، لنقف فيها على هذا المخلوق الهائل ، نتأمل شيئاً من عظمته وبعضاً من أسراره ، وطرفاً من أخباره .

البحر مخلوق عجيب ، ونبأٌ غريب ، آية من آيات القدرة الباهرة ودليل من دلائل العظمة الفائقة ، عالم غريب ، ومركب رهيب مهيب .

هذا هو البحر بجماله وجلاله ، وعظمته وأهواله ، وتغير أحواله ، وديع حتى ليلعب به طفل صغير ، وجبار يرتعد فيهلك الأسطول الكبير هادىءٌ هادر ، ثابت ثائر ، بارٌّ غادر ؛ إنه صورة صادقة من صور الزمان في إقباله وتجهمه ، وابتسامه وعبوسه ، ومده وجزره ، ولينه وشدته ، وحلاوته ومرارته ، قال تعالى : ﴿ **هو الذي يُسَيِّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** ﴾ [يونس : ٢٢].

فهو مُتَقلِّبٌ تَقَلُّب الزمان ، مُتغيِّر تَغيُّر الحياة ، يأتي إليه المؤمن الخاشع فيجلس أمامه ، فيقرأ فيه دلائل العظمة ، وآيات القدرة ، ويزيده إيماناً إلى إيمانه ويقيناً إلى يقينه ، فيقوم عنه ذاكراً شاكراً ﴿ **وهو الذي سخر البحر**

لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [النحل : ١٤].

يقف المؤمن ينادي البحر :

أيها البحر لا يَغُرَّنْك حولٌ
واتساع وأنت خلق كبير
إنما أنت ذرة قد حوتها
ذرّةٌ في فضاء ربي تدور
إنما أنت قطرةٌ في إناءٍ
ليس يدري مداه إلا القدير

ويجلس أمامه العاشق المدنف ، والمحب المتأوه ، فيشكو إليه هجر الحبيب ، وبعد الرفيق ، وكأنه يشتكي إلى عاقل بصير ، ولطيف خبير . وكم من محب فقد حبيبه ، وأليف فارق أليفه ، فوجد في البحر سلوة! . ويجلس إليه المهموم الذي ضاقت به نفسه ، وأظلمت أمامه الحياة ، ولم يجد في البر مأوى يسكن إليه ، أو ركناً يأوي إليه فيشتكي له الهم ، ويبثه الغم ، ويتنفس الصعداء على شاطئه ، فيقوم عنه وقد هدأ همه ، وخفت وطأةُ غمه ؛ فكم من دموع أريقت على شاطئه ، وكم من نفس بكت على ساحله!! الخلوة مع الله تعالى على البحر لها طعم آخر ، والخلوة مع النفس على البحر لها طعم آخر!! والخلوة مع الحبيب على البحر لها مذاقٌ آخر !! .

البحر صبور لا ييأس ، مجدٌ لا يمل ، قوي لا يضعف ؛ يحارب الصخور الصماء فيقلبها بصبره ، وينال من قسوتها وصلابتها مع رقته وسلاسته ، ويذيبها في نفسه ، فإذا هي لا شيء ، وإذا هو كل شيء . كم

مرّت به من أمم؟! وكم عبرت عليه من دول؟! وكم استمتع بروعته من أناس؟! فمضوا وانقضوا ، وتولوا وانتهوا ، وهو لا يزال صامداً ثابتاً ، رابضاً في مكانه ، معتزاً بقوته ، لا يخشى ملكاً لملكه ، ولا جباراً لجبروته ولا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، ولا بائساً لبؤسه عمقه هائل ، موجه مضطرب ، حركته دائمة ، قوته ضخمة ، بطشته قاتلة ، وَثْبته مدمّرة ، مبعث للحب ، مؤنس للقلب ، مثير للإجلال ، داعٍ إلى الإكبار ، يسرح معه الخيال ، وتحلو إليه المناجاة ، وتنطلق معه النفس .

ولقد ركبت البحر يزأر هائجاً
كالليث فارق شبله بل أحنقا
ولقد شهدتُ به حكيماً عاقلاً
ولقد رأيت به جهولاً أخرقا
مستوفز ما شاء أن يلهو بنا
مُتَرفِّقٌ ما شاء أن يترفقا
تتنازع الأمواج فيه بعضها
بعضاً على جهلٍ تنازعنا البقا
بينا يراها الطرف سوراً قائماً
فإذا بها حالت فصارت خندقا
والفلك جارية تشق عبابه
شقاً كما تفري رداءً أخلقا
تعلو فنحسبها تؤم بنا السما
ونظن أنا راكبون مُحَلَّقا
حتى إذا هبطت بنا في لجةٍ
أيقنت أن الموت فينا أحدقا

قال تعالى : ﴿ **وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام** ﴾ [الرحمن:٢٤].

انظر كلمة ﴿ **وله** ﴾ ، فهي تسير بحفظه ورعايته وكلاءته جل وعلا .

﴿ **كالأعلام** ﴾ ثم انظر إلى السفن والبواخر الهائلة التي باتت تنقل إلينا خيرات الدنيا وأرزاقها عن طريق البحر .

ولماذا يُعْجَب الإنسان بالبحر؟ ولماذا تأنس النفس بالبحر؟ ربما لأن بين النفس والبحر تشابه كبير ، فهو مخلوق لا محدود ، والنفس أيضاً مخلوق لا محدود ، فهي عميقة كالبحر ، بل هي أعمق من البحر وأدق من البحر ، والنفس تهيج كما يهيج البحر، وتهدأ كما يهدأ ، والنفس تحوي من الدرر والأصداف كما يحوي البحر من الدرر والأصداف ، وتتكسر موجاتها كما تتكسر موجاته ، وترغي وتزبد كما يرغي ويزبد ، ولها مد وجزر كما له مد وجزر ، وترى منها الجمال وترى منها العنف ، كما ترى الجمال والعنف في البحر .

وكأن الأمواج وهي توالي
محنقات أشجان نفس تثور

ومهما كان الأمر فإن المؤمن يتميز بهذه الميزة عن غيره من الناس ، إن النفس المؤمنة تشعر بالأنس والمؤانسة ، والسلام والموافقة ، والتعاطف مع كل ما حولها من مخلوقات الله جل وعلا ، بما في ذلك الجمادات التي لا تعقل . فالنفس المؤمنة تتفق مع البحر لأنه مخلوق عظيم من مخلوقات الله تعالى ، وجندي من جنوده ؛ يعمل بأمره ، ويسبح بحمده ، ويجري بإذنه ، ويبطش بإرادته ، وينطق بعلمه وحكمته .

يقول ﷺ عن أحد وهو جبل أصم : «إن أُحُد جبلٌ يحبنا ونحبه» [رواه مسلم].

وإن بيننا نحن المسلمين – أعني بذلك المسلمين منذ آدم عليه السلام – بيننا وبين البحر صداقة وثيقة ، ومحبة عريقة ، ومودة عميقة ، فهي صلة قديمة قدم التاريخ ، عميقة عمق البحر ، فقد أسهم البحر في نصرة الدعاة ، وتأديب الطغاة ، فهو الذي حمل موسى وهو رضيع ، وانشق له ولجنوده ، وأدب فرعون وقومه ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ [القصص : ٧].

ثم استجاب البحر فيما بعد لعصا موسى ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرقٍ كالطود العظيم** ﴾ [الشعراء:٦٣] ، فنجا موسى ثم انقض على عدو الله فكان من المغرقين ، ﴿ **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ [الشعراء : ٦٥].

ولنا مع البحر قصةٌ أخرى لداعية آخر ، وهو نبي الله يونس عليه السلام «ذا النون» ، قال تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين * إذا أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون * فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعنهم إلى حين** ﴾ [الصافات : ١٤٦].

ولنا مع البحر والنهر قصص عظيمة وعجيبة أيام سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – وأيام القواد الفاتحين ، والأبطال المجاهدين ، مما سجله التاريخ ، وتحدثت به الدنيا ، حتى مشوا بخيولهم على الأنهار وعبروا بها في وضح النهار .

هذي سفين الله سارت فيلقاً
متراميا في فيلقٍ مترام
يهتفن بالتكبير لحناً شاحباً
فتجيب أمواج الخضم الطامي
لم تدفع الريح الهبوب قلاعها
بل أقلعت بالوحي والإلهام
جالت سنابك خيلهم في لجة
جولانها في مهمهٍ ورجام
نفذوا إلى أسوار قسطنطين في
عزم كحد السيف غير كهام

يقال إن أسطول معاوية – رضي الله عنه – في البحر قد بلغ ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدة ، وقد قطع البحر الأبيض ووصل إلى أسوار القسطنطينية ، فحاصرها حيناً من الزمان . وهكذا كان لسلفنا – رضي الله عنهم وأرضاهم – جولات مع البحر وصولات، عبروه إلى أنحاء الدنيا فأشرقت بهم الرسالة ، وانتشر بهم ضياء الوحي وأذكرك هنا أن تسرح بخيالك سريعاً لتقيم مقارنة بين موقفهم من البحر وموقفنا منه ولا سيما إذا كنت قد مررت على كثير من بلدان المسلمين فوقفت على شواطئها ، وسرت على سواحلها ، أمور تنكس الرأس ، وتجلب الذل ، وتكدر الخاطر . لغطٌ وصخب ، خمور وفجور عري وتفسخ ، عهر وهمجية ، وقاحة وحيوانية . يهدأ البحر ولا يهدأون ، ويبيت ولا يبيتون ويُسبّح ولا يُسَبِّحون . والأسماك في جوفه ، والمخلوقات في قعره تذكر خالقها ، وتسبح رازقها ، تسير بأمره ، وتسبح بحمده ، وتعرف قدره ، وهي تستغفر لطالب العلم في لجّته ، وهم يعلنون الحرب على الدين على ساحله!! .

قال تعالى : ﴿ **تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] المخلوقات جميعاً قد سجدت لخالقها ، وأذعنت لقدرته وخشعت لجبروته ، وأولئك قد سجدوا لشهواتهم ، واستجابوا للذاتهم ، وعبدوا نزواتهم ، فكانت الأسماك والدواب أكرم منهم ، وأعز منهم ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [الحج:١٨] .

ونختم الحديث عن البحر بهذه الوقفة مع بعض آيات الله تعالى في البحر .

قال تعالى : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام * فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ [الرحمن : ٢٤] .

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الماء أكبر من اليابس على الكرة الأرضية ، فالماء المالح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ، ويشغل اليابس الربع . وتقسيم الماء على هذا النحو لم يجيء مصادفة ولا جزافا ، فهو مقدر تقديراً عجيبا ، وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحا للحياة ، ويقول العلماء : «وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر – ومعظمها سام – فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان» .

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس ، وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله .

وتصب جميع الأنهار تقريباً في البحار ، وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها .

واللؤلؤ والمرجان المذكوران في الآية هما من أعجب المخلوقات البحرية التي تنطق بعظمة الله تعالى وقدرته ، والمتأمل فيما في البحر من مخلوقات ، وما سخر الله تعالى في جوفه ، يجد العجب العجاب، والحكمة الإلهية ، والعظمة الربانية! .

قال تعالى : ﴿**وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها**﴾ [النحل : ١٤].

ومن إعجاز القرآن العظيم في البحر قوله تعالى : ﴿**مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان**﴾ ، وقوله تعالى ﴿**وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً**﴾ [الفرقان : ٥٣] .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، بعد دراسة ورحلة علمية استمرت ثلاثة أعوام وهي تجوب بحار العالم .

فبين البحار والأنهار برزخ وفاصل مائي يفصل بين البحر والنهر ، وبين البحار بعضها البعض فاصل وبرزخ يفصل بينها . فسبحان الخلاق العظيم وتبارك الواحد العظيم!! .

البيـــان

الحمد لله الواحد الديان ، الكريم المنان ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان والصلاة والسلام على صفوة ولد عدنان ، وأكرم إنسان ، وأفصح من نطق بلسان .

قال الله جل وعلا : ﴿ **خلق الإنسان علمه البيان** ﴾ [الرحمن : ٤] .

فالبيان نعمة عظمى ، وهبة كبرى من المولى جل وعلا ، واللسان معجزة ربانية ، وميزة إنسانية . إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ، ويبين ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين ، فننسى مع طول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هذه الخارقة ، فيردنا إليها القرآن ، ويوقظنا لتدبرها الرحمن ، قال سبحانه : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ [النحل : ٧٨] .

إن تكوين جهاز النطق وحدة عجيبةٌ لا ينقضي منها العجب : اللسان والشفتان ، والفك والأسنان ، والحنجرة والقصبة الهوائية ، والشعب والرئتان .. إنها كلها تشترك في عملية التصويت ، وهي حلقة في سلسة البيان ، ولم يكن هذا البيان ليؤدي هدفه الاجتماعي ، وغرضه المقصود ، وفائدته المرجوّة لولا تميز كل شخص بصوته ولسانه ، والفروق الفردية في الأصوات تثير الاستغراب والعجب العجاب ، قال تعالى : ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في**

ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢] ، فهناك اختلاف في اللغات نفسها ، وهناك اختلاف في أصوات الناس ، ولو تشابهت الأصوات ، لحدث في الحياة اضطراب شديد ، وخلل أكيد . يهاتفك صديق أو إنسان من آلاف الناس الذين تعرفهم ، فتعرف صوته ، وتميز نغمته ، وتحفظ نبرته . يمتن الله جل وعلا على الإنسان ، ويذكره بنعمة اللسان في قوله سبحانه : ﴿ **ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين** ﴾ [البلد : ٩] .

فاللسان مزود بسبع عشرة عضلة تسمح له بحركة كبيرة ، ونسيج الشفتين نسيج خاص يتشكل حسب الحاجة ، وهذه المرونة التي يتمتع بها نسيج اللسان ونسيج الشفتين هي التي أتاحت له القيام بوظيفتين مختلفتين « الأكل والكلام » .

علمه البيان : قال ابن القيم : البيان يتناول ثلاث مراتب كل منها يسمى بياناً :

١ – البيان الذهني الذي يميز بين المعلومات .

٢ – البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها لغيره .

٣ – البيان الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيبين للناظر معانيها كما يتبين للسامع ، فهذا بيان للعين ، وذاك بيان للسمع ، والأول بيان للقلب .

اللسان .. عنوان الإنسان ، وهبة الرحمن ، ومعجزة الديان ، ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة ، أو صورة ممثلة !! ، الإنسان باللسان يترجم عن مكنونه ، ويُبين عن مقصوده ، فهو ترجمان بمستودعات الضمائر ، وإخبار بمكنونات السرائر ، به يُعبر عما في النفس ، ويترجم

عـمـا في الصـدر ، ويعلن عـمـا في القـلـب ، به يتـمـكـن المرء من الكلام والفـهـم والإفـهام ، والتـواصل مع الأنام . كلمة الحق باللسان ، والدعوة إلى الله باللسان ، ونشر الخير وتعليم الخلق باللسان .

اللسان .. صغيرٌ جرمُه ، عظيمٌ طاعتُهُ وجُرمُه ، وهو رحب الميدان ليس له مردّ ولا لمجاله حدّ .

اللسان .. إذا استقام نهجه ، وحسنت طريقته ، صار نعمة من أجل النعم ، وعطية من أعظم العطايا . إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات .

القلب ملك الجوارح واللسان ترجمانها قال ﷺ : «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفِّر اللسان تقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا» [رواه الترمذي] باللسان يسبح الواحد الأحد ، ويذكر الفرد الصمد ، ويدعى إلى الإيمان ، ويُحث على الفضيلة ويُحذر من الرذيلة وتقام الحجة على المعرض ويُبين الهدى ، ويُردّ عن الردى ، قال ﷺ : «من وقاه الله شر ما بين لحييه ، وشر ما بين رجليه دخل الجنة» [رواه الترمذي].

لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد ، وسبحان الله لفظة من دعائم التقديس ، وأستغفر الله كلمة من عبارات التوبة . ومن أصول معية الله للعبد حركة اللسان به جلّ وعلا ، وفي الحديث القدسي يقول عز وجل : «أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه» [أخرجه ابن ماجة].

إنه من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة ، فمن حق المنعم بهذه النعمة أن تسخر في طاعته وتوجه في رضاه .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

فالقول السديد سببٌ لصلاح الأعمال ، وغفران الذنوب ، وتكفير السيئات .

دخول الإسلام بِكَلمَة : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ [محمد : ١٩] والخروج منه بكلمة : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ [المائدة:٧٣] والميثاق كلمة : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ [الأعراف:١٧٢] وينال العبد رضا مولاه إلى يوم القيامة بكلمة قال ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه » [رواه مالك في الموطأ] . ويهوي المرء في جهنم ، ويتجرع غصصها ، ويسقى حميمها ، ويصلى لهيبها بكلمة ، قال ﷺ : « وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم » [رواه البخاري] .

بالكلمة المؤثرة ، واللسان الفصيح ، تنشر الدعوه ، ويقبل الحق ، وتؤيد الحجة ، قال جل وعلا : ﴿ **وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني** ﴾ [القصص : ٣٤] ، ﴿ **واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي** ﴾ [طه : ٢٧] .

ويَحلّ الغضب ، وينزل المقت ، وتكتب اللعنة بكلمة ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وبقول الحق وإعلان الإيمان ، والرضى بالإسلام تنال الجنة ، ويعظم

الثواب، ويحسن المآب: ﴿**فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين**﴾ [المائدة: ٨٥].

يوم تُعْرِض الألسنة عما خلقت له، وتنحرف عما صنعت له، تصبح أداة هدم، وآلة دمار، فكتمان العلم باللسان، قال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾ [البقرة: ١٥٩]، وليّ الشهادة باللسان قال تعالى: ﴿**وإن تلووا أو تعرضوا**﴾ واللعن باللسان: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء» [رواه البخاري في الأدب المفرد]، والغيبة باللسان: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضا**﴾ [الحجرات: ١٢]

اللسان يوم لا يردعه العقل، ولا يرده الشرع، يصبح سيفاً مصلتاً على الأعراض، وسيلاً مدمّراً للحرمات، وريحاً زمهريراً على القيم بكلمة من اللسان تداس كرامة الشريف، ويُدنس الطاهر العفيف، وتلطّخ سمعة البريء.

كم من رؤوس تطايرت بسبب كلمة؟! وكم من نعمة منعت بسبب كلمة؟! وكم من فتنة أوقدت بسبب كلمة؟! وكم من بيوت شُتِّتت بسبب كلمة؟!.

يصاب الفتى من عثرة بلسانه
وليس يصاب المرء من عثرة الرِّجل
فعثرته في القول تذهب رأسه
وعثرته بالرجل تشفى على مهل

* * *

احفظ لسانك أيها الإنسان
لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقديماً قالت العرب : لسانك حصانك ، فإن صنته صانك ، وإن أهنته أهانك .

يروى أن عيسى – عليه السلام – قال : «طوبى لمن بكى على خطيئته ، وخزن لسانَه ، ووسِعَهُ بيتهُ» .

وقال سليمان – عليه السلام – : «إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب» .

أمسك عليك لسانك :

* كل ما ينطق به الإنسان مدوّن في صحيفة الأعمال :

﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ [ق : ١٨] .

﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ [الحج : ٣٠] .

﴿ **سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا** ﴾ [مريم : ٧٩] .

﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن** ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

* قول الخير من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر :

قال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» [متفق عليه] .

* ليس المسلم من يشهر لسانه على المسلمين ويطلقه في أذية

المؤمنين :

قال ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » [متفق عليه] .

* أكثر ما يُكب الناس في النار ألسنتهم :

قال ﷺ لمعاذ : « كُفَّ عليك هذا (يعني اللسان) » فقال معاذ : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! ، فقال : « ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » [رواه الترمذي] .

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : « الأجوفان ، الفم والفرج » [أخرجه ابن ماجة] .

وقال ﷺ : « من يضمن لي ما بين لِحْييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » [رواه الترمذي] .

* أكثر الخطايا من اللسان :

قال ﷺ : « إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه » [أخرجه الطبراني والبيهقي] .

ويقول ﷺ : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب ، وإن أبعد القلوب من الله القلبُ القاسي » .

حفظ اللسان عن الناس وصونه عن تتبع عوراتهم سبب في ستر الله على المسلم : « من كف لسانه ستر الله عورته » [أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت] .

* إذا لم يستطع الإنسان الكلام في الخير فإن صمته حفظ له ونجاة قال ﷺ : « من صمت نجا » [رواه أحمد] .

وجاء أعرابي إليه ﷺ فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة قال :

«أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأْمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير» .

ويعطي ﷺ درساً في التربية وحفظ اللسان فيقول : «أنا زعيم ببيتٍ في ربض الجنة -يعني أدنى منزلة فيها- لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقُه» [رواه أبو داود] .

بعض مواقف السلف من اللسان :

كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يأخذ بلسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان ابن مسعود - رضي الله عنه - يقول : ليس هناك أحق بطول سجن من اللسان .

ويقول أنس - رضي الله عنه - : «لا يتقي الله عز وجل رجل حق تقاته حتى يَخْزِن لسانه» .

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : والله ما أحببت الدنيا إلا لثلاث ، ذكر منها : مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر .

وقال طاووس : لساني سَبْعٌ إن أرسلته أكلني .

وكان - رحمه الله - يتعذر من طول السكوت ، ويقول : «إني جرّبتُ لساني فوجدتْه لئيما» .

وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه .

إنما العاقل من ألجم فاه بلجام
لُذْ بداءِ الصّمتِ خيرٌ لك من داء الكلام

وقال وهب بن مُنَبِّه في حكمة آل داود : «حقٌّ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شانه» .

قال إبراهيم التيمي – رحمه الله – : «المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر ، فإن كان كلامُه له تكلم ، وإن كان عليه أمسك عنه ، والفاجر إنما لسانُه رسْلاً رَسْلا» .

يجب حفظ اللسان من الآفات المهلكة ، والعبارات المدمرة ، وعلى المسلم حفظ لسانه عن كثرة الكلام في غير ذكر الله ، وما يقرِّب من رضاه وأن يحفظه من الخوض في الباطل ، والانهماك في الرذائل ، ويصونه عن الفحش والسباب والبذاءة واللعن والسخرية والاستهزاء ، والكذب والغيبة والنميمة والجدل .. إلى غير ذلك من الصفات المقيتة ، والمجالات الذميمة التي ليس هذا مجال حصرها ، ولا ميدان استقصائها .

«فأملك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك» [صحيح الجامع] ، واشتغل بعيوبك عن عيوب الناس واحبس لسانك قبل أن يطيل حبسك ، أو يتلف نفسك ، أو يعرضك لسخط ربك . وإذا جالست الجهال فأنصت لهم ، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم ، فإن إنصاتك للجهال زيادة في الحلم ، وإنصاتك للعلماء زيادة في العلم .

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعْجِبٍ
زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ومن أقلل من الكلام أكثر من الصواب ، ومن وزن الكلام سلم من عيوب النطق .

تكلم وسدد ما استطعت فإنما
كلامك حيّ والسكوت جماد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله
فصمتك عن غير السداد سداد

العقل

العقل أفضل مواهب الله لعباده ، ومن أعظم نعم الخالق على خلقه، وأمتع من العظيم على البشرية ، به يكمل الدين ، وتتم النعمة ، وتعظم المنحة ، تكمل به الأخلاق ، وتزكو به الآداب ، وتحلو به الحياة ، وهو الآلة في تحصيل معرفة الإله ، به تغبط المصالح وتلحظ العواقب ، وتدرك الغوامض ، وتجمع الفضائل .

وأفضل قَسْم الله للمرء عقله
فليس من الخيرات شيء يقاربُهْ
إذا أكمل الرحمنُ للمرء عَقْلَه
فقد كَمُلت أخلاقه ومآربُه

العقل دليل التائه ، ومرشد الحائر ، ومؤنس الغريب ، وغنى الفقير وسلوة الحزين ، ودليل الفلاح ، وأمارة النجاح ، ورأس البر وعنوان الخير .

ما وهب الله لامرئٍ هبةً
أشرفَ من عقله ومن أدبهْ
هما حياة الفتى فإن عُدما
فإن فقد الحياة أجمل بهْ

العقل دواء القلوب ، وشفاء الصدور ، وتاج المؤمن في الدنيا ، وقائده إلى الآخرة وعدته في النوائب ؛ لا يعدله شيء ، ولا يوازيه أمر ،

لا أعظم منه عزا ، ولا أبعد منه قدرا ، إذا تم العقل تمّ معه كل شيء ، وإذا ذهب العقل فلا قيمة لشيء .

إذا تمّ عـــقل المــرء تَـمَّـت أمــوره
وتمـت أيـاديـه وتـم بنـاؤه
فـإن لم يكن عَـقْـلٌ تَبَـيَّنَ نقـصُـهُ
ولو كـان ذا مـال كـثـيـراً عطـاؤه

عنوان الرشاد هو العقل ، وعمود السعادة هو العقل ، لو صور العقل لأظلمت معه الشمس لجلال نوره وجلال ضيائه . فهو رأس الفضائل ، وأسّ الآداب ، وينبوع الأخلاق ، جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مُدبَّرة بأحكامه ، وأعظم الناس قدراً أتمهم عقلاً .

والعقل في اللغة بمعنى المنع ، يقال : عَقَلْتُ الناقة أي منعتها من السير . وقد سُمي العقل بذلك تشبيهاً بعقل الناقة (أي منعها من السير) لأنه يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قَبُحَتْ ، فمن عَقَلَه عَقْلُه عما لا ينبغي فهو العاقل ، قال تعالى : ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ [الملك : ١٠] .

العقل مخلوق عجيب ، ونبأ غريب ، آية على عظمة الخالق ، وشاهد على إبداع الواحد ، كم ترى من أشياءٍ أبدعتها العقول؟! وكم من منتجات أنتجتها العقول؟! مصنوعات وآلات مذهلة ، كلها من إبداع العقل ، فمن الذي أبدع العقل؟ إنه الله جل جلاله فتبارك الله أحسن الخالقين!! .

يروى أن جبريل عليه السلام أتى آدم عليه السلام ، فقال له : «إني

أتيتك بثلاث فاختر واحدةً ، قال : وما هي يا جبريل ؟ قال : العقل ، والحياء ، والدين ، قال قد اخترت العقل ، فخرج جبريل إلى الحياء والدين فقال : ارجعا فقد اختار آدم العقل عليكما ، فقالا : أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان » .

فلا يكمل الدين إلا بالعقل ، ولا يجمل الحياء إلا بالعقل فهما تابعان له ، كما أن العقل إذا حرم نور الدين ، وبصيرة الهدى فهو وبال على صاحبه ، وحسرة على حامله ، قال تعالى : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ [الأنفال : ٢٢] .

فالكفار لهم عقول ولكن لا يعقلون بها ، ولهم قلوب ولكن لا يفقهون بها ، قال عز وجل : ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

يعقلون كل شيء إلا أمر الله ، ويفهمون كل شيء إلا عن الله ، فمهما أوتوا من العقل إلا أنه عقل نكد ، وفهم تعيس ، وعلم بائس ، ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ [الروم : ٧] .

كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه إذا كثر غلا ، والعاقل من عقله في إرشاد ، ومن رأيه في إمداد ؛ فقوله سديد ، وفعله حميد ، وعمله مجيد ، والعاقل الحق من عقل عن الله أمره ونهيه ، أولئك هم أولوا الألباب .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرفٍ من الإنسان
ولربما طعن الفتى أقرانه
بالرأي قبل تطاعن الأقران

سئل عطاء بن أبي رباح : ما أفضل ما أعطي العبد؟ ، قال : «العقل عن الله» .

وسئل رجل من العرب ممن عُمِّر دهراً طويلاً : أخبرنا بأحسن شيءٍ رأيته ، قال : «عقلٌ طُلب به مروءة مع تقوى الله وطلب الآخرة» .

وقال أبو حاتم : «أفضل ذوي العقول منزلةً أدومهم لنفسه محاسبة ، وأقلهم عنها فترة» .

العقل كلمة جميلة ، ولفظة رائعة ، واسم محبب ، لا أعظم ولا أجمل من أن يقال فلانٌ عاقل ، أو فلانة عاقلةٌ ، فهو وصف يدعو إلى الإجلال ، ويحث على الإكبار ، ويزرع المهابة ، ويورث الاحترام . المرء بعقله أعظم من صاحب الملك بملكه ، وأجل من ذي سلطان بسلطانه وأعز من صاحب مال بماله . فالعاقل يطاع على غير سلطان ويُكرم على غير مال ، فهو كالأسد يُهاب حتى وإن كان رابضاً .

سئل ابن المبارك ما خير ما أعطي الرجل؟ ، قال «غريزة العقل» . فمن هو العاقل؟ ، وما هي أمارات العقل؟ ، ومن هم العقلاء ؟

أول صفات العاقل وأماراته ، العقلُ عن الله تعالى والإيمان به ، والإذعان لحكمه ، والاتباع لرسله ، والإيمان بكتبه ، قال سبحانه : ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾ [الرعد : ١٩] ، وما تمّ دين أحد حتى يتم عقله ، واعلم أن العقل بلا دين حسرة وهلاك ، والمتدين من غير عقل يسيء إلى نفسه ، ويسيء إلى الناس ، ويسيء إلى الدين ، وكان الحسن البصري إذا أخبر عن رجل بصلاح قال : «كيف عقله؟ فما تم دين عبد قط حتى يتم عقله» .

وما أجمل أن يتحلى المرء بوفرة العقل ، وتمام الفهم ، وصفاء الذهن ونقاء القريحة ، واكتمال البصيرة ، ولا فائدة في العلم إذا لم يكن له من العقل دليل . وكان يقال إذا كان علم الرجل أكثر من عقله : كان قَمِناً أن يضرَّه عِلمُه .

فيامن تُباهينا بأنك جامعٌ
فنوناً من الآداب يجمعها الكهل
فَهَبْك تقول الحقّ أيُّ فضيلة
تكون لذي علمٍ وليس له عقل

ومما يروى : ثلاث من حرمهن فقد حرم خير الدنيا والآخرة : «عقل يواري به الناس ، وحلم يداري به السفيه ، وورع يحجزه عن المحارم» .

قبيح بالإنسان أن يظهر بلباس الدين ثم يكون خلواً من العقل صفراً من الحكمة ، لا ينزل الأمور منازلها ، ولا يعرف للدعوة أحكامها ، ولا يجيد للمعاملة أساليبها ؛ ينطق عن سفه ، ويتصرف عن هوج ، ويمضي بلا بصيرة ، يُشوّه الدين ، ويُنَفِّر من الدعوة ، ويسيء إلى الملة ، كَدَرٌ في الفكر ، وعَكَرٌ في الذهن . فالعاقل مرجوٌّ خيره على كل حال ، والجاهل والأحمق مَخُوفٌ شرّهما على كل حال . فالعاقل حافظ لدينه حارس لشرفه ، مكرم لنفسه . ومما يروى أنه مكتوب في صحف موسى وحكمة داود عليهما السلام : «حقٌّ على العاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعةٌ يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويَصْدُقونه عن نفسه ، وساعةٌ يُخلِّي فيها بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه

الساعة عون لـه لهـذه الساعات ، وفضل بُلْغةٍ ، واستجمام للقلوب » .

وقال بعض الحكماء : « ينبغي للعاقل أن يتمسك بست خصال : أن يحفظ دينه ، ويصون عرضه ، ويصل رحمه ، ويحفظ جاره ، ويرعى حق إخوانه ، ويخزن عن البـذاء لسانه » .

لـيس شـيء ممـا يـدبِّـره الـعـا
قـل إلا وفـيـه شـيء يـريبُـه
فـأخـو الـعـقـل ممسكٌ يتـوقّى
ويخـاف الدخـول فـيـمـا يَعـيْـبُـهْ

يروى عن وهب بن مُنبِّـه أنه قـال : « وجـدت فـيـمـا أنزل الله على أنبيائه : أن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل ، وأنه يكابد مائة جاهل فيستجرهم » .

قـال أحـد العلمـاء : « الناس ثلاثة : عـاقل ، وأحـمـق ، وفـاجـر ، فالعـاقـل : الديـن شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأي الحسن سجيته ، إن نطق أصاب وإن سمع وعى ، وإن كُلّم أجاب ، والأحمق : إن تكلم عجل وإن حـدّث وَهِل ، وإن اسْتُنْزِل عن رأيه نزل ، وأما الفـاجـر فـإن ائتـمنته خانك ، وإن صحبته شانك » .

ويروى أن لقمان عليـه السلام قال لابنه : « يا بني اعقل عن الله عز وجـل فـإن أعقل الناس عن الله أحسنهم عملاً ، وإن الشيطـان ليفر من العـاقـل وما يستطيع أن يكابده ، يا بني ما عبـد الله بشيءٍ أفضل من العقل » .

ويروى عن مُطرف أنه قـال : « مـا أوتي عـبـد بعـد الإيمان أفضـل من العقل » .

وقيل : «**للعاقل** خصال يُعرف بها : يحلم عمن ظلمه ، ويتواضع لمن هو مثله ، ويسابق بالبر من هو فوقه ، وإذا رأى باب فرصةٍ انتهزها ، يتدبر ثم يتكلم ، وإن عرضت له فتنة اعتصم بالله ثم تنكبها» .

والعاقل لا يقدم اللذة العاجلة ، والمتعة الزائلة على الحياة الدائمة والنعيم المقيم ، فإن الحياة مهما طالت ، والعمر مهما امتد ، والدنيا مهما أقبلت ، فلا بد من الرحيل ، ولا مناص من الفراق ، وهناك الدوام إما في الشقاء ، وإما في النعيم ، قال تعالى : ﴿ **وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون * أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين** ﴾ [القصص : ٦١] .

فالعاقل يعلم أن الحياة الدنيا دار مرور وعبور ، وأنها لهو ولعب ، وتفاخر وزينة ، وأنها أشبه براكب قال تحت ظل شجرة ثم راح وتركها ، ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ [الأنعام : ٣٢] .

والعاقل لا يبالي بما فاته من حطام الدنيا مع ما رزق من الحظ في العقل .

والعاقل لا يتكل على المال ، وإن كان في تمام الحال ، لأن المال يحل ويرتحل ، والعقل يقيم ولا يبرح .

والعاقل يأخذ العبرة من الأمم السالفة ، والقرون الغابرة ، قال تعالى : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ [الصافات:١٣٨] ، وقال سبحانه : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ [الحج : ٤٦] .

العـاقل يتـأمل ملكوت الله تعـالى ، ويتـدبر آياته ، وينظر دلائل قـدرتـه ، ﴿ **إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين *وفي خلقكم وما يَبُثُّ من دابة آياتٌ لقوم يوقنون * واختـلاف اللّيل والنهار وما أنزل الله من السمـاء من رزق فأحيا به الأرض بعـد موتهـا وتصريفِ الرياح آيات لقوم يعقلون** ﴾ [الجاثية : ٥].

العاقل لا يتبع هواه ، ولا ينقاد لشهوته ، لأن الهوى عن الخير صاد وللعقـل مضاد ؛ وهو ينتج من الأخـلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضـائحهـا ، ومن أطـاع هواه أعطى عدوه مناه . وقيل العـقل صديق مقطوع، والهوى عدوّ متبوع .

إذا أنت لـم تعص الهـوى قـادك الهـوى
إلى كل مـا فـيـه عليـك مـقـال

﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ [النازعات : ٤١].

يـا عـاقـلاً أردى الهـوى عَـقْلَـهُ
مـالك قـد سُـدّت عليـك الأمـور
أتجـعـل العـقـل أسيـرَ الهـوى
وإنـمـا العـقـل عليـه أمـيـر

قال بعض العلماء : ركّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما ، فمن غلب عقلهُ على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوتُه على عَقْله فهو شر من البهائم .

قال تعالى : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

والعاقل لا يقدِّم عَقْله على النّقل ، ولا يجعل الشرع تبعاً لرأيه ، فإنه لا يسلم إسلام من لم يسلّم لنصوص الكتاب والسنة ، وينقاد إليها ولا يعترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه .

قال الزهري – رحمه الله – : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم ، وإن الذين قدّموا عقولهم على النقل وجعلوها فوق الشرع قد ضلوا ضلالاً بعيدا . وقعوا في الشك والحيرة والتردد ، وبعضهم فرَّ به عقلُه إلى الإلحاد والزندقة .

يقول أبو عبد الله الرازي بعد رحلةٍ طويلة نكدة في علم المنطق والكلام والفلسفة والعلانية :

نهاية إقدام العقول عقال
وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا
وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويقول : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وهذا فيلسوف آخر ممن سافر عقله في هذه المتاهات ، عاد في نهاية الأمر ليقول :

فيك يا أغلوطة الفِكَرِ
حار أمري وانقضى عُمُري
سافرتْ فيك العقول فما
رَبِحَتْ إلا أذى السَّفَرِ

وقد سئل الشافعي – رحمه الله – عن أهل الكلام فقال : حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقد ألّف شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك كتاباً عظيماً سمّاه (درء تعارض العقل والنقل) . فالعقل كما أنه نعمة فقد يكون نقمة على صاحبه ، وسبباً في ضياعه وهلاكه إذا لم يخضعه لحكم الشرع ، وينيره بنور الكتاب والسنة . ولقد كان من دعائه ﷺ : « اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك لتهدي إلى صراط مستقيم » [رواه ابن ماجة] .

ومن صفات **العاقل** أنه يتمرس مع الأيام ، ويتعلم من التجارب ، ويفيد من الحوادث ، والعرب يقولون : العقل التجارب ، ولا يكون المرء مصيباً في الأشياء ما لم يكن له خبرة وتجارب .

فالعقل يزداد بكثرة التجارب ، وممارسة الأمور ، ومن طال عمره نقصت قوة بدنه ، وزادت قوة عقله ، والتجربة مرآة العقل ، والغفلة ثمرة الجهل .

إذا طال عـــمـــر المرء في غـــيـــر آفــةٍ
أفـــادت له الأيـــام في كـــرّها عـــقـــلا

وأعظم الناس عقلاً وأوفرهم فهما ، وأحسنهم حكمة ؛ هم الأنبياء عليهم السلام ، ولم يكن يوحى إليهم إلا بعد الأربعين ، ليبلغوا أشدهم وتقوى تجاربُهم ، وتَعْظُم ممارستهم ، وتطول مخالطتهم عليهم صلاة الله وسلامه .

ومن صفات **العاقل** أنه يبذل لصديقه نفسه وماله ، ولمعرفته رِفْدَهَ وعطاءه ، ولعدوه عدله وبرّه ، وللعامة بشره وتحيته ، ولا يستعين إلا بمن يحب أن يظفر بحاجته ، ولا يُحَدِّث إلا من يرى حديثه مغنماً .

والعاقل مُوقرٌ للرؤوساء ، ناصحٌ للأقران ، محب للإخوان ، متحرزٌ من الأعـــداء ، غير حاسد للأصحاب ، ولا مخادع للأحباب ، ولا يتحرش بالأشرار ، ولا يبخل في الغنى ، ولا يشره في الفاقـــة ، ولا ينقاد للهوى ، ولا يجمح في الغضب ، ولا يمرح في الولايـــة ، ولا يتمنى ما لا يجد ، ولا يكتنز إذا وجد ، ولا يدخل في دعوى ، ولا يشـــارك في مراء ولا يشكو الوجع إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه .

والعاقل حسن السمت ، طويل الصمت ، لا يقاتل عدوه من غير عُدَّة ، ولا يخاصم بغير حجة ، ولا يصارع بغير قوة .

والعاقل لا يطول أمله ، لأن من قوي أملُه ضعف عمله ، ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله .

والعاقل لا يبتدىء الكلام إلا أن يُسأل ، ولا يسرع بالجواب إلا عند التثبت .

والعاقل لا يستحقر أحداً : لأن من استحقر السلطان أفسد دنياه، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه ، ومن استحقر الإخوان أفنى مروءته ، ومن استحقر العامة أذهب صيانته .

والعاقل لا يخفى عليه عيبُ نفسه ، لأن من خفي عليه عيب نفسه ، خفيت عليه محاسن غيره .

والعاقل يجتنب ثلاثة أشياء ، هي أسرع في إفسادالعقل من النار في الهشيم : الاستغراقُ في الضحك ، وكثرةُ التمني ، وسوءُ التثبت .

والعاقل يوطن نفسه على الصبر على جار السوء ، وعشير السوء وجليس السوء.

والعاقل يُعرف بسكوته وسكونه ، وخفض بصره وحركته في أماكنها اللائقة بها ، ومراقبته للعواقب ؛ فلا تستفزه شهوة عاجلة عاقبتها ضرر ، وينظر في الأمور فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة ، من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل ، ويترك ما يخشى ضرره ، ويستعد لما يمكن وقوعه .

والعاقل لا يُحَمّل نفسه ما لا تطيق ، ولا يعرضها لإهانة ، ولا يمشي في ريبة ، ولا يتكلم بغيبة ؛ مراقب لربه ، محاسب لنفسه ، محافظ على أهله ، مصاحب لأبنائه ، مربٍّ لبناته ، بارٌّ بوالديه ، لطيف مع زوجته ، حارس لعرضه ، سباق إلى البر ، محجم عن الإثم هاجر لمواطن الريب ، واصلٌ لمجالس الأدب .

العاقل نعمةٌ عظمى ، وهبةٌ كبرى يجب أن يشكر المولى عليها شكراً عملياً ؛ وذلك بحفظ العقل مما يكدر صفوه ، ويعكّر فهمه ،

ويفسد صلاحه ، ويطمس نوره ، إنه أمانة يجب حفظها ، وعطية يتحتم رعايتها وذلك بالبعد عن الشبهات ، والحذر من الشهوات .

إن حماية العقل وحراسة الفكر واجب فردي ، وواجب جماعي ، وواجب حكومي . يجب على الفرد أن يحمي عقله من مهاوي الردى، ودروب الزلل ، ومراتع الخلل . ويجب على أفراد المجتمع أن يتعاونوا على حراسة العقول ، وحماية الأذهان ، ورعاية الأفكار . ويجب على الحكومات والمسئولين أن يتقوا الله في عقول رعاياهم فيحولوا بينهم وبين ما يفسد عقولهم ، ويشوش أذهانهم ، ويطمس بصائرهم .

اللهم متعنا بعقولنا ، اللهم اعمر قلوبنا وعقولنا بحبك ، وحب من يحبك ، اللهم نوِّر أبصارنا ، وزَكِّ أنفسنا ، واحفظ من الزيغ أفكارنا وعقولنا .

القلب

في أعماق النفس الإنسانية قوة خفية لا تُشاهد بالعين ، ولا تُرى بالمجهر ، ولا يعرفها التشريح ؛ إنها قوة معنوية يحسها الإنسان في حناياه تهديه إلى الواجب كأنها كشاف ينير له الطريق ، هذه القوة الكاشفة الهادية ، الآمرة الناهية ، المحذرة المحرضة ، الحاكمة المنفذة ، يسميها علماء الأخلاق : الضمير ، ويسميها بعضهم : الوجدان ، وسماها الإسلام : « القلب » .

قال ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » [أخرجه الشيخان] وكان من دعائه ﷺ : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » [أخرجه احمد والترمذي] .

فالقلب هو مدار الحياة ، وموطن الإيمان ، ومأوى المعتقد ، وليس الإنسان جسماً بعضه القلب ، ولكنه قلبٌ غلافه الجسم ، والعرب تقول : (إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه) ، مع أنهم قد ظلموا القلب حينما قرنوا اللسان به ، وهل اللسان إلا حاكٍ لأقل القليل من حركات القلب وانفعالاته؟! القلب يقرأ ما رسمه الله على السماء والأرض ، من آيات الإبداع ودلائل العظمة ، ويشعر بذلك ويعيشه ، ولا يسمح للسان إلا بالقليل منه ، القلب لا يكذب أبداً ، واللسان لا يصدق إلا قليلاً .

إن شئت أن تنظر إلى أعجب ما خلق الله في السماء وفي الأرض

فلعلك لن تجدَ أعجب ولا أروع ولا أدق ولا أجمل من قلب الإنسان. تصلح أوتاره، وتشرق جوانبه فيفيض رحمةً وشفقةً وحباً وحناناً، ومعانيَ لطافاً وشعوراً رقيقاً، وتفسد أوتاره وتظلم جوانبه، فينضح قسوةً وسوءاً حتى يهوي إلى أسفل سافلين. القلب حوى على دقّته كُنْهَ العَالمَ، فما أدقه وأجله، وما أصغره وأعظمه! إذا غَلُظَ انفض الناس من حوله، وإذا لان اجتمعوا عليه، قال تعالى: ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

اتحد شكل القلب واختلفت معانيه، فقلب كالجوهر الكريم، والمعدن الأصيل، صفا لونُه، وراق ماؤه، يتلقى الإشعاع ويعكسه، وهو على أشَّد ما يكون ضوءاً ولمعاناً. وقلبٌ كالصخر قوي متين، لا تهزه عبارة، ولا تؤثر فيه كلمة، ولا تنفعة موعظة ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة**﴾ [البقرة: ٧٤]، قلب يشرق بالإيمان، ويأنس بذكر الرحمن ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ [الرعد: ٢٨]، وقلب أظلم بالكفر وعمي عن الحق ﴿**إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج: ٤٦]، إلى غير ذلك من ألوان القلوب وأنواعها.

ومن حيث موقف القلوب من الذنوب فقد جعلها النبي ﷺ قسمين فقال: «تُعْرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: قلب أبيض مثل الصفاة، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبدَّ كالكوز مُجَخِّيا، لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه» [رواه مسلم وأحمد].

وأما أقسام القلوب عموماً فقد روي عنه ﷺ قوله: «القلوب أربعة:

قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغْلَف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عَرَفَ ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدها القيح والدم ، فأي المادتين غلبت على الآخرى غلبت عليه» [رواه أحمد] .

وقد قسم ابن القيم القلوب إلى ثلاثة أقسام : قلب سليم ، وقلب ميت ، وقلب مريض .

وأمراض القلوب منها ما يزول بالأدوية الطبيعية ، ومنها لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية .

إذا اتحدت عيون الناس وآذانهم ووجوههم ورؤوسهم نوعاً من الاتحاد فإن لكل إنسانٍ قلباً وحده ، ينبض بنوعٍ من حبٍّ وكره وقسوة وحنان ، وإعظام واحتقار ، ورفعة وانحطاط ، وإيمان وكفر ، لا يشارك في ذلك قلب آخر ، وبهذا اختلفت قيم الناس ، وتعددت مراتبهم .

يموت القلب ثم يحيا ، ويحيا ثم يموت ، ويرتفع إلى القمة ويهبط إلى الحضيض . قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيفما شاء .

وحياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت .

القلب إن شئت فردوس ونعيم ، وإن شئت عناءٌ وجحيم ، هو إن شئت مَلَك ، وإن شئت شيطان ، وهو إن شئت نار تتقد بالحب .

هل الوجد إلا أن قلبيَ لو دنا
من الجمر قيدَ الرمح لاحترق الجمرُ

وإن شئت سلا فكان برداً وسلاما :

وقلت لقلبي حين لَجّ به الهوى
وكلَّفني ما لا أطيق من الحب
ألا أيها القلبُ الذي قاده الهوى
أفق لا أقرّ الله عينك من قلب

القلب مركز العاطفة ، والرأس مركز العقل ، وما العقل لولا العاطفة؟! من وجد كل شيءٍ وفقد قلبه فقد خسر كل شيء ، ومن خسر كل شيء ووجد قلبه فما خسر شيئاً ، وهل يُعمَّق أساس الإيمان وتوطّد أركانُه ، وتغرس جذوره إلا في القلب؟! «الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل» حرارة الذنب يكتوي بها القلب ، وحلاوة الطاعة يزكو بها القلب ، وهل يتجرع مرارة الحب ، ويكتوى بناره إلا القلب؟! وهل يتلظى بجحيم الوجد إلا القلب؟! وهل تضع الهموم رحالها إلا في القلب؟! وهل يتكبد لوعة الأسى وكتائب الأحزان إلا القلب؟!وهل السعادة إلا راحة القلب وسكونه؟! وهل الشقاء إلا تعب القلب وآلامُه؟! جنة الإنسان وسعادته في قلبه ، وناره وشقاؤه في قلبه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «ماذا يفعل بي أعدائي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري» .

ويكفي القلب شرفاً ومنزلة ورتبة ورفعة أنه محلٌّ نظر الربّ ، وموطنُ رضا الخالق «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [صحيح الجامع].

ويوم يقف الناس أمامه جل وعلا في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، هنالك لا ينفع المرء مالٌ ولا بنون ، ولكن تنفعُهُ سلامة قلبه ، ونقاء سريرته ، قال تعالى : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ [الشعراء : ٨٩] ، والقلب السليم هو الذي سلم من كل شهوةٍ تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهةٍ تعارض خبره .

إن التضحيات الرائعة ، والمواقف الخالدة التي سجلها عظماؤنا كانت أثراً من آثار المحبة العارمة التي فاضت بها قلوبهم ، وعمرت بها نفوسهم ، ﴿ **فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم** ﴾ [الفتح : ١٨] .

العقل هو القدرة الكاشفة والمخططة ، والقلب هو القوة الدافعة والمحركة . وقد جاء الإسلام يخاطب العقل والقلب معاً ، يخاطب العقل ليدرك ويتدبر ، ويخاطب القلب ليحب ويتأثر . في القلب سُلّم من العواطف لا تكاد تتناهى درجاته ، وفيه وقود هائل من الأشواق العارمة التي لا يقوى على وصفها أي قلم أو بيان . الذكرى تنفع من كان له قلب والفوز عند الله بالقلب السليم ، ومن اتبع هواه أغفل الله قلبه عن الذكر ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ونقض الميثاق عقوبته اللعنة وقسوة القلب ، قال تعالى : ﴿ **فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرةٌ وهم مستكبرون** ﴾ [النحل : ٢٢] .

المؤمن إذا ذُكر الله وجِل قلبه ، والكافر والمنافق تأتيه الموعظة فتزيده قسوة ، ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ [الزمر : ٢٢] . الصفاء والنقاء والإخلاص والصدق تظهر على اللسان ، والحقد والحسد والكره يعرف ملامحه ذوو الإيمان ﴿ **أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ [محمد : ٢٩] .

إن أي مجتمع من المجتمعات ، لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين وإصدار القرارات ، وتنظيم اللوائح ، ويقظة رجال السلطة – وإن كان لا يستغني عن ذلك كله – وإنما يرقى وينتظم ويسعد بوجود القلوب الحية ، وتوافر الضمائر اليقظة . وإن أعظم حياةٍ للقلب وأصدق محركٍ للضمير هو الإيمان ، فهو أقوى مُوَلِّدٍ يغذي القلبَ ويمده بالتيار الذي يمنحه الضوء والحرارة والقوة المحركة .

وإن الإيمان الصادق ، والإذعان الكامل لله جل وعلا هو الذي ميز ذلك الجيل الفريد ، والمجتمع العظيم في زمن النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم . وقد جعل الإيمانُ من الإنسان رقيباً على نفسه ، ومحترماً لوجوده ، وصادقاً مع ربه ؛ أقام عليه شرطياً من ذاته ، ورقيباً من وجدانه وملكاً من جوارحه .

فعقيدة المؤمن في الله أولاً ، وعقيدته في الحساب والجزاء ثانياً ، تجعل ضميره في حياة دائماً ، وفي صحو أبداً .

إنَّه يعتقد أن الله معه حيث كان ، في السفر أو في الحضر ، في الجلوة أو في الخلوة ، لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولاعلانية ، قال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم** ﴾ [المجادلة : ٧] ، وقال سبحانه : ﴿ **وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** ﴾ [يونس : ٦١] .

وإليك الآن بعض العلامات التي تدل على صحة القلب وسلامته ننقلها عن ابن القيم – رحمه الله تعالى – :

من علامات صحة القلب : أن لا يفتر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من خدمته ، ولا يأنس بغيره .

ومن علامات صحته : أنه إذا فاته وِرْده ، وجد لفواته ألماً أعظم من تألُّم الحريص بفوات ماله وفقده .

ومن علامات صحته : أنه يشتاق إلى الخدمة ، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب .

ومن علامات صحته : أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّهُ وغَمُّهُ بالدنيا ، ووجد فيها راحته ونعيمه ، وقرّت عينه ، وسرّ قلبه .

ومن علامات صحته : أن يكون هَمُّهُ واحداً ، وأن يكون في الله .

ومن علامات صحته : أن يكون أشحَّ بوقته – أن يذهب ضائعاً – من أشدّ الناس شحّاً بماله .

ومن علامات صحته : أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل .

وبالجملة فالقلب الصحيح : هو الذي همُّهُ كله في الله ، وحبه كله له ، وقصده له ، وبدنه له ، وأعماله له ، ونومه له ، ويقظته له ، وحديثه والحديث عنه ، أشهى إليه من كل حديث ، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابِّه .

رأيت الذنوبَ تُميت القلوب
وقد يُورث الذلَّ إدمانُها

وتـركُ الـذنـوب حـــيـــاةُ الـقـلـوب
وخــيــرٌ لـنفــسك عــصــيــانُـهــا

اللهم أصلح قلوبنا ، وزكِّ أنفسنا أنت خير من زكاها ، اللهم إنا نعوذ بك من قلب لايخشع ، ومن عين لا تدمع ، ومن دعوة لا يستجاب لها .

بر الوالــدين

الإسلام دين الخلق العظيم ، والنهج القويم ، والتعامل الكريم ؛ دين المودة والألفة ، والمحبة والأخوة ، والشفقة والرحمة ، والبر والصلة الالتزام بنهجه سعادة ، والارتباط بأحكامه عزة ، والتأدب بآدابه حماية ، تفلح الشعوب إذا سارت على منواله ، وتقوى شوكة المجتمعات الملتزمة بحباله ، يزرع الطمأنينة ، وينشر المحبة ، ويبث المودة ؛ يسري رحيق آدابه إلى القلوب فيحييها ، ويفيض نداه إلى النفوس فيرويها ، ويفوح شذى عبيره إلى العقول ، فيهديها وينعشها ويزكيها . وإن من أعظم آدابه التي دعا إليها ، ومحاسنه التي حث عليها . بر الوالدين ، فهو من كمال الإيمان ، وحُسْن الإسلام ، ومن أفضل العبادات ، وأجلّ القربات ، طريقٌ إلى الجنة وسببٌ للمغفرة وزيادة في العمر ، وبركة في الرزق .

الأبوان .. رمز العطف ، وعنوان الشفقة ، ومهبط الرحمة .

الأبوان .. زينة الحياة ، وسعادة الوجود ، واستمرار الأنس ، وامتداد الرعاية ، والشعور بالعناية .

الأبوان .. وُجُودُهما دعاءٌ مستمر ، وحرصٌ مستميت ، وعاطفةٌ ملازمة ، ورحمة مُخيمة .

هل هناك أجمل وأحسن لدى الولد البار من صوت أبيه يدوي في البيت ، ومن نغمة أمه تتردد في المنزل ؟!! .

هل هناك أمتع لدى الولد البارّ من يد أبيه الحانية يجد بردها على صدره ، ويجد عطفها بكفه ؟!! .

وهل هناك أروع من ابتسامة الأم في البيت ، ومن حسن لقائها ، وروعة دعائها ؟!! .

تتنقل في أركان البيت بسجادتها الطاهرة ، فما هو إلا صلاة ودعاء ، وبكاء ورجاء ، وتكبير وتهليل ، وتسبيح وتحميد ، نصف صلاتها تسبيح واستغفار ، ونصفها دعاءٌ وانطراح بين يدي الجبار ، أن يحفظ ابنها ويحميه ويقيه شر الأشرار . تغضب أنت على أبنائك فتريد عقابهم فتقف الأم « حائلاً » دونهم ، وتجعل نحرها دون نحورهم ، لا تنام حتى تعود إلى بيتك ، ولا تهدأ حتى تجد صوتك، وتطمئن على وجودك وصحتك وعافيتك . وقد تنزل بك النازلة لاسمح الله ، أو تحل بك الكارثة ، فيتضجر منك الناس ، ويمل منك جل الأقارب ، بل ربما إذا امتد بالإنسان المرض ، وطال به القعود تسأم منه زوجته وبنوه ، وإخوانه وأهلوه إلا الوالد والوالدة ، فلا يزيدهما ذلك إلا صبراً واحتساباً وخدمة وحناناً . إليك هذه القصة المؤثرة لترى حنان الأم وعطفها ، ورقتها وصبرها ، وتفردها وتميزها منذ قديم الزمان :

كان صخر بن الشريد أخو الخنساء في غزوة فقاتل فيها قتالاً شديداً فأصابه جرح واسع فمرض ، فطال به مرضه ، وعاده قومه ، فقال أحد الزائرين يوماً لامرأته سُليمى : كيف أصبح صخرٌ اليوم ؟ قالت : لا حياً فيرجى ولا ميِّتاً فينسى ، فسمع صخر كلامها فشق عليه ، وقال لها : أنت القائلة كذا وكذا ؟ قالت : نعم ، غير معتذرةٍ إليك ، ثم جاءهم زائر آخر ، فقال لأم صخر : كيف أصبح صخر اليوم ؟ فقالت : أصبح بحمد

الله صالحاً ولا نزال بحمد الله بخير ما رأينا سواده بيننا . فلما سمعها صخر أنشد ؟

أرى أم صخر ما تمل عيادتي
ومَلّت سليمى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة
عليك ومن يغتر بالحدثان
فأي امرىء ساوى بأمٍ حليلةً
فلا عاش إلاّ في أذىً وهوان
لعمري لقد أنبهتُ من كان نائماً
وأسمعت من كانت له أذنان

أيها الأحبة : إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد ، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات . وكما تمتص النبتة الخضراء كلَّ غذاءٍ في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاءٍ في البيضة فإذا هي قشر كذلك يمتص الأولاد كل رحيقٍ وعافية ، وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية ، وهما مع ذلك سعيدان بهذا البذل ، وهذه التضحية . أما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون بدورهم إلى الأمام إلى الزوجات والذرية ، وقلما يوجِّه اهتمامهم إلى الوالدين ، وفي هذا تنكّر للجميل ، وعصيان للجليل ، ونسيان للمعروف ، وإهدار للإنسانية .

تعالوا أيها الأحبة في سياحة سريعة ، وتعريجة خفيفة ، لنرى مكانة الوالدين في شرعنا الحنيف ، ونهجنا المطهر ، ودستورنا المبجل .

لقد قرن الله تعالى طاعة الوالدين بطاعته ، وجعلها تاليةً للأمر

بتوحيده وعبادته ، فقال عز وجل في هدايته : ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً**﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال عز من قائل : ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وقال جل وعلا : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير**﴾ [لقمان :١٤] . وهناً على وهن : جهداً على جهد ، أو ضعفاً على ضعف ، وفصاله في عامين : أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين .

ثم انظر إلى هذه الآيات العظيمة ، والكلمات المؤثرة ، والعبارات الموحية في قوله جل وعلا : ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً * إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**﴾ [الإسراء : ٢٤] .

« كلمة عندك – وتقديم الجار والمجرور وهو – عندك – تُصَوِّر معنى الالتجاء والاحتماء من حالة الكبر والضعف » .

النهي عن كملة « أُف » أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ، ألا يَندّ من الولد ما يدل على الضجر والضيق وما يشي بالإهانة وسوء الأدب ﴿**جناح الذل من الرحمة**﴾ هنا يشف التعبير ويلطف حتى يبلغ شغاف القلب، فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عيناً ولا يرفض أمراً ، وكأنما لهذا الذل جناح يخفضه إيذاناً بالسلام والاستسلام . ﴿**وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**﴾ أمر بالدعاء ، ولفتة للتذكير بالماضي ، أيام الطفولة الضعيفة التي رعاها الوالدان . هكذا تتجلى عظمة

هذا القرآن وروعة أحكامه ، وسمو تعاليمه ، وقمة آدابه ، ولا غرو فهو من لدن حكيم عليم! .

وإن العناية ببر الوالدين لم تكن مقصورة على الشريعة الإسلامية فحسب ، بل كان كذلك في الشرائع السابقة ، ومنذ بزوغ فجر الإسلام قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً** ﴾ [البقرة : ٨٣] ، وقال تعالى عن يحيى – عليه السلام – ﴿ **وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً** ﴾ [مريم : ١٤] ، وقال تعالى عن عيسى – عليه السلام – : ﴿ **وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا** ﴾ [مريم : ٣٢] .

أما الأحاديث الواردة عنه ﷺ فأكثر من أن تحصى ، فقد أمر ببر الوالدين ، ودعا إلى طاعتهما ، وحذر من العقوق ، وعده من كبائر الذنوب .

قال ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ، قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . [متفق عليه] .

وجاء رجل إليه ﷺ يقول : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغي الأجر من الله تعالى قال : « فهل لك من والديك أحد حيّ؟ » قال : نعم بل كلاهما ، قال : « فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ » ، قال : نعم قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » . ما أعظمه من دين وما أعظمها من تربية ، وما أسعده من نهج!! .

وقال ﷺ : « رَغِمَ أنفُ ، ثم رَغِمَ أنفُ ، ثم رَغِمَ أنفُ من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة » [رواه مسلم].

وسأله رجل عن أحب العمل إلى الله تعالى ، قال : «الصلاة على وقتها» ، قال : ثم أيّ؟ ، قال : «بر الوالدين» [رواه مسلم].

ويؤكد ﷺ على طاعة الأم بالذات ، وزيادة الاهتمام بها لأنها هي التي نالت أشد التعب ، وتعرضت لأنواع الشدائد ، كم صبرت على ألم؟! وكم سهرت من ليالٍ؟! وكم ذرفت من دموع؟! وكم لحقها من ويلات الحمل والولادة والرضاعة والتربية؟!.

سأل رجل رسول الله ﷺ : من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من؟ ، قال : «أمك» ، قال : ثم من؟ ، قال : «أمك» ، قال : ثم من؟ ، قال : «أبوك» [متفق عليه].

وأخبر ﷺ أن خير التابعين أويس القرني ، وحثّ من وجده أن يطلب منه أن يستغفر له ، وضمن أنه لو أقسم على الله لأبرّه ، والسبب أن له والدة كان براً بها .

ويبين ﷺ أن الجنة تحت أقدام الأمهات .

استمع إلى هذا الحديث الرائع ، والخبر الماتع عنه ﷺ . عن معاوية بن جاهمة السلمي – رضي الله عنه – قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : «ويحك أحيةٌ أمك؟» ، قلت : نعم يا رسول الله ، قال : «ارجع فبرَّها» ، ثم أتيته من الجانب الآخر ، فقلت يا رسول الله ، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : «ويحك أحيةٌ أمك؟» ، قلت : نعم ، قال: «ارجع إليها فبرها» ، ثم أتيته من أمامه ، فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : «ويحك أحيةٌ أمك؟» ، قلت : نعم

يا رسول الله ، قال : « ويحك الزم رجلها فثمَّ الجنة » [رواه ابن ماجة].

ثم انظر إلى شؤم العقوق وفظاعته وما يحل بالعاق من المقت والعذاب.

يقول ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه والمرأة المترجلة ، والديوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن على الخمر، والمنان بما أعطى » [أخرجه النسائي، وانظر صحيح الجامع].

ويقول ﷺ : « رضا الرب في رضا الوالد ، وسخطُ الربّ في سخط الوالد » [صحيح الجامع].

وقد أشار ﷺ إلى لفتة عظيمة ، وواقع ملموس ، وأمر مشاهد ، وسنة متبعة ، وهو أن العاق لوالديه تظهر عليه أسباب الندامة ، وملامح العقوبة ، وعلامات الشقاء ، وويلات العذاب في الدنيا قبل الآخرة . فيقول ﷺ : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا البغي وعقوق الوالدين أو قطيعة يعجل لصاحبه في الدنيا قبل الموت » [صحيح الأدب المفرد] . وكم والله رأينا من إنسان تُنَغّص حياته ، ويكدر عيشه ، وتنزل به المصائب ، وتحل به الكوارث ، ويجمع الناس أنه بسبب عقوقه لوالديه . وكم رأينا من إنسان ليس لديه كثرة صلاة أو صيام ولكنه موفق في حياته سعيد مع أهله ، مبارك له في رزقه ، ويعرف الناس أنه ببركة دعاء والديه ، وببره وطاعته لأبويه . جعلنا الله وإياكم من الموفقين البارين بالوالدين الفائزين برضى رب العالمين .

من مظاهر العقوق :

١ - تعريض الوالدين للسب أو اللعن . قال ﷺ : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » . قيل : يا رسول الله كيف يلعن الرجل

والديه ؟ قال : «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه ، فيسب أمه» [رواه البخاري ومسلم] ، وهذه للأسف تسمعها من كثير من الشباب .

٢ – سب الوالدين مباشرة أو إيذاؤهما ، ولو حتى بكلمة من حرفين «أف» ولو وجد أقل منها لقيلت .

غذوتك مولوداً ومُنْتُك يافعاً
تعلُّ بما أجني عليك وتَنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضامتك بالسقم لم أبت
لسقمك إلا ساهراً أتململُ
كأني أنا المطروق دونك بالذي
طُرقتَ به دوني فعينيّ تهملُ
تخاف الردى نفسي عليك وإنها
لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجل
فلما بلغتَ السن والغاية التي
إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظةً وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي
فعلت كما الجار المجاور يفعل

٣ – الاهتمام بالزوجة والذرية وصرف كل الوقت والمال والعناية بهم مع إهمال الوالدين ، واهتمام الرجل بزوجته وأبنائه ليس فيه عيب أو غضاضة ولكن ذلك يصبح مقيتاً إذا قدم كل ذلك على والديه ،

والتمس رضا المرأة عن رضا الأم . وليعلم كل إنسان أن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان ، فإن بررت بوالديك برك أبناؤك .

٤ - البعد عنهم في المسكن وعدم الرعاية المستمرة ، والتفاني في الخدمة . وقد يظن إنسان أن إحضاره الخادمة لأمه يسقط عنه المؤونة ، ويزيل عنه التبعة ، وذلك غير صحيح ، فكلمة حنان منك ، وابتسامة رضا منك ، أحب إلى الأم من مائة خادمة .

قال رجل لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : إن لي أماً بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حوائجها إلا وظهري لها مطية ، فهل أديت حقها ؟ قال : لا ، لأنها كانت تصنع بك ذلك ، وهي تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وأنت تتمنى فراقها ، ولكنك محسن ، والله يثيب الكثير على القليل .

٥ - الغفلة عن تخصيص جزءٍ من الراتب للوالدين في شراء هدية ، أو مساهمة في معروف أو غير ذلك . لو خصصت من راتبك مائتي ريال في الشهر « ٢٤٠٠ في السنة » لكان فيها الخير الكثير ولأدخلت بها السرور على والديك وكسبت بها دعاءً وحباً ورضاً وقبولاً . بعض الأبناء يشتري لزوجته ولأبنائه ولنفسه ، ولكنه يغفل عن والديه وهما أصحاب الفضل عليه .

كيف أنساكِ وقد أفنيت عمراً
ترسمين الحب حولي والأماني
كيف أنساكِ وفي قلبي هوى
صاغه النورٍ حروفاً في لساني
كيف يا أماه أنسي قُبلة
ويداً كل مناها في احتضاني

لو أعيش الدهر أوفيك بحق
وتمادى العمر دهراً ما كفاني

٦ – عدم برهما والإحسان إليهما بعد وفاتهما : قال رجل : يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : «نعم ، الصلاة عليهما – أي الدعاء لهما والاستغفار – وإنفاذ عهدهما بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما» [رواه أحمد] ، وقال ﷺ : «إن أبرّ البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه» [رواه مسلم] .

وإن البر بالوالدين سببٌ بإذن الله تعالى في الفوز ببر الأبناء ، فكما تدين تدان .

قال ﷺ : «بِرّوا آباءكم تبرّكُم أبناؤكم ، وعِفُّوا تعِفّ نساؤكم» .

ويقول ﷺ : «من برَّ والديه طوبى له زاد الله في عمره» .

وأخيراً إليكم هذه التربية منه ﷺ عن طريق القصة ، وذلك في قصة الثلاثة الذي انطبق عليهم الغار ، قال ﷺ : «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أُرحْ عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت – والقدح على يدي – أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصِّبْيَةُ يتضاغون عند قدمي ، فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن

كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . . . » الحديث [متفق عليه] .

وهكذا كان برّ الوالدين سبباً لنيل رحمة الواحد الأحد وسبباً في إجابة الدعاء .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برِّ الوالدة .

ويقول أيضاً : ما من مسلمٍ له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسباً إلا فتح الله له بابين - يعني في الجنة - وإن كان واحداً فواحدٌ ، وإن أغضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه ، قيل : وإن ظَلَما ؟ قال : وإن ظلما .

وقد ضرب الصحابة - رضوان الله عليهم - أروع الأمثلة في البر بالوالدين ، فهذا أبو هريرة - رضي الله عنه وأرضاه - كان في بيت وأمُّه في بيت آخر ، فإذا أراد أن يخرج ، وقف على بابها ، فقال : السلام عليك يا أمّاه ورحمة الله وبركاته ، فتقول ، وعليك يا بُنيّ ورحمة الله وبركاته ، فيقول : رحمك الله كما ربيتني صغيراً ، فتقول : رحمك الله كما بررتني كبيرا .

قال المأمون لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه ، بلغ من بره به أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مسخن وهما في السجن ، فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فقام الفضل حين أخذ يحيى مضجعه إلى قمقم كان يسخن فيه الماء ، فملأه ثم أدناه من نار المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح .

يقول الإمام أحمد : «برُّ الوالدين كفّارةُ الكبائر» .

وخلاصة الأمر أن برّ الوالدين هو الخير والفلاح والرضا والسعادة والسرور والحبور في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ **رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ..** ﴾ [نوح : ٢٨].

صلة الرحم

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء : ١].

صلة الرحم .. متصلة ببر الوالدين ، وقد أمر الله تعالى بها وحث عليها كما حث على بر الوالدين ، ومن بر الوالدين بعد وفاتهما صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما .

صلة الرحم .. هي : الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والعطف عليهم ، والرفق بهم ، والرعاية لأحوالهم .

صلة الرحم .. حفظ للمجتمعات ، وقوة للكيانات ، وطاعة لرب الأرض والسماوات ؛ يُنال بها فضله ، ويُرجى بها كرمه ، ويستنزل بها جوده ، ويطلب بها عفوه .

صلة الرحم .. طولٌ في العمر ، وبركةٌ في الرزق ، وسعادةٌ في الحياة ، وذِكْرٌ بعد الوفاة ، وكسبٌ للقلوب ، وفلاحٌ للشعوب .

صلة الرحم .. رفعة وسمعة ، محمدة ومنقبة ، تملأ القلوب حباً وتزيد من الباري قرباً ، وتنير للمؤمن درباً ، وتيسر له صعباً . لصاحبها هيبة وجلال ، ولعدوها خيبة وضلال .

بها تَعْذُب الحياة ، وتحلو المعيشة ، ويصفو الكدر ، ويذهب الهم

ويطرد الغم ، وتنشر السعادة أجنحتها ، وتغرس المودة أطنابها ، وتنشر الرحمة عبيرها .

أمر الله بها وأوجبها ، وأوعد بالمقت من غيبها . وديننا دين الخلق والألفة والمودة والمحبة ، والبر والصلة ؛ فلا تآلف إلا في ظلاله ، ولا ترابط إلا في كنفه .

قال تعالى : ﴿ **وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

إن هذا الدين يأمر بالمودة والإحسان ، والحب والإكرام للمؤمن البعيد فكيف بالقريب ، فالحب والنصح وعدم الظلم ، واجب على المؤمن تجاه إخوانه مهما بعدت دارهم ونأت منازلهم ، وعدمت قرابتهم ، فكيف به مع القريب والنسيب ! .

ولقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى ذي القربى في آيات متعددة ، وقرنها بطاعته وعدم الإشراك به وبطاعة الوالدين .

قال تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى** .. ﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل** ﴾ [الإسراء:٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى** ﴾ [النحل : ٩٠] .

وقد امتدح الباري جل وعلا المؤمنين ذوي الألباب بقوله : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**

ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ [الرعد : ٢١] . والرحم مما أمر الله به أن يوصل .

وها هو ﷺ يمتع القلوب ، ويملأ الأسماع ، وينعش الأفئدة ، وينشر الرحمة والبر والصلة ، بأحاديثه الماتعة ، وتوجيهاته الرائدة ، وكلماته المنيرة ، فيقول : «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه» [رواه البخاري] . ومعنى ينسأ له في أثره : أي يمد له في عمره .

ويقول ﷺ : «صلة الأرحام ، وحسن الجوار ، وحسن الخلق يعمرْن الديار ، ويزدن في الأعمار» [صحيح الجامع : ٣٧٦٧] .

بل الأعجب من ذلك كله ما أخبر به ﷺ من أن صلة الرحم سبب لعمار الديار ، وزيادة الأموال حتى لمن يبغضهم الله ، ولكن آتاهم ذلك بسبب صلتهم لأرحامهم ، يقول ﷺ : «إن الله ليُعَمِّر بالقوم الديار ، ويثمّر لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم» ، قيل ، وكيف ذلك يا رسول الله؟ ، قال : «بصلتهم لأرحامهم» .

ويقول ﷺ : «يا أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام» [صحيح الجامع] .

ويقول ﷺ : «كلّ رحمٍ آتيةٌ يومَ القيامة أمام صاحبها ، تشهد له بصلةٍ إن كان وصلها ، وعليه بقطيعة إن كان قطعها» .

ويقول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه» [رواه البخاري] .

ويقول ﷺ : « من سرّه أن يُبسط عليه في رزقه ، ويُنسأ في أثره فليصل رحمه » [رواه أبو داود].

وبين ﷺ أن الصدقة على ذي القرابة والرحم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة .

بل يبين ﷺ أهمية صلة الرحم ، ويقدمها في حديثه على كسر الأوثان ، وتوحيد الله تعالى ، إعلاناً لأهميتها وشأنها ، ويبين أنها من أولويات مهمات الرسالة فيقول : « أرسلني الله بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يوحد الله ولا يشرك به شيء » [رواه مسلم].

ويبين أن صلة الرحم أعظم أجراً من العتق . عن ميمونة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : يا رسول الله أَشَعَرْتَ أني أعتقت وليدتي؟ قال: « أَوَ فَعَلْت؟ » قالت : نعم ، قال : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك » [متفق عليه].

وجاءه رجلٌ فقال : يا رسول الله إني أصبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ قال : « هل لك من أمّ؟ » ، قال : لا ، قال : « هل لك من خالة؟ » ، قال : نعم ، قال : « فَبِرَّها » [مشكاة المصابيح].

ثم بين ﷺ حقيقة الصلة وأن الواصل لرحمه ليس هو من يصل أرحامه إذا وصلوه ، ويقطعهم إذا قطعوه فيقول : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها » [رواه البخاري].

وبين أن حسن العاقبة وعظمة الأجر هي لمن يصل أرحامه وإن قطعوه .

جاء رجل فقال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، وأحلم عليهم ويجهلون عليّ ، فقال :

«لئن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل – أي الرماد الحار – ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك» [رواه مسلم] ، وقد قال أحد الشعراء في هذا المعنى :

وإن الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدّا
إذا أكلوا لحمي وَفّرْتُ لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبتي حفظت غيوبهم
وإن هم هووا غيّيْ هويت لهم رشدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

يقول عمر بن دينار – رحمه الله تعالى – : «تعْلمُنّ أنه ما من خُطوةٍ بعد الفريضة أعظم أجراً من خطوة إلى ذي الرَّحم» .

قال تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

فحينما سَأل ﷺ جبريل عن هذه الآية قال : إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

من طرق الصلة :

هذه بعض الأمور التي تعين الإنسان على صلة أرحامه والقيام بواجبه تجاههم ومنها :

١ – وضع جدول للزيارات ، فيلزم نفسه بأيام معينة من كل أسبوع أو

شهر يجعلها لصلة الأقارب والأرحام .

٢ - قائمة بالأسماء والهواتف ، فيكتب أُسر الأقارب والأرحام وأرقام هواتفهم ، ويجعل أمام كل أسرة اسم يوم من أيام الأسبوع يتصل فيه بهم ، وهو أمر يسير ، حيث يتمكن الإنسان في دقائق معدودة عن طريق الهاتف من صلة رحمه ، ويرضي ربه ، ويقتدي بنبيه ، ويكسب محبة أرحامه وأقاربه ، ويبارك له في رزقه ، ويمد له في عمره .

٣ - ليس معنى الصلة الإنفاق والعطاء ، فلا يتصور الإنسان أنْ معنى صلة الرحم هو في مجرد الإنفاق أو البذل أو الصدقة ، فإن الإنسان يمكن أن يكون واصلاً لرحمه مطيعاً لربه حتى ولو لم يكن لديه درهم ولا دينار ، لأن حقيقة الصلة هي في بشاشة الوجه ، وسعة الصدر ، وسلامة الطوية ، وصدق النية ، وإضمار الخير ، وبذل النصح ، وحسن الظن ، وتلمس العذر . . .

التحذير من قطيعة الرحم :

قطيعة الرحم فساد في الأرض ، وتفكك للأسر ، ودمار للبيوت ، وهدم للدين ، وسواد للقلوب ، وتفشٍ للحقد ، وزرع للبغضاء ، وتعرض للّعنة والسخط ، وسواد المصير ، وغضب القدير . ونوجز مخاطر القطيعة فيما يلي :

١ - التعرض للّعنة والغضب من الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ [الرعد : ٢٥] .

ويقول تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ [محمد : ٢٢].

٢ - من قطع رحمه قطعه الله .

قال ﷺ : «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى ، قال : فذلك لك» [متفق عليه].

وقال ﷺ : «الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » [رواه مسلم].

٣ - قاطع الرحم لا يدخل الجنة .

قال ﷺ : «لا يدخل الجنة قاطع رحم» [رواه مسلم] ، وقد فسر العلماء هذا الحديث وأمثاله بأنه لا يدخل الجنة ابتداءً وليس معنى ذلك أنه خالد مخلّدٌ في النار إذا كان مسلماً .

٤ - قاطع الرحم أعماله مردودة .

قال ﷺ : «إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع الرحم» [رواه أحمد].

- ونقل عن ابن مسعود أنه كان جالساً بعد الصبح في حلقة فقال : «أنشد الله قاطع الرحم إلا قام عنا ، فإنا نريد أن ندعوا ربنا وإن أبواب السماء مغلقة دون قاطع الرحم» .

- ولقد أوصى زين العابدين بن علي بن الحسين ابنه - رضي الله

عنهم أجمعين – فقال : «لا تصاحب قاطع الرحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع» .

٥ – قاطع الرحم ممقوت بغيض :

إن من قطع أرحامه يُحرم مودتهم ومحبتهم ودعاءهم ، ووقوفهم إلى جانبه في الأزمات والملمات ، ولا يذكر اسمه إلا تضجّروا منه وتسخطوا ، وأطلقوا ألسنتهم بالدعاء عليه ، لهجره لهم وتنكره لقرابتهم .

قال عطاء – رحمه الله تعالى – : لدرهمٌ أخصه في قرابتي أحبّ إليّ من ألف درهم أضعها في فاقة . قال له قائل : يا أبا محمد وإن كان قرابتي مثلي في الغنى ، قال : وإن كان أغنى منك .

٦ – قاطع الرحم يحرم نفسه بركة الرزق ، وطول العمر لأن الصادق المصدوق ﷺ أخبر أن صلة الرحم تثمر بركة الرزق وطول العمر ، وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، بل إن صلة الرحم تبقى بركَتُها حتى بعد الوفاة .

يقول الطيبي – رحمه الله – : إن الله يُبقي أثر واصل الرحم طويلاً فلا يضمحلّ سريعاً كما يضمحلّ أثرُ قاطع الرحم .

فصلة الرحم خيرٌ كلها ، والقطيعة كلها شؤم ونكد ، وظلمة وظلام ومعصية للواحد العلام .

الجـــار

لازلنا نعيش مع مجموعة من المثل السامية ، والقيم العالية ، والأخلاق الزاكية ، نتفيؤ ظلالها ، نقطف ثمارها ، نتأمل رُواءها ، نشتم عبيرها . تلك المثل التي يفوح شذاها عطراً تزكو المجتمعات بعبقه ، وتنتشي النفوس بعبيره ، وتسعد الإنسانية بأريجه . تلك المثل التي ترفع راية هذا الدين على كل راية ، وتعلن أنه السبيل الأمثل بل الأوحد للهداية ، والطريق الأقوم للعناية والرعاية ، توحيدٌ وعقيدة ، عبادةٌ وريادة سعادةٌ ورشادة ، خلقٌ ومثل ، حبٌ وتضحية جودٌ وكرم ، برٌّ وصلة ، رعايةٌ وعناية ، سلامٌ ووئام ، تناصحٌ وتشاور ، تعاونٌ وتآزر ، تآلفٌ وتآخي . .

لقد مرّ بنا الحديث عن بر الوالدين ، وطاعة الأبوين ، وتلك المسألة هي نقطة البداية للانطلاقة الأخلاقية العظمى المنبثقة من الإيمان بالله ورسوله ﷺ .

تلك الانطلاقة التي تبدأ من الأسرة الصغيرة لتعمّ بروعتها وحسنها وجمالها وجلالها الأسرة الإنسانية جمعاء ، تلك المثل والتعاليم بدايتها أشبه ما تكون بالحصاة ، تقذف بها في اليمّ ثم تبدأ تنداح الدائرة وتتسع في تناسق بديع ، ومنظر بهيج . فالانطلاقة تبدأ من البيت بل من أخص ساكني البيت ، وهما الوالدان ، ثم تتسع الدائرة لتشمل الزوجة والأبناء والأقارب والأرحام ، لتعمّ المسلمين جميعاً بل وغير المسلمين .

وبعد حديثنا عن الآباء والأبناء ، والأقارب والأرحام ، ننتقل إلى فئة أخرى من فئات المجتمع التي شملتها العناية الربانية ، والرحمة الإلهية ، والتوجيهات القرآنية ، وقد جاءت مرتبة بحسب الأهمية والأولوية ، ويجمعها جميعاً قول الحق جل وعلا ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القرى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا** ﴾ [النساء : ٣٦] .

فقد بدأت الآية بالحديث عن القاعدة الأولية التي يقوم عليها المجتمع المسلم وهي قاعدة التوحيد الخالص ، التي تنبثق منها حياته ، وينبثق منها منهج هذه الحياة في كل جانب ، وفي كل اتجاه . ثم يأتي بعد ذلك الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما ، ثم الإحسان إلى ذوي القربى ، وقد تحدثنا عن ذلك ، إذ لا بد أن يبدأ البر والإحسان من البيت أولاً مع الوالد والوالدة ، مع الابن والبنت ، مع الزوج والزوجه ، مع الإخوة والأخوات ، مع العمة والعمات . . إلخ . وهكذا تتسع الدائرة لتشمل جميع الأقارب والأرحام ، ثم عموم المسلمين ثم الإنسانية جمعاء .

ومن لم يتعلم البر والإحسان مع الأسرة الصغيرة – أهله وأقاربه – فلن يفلح في تعامله مع الأسرة الكبيرة – المسلمين جميعاً – ومن لم يقم بواجبه تجاه والديه وذويه ، فلا خير فيه يرجى لغيرهم ، ولا إحسان منه يؤتى لسواهم . فإن مشاعر البر والإحسان والصلة وحسن المعاملة إذا عمرت بها الأسرة الصغيرة ، تتسع بعد ذلك وتفيض على جوانب الإنسانية الأخرى . فالمرء يتعلم حسن التعامل ، وجميل الإحسان ، وروائع الخلق في جو الأسرة الحاني ، ومحضنها الرفيق ، ومن هناك يتوسع في علاقاته بالأسرة الإنسانية كلها ، بعد أن زُرِعت بذورها في حِسِّه ،

وتغلغلت روعتها في وجدانه ، وأضحت جزءاً من كيانه ، وفيضاً من إيمانه ، ولهذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » [رواه الترمذي ، وابن ماجة] ، فالذي لا تبدأ خيريته بأهله ، ولا تنطلق أفضليته من بيته ، فلا خير فيه لغيرهم .

حديثنا اليوم عن حسن الجوار ومنزلة الجار في الإسلام . ولقد جاوزنا الحديث عن اليتامى والمساكين – حسب ترتيب الآية – لأن الإحسان إليهما لازال والحمد لله بخير ، ولكن قدمنا الإحسان إلى الجار لأن ذلك من الظواهر الهامة التي تحتاج إلى عناية ورعاية ، وتنبيه وتذكير ، وتناصح وتشاور .

والإحسان إلى الجار هو شيمة من شيم العرب ، حتى في أيام الجاهلية يقول عنتره :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مثواها

ويقول حاتم الطائي :

ناري ونارُ الجار واحدة
وإليه قبلي تنزل القِدرُ
ما ضَرَّ جاراً لي أُجاوِرُهُ
أن لا يكون لبابه سِترُ
أُغضي إذا ما جارتي برزتْ
حتّى يواري جارتي الخِدرُ

الجار .. رفيق الدرب ، وقرين المسكن ، ومصدر الرعاية ، ومحط

العناية ، يعزي في المصيبة ، ويُؤنِس في الوحشة ، ويسلّي في الغربة .

الجار .. الحبيب القريب ، والمعين الناصح ، والسند المعاون ، والباذل في الحاجة ، والواقف في الملمّة ، والصامد في المهمة ، والساتر للعورة ، والحافظ للغَيْبَة ، والأولى بالمعروف .

قال تعالى : ﴿ **والجار ذي القربى والجار الجنب** ﴾ [النساء : ٣٦] ، فهما ممن أمرنا الله بالإحسان إليهما ، والجار ذي القرى : يعني الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب : الذي ليس بينك وبينه قرابة ، وقيل الجار ذي القربى : يعني المسلم ، والجار الجنب : يعني اليهودي والنصراني . ولا غرو ولا عجب في ذلك فقد كان ﷺ يحسن إلى جيرانه من غير المسلمين ولقد أخذ أصحابه هذا الخلق عنه ﷺ .

روي عن مجاهد أنه قال : كنت عند عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – ، وغلام له يسلخ شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي ، حتى قال ذلك مراراً ، فقال له : كم تقول هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه » .

وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأساً أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك .

قال ابن حجر – رحمه الله – : واسم الجار يشمل المسلم والكافر والعابد والفاسق ، والصديق والعدو ، والغريب والبلدي ، والنافع والضار والقريب والأجنبي ، والأقرب داراً والأبعد .

وقال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » [رواه مسلم] ، هذه هي المرتبة الأولى ، وهي عدم الأذى ، ثم تتبعها المرتبة الثانية

وهي الإحسان إليه .

قال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » [رواه مسلم] .

وقال ﷺ : « خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره » [رواه الترمذي] ، فاعلم أخي المسلم أن خيريتك عند مولاك جل وعلا هي بمقدار خيريتك عند جيرانك .

إن الإحسان إلى الجار وحسن معاملته دليل من دلائل الإيمان ، وعنوانٌ للفلاح والنجاح . فالواجب على المسلم أن يبدأ جاره بالسلام ، وأن يسأل عن حاله ، ويعوده في مرضه ، ويعزيه في مصيبته ، ويؤنسه في وحشته ، ويهنئه في أفراحه ، ويصفح عن زلاته ، ويعفو عن هفواته ، ولا يتتبع عوراته ، ولا يضايقه في مسكنه أو طريقه ، أو غير ذلك مما يسيء إليه . ولا يسمع فيه كلاماً ولا يرضى فيه خصاماً ، ويغض بصره عن محارمه ، ويتلطف بأولاده ويرشده ويوجهه في أمور دينه ودنياه ، ويعينه إذا استعانه ، ويقرضه إذا استقرضه ، ويطعمه من طعامه .. إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة والمكارم المتعددة ، والصفات الحميدة ، والخلال الرفيعة التي يجب أن يقوم بها الجار مع جاره .

لقد أوصى ﷺ الجار أن لا يبيت وجاره جائع ، وبين أن ذلك ليس من كمال الإيمان فقال ﷺ : « ما آمن بي من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به » [صحيح الجامع] .

وقال ﷺ لأبي ذر – رضي الله عنه – : « إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيتٍ من جيرانك فأصبهم منها بمعروف » [رواه مسلم] .

وأوصى ﷺ بأمور دقيقــة ، ولكنها غايــة في الأهمية ، فقال ﷺ : « من كانت لـه أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره » [رواه ابن ماجة].

وانظر إلى تعاملات السلف – رضي الله عنهم – فهذا أحدهم رأى جاره يبيع داره في دين لحق به ، فقال : ما قمت إذاً بحق جاري إن باعها معدماً ، فدفع إليه الثمن وقال : لا تبعها .

ورأى أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – ولدَه عبد الرحمن وهو يناصي – يعني أخذ بناصيته – جاراً له ، فقال : « لا تناص جارك فإن هذا يبقى والناس يذهبون » .

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود – رضي الله عنه – يشتكي إليه أذية جاره ، فقال له : اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه ... إلى غير ذلك من المعاملات التي أضحت في هذا الزمن للأسف الشديد شبه معدومة عند كثير من الناس فإما مؤذٍ لجاره ، وإما هاجرٌ له معرض عنه ، وإما متكبر متآلٍ عليه ، وحينما تنظر إلى الآية التي أوصت بالجار تجد أنها ختمت بقوله تعالى : ﴿**إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا**﴾ [النساء : ٣٦] ، وذلك لحكمة عظيمة ، فمن الأسباب التي تمنع الجار من الإحسان إلى جاره وحسن معاملته : الكبر والتعالي عليه ، لأنه ذو منصبٍ كبير أو مالٍ وفير ، وجاره فقير ، ومن أعجب العجب أن أكثر المسلمين اليوم متجاورون بيوتاً متباعدون قلوباً ، قد يكون المسلم يسكن في نفس المبنى بل في نفس الدور ، ومع ذلك لا يعرف جاره ولا يعرفه جاره ، فضلاً عن إحسان بعضهم إلى بعض أو سؤال بعضهم عن بعض ، فأين هذه الأخلاق من أوامر الخلاق؟! لقد تفشت ظاهرة القطيعة وعدم الإحسان بين الجيران ، وهو أمر مؤذن بفساد المجتمعات ، ودمار العلاقات ،

وضياع الحرمات ، والتعرض لسخط رب الأرض والسماوات .

وقد ذكر الغزالي – رحمه الله تعالى – جملةً من حقوق الجار فقال : «وجملة حق الجار : أن يبدأ بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ، ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويظهر الشَّركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا في مصبّ الماء في ميدانه ، ولا في مطرح التراب في فنائه ، ولا يضيق طرقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما عمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى مادمته ، ويتلطف بولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه» .

* خطورة إيذاء الجار وعدم الإحسان إليه :

تعالوا بنا في إيجاز سريع نتأمل النصوص التي وردت عن المعلم الأول والمحسن الأكمل ، والمربي الأعظم ﷺ ، فوالله لقد وردت أحاديث ترتعد لها الفرائص ، ترجف لها القلوب ويهتز لها الوجدان :

١ – نفي الإيمان عن الذي يؤذي جاره .

قال ﷺ : «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن» قيل من يا رسول الله ، قال : «الذي لا يأمن جارُه بوائِقَه» [رواه البخاري] ، والبوائق هي الغوائل والشرور .

٢ – حرمانه من الجنة : قال ﷺ : «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» [رواه مسلم].

والعلماء يفسرون مثل هذا الحديث بأن القصد : لا يدخل الجنة ابتداءً

وقيل له ﷺ : إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، غير أنها تؤذي جيرانها ، فقال ﷺ : « هي في النار » [رواه أحمد].

٣ - أن المؤذي لجاره يتعرض للعنة والسخط من الناس ومن الله تعالى .

جاء رجل إليه ﷺ يشكو جاره ، فقال له ﷺ : « اصبر » ، ثم قال له في الثالثة أو الرابعة – أي بعد أن تردد عليه ثلاث أو أربع مرات – « اطرح متاعك في الطريق » قال : فجعل الناس يمرّون به ، يقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره ، قال فجعلوا يقولون : فعل الله به وفعل ، فجاءه جاره فقال له : « ارجع لا ترَ مني شيئا » [رواه أبو داود] .

وتعال معي إلى مسك الختام ، وروعة الكلام ، للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، أصغِ سمعك ، وضع يدك على قلبك ، وأنت تستمع إلى ما يهز الوجدان ، ويطرب الألباب ، ويلهب الضمائر ، كلام يرتجف الفؤاد لروعته ، وتُبهر النفس بعظمته ، وترتعد الفرائص لهيبته ، تسمعه فتطرق في إجلال وخشوع وخضوع للمولى جلا وعلا ، وتزداد احتراماً وافتخارا بهذا المنهج الحق ، والدين القويم ، الذي يقدر الإنسان غاية التقدير ، ويهتم بمشاعره أعظم اهتمام ، ويوصي بحقوقه أجمل وصاية ، ويرعى حرمته أفضل رعاية .

عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلي أريد النبي ﷺ فإذا به قائم ورجل معه مقبل عليه فظننت أن لهما حاجة ، قال الأنصاري : لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثي لرسول الله ﷺ من طول القيام ،

فلما انصرف ، قلت : يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثي لك من طول القيام . قال : «ولقد رأيته» ، قلت : نعم ، قال : «أتدري من هو؟» ، قلت : لا ، قال : «ذلك جبريل مازال يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ..» [رواه أحمد].

يا للروعة ، يا للعظمة ، يا للجمال والجلال ، الله جل وعلا يرسل روح القدس عليه السلام ، ليقف وقوفاً طويلاً مع محمد ﷺ حتى أشفق عليه الصحابي من طول القيام ، كل ذلك من أجلك أنت أيها الإنسان ، من أجلك أيها الجار يوصي بك ، ويحرص عليك ، ويرعى حقوقك . فلنتقي الله أيها الأحبة ، ولنمتثل أمره ، وأمر نبيه ﷺ ، فنحترم جيراننا ونحسن معاملة إخواننا ، لنفوز برضا ربنا ، ومحبة إخواننا .

الكرم

الكرم صفةٌ نبيلة ، وسِمَةٌ جليلة ، وعادة جميلة ، خُلُقٌ محمود ، وحوض مورود . الكرم دليلَ على كرم النفس ، وطيب الأصل ، وجمال الطبع ، وصفاء القلب ، وحب الخير ، وعشق المعروف ، يجتذب القلوب ويصطنع الحب ، ويقتلع الضغائن ، ويسُلّ السَّخائم ، الكرم حيثما وُجد فاح عبيره ، وعبق عطره ، وضاع أريجه لا يتصف به إلا العظماء ولا يتحلى به إلا النبلاء ، أهله ممتدحون ، وأربابه معظمون ، هو العمر الثاني للإنسان ، وهو الذكر الباقي للشجعان .

لَعَمْرُكَ ما يغني الثراءُ عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
ألم تر أن المال غادٍ ورائحٌ
ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

الكريم أينما حلّ فهو كالغيث الهنيء ، إذا نزل بأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . والكريم كالظل الوارف يأوي إليه المحتاج ، ويستظل به المنهك ، ويلوذ به المنقطع ، الكريم كالبحر الهادر أحل للناس صيده وطعامه ؛ يستخرجون منه حليةً يلبسونها ، وترى الفلك مواخر في ماء جوده وأمواج عطائه . والكرم حرب على البخل، وثورة على الشح ، وبركان في وجه التقتير ، وطمس لمعالم الأنانية ، ورفع لمقام الإنسانية .

تحلّى به الأنبياء ، وتجمل به العظماء ، وانتسب إليه الأسخياء ؛ وهو

عربيٌّ المولد والنشأة ، عروقه عربية ، ودماؤه عربية ، وسحنته عربية . ضرب العربُ فيه المثالَ الأروع ، وبلغوا فيه الشأو الأرفع ، وجاؤوا منه بالحديث الأمتع ؛ كان الكرم جاهلياً فأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه ، وخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام . ومن أكرم العرب في الجاهلية حاتم الطائي ، وهرم بن سنان ، وكعب ابن مامة الإيادي ، وعبد الله بن جدعان .

أما حاتم فقد أصبح مضرب المثل على مرّ العصور ، وتقلب الدهور ، وهو الذي كان إذا أقبل الشتاء واشتد البرد يقول لغلامه : أوقد النار في مكان مرتفع حتى يراها من ضل الطريق وإذا أتيت بضيف فأنت حر! .

أوقـد فـإن الـليـل لـيـلٌ قـرّ
والـريـح يـا مُـوقِـد ريـحٌ صِـرُّ
عـلَّ يـرى نـارَك مـن يمـرُّ
إن جلبتْ ضـيـفـاً فـأنت حـرُّ

وأما هرم بن سنان فأبوه سيد غطفان ، وهو الذي قال فيه الشاعر :

قـوم أبوهم سنان حين تنسبهم
طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يَقْعد فوق الشمس من كرمٍ
قوم بأوّلهم أو مجدهم قعدوا

وقال الشاعر في هرم :

وأبيض فـيـاض يداه غمامةٌ
على معتفيه ما تُغبُّ نوائله

تراه إذا ما جئته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وأما كعب بن مَامَة فقد آثر رفيقه بالماء ، ومات هو عطشاً ونجا رفيقه وله يقول الشاعر :

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأما عبد الله بن جدعان فقد كان آية في الكرم ، وغاية في الجود وكان يُضَيِّف حجاج البيت وزوّاره طيلة وجودهم بمكة . كان له جفنة لا يحملها إلا ثمانية من أشداء الرجال يضعها في الصباح مكللة بلباب البر ونسيل العسل ، ثم يأمر غلمانه ينادون في الناس : حيهلاً على الفطور المبارك ، ثم يضعها في الظهيرة، كذلك وكان يضع الموائد من الأبطح إلى باب المسجد الحرام .

ولكن هل يغني الكرم شيئاً مع الكفر بالله؟ وهل يجدي الجود فتيلاً إذا كان لغير الله؟ قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ابن جدعان كان يطعم الفقير ، ويعين على نوائب الحق هل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ قال : « لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » [رواه مسلم].

وغيرهم كثير ، وقصصهم مشهورة ، وأخبارهم مذكورة .

والكريم اسم من أسماء الله تعالى ، فهو الكريم ومنه الكرم ، بل هو أكرم الأكرمين ﴿ **اقرأ وربك الأكرم** ﴾ فهو أكرم من كل كريم ، وأعظم من كل عظيم ، وأجود من كل جواد ، وقد تسمى جل وعلا بالكريم ولم يتسمّ بالسّخي لأن الكريم : كثير العطاء ووافر البذل ، وعظيم الإحسان

من غير طلب أو سؤال ، والسخيُّ : هو المعطي عند السؤال ، وكرمه تعالى ظاهر وباطن ، وجَليٌّ وخفي ، ومادي ومعنوي ، وملموس ومحسوس .

إليه وإلا لا تشدّ الركائب
ومنه وإلا فالمؤمِّل خائب
وفيه وإلا فالغرام مضيّع
وعنه وإلا فالمحدث كاذب

هو ذو الجلال والإكرام ، والفضل والإنعام ، كرمه لأهل السماوات وأهل الأرض وجميع من فيهن . يغدق الرزق ، ويبذل الفضل ، ويجزل العطاء ، ويغفر الذنب ، ويقبل التوب ، ويذهب الكرب ، ويستر العيب ويحب العفو ، ويتجاوز عن المذنب ، ويغفر الخطايا ، ويدفع الرزايا ، ويسمع الشكايا ؛ كريم يحب الكرم جواد يحب الجود كرمه مبذول ، وحبله ممدود ، وبابه مفتوح ؛ من أقبل إليه تلقّاه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب ، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد ، و لم يُقنط أحداً من رحمته . أهل شكره هم أهل زيادته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، الحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة ، يشكر على اليسير ، ويغفر الكثير ، رحمتُه سبقت غَضَبَه ، وحلمُه سبق مؤاخذتَه ، وعفوُه سبق عقوبتَه ، ﴿ **يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ . لو أن أول الناس وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلاً منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر !!

قال تعالى : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا**

تحصوها ﴾ [إبراهيم : ٣٤].

يجود بالفضل على العاصي ، ويتفضل على المسيء ، ويعطي العبد ما سأله وما لم يسأله .

أنت الكريم فلو لا رحمة سبقت
لم يُعط شربة ماءٍ جاحدٌ عاصِ
تعطي بغير حساب لا تَظِن ولا
يغيب لطفك عن دانٍ وعن قاصِ
وجنة الخلد تعطيها لمن حملوا
عبء الحقيقة في صبرٍ وإخلاصي

واستمع إلى مثل واحد من أمثلة الجود ، وأنموذج من نماذج الكرم يقول ﷺ سأل موسى عليه السلام ربه : ما أدنى أهلِ الجنة منزلة ؟ قال : «رجل يجيء بعدما أُدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : أدخل الجنة ، فيقول : أي رب وكيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم؟! فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول رضيت ربي ، فيقول : لك ذلك ومثله ومَثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب ، قال : -أي موسى- فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردتُ غَرسْتُ كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر» [رواه مسلم] ، فسبحانه ما أكرمه وأعظمه!! وهل يجود الأجواد إلا من جوده ، وهل يُكرم المكرِمون إلا من فيض نداه؟! وهل يعطي العطايا إلا من أكرمه الله وأعطاه؟! .

والكريم جلَّ وعلا شرّف أعزّ الناس عنده بصفة الكرم ، وكرم أحب الخلق إليه بسمة الجود ، فجعل الكرمَ صفة لأنبيائه ، والجود حلية لأوليائه والعطاء تاجاً لأصفيائـه .

فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام من أكرم من درج على الأرض ، وأجود من مشى على البسيطة ، فهو معلم الكرم وحبيبُه ، ورفيقُ الجود وربيبُـه ، قال تعالى : ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ [الذاريات : ٢٤] ، فهم مكرمون لإكرام الله لهم ، وهم مكرمون لإكرام إبراهيم لهم ، وحسن ضيافته لمقدمهم ﴿**إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين**﴾ [الذاريات : ٢٦] ، فهذه أقصى درجات الكريم ، وأعظم الدلائل على جود إبراهيم . والآيات على وجازتها تُجَلِّي روعة سخائه ، وعظيمَ عطائه ، فهم على قلتهم «وقيل : إنهم ثلاثة» جاء لهم بطعام وفير ، والطعام قد اختاره فجعله عجلاً سميناً ، فلم يكن هزيلاً ، أو هَرِماً كبيراً ، ثم تفنن في طريقة تحضيره ، وأسلوب تقديمه ، فقد جاء به حنيذا ، والحنيذ من أجود أنواع الطهي وأكثرها مشقة .

على قـــدر أهل العـــزم تأتي العـــزائم
وتأتي على قـــــدر الكرام المكارم

واللفتة الأجمل في ذلك ، أنه بالغ في إكرامهم من غير معرفةٍ لهم وهذا هو الكرم الحق والجود الصراح ، فليس الكرم لمن كان معروفاً فقط ، أو قريباً أو نسيباً ، بل هو لمن عُرف ولمن لم يُعرف ، للقريب والغريب ، والغني والفقير . وإبراهيم عليه السلام لم يشترط الاطلاع على البطاقة الشخصية قبل أن يكرم أضيافه ولم يتحقق من الأصل والفصل والنسب

والجاه ، والرفعة والمكانة ، ولم يحد شفرته أمامهم ليستدرّ عطفهم ، ولم يخنق العجل ليسمعوا خواره فيحلفوا عليه أن لا يذبحه كما يفعل البخلاء . والأجمل من كل ذلك ، والأروع مما هنالك ما تُصوره كلمة « فراغ » فإبراهيم لم يعقد اجتماعاً طارئاً بأهله البيت ويشاورهم في الأمر ويستعين بهم في خدمة الأضياف ، فلم يتردد لحظة واحدة في الإكرام ، ولم يفاوض في الضيافة أو يفعل كما يفعل بعض الناس مع ضيوفه حين يفدون إليه ، فهو يسألهم أولاً ؛ إن كانوا مسافرين ظهراً قال لهم : ما رأيكم في العشاء عندنا الليلة؟! وإن كانوا مسافرين ليلاً قال ما رأيكم في الغداء عندنا غداً؟! ثم قد يجيب هو بنفسه قائلاً لهم : أعلم أنكم على عجلة من أمركم ولا داعي لتأخيركم ، وإعاقتكم في سيركم بسلامة الله نستودعكم الله!! .

وبعض الناس إذا أقبل إليه الضيوف ربما أعطاهم محاضرة في ضرر الأكل ، وكثرة التخمة ، وخطر اللحم على الجسم ، وحاجة الإنسان للتخفيف من الأكل ، ويبين لهم أجر الصيام وفضله .

زرت امرأً في بيته مرة ... له حياءٌ وله خير
يكره أن يتخم ضيفانه ... إن أذى التخمة محذور
ويشتهي أن يؤجروا عنده ... بالصوم والصائم مأجور

أما إبراهيم عليه السلام فقد راغ كما يروغ الأسد ، وانطلق كالبرق الخاطف ﴿ **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ وهذا منتهى الكرم وغاية الجود .

وهذا لوط عليه السلام لما جاءته رسل ربه لم يكد يعرفهم، وظنهم ضيوفاً من البشر فاحتمل همّاً عظيماً لأجلهم ، واشتد به الكرب ، وخيم

عليه الهم ، وضاقت به الأرض ، وقال هذا يوم عصيب ، كل ذلك خوفاً على ضيوفه ، وحرصاً على مشاعر زوّاره ، وعرفاناً بحق الضيافة ، وواجب الكرامة ، فصاح بقومه الذين غلبت عليهم الفاحشة ، وسرى فيهم الشذوذ الجنسي ، قال تعالى على لسانه : ﴿**قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون**﴾ [الحجر : ٦٩] ، ولم يتردد في سبيل حماية ضيوفه ، أن يعرض على قومه الزواج من بناته فهو أطهر لهم وأجمل ، ﴿**قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد**﴾ [هود : ٧٩] ولكن الله تعالى صان رسله ، وحفظ لوطاً وأهله ، وأهلك قومه وجعل عالي بلدتهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام في إكرام الضيف ، وبذل المال ، وإطعام الطعام . فجاء البشير النذير ﷺ فكان أكرمَ إنسان ، وأجودَ مخلوق ؛ أعظمُ الناس بذلاً ، وأوفرهم عطاءاً وأجزلهم إنفاقاً ، ولقد جُبل على الكرم ، وتعود بسط الكف ، وبذل الندى منذ نعومة أظفاره ﷺ .

حينما بدىء بالوحي فعاد خائفاً وجلاً إلى خديجة – رضي الله عنها – قالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق » [رواه الشيخان] .

يقول أنس – رضي الله عنه – ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فجاءه رجلٍ فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر» [رواه مسلم] .

لقد كان ﷺ يؤثر على نفسه وأهله ويعطي عطاءً يعجز عنه ملوك الدنيا وكان أجود بالخير من الريح المرسلة .

ما قال لا قط إلا في تشهده
لولا التشهد كانت لاؤه نعم
يكاد يمسكه عرفان راحته
ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم

قال جابر ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا .

كأنك في الكتاب وجدت لاءً
محرمة عليك فلا تحلّ
إذا حضر الشتاء فأنت دفءٌ
وإن حضر المصيفُ فأنت ظلٌّ

في عودته ﷺ من حنين كثر عليه الأعراب يسألونه ويستجدونه حتى اضطروه إلى سَمُرة –نوع من أنواع الشجر–فخطفت رداءه فوقف فقال : « أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً » [رواه البخاري] .

وكان كرمه ﷺ وجوده بجميع أنواع الجود من بذل العلم ، وبذل المال ، وبذل النفس في سبيل الله ، وبذل الجاه ، وكان مأوىً للفقير والمسكين والمنقطع ، وكان يقول : « أبغوني ضعفائكم » [رواه أبو داود والترمذي] .

ولقد غرس روح الكرم في نفوس أصحابه ، وبث عبير الإنفاق في قلوب أتباعه ، فضربوا في الكرم أمثلة عظمى ، وبلغوا في الجود درجة

قصوى ، ووصلوا في العطاء مرتبة عليا . فمنهم من كان يبذل نصف ماله ومنهم من كان يبذل ماله كله ، ومنهم من كان يجهز جيشاً بأكمله ، ومنهم من كان يتصدق بأغلى ما عنده ، وأعز ما لديه .

ولنا وقفة أخرى مع الصحابة وكرمهم ، وذكر بعض من اشتهر بالجود وعرف بالكرم ، وبيان بعض روائع الكرم ، وقصص العطاء ، مع بيان آداب الضيافة وضوابط الكرم ، ومن هم الكرماء ، بأمر الله تعالى ،،،

من روائـــع الكـــرم

كان حديثنا فيما سبق عن الكرم ، وقد قصرنا الحديث على كرم الله عز وجل وعطائه سبحانه وتعالى ، وكرم أنبيائه عليهم السلام ، وبينا أن النبي ﷺ أجود الناس ، وأكرم البشرية . وقد غرس روح الكرم في نفوس أصحابه ، وبث عبير الإنفاق في قلوب أتباعه ، فضربوا في الكرم أمثلة عظمى ، وبلغوا في الجود درجة قصوى ، وارتقوا بالإنفاق مرتقى أسمى . وليس بخاف على الأنظار ، ولا غائبٍ عن الأذهان كرمُ أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – الذي كان يأتي بماله كله ، وكان يطعم الطعام ، ويصل الأرحام . وعطاء عمر الفاروق – رضي الله عنه – الذي كان يجود بنفسه وماله ، وكان يحمل الطعام على ظهره لأبناء المسلمين وهو خليفة ويقدم المسلمين على نفسه وأبنائه . وجود عثمان ابن عفان – رضي الله عنه – الذي كان يجيش الجيوش ، ويطعم الطعام ، ويسقي العطشى، ويكرم الجوعى ، حتى قال ﷺ : «ما ضرّ ابن عفان ما فعل بعد اليوم» [رواه أحمد] ، وعبد الرحمن بن عوف الذي قدمت له سبع مائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما وصلت المدينة أنفقها كلها بأحمالها وأحلاسها في سبيل الله ، وقد كان أهل المدينة كلهم عيال عليه ، ثلث يقرضهم من ماله ، وثلث يقضي دينهم ، وثلث يصلهم ويعطيهم .

كــــرمٌ كــــريمُ الأمـــهـــات مـــهـــذبٌ
تُـدفِّق يمـناه الـندى وشـــــمـــــائـلـه

جـــواد بســـيط الكف حـــتى لَوَ انّه
دعـــاها لقـــبضٍ لم تجـــبـــه أنامله

وأبو طلحة – رضي الله عنه وأرضاه – الذي سمع قوله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران : ٩٢] فتصدق بأحب أمواله إليه وهي عين عذبة متدفقة اسمها «بَيرُحاء» ، وأبو الدحداح – رضي الله عنه – الذي سمع قوله تعالى : ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فقام إلى رسول الله ﷺ فقال له : إني أقرضت ربي حائطي وحائطه بستان من أكبر بساتين المدينة كان فيه ستمائة نخلة . إلى غير ذلك من تلك النماذج الرفيعة ، والأمثلة البديعة . وقد انطلقوا رضوان الله عليهم في بذلهم وإنفاقهم وجودهم وكرمهم ثقةً بقوله تعالى : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ [سبأ : ٣٩] ، وقوله ﷺ : «اتقوا النار ولو بشق تمره» ، وقوله ﷺ : «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً» [متفق عليه].

وقوله ﷺ : «السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار » .

لقد كانوا أجود الناس بعد النبي ﷺ وقد جادوا بكل أنواع الجود فقد جادوا بأنفسهم وهي أغلى ما يملكون ، وجادوا بأموالهم ، وجادوا بعلمهم ، وجادوا بأوقاتهم في سبيل الله تعالى ، ولقد كانوا رضوان الله عليهم يؤثرون على أنفسهم حتى ولو كان بهم خصاصة .

جاء ضيف إلى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه ، فقلن : ما معنا إلا الماء ، فقال رسول الله ﷺ : «من يُضيف هذا؟» ، فقال رجل من الأنصار : أنا

فانطلق به إلى امرأته ، فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ ، فقالت : «ما عندنا إلا قوتُ صبياني ، فقال : هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً – وفي رواية علليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوميهم – وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج ، وأريه أنا نأكل ، فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال له : «لقد ضحك الله الليلة من فعالكما بضيفكما» ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ [أخرجه البخاري ومسلم] .

يقول ابن عمر – رضي الله عنهما – : «أهدي لرجل رأس شاة فقال : إن أخي وعياله أحوجُ منا إلى هذا فبعث به إليه فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى الآخر حتى رجعت إلى الأول بعد سبعة» .

وسأل ﷺ أصحابه هل أحد منكم أطعم اليوم مسكيناً فقال أبوبكر – رضي الله عنه – دخلت المسجد فإذا أنا بسائل يسأل فوجدتُ كسرة خبزٍ في يد عبد الرحمن فأخذتُها فدفعتها إليه .

تبرعت لي بالجود حتى نَعَشْتني
وأعطيتني حتى حسبتك تلعبُ
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى
حليف الندى ما للندى عنك مذهب

الكرم من صفات الرحمن ، وسمات الديان ، وكمال الإيمان ، وحُسْن الإسلام ، دليل عراقةٍ في الأصل ، ونقاءٍ في المعدن ، يبعث على المودة ، ويجلب المحبة ، وهو دليل على حسن الظن بالله ، والثقة بموعوده ، والطمع في كرمه .

يقول ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : «إن الله كريم يحب الكرم ، ويحب معالي الأخلاق ويكره سَفْسافها» [صحيح الجامع].

وسئل ﷺ ، يا رسول الله أي الإسلام خير ؟ قال : «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» [رواه البخاري].

وقال ﷺ :«ليلةُ الضيف حقٌّ على كلِّ مسلم» [أخرجه أبو داود].

وقال للسائب بن عبد الله : «يا سائب انظر أخلاقك التي كنت تصنعها في الجاهلية فاجعلها في الإسلام . اقْرِ الضيف ، وأكرم اليتيم وأحسن إلى جارك» [رواه أحمد].

ويقول حكيم بن حزام – رضي الله عنه – : «ما أصبحتُ صباحاً قطُّ فرأيتُ بفنائي طالب حاجة قد ضاق بها ذرعاً فقضيتها إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها ، ولا أصبحت صباحاً لم أر بفنائي طالب حاجةٍ ، إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجر عليها ، وقد كان – رضي الله عنه – من أكرم الناس ، يأوي إليه الفقير والمنقطع ، فينصرف وقد قضيت حاجتُه ، وقُطعت فاقته .

وكان جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – من أكرم الناس بعد النبي ﷺ ، يقول أبو هريرة – رضي الله عنه – : «ما احتذى النّعال ، ولا انتعل ولا ركب المطايا ، ولا لبس الكور – يعني العمامة– من رجلٍ بعد رسول الله ﷺ ، أفضل من جعفر بن أبي طالب في الجود والكرم» .

ويقول الحسن بن علي – رضي الله عنه –: «الكرم : التبرع بالمعروف

قبل السؤال ، والإطعام في المحل ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل» .

ويقول عبد الله بن الحارث : «من لم يكرم ضيفه فليس من محمد ﷺ ولا من إبراهيم عليه السلام» .

وقال جعفر الصادق – رحمه الله – ألا وإن الله عز وجل يقول : «إني جوادٌ كريم لا يجاورني لئيم ، واللؤم : الكفر ، وأهل الكفر في النار ، والجود والكرم من الإيمان ، وأهل الإيمان في الجنة» .

فالكرم خلق حميد ، ونهج سعيد ، وكل صفات الجمال والكمال تتبع الكرم ، وتمشي في ركابه ، وكل صفات الذم والنقص تتبع البخل وتمشي في ركابه ؛ ومنزلةُ الكرم الجميع يحبها ، والكل يتمناها ، وهي من أعظم ما يتمادح به الناس ، ويتفاخر به المتفاخرون ويهيم بها الشعراء ويشيد بها الأدباء ، ويتغنى بها الخطباء .

ونذكر بإيجاز بعض حدود الكرم وأدبه ، وشروطه ومقتضياته ، وحقيقته وصفاته :

١ – أن أكرم الناس أتقاهم : سئل ﷺ من أكرم الناس ، فقال : «أتقاهم» [رواه البخاري] ، يقول ابن حجر – رحمه الله – : لا يقال للرجل كريم حتى يظهر ذلك منه ، ولما كان أكرم الأفعال ما يقصد به أشرق الوجوه وأشرفها ، يقصد به وجهُ الله تعالى ، وإنما يحصل ذلك من المتقي قال الله تعالى : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات : ١٣] .

والمتأمل لقوله تعالى : ﴿**فأما من أعطى واتقى**﴾ [الليل : ٥] تتجلى له هذه المسألة الهامة ، وهي ربط العطاء بالتقوى ، وأن ذلك هو المحمود فعلاً .

٢ – يجب أن يكون الكرم في طاعة الله ومرضاته ، وأن يُخلص الإنسان قصده ، ويتعاهد نيته ، وإلا خسر مع إتلاف المال إتلاف الحال ، وسوء المآل ، وسخط المتعال ، وما يغني عن الإنسان مالُه إذا تردّى ، قال تعالى : ﴿**إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا**﴾ [الإنسان : ١٠].

٣ – هنالك فرق كبير ، وبون شاسع بين الكرم والتبذير ، وما نراه من كثير من الناس اليوم ليس من باب الكرم ، ولا من سمات الجود ، بل هو إسراف وتبذير ، وإتلاف وتدمير ، فتجد الموائد العريضة ، والأصناف المتعددة ، والأشكال المتباينة ، والمأكولات المتناقضة ، التي قصد بها الاستعراض ، وأُريد بها المباهاة . فكثير منها لا تصله الأيدي ، ثم الأدهى والأمرّ أن يكنس الفائض ، ويرمى المتبقي ، بل في بعض المناسبات الكبيرة تحمل الأطعمات بالجرافات لتنقلها عربات الشحن فتهوي بها في مكان سحيق وهنالك أناس بأمس الحاجة إليها .

إن البطر عاقبته وخيمة ، ونتائجة مفزعة ، وثمراته مهلكة ، قال تعالى : ﴿**وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين**﴾ [القصص : ٥٨].

خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– فقال : « ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما : قوموا فقاموا معه ، فأتى رجلاً من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته فلما رأتهم المرأةُ قالت : مرحباً وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ :

أين فلان؟ قالت : ذهب يستعذب لنا من الماء .. إذ جاء الأنصاري ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافاً مني ، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطب ، فقال : كلوا من هذه ، وأخذ المُدْية - السكين - فقال له رسول الله ﷺ : « إيّاك والحلوب » فذبح لهم ، فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا وَرَوُوا ، قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة » [أخرجه مسلم] ، فكيف بمن يرد على هذه الموائد العريضة ، والسُّفَر المرْعبة ، والنعيم العظيم ، والخير العميم .

٤ - ليس الكريم من لا يكرم إلا الكبراء فقط والوجهاء وذوي القربى ، ثم يحرم الفقير من عطائه ، ويطرد المسكين عن سفرته ، ولا يحظى الغريب بحسن ضيافته .

نزل أبو هريرة - رضي الله عنه - على قوم فلم يضيفوه ، فتنحى عنهم وجلس إلى طعامه ، ودعاهم ليألكوا معه فأبوا ، فقال : لا تنزلون الضيف ، ولا تجيبون الدعوة؟ ما أنتم من الإسلام على شيء ، فعرفه رجل منهم ، فقال له : انزل عافاك الله ، قال : هذا شرٌ وشرٌ ، ولا تنزلون إلا من تعرفون .

لقد كان ﷺ يكرم القريب والبعيد ، والصديق والغريب ، والمقيم والمسافر ، والفقير والغني ، وكان يقول : أبغوني ضعفائكم .

قال تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا** ﴾ [الإنسان : ٨] ، والعجب من أناس كرمهم مبذول ، وجودهم موفور ، ولكن لأناس ليسوا إليه في حاجة ، ولم تنزل بهم فاقة . أما المحتاج والفقير ، والمسكين والمنقطع ، لو مكثوا على بابه أياماً ما ظفروا منه بشيء ، فهل

ذلك الكرم أُريد به وجه الله؟ وبعض الناس أشد المحتاجين إلى كرمه جيرانُه وأفقر الناس إلى عطائه إخوانه .

نـاري ونـارُ الجـــار وحـــــداةٌ
وإليـــه قـــبلـي تُـنْزل الـقـــدر
مــا ضـــرّ جــاراً لـي أُجــاورُه
أن لا يـكـون لـبــابـه سـتـــرُ

وقال الشاعر الجاهلي :

تبـيـتــون في المشـتى مـلاءً بطونكم
وجـاراتكم سُـغبٌ يبتن خـمـائصـا

وبعض الجيران حقه من جاره مزاحمة السيارات ، وروائح الأطعمة ودخان الأكل .

وجـيـــرةٍ لا تـرى في الـناس مـثلهمُ
إذا يـكـون لـهـم عـيـــدٌ وإفـطـارُ
إن يوقـدوا يشـبـعـونا من دخـانـهمُ
ولـيـس يـبـلـغـنـا مـــا تـنـضـجُ الـنـارُ

يقول أحد الكرماء، وهي من أحسن ما قيل :

إذا مـا عـملت الزاد فـالتـمـسي لـه
أكـيـلاً فـإنـي غـيـر آكله وحـدي
بعـيـداً قـصـيّـاً أو قـريبـاً فـإنني
أخـاف مـذمّـات الأحـاديث من بعـدي
وكـيـف يـسـيغ المرءُ زاداً وجـارُه
خـفـيف المِعَى بادي الخـصـاصـة والجـهـد

ويقول ﷺ : «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع» [صحيح الجامع].

٥ – ليس كريماً من يأكل الأموال بالباطل، ويجمع الثروة من الحرام، ثم يضيف الناس، ويقيم الولائم، ويعطي العطايا؛ فالكريم هو من أخذ المال من حله، وصرفه في حِلّه.

٦ – ليست الضيافة والكرم بتقديم الأكل والشرب، أو بإعطاء العطايا فقط، مع ضيق في الصدر، وعبوس في الوجه، وتقطيب للجبين. فمن أكرم الكرم حسن الخلق، ومن أجود الجود: طيب المعاشرة، ولطف المعاملة.

قال ﷺ : «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسطُ الوجه، وحسن الخلق» [أخرجه الحاكم والبيهقي].

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويخصب عندي والمحلّ جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجهُ الكريم خصيب

٧ – ليس من الكرم أن يتكلف الإنسان مالا يطيق، ويحمل نفسه ما لا تستطيع، وفي الحديث عن سلمان – رضي الله عنه – قال: «نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا» [رواه أحمد]، فالجود من الموجود، والإكرام مما في اليد.

إذا تكرّهت أن تعطي القليل ولم
تقدر على سعةٍ لم يظهر الجودُ

بثَّ النوال ولا تمنعك قلّتُه
فكل ما سدَّ فقراً فهو محمود

وأخيراً .. كان أحد الصحابة ليس لديه مال ولا طعام ولا شيء يكرم به الضيف ويجود به على الناس ويبذله للسائلين ، ذلك هو أبو ضمضم – رضي الله عنه – فكان إذا أصبح الصباح قال : «اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس وقد تصدقت بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو في حل» ، فقال ﷺ : «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم» .

ذكر ابن القيم – رحمه الله – أن للجود عشر مراتب وهي :

الأولى : الجود بالنفس . وهي أعلى مراتبه ، كما قال الشاعر :

يجود بالنفس إن ضنَّ البخيل بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية : الجود بالرياسة ، وهي ثاني مراتب الجود ، فيحمل الجواد جودُه على امتهان رياسته ، والجود بها ، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس .

والثالثة : الجود براحته ورفاهيته ، وإجمام نفسه ، فيجود بها تعباً وكدّاً في مصلحة غيره ، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره ، كما قيل :

مُتَيَّمٌ بالنّدى ، لو قال سائله :
هب لي جميع كَرَى عينيك ، لم يَنَمِ

الرابعة : الجود بالعلم وبذله ، وهو من أعلى مراتب الجود . والجود به

أفضل من الجود بالمال ؛ لأن العلم أشرف من المال .

الخامسة : الجود بالنفع بالجاه ، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه ، وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد ، كما أن التعليم وبَذْل العلم زكاته .

السادسة : الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه ، كما قال ﷺ : يصُبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، يعدل بين اثنين صدقة ، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعة صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة صدقة ويُميط الأذى عن الطريق صدقه» متفق عليه .

السابعة : الجود بالعرض ، كجود أبي ضمْضم من الصحابة رضي الله عنهم ، كان إذا أصبح قال : «اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس ، وقد تصدقت عليهم بعرضي ، فمن شتمني أو قذفني فهو في حل ، فقال النبي ﷺ : «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟» .

وفي هذا الجود من سلامة الصدر ، وراحة القلب ، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه .

الثامنة : الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء ، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه ، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال ، وأعزّ له وأنصر وأملك لنفسه ، وأشرف لها . ولا تقدر عليها إلا النفوس الكبار .

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود ، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة ، وهذا جود الفتوة قال تعالى : ﴿ **والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارةٌ له** ﴾ .

التاسعة : الجود بالخُلق والبشر ، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم ، وإنه أثقل ما يوضع في الميزان .

قال النبي ﷺ : «لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه» [رواه أحمد] ، وفي هذا الجود من المنافع والمسار ، وأنواع المصالح ما فيه . والعبد لا يمكنه أن يسعهم إلا بخلقه واحتماله .

العاشرة : الجود بتركه ما في أيدي الناس ، فلا يلتفت إليه ، ولا يستشرف له بقلبه ، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه ، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك : «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل» .

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد : وإن لم أعطك ما تجود به على الناس ، فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم ، تُفْضِل عليهم ، وتزاحمهم في الجود ، وتنفرد عنهم بالراحة .

الغضب

أقبل رجل ونفسه متشوقة ، وأذنه صاغية ، وفؤاده متطلع . أقبل إلى أين ؟ ومشى إلى من؟ ويتطلع إلى من؟ أقبل إلى المصطفى ﷺ إلى المعلم الأعظم ، والمربي الأكمل ، إلى من أوتي جوامع الكلم . واختصر له الكلام اختصاراً يريد منه موعظة بليغة ، ووصية جامعة ، وكلمة نافعة ، فناجاه في أدب واحترام ، وتَطلُّع وترقب ، يا رسول الله أوصني ، قال : « لا تغضب » ، استمع الرجل ، وهو لا زال حانياً رأسه ، مرخياً سمعه ، يريد أن يسمع بقية الوصية وتكملة الموعظة ، فإذا بالنبي ﷺ يقف عندها ولا يزيد عليها شيئاً ، فيكرر الرجل طلبه مرة أخرى ، يا رسول الله أوصني ، قال : « لا تغضب » ، فردد مراراً ، قال : « لا تغضب » [أخرجه البخاري] . إنها وصية موجزة ، وموعظة مختصرة ، ولكنها جامعة مانعة ، وهي تدل على أن الغضب جماع الشرّ ، وأن التحرز منه جماع الخير ، وفي رواية أخرى أن رجلاً قال : يا رسول الله قل لي قولاً وأقلل عليّ لعلي أعقلُهُ ، قال : « لا تغضب » فأعاد عليه مراراً كل ذلك يقول : « لا تغضب » ، « لا تغضب » ، « لا تغضب » فلماذا لا تغضب؟؟ .

الغضب جماع الشر ، ومصدر الهلاك ، وعنوان الدمار ، الغضب خلق أحمق ، وتصرف أهوج ، وداء مزعج ، وخطر محدق ، وشيطان أخرس ؛ الغضب نار في الفؤاد ، وجمرة في القلب ، وشرار في العين وحمرة في الوجه ، وتوتر في الأعصاب ، وانتفاخ في الأوداج ، وحمق في

التصرف ، ومسارعة للانتقام ، ومبادرة للتشفي ؛ آثاره أليمة ، ونتائجه عظيمة ، وعواقبه وخيمة ؛ دُمِّرت به أُسَر ، ومُزِّقت به بيوت ، وقطِّعت به أرحام ، وأشعلت به فتن ، وقامت بسببه محن ، وزرعت بفعله إحن ؛ رمّلت به نساء ، وأريقت به دماء ، يُغضب الرحمن ، ويفرّق الإخوان ، ويعمي الأبصار ، ويُصمّ الآذان .

الغضب : خلق ذميم ، وتصرف لئيم ، وفعل مشين ، مفتاح لأكثر البلايا ، وسبب لأعظم الرزايا ، هذا إذا زاد عن حدّه ، وخرج عن قصده ، وإلا فالغضب موجود ، وبعضٌ منه محمود .

الغضب هو غليان دم القلب طلباً لدفع الأذى ، أو الانتقام ممن وقع منه الأذى . وإننا في هذا الواقع الذي نعيشه ، والذي زادت فيه متطلبات الحياة ، وتعقدت أمورها ، وتعددت شرورها ، أصبحنا نرى الغضب يسري في النفوس ، ويجري في الدماء ، فكثير من الناس في غضب دائم وتوتر مزعج ، وقلق مرهق . أظلمت القلوب ، وخافت النفوس ، وتوترت الأعصاب ، ظاهرةٌ أصبحت تُرى حتى في الأطفال الصغار ، وقد نُقلت إليهم عدواه ، وشملتهم بلواه ، ظهرت عليهم أسبابه ، وبدت فيهم آثاره وكأنما رضعوه مع اللبن ، ورشفوه مع الحليب .

كثرت الخصومات ، عظمت الشكايات ، تفككت أعداد من الأسر ، وتمزقت فئام من الأواصر ، كثر الطلاق ، وعظم الفراق ، واستشرى الشقاق ، وأغلب ذلك بأسباب الغضب ، فالحاجة إلى دراسة أسبابه واجبة ، والاجتهاد في محاولة دفعه متحتم .

الغضب خلقٌ زرع في الإنسان ، فهو صفة من صفاته ، وآية من آياته مثله مثل الحلم والضحك والبكاء . . وغيرها . ولكن له حد معين يجب

أن لا يتعداه ، وقانون محدد يجدر أن لا يتخطاه ، ومن صفات الله تعالى الغضب ، ولكن اقتضت حكمته ورحمته وحلمه جل وعلا أن تسبق رحمتُه غضبه ، فسبحانه ما أحلمه وأعظمه!! . وقد امتدح الله تعالى عباده المؤمنين الذين يملكون أنفسهم عند الغضب ، يغفرون ويصفحون ويحلمون ويعفون ، بقوله تعالى : ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ [الشورى : ٣٧].

وقال تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ [آل عمران : ١٣٤].

وقال تعالى : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ [النور : ٢٢].

وقال ﷺ مبيناً أن الرجل الشديد ، والفارس الشجاع ، ليس هو الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه ، ولكن الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب ، فقال : « ليس الشديد بالصُّرَعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [متفق عليه].

وسئل ﷺ : يا رسول الله ماذا يباعدني من غضب الله عز وجل؟ قال : « لا تغضب » [رواه أحمد] ، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن تخلق بالحلم ، ومشى بالتسامح ، وتعامل بالعفو يكافئه المولى جل وعلا بالعفو عنه وعدم الغضب عليه .

ولقد كان من روائع دعائه ﷺ ومن جوامع كلمه قوله : « اللهم إني أسألك كلمة الحق في الغضب والرضا » [رواه أحمد] ، وما أعظم هذا الدعاء لمن يتأمله! إنه دعاء عظيم ، وهو مع ذلك يحمل في طياته توجيهاً من المصطفى ﷺ للمسلم بأن يكون عادلاً ، وأن يقول كلمة الحق في حال

غضبه وفي حال رضاه .

روي عن ذي القرنين – رحمه الله تعالى – أنه لقي ملكاً من الملائكة فـقـال : «علمني علمـاً أزدد به إيماناً ويقـيناً ، قـال : لا تغـضـب فـإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرُدَّ الغضب بالكظم ، وسَكِّنه بالتـؤدة ، وإيّاك والعـجلة فـإنك إذا عـجلت أخطأت حظّك وكن سهلاً ليِّناً للقريب والبعيد ، ولا تكن جبَّاراً عنيدا» .

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن** ﴾ [فصلت : ٣٤] ، قال : «الصبر عند الغضب ، والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا عصمهم الله ، وخضع لهم عدوُّهم» .

وقال عروة بن الزبير – رضي الله عنهما – : «مكتوبٌ في الحِكَم : يا داودُ إيَّاك وشدة الغضب فإن شدة الغضب مفسدة لفؤاد الحكيم» .

وقال ابن القيم – رحـمـه الله – : «دخل الناس النار من ثلاثة أبواب : باب شبهةٍ أورثت شكّاً في دين الله ، وباب شهوةٍ أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته ، وباب غضبٍ أورث العدوان على خلقه» .

بعض أسباب الغضب :

١ – قلة الصلة بالقرآن الكريم ، ومعرفة ما أعــده اللـه تعالى من الأجــر لمن كظم غيظـه ، وكف غضبـه ، وعـفـا وأصلح ، وصبر وغـفـر ، ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ [فصلت : ٣٤] .

قال ابن عباس في تفسيرها : «أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ،

والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم» .

٢ – قلة المعرفة بسنة النبي ﷺ وبهديه في الغضب وعلاجه ، فهو لم يغضب لنفسه قط ، ولم ينتقم لها قط ، وكان حليماً يحب الحلم ، رفيقاً يحب الرفق .

٣ – قلة العقل وضيق التفكير ، فإن الإنسان العاقل ، والرجل البصير لا يكون كالطفل الصغير أو المجنون ، يثور لأتفه الأسباب ، ويغضب لأدنى الأمور . المتعقّل يقوده عقله إلى الصبر وسعة الصدر ، والتحمل وكسب المودة ، والنظر في عواقب الأمور .

٤ – كثرة متطلبات الحياة وتعقُّد أمورها ، من الأسباب التي تجعل المرء في قلق دائم ، وتوتر مستمر ، فهو في لهثٍ دائم ، وجري مستمر ، وكدح مضنيٍ .

٥ – التكبر ورؤية النفس : فإن المتكبر سريع الغضب ، دائم القلق ، شديد الجزع ، يغضب لأي أمر يتعارض مع كبريائه ، وينال من انتفاخه وانتفاشه ، لدرجة أن بعض المتكبرين يغضب لمجرد ردِّ السلام عليه .

٦ – الغرور : إما بمنصبٍ أو بمال أو بجاه ، فالمغرور دائماً سريع الغضب ، لا يرى معه أحداً ، ولا يتحمل زلة ، ولا يقبل رأيا ، ولا يسمع نصحا .

٧ – نشدان الكمال دائماً : إما من المسئول مع من حوله ، وإما من الرجل لزوجته ، وإما من الأب لأبنائه ، فالذي يريد الكمال دائماً إنما يطلب

المستحيل ، ولذلك يغضب لأدنى تقصير ، ويثور لأقل خطأ ، لدرجة أن بعضهم قد يقيم الدنيا ولا يقعدها إذا زاد ملح الأكل ، أو قلّت توابل السلطة .

٨ - الشعور بالنقص ، فالمدرس الفاشل في تدريسه ، والرجل الضعيف في بيته ، يحاول أن يعوض هذا النقص بافتعال الغضب ، واستمرار التوتر حتى لا يجرؤ أحد على سؤاله ، ولا يقوى إنسان على مناقشته .

٩ - إثارة النعرات والعصبيات الجاهلية ، فهذه من أهم الأسباب ، ومن أعظم الدوافع لحصول الغضب ، واستثارة الانتقام . ولقد كادت نارها تشب الفتنة بين الصحابة من الأوس والخزرج حينما تشاجر رجلان ، فقال هذا : يا للأوس ، وقال الآخر : يا للخزرج، لولا أن أسرع إليهم النبي ﷺ فوعظهم وذكّرهم وتلا عليهم القرآن حتى بكوا ورموا سيوفهم واحتضن بعضهم بعضاً .

١٠ - وهذا السبب خاص بالنساء وهو : الغيرة من تعدد الزوجات ، فإن المرأة التي يكون لزوجها امرأة أخرى تعظم غيرتها ، وتتوتر أعصابها ويعظم قلقها ، فيجب مراعاة ذلك ، ويجب على من له أكثر من زوجة أن يحسن إليهن ، وأن يتحمل زللهن ، وأن يعدل بينهن ، وأن يراعي مشاعرهن ؛ فإن ذلك أمر لا قِبل لهن به ، وقد يؤدي بالمرأة أحياناً إلى انتقام كبير ، أو كارثة عظمى ، أو انهيار عصبي .

عصمنا الله وإياكم من الغضب وأسبابه ، والعنف ونتائجه .

أسباب تسكين الغضب :

١ - أن يذكر الإنسان الله عز وجل وقدرته عليه .

قال تعالى : ﴿**واذكر ربك إذا نسيت**﴾ [الكهف : ٢٤] ، قال عكرمة : يعني إذا غضبت .

يروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى : «اذكرني عند غضبك أذكرك عند غضبي ، فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظُلمت فارضَ بنصرتي لك فإنها خير من نصرتك لنفسك» .

ويروى أن بعض الملوك كتب كتاباً وأعطاه وزيراً له ، وقال : إذا غضبتُ فناولنيه ، وكان فيه : مالك وللغضب إنما أنت بشر ، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء .

ويروى أن أحد الملوك كان إذا غضب أُلقيَ عنده مفاتيح مقابر الملوك فيزول غضبه .

وقال رجل لهارون الرشيد – وقد غضب عليه وكاد أن يعاقبه – : «يا أمير المؤمنين أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك ، وبالذي هو أقدر على عقابك منك على عقابي لما عفوت عني» ، فعفا عنه .

٢ - أن يذكر ما أعده الله من الثواب لمن كظم غيظه وعفا وأصلح :

قال تعالى : ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ [الشورى : ٤٠].

وقال تعالى عن المتقين : ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ [آل عمران : ١٣٤].

كانت جاريةٌ تصب الماء على يدي جعفر الصادق – رحمه الله –

فوقع الإبريق من يدها فانتثر الماء عليه ، فاشتد غضبُه ، فقالت له : يا مولاي ﴿والكاظمين الغيظ﴾ ، قال : كظمت غيظي ، قال : ﴿والعافين عن الناس﴾ ، قال : عفوت عنك ، قالت : ﴿والله يحب المحسنين﴾ ، قال : أنت حرّة !! فانظر احترامهم لآيات القرآن وآدابه .

وقال ﷺ : «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يُخَيّره في أي الحور شاء» [رواه الترمذي].

وقال ﷺ : «ما تجرّع عبد جرعةً أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله عز وجل» [رواه أحمد] .

غضب عمر بن عبد العزيز يوماً ، فقال له ابنه عبد الملك : يا أمير المومنين مع ما أعطاك الله وفضّلك به تغضب هذا الغضب؟! ، فقال له : أوما تغضب يا عبد الملك ، قال وما يغني عني سعة جوفي إذا لم أردّد فيه الغضب حتى لا يظهر! .

٣ - التعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

قال تعالى : ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾ [فصلت : ٣٦].

استبّ رجلان عند النبي ﷺ والصحابة جلوس عنده ، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً ، قد احمرَّ وجهه ، فقال النبي ﷺ : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» [أخرجه البخاري] .

٤ - الوضوء :

قال ﷺ : «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار ،

وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » [رواه أبو داود] .

٥ - تغيير الهيئة :

قال ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإذا ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » [رواه أبو داود] .

٦ - السكوت :

قال ﷺ : « علموا ويسّروا ولا تعسّروا ، وإذا غضب أحدُكم فليسكت » [رواه أحمد] .

٧ - أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم :

فكم من إنسان تدمرت حياته ، وشقيت أسرته بسبب الغضب ، فيغضب الرجل غضباً شديداً فيطلق زوجته ، ثم يندم بعد ذلك وقد لا ينفع الندم . يغضب الإنسان غضباً شديداً فيعاقب أبناءه بما يندم عليه ، أو يموت منه كمداً .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عُمَّاله أن لا تعاقب عند غضبك ، وكان – رحمه الله – إذا غضب على أحد يسجنه ثلاثة أيام ، ثم يعاقبه حتى لا يعاقبه وهو في سورة غضبه وحدة انفعاله خشية أن يتجاوز الحد في العقاب .

قال الحكماء : إياك وعزّة الغضب فإنها تفضي إلى ذل العذر .

وقال أحد السلف : ما تكلمت في غضبي قط بما أندم عليه إذا رضيت .

وقال علي بن أبي طالب : أول الغضب جنون وآخره ندم ، وربما كان

العطب في الغضب .

وقال بعض الحكماء لابنه : « يا بنيّ لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روحُ الحيّ في التنانير المسجورة ، فأقل الناس غضباً أعقلهم » ، وقال آخر : من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار .

٨ - الترفع عن الجهال والصبر عليهم وعدم مجاراتهم :

فإن الإنسان إذا تدنى إلى مستواهم أصبح مثلهم . يروى أن رجلاً أسمع أبا الدرداء كلاماً ، فقال له أبو الدرداء : يا هذا لا تُغرقنّ في سبّنا ، ودع للصلح موضعاً ، فإنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

وشتم رجل الشعبي ، فقال له : إن كنتُ كما قلتَ فغفر الله لي ، وإن لم أكن كما قلت ، فغفر الله لك .

وأغلظ رجلٌ القول لعمر بن عبد العزيز ، فنظر إليه عمر ، فقال : أردتَّ أن يستفزني الشيطان بعزِّ السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً؟! .

الغضب المحمود :

من الغضب ما يكون محموداً بل ما يكون واجباً ، وهو الغضب لله عز وجل . لم يكن ﷺ يغضب لنفسه ، ولكن إذا انتُهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء . وهذا على العكس من حالنا تماماً إلا من رحم ، فنحن نغضب لأنفسنا ، ولكن قلّ منا من يغضب لله تعالى ، نرى محارم الله تنتهك فلا نغضب ، نرى المعاصي تعاقر أمامنا فلا نغضب ، نرى المخالفات في أبنائنا وبناتنا وبيوتنا فلا نغضب ، ولو نيل من حقوقنا شيء

غضبنا غضباً شديداً .

أمر الله جبريل أن يدمّر قرية من القرى ، فقال : « يا رب إن فيها عبدك الصالح فلاناً ، فقال تعالى : به فابدأ فإنه لم يتمعَّر وجهه مرة من أجلي » ، فأين الغضب لله اليوم؟ وأين الغضب على حرماته؟ بل أين الغضب على مقدساته؟ بل أين الغضب لإخواننا المسلمين؟ الذي يمزقون في أنحاء الدنيا ، أي الغضب لأعراض المسلمات التي تنتهك جهاراً نهارا كل غضب المسلمين اليوم لا يتعدى كلمة أو شجباً أو إنكاراً ، أو تعليقاً في صحيفة ، ولكنهم لأنفسهم ومصالحهم الشخصية لا أحد أسرع منهم غضبا .

وقد ذكر الغزالي – رحمه الله – أن الغضب ثلاث درجات ، وهي : التفريط ، والإفراط ، والاعتدال .

التفريط : يكون إما بفقد قوة الغضب بالكلية أو بعضها ، وحينئذ يقال للإنسان إنه لا حمية له ، ومن هنا قال الشافعي : من استُغضبت فلم يغضب فهو حمار .

والإفراط : يكون بغلبة صفة الغضب حتى تخرج عن سياسة العقل والدين والطاقة ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، وهذا النوع مذموم أيضاً .

والاعتدال : وهو المحمود وذلك بأن ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفيء حيث يحسن الحلم .

اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك ،،،

الحِلْم

الحِلْم من أسماء المولى ، وصفاته الحسنى ، وسماته العظمى .

الحِلْم خلق الأنبياء ، وديدن العظماء ، وسجية النجباء ، وعنوان الكرماء ؛ الحلم روح الأخلاق ، ولباب الآداب ، وملك السجايا ، وسلطان المزايا ، الحلم دليل على حسن الخلق ، ولطف التعامل ، وبعد النظر ، وسعة الصدر ، وكمال العقل ، وعلو الهمة ، وقوة الإيمان ، وروح التواضع ولين الجانب ؛ كمال العلم في الحلم ، وزينة الفهم بالحلم ، ومفتاح القلوب في الرفق ، واستنجاح المودّة بالعفو ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

الحلم صفةٌ تُكسب المحبّة ، وتورث الإجلال ، وتدعو إلى التآلف تزيل البغض ، وتمنع الحسد ، وتدفع الحقد .

المؤمن هادئ النفس ، واسع الصدر ، وافر الحلم ، مطمئن القلب لا يستفزه الغضب ، ولا يستثيره الحمق ، ولا يقوده الهوى ، الحلم منزلة عظمى ، وشرف أسمى ، قال تعالى ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور**﴾ [الشورى : ٤٣] ، فهو عزم وليس خوراً ، وهو قوة وليس ضعفاً ، وقد قيل : الحلم أرفع من العقل ، لأن الله تعالى تسمى به فهو الغفور الحليم ، وهو العفو الكريم ، لا أعظمُ منه حلماً ، ولا أكثر منه عفواً ﴿**واعلموا أن الله غفور حليم**﴾ [البقرة : ٢٣٥] ، ﴿**والله غني حليم**﴾ [البقرة : ٢٦٣] ، يحب الحلم ويحب أهله ويتجاوز عنهم ويغفر لهم ،

﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ [النور : ٢٢].

وهو تعالى حليم عن عباده ، لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم ويمهلهم بعد المعصية ولا يعاجلهم بالعقوبة والانتقام ، ويقبل توبتهم بعد ذلك .

يقول ﷺ : « وما من شيء أحبُّ إلى الله من الحلم » .

قال ﷺ لأشجّ عبد القيس : « إن فيك خُلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » [رواه أبو داود] ، فهو تعالى حليم يحب الحلم ، رفيق يحب الرفق ، عفو يحب العفو ، لا أحد أوسع حلماً من الله ، ولا أحد أصبر على أذى من الله ، يتجرّأ عليه الغاصون ، وينتهك حرماته المسرفون ثم يناديهم نداء المتحبِّب ، ويدعوهم دعاء المتلطِّف : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [الزمر : ٥٣].

تجرأ عليه الكفرة ، وتطاول عليه الفجرة ، فقالوا إن الله ثالث ثلاثة ، فناداهم بقوله : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ [المائدة : ٧٤] ، فسبحانه ما أعظمه وأحلمه!! ، ولقد منّ على أوليائه بأن زرع فيهم هذه الصفة ، وغرس في قلوبهم تلك السمة ، فمن أوتيها فقد أوتي خيراً كثيرا ، ومن حُرِمها فقد حُرِم خيراً كثيرا ، قال ﷺ : « من يُحرم الرفق يحُرم الخير كله » [رواه مسلم].

ولقد كان ﷺ مثلاً في الحلم ، وآيةً في الرفق ، وقدوةً في حسن العفو ، تأدب بأدب الرحمن ، وتخلق بخلق القرآن ، فساد بالحلم ، وعَظُم بالرفق ، وعزّ بلين الجانب ، قال الله تعالى عنه : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ ، ناداه ربه بقوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر**

بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، فاستمع النداء ، وامتثل الخطاب ، وقبل الأمر ، وسعد بالتوجيه ، فضرب المثل الأعلى في حلمه ، وبلغ الغاية القصوى في لطفه ، ونال المرتبة المثلى في عفوه .

ثارت القبائل في وجهه ، وسطت العشائر على عرضه ، ووقف الخصوم أمامه ، رموا الأشواك في طريقه ، وضعوا السلا على رأسه ، وأغروا به سفهاءهم ، وأظهروا له عداءهم ، ألحقوا به الشتائم ، وضاعفوا له الجرائم ، بالغوا في شتمه ، وأسرفوا في سبِّه ، وولغوا في عرضه ، وتفانوا في أذيته ، فلم يصرخ ولم يضجر ، ولم يسب ولم يُقذع ، ولم يشتم ولم يلعن . قيل له ادع الله على المشركين والعنهم فقال ﷺ : «إنما بعثت رحمةً ولم أُبعث لعانا» [رواه مسلم] ، أرسل الله إليه ملك الجبال فقال له : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ : «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً» [متفق عليه] .

وبعد أن نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وقف ﷺ في فتح مكة عزيزاً منتصرا ، فائزاً مظفرا ، ووقف أمامه المشركون الذين عظمت مكائدهم ، واشتد أذاهم ، وكَبُر إجرامهم ، وقفوا أمامه مُنَكَّسة رؤوسهم ، كالحةً وجوههم ، طائشة أحلامهم ، مرتعدةً فرائصهم وجلة قلوبهم ، ينتظرون العقاب الصارم ، والنكال الجازم ، فهتف بهم ﷺ : «ما تظنون أني فاعل بكم» ، فقالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : «أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم**﴾ [يوسف : ٩٢] ، اذهبوا فأنتم الطلقاء» [السيرة النبوية لابن هشام] .

هكذا كان ﷺ ، وهكذا يكون العظماء ، العظيم كلما حلّق في آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتدّ حِلمه ، وعَظُم عفوه . جاء الإسلام وأهل الجاهلية ينادي قائلهم :

ألا لا يجهلن أَحَدٌ علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فنادى الإسلام نبيه وأتباعه بقوله سبحانه : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ .

جاء الإسلام وقائلهم يقول :

وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غُوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

فنادى الرحمن عباده بقوله تعالى : ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ [فصلت : ٣٤] .

وامتدح تعالى عباده بقوله : ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾ [الفرقان : ٦٣] .

إن شتائم الجهال ، وسفاهات الأنذال ، وسباب المتخلفين لاتطيش لها أحلام العظماء ، ولا تنصرف إليها عقول الحلماء ، تهجّم قوم هودٍ عليه بقولهم : ﴿**إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنك من الكاذبين**﴾ [الأعراف : ٦٦] فلم يزد على دفع التهمة عن نفسه ، قال : ﴿**يا قوم ما بي سفاهةٌ ولكني رسول من رب العالمين * أبلّغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين**﴾ ، فالمعلم الكبير لا يضيق بهرف ضعاف العقول ، وصغار الهمم .

بال أعرابي في المسجد ، فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النبي ﷺ : « دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء – أو ذنوباً من ماء – فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسِّرين » [رواه البخاري] .

قال لقمان الحكيم : « ثلاثةٌ لا يُعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة » .

روي أن رجلاً قال للصديق – رضي الله عنه – : لأسبنك سبّاً يدخل معك قبرك ، فقال له : معك – والله يدخل – لا معي .

وتهجم رجل على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ، فقال له : هيه يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بالعدل ، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ وإن هذا من الجاهلين ، فحينما سمع عمر الآية لم يجاوزها وقف عندها وامتثل أمرها ، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى .

وكان عمر – رضي الله عنه – يقول : « تعلّموا العلم ، وتعلّموا للعلم السكينة والحلم » .

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه .

ويقول : إن أول عوض الحليم من حلمه ، أن الناس أنصار له على الجاهل .

وكان معاوية – رضي الله عنه – يقول : « إني لآنفُ أن يكون في

الأرض جهلٌ لا يسعه حلمي ، وذنبٌ لا يسعه عفوي ، وحاجة لا يسعها جودي » .

وقال لابنه يزيد : « يا بني من عفا ساد ، ومن حَلُم عَظُم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب » .

ويقول – رضي الله عنه – : « لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوّة العلم » .

وقد كان الأحنف بن قيس مضرب المثل في الحلم ، ومثار العجب في العفو ، وسوّده قومه لوفرة حلمه ، وبديع عفوه ولطفه ، وكان يقول : ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث ، إن كان أعلى مني عرفت له فضله ، وإن كان مثلي تفضلت عليه ، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه .

إذا ما طاش حلمك عن عدوٍّ
وهان عليك هجران الصديق
فلست إذاً أخا عفوٍ وصفحٍ
ولا لأخٍ على عهدٍ وثيق
إذا زلّ الرفيقُ وأنت دوماً
بلا رفقٍ بقيت بلا رفيق

قال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – : ما قرن شيء إلى شيء أحسنُ من حلمٍ إلى علم ، ومن عفو إلى قدرة .

وسأل هارون الرشيد أعرابياً : بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال : بحلمه عن سفيهنا ، وعفوه عن مسيئنا ، وحلمه عن ضعيفنا ، لا

منانٌ إذا وهب ، ولا حقود إذا غضب ، رحب الجنان ، سمح البنان ، ماضي اللسان . فأشار الرشيد إلى كلب صيدٍ كان أمامه ، وقال : لو كانت هذه الصفات في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد .

وقد كان المأمون – رحمه الله – من أحب الناس للعفو ومن أوفرهم في الحلم ، يقول : لقد حبب إليّ العفو ، حتى إني أخاف أن لا أثاب عليه – أي أنه أصبح عادة مألوفة له – وكان يقول : لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها .

فـفي الحلم إتقانٌ وفي العفو هيبةٌ
وفي الصدق منجاة لمن كان صادقا
ومن يلتمس حسن الثناء بماله
يكن دائماً في حلبة المجد سابقا

قال الماوردي – رحمه الله – : « الحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب ، لما فيه من سلامة العرض ، وراحة الجسد ، واجتلاب الحمد » .

وقال أكثم بن صيفي – رحمه الله – : « دِعامةُ العقل الحلم ، وجماع الأمر الصبر » .

وقال عامر الشعبي – رحمه الله – : « زَيْن العلم حِلمُ أهله » .

وقال ابن حبّان – رحمه الله – : « الحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام ، وهو يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتثبت ، ومن يتَّصفْ به يكنْ عظيم الشأن ، رفيع المكان ، محمود الأجر ، مرضيّ الفعل ، ومن أجل نفاسته تسمى الله به فسمِّي حليماً » .

الحلم صفة جميلة ، وخُلَّة عظيمة ، ووفرة الحلم عنوان العلم ، وكثرة العفو زيادة في العمر . يجب على من ولي من أمر المسلمين شيئاً أن يكون رفيقاً بهم ، حليماً عليهم ، قال سبحانه : ﴿ **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، يقول ﷺ : « اللهم من ولي من أمر أمّتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به » [رواه مسلم].

يجب على المسلم أن يكون حليماً مع أقاربه متحمِّلاً لزللهم ، عفُوّاً عن أخطائهم ، قال رجل : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلُم عنهم ويجهلون عليّ ، فقال : « لئن كنتَ كما قلت فكأنما تسفّهم الْمَلّ - والملّ : الرماد الحار - ، ولا يزال معك من الله تعالى ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك » [رواه مسلم].

قال الشافعي - رحمه الله - :

يخاطبني السفيه بكل قبحٍ
فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهةً فأزيد حلماً
كعودٍ زاده الإحراق طيبا

يجب على العالم والداعي إلى الله تعالى ، أن يكون رفيقاً بمن يدعوهم ، لين الجانب ، واسع الصدر ، منشرح الخاطر ، بعيداً عن العنف ميالاً للطف ، متحملاً للأذى ، أسوة بالأنبياء ، وسيراً على منهج العظماء . فذاك أبو الأنبياء ، وإمام الحنفاء ، امتدحه تعالى بقوله : ﴿ **إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ [التوبة : ١١٤] ، وقال عنه : ﴿ **إن إبراهيم لحليم أواه منيب** ﴾ [هود : ٧٥] ، وحينما منّ عليه بإسماعيل بين أن من أعظم مزاياه ، وأجمل صفاته الحلم ، فقال تعالى عنه : ﴿ **رب هب لي من الصالحين** *

فبشرناه بغلام حليم﴾ [الصافات : ١٠٠] ، وهكذا كان ﷺ يعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويتجاوز عن المسيء ، ويصفح عن المذنب ، وقد قال ﷺ : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » [أخرجه أبو داود] .

وأخبر بقوله : إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي عليه مالا يعطي على العنف » [صحيح الجامع] ، فالعنف ممقوت حتى ولو كان في الدعوة إلى الله أو في الأمر بالمعروف ، فكيف به في غير ذلك . وقد يتعرض الداعية لشيء من العناد أو العنت أو الأذى أو عدم قبول النصح ، فيغضب ويزمجر ويشتط حتى يخرج عن الصواب وقد يفقد دينه ، ويخسر إيمانه .

يقول علي – رضي الله عنه – : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك .

لا يبلغ المجد أقوام وإن كَرُموا
حتى يذلُّوا وإن عَزُّوا لأقوام
ويُشتموا فترى الألوان مسفرة
لا صفح ذلٍّ ولكن صفح أحلام

وقال الحسن – رضي الله عنه –: اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم .

ألا إن حلم المرء أكرم نسبة
تسامى بها عند الفخار حليم
فيا رب هب لي منك حلماً فإنني
أرى الحلم لم يندم عليه كريم

وأخيراً قال ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هَيِّنٍ لين سهل » [رواه الترمذي] .

الصبر

قال تعالى : ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ [العصر] .

الصبر مطيّةٌ لا تكبو ، وصارم لا ينبو ، وحصن لا يهدم ، وَحَدٌّ لا يثلم ، الصبر أفضل عُدَّة على الشدة ، وأكرم وسيلة لنيل الفضيلة ، وأجمل أسلوب لطمأنينة القلوب ، الصبر حسن توفيق ، وأمارة سعادة ، ودليل رشادة ، وعنوان إيمان ، وأنموذج إذعان ، الصبر رضىً بالقدر ، وتحمل للبلاء ، وتسليم للجبار ، واستجابة لمقدر الأقدار .

الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب ، وحبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع .

والحادثات إذا أصابك بؤسها
فهو الذي أدراك كيف نعيمها

إذا ادْلهمّت الأمور ، واسودت الحياة ، وأظلمت الدنيا فالصبر ضياء! .

إذا عظم الجزع ، واشتد الخوف ، وهيمن القلق ، فالصبر جلاء! .

إذا انسدت المطالب ، وعظمت المصائب ، وكثرت الرزايا ، وزادت البلايا ، فالصبر دواء! .

إذا نزل المكروه ، وحل الأمر المخوف ، واحتيج لمصارعة الحتوف ، فالصبر التجاء! .

إذا أصبح الدين في غربة ، والإسلام في كربة ، وعمت المعاصي ، وهيمنت الشهوات ، وعظمت الشبهات ، فالصبر عزاء!.

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٣].

اعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، واليسر مع العسر. بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور ، وعند انسداد الفُرَج تبدو مطالع الفَرَج ، ومن يتصبر يصبره الله .

الصبر دليل على عظمة الإرادة ، وقوة العزيمة ﴿ **وَلَمَنْ صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ [الشورى : ٤٣] .

الصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش هو تجرع المرارة من غير تعبس ، والرضا بالمكتوب من دون تسخط ، هو البعد عن المخالفة ، والسكون عند تجرع الغصة ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر ، والوقوف مع البلاء بحسن الأدب ، وتعويد النفس الهجوم على المكاره . هو الاستعانة بالله ، وترك الشكوى ، وهو من آكد الدلائل على المحبة ، وأصدق البراهين على الإيمان ، فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ .

الصابرون تفتح لهم الأبواب ، ويوفون أجورهم بغير حساب ، ويعطون جزاءهم بأحسن أعمالهم ، قال جل وعلا ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ [النحل : ٩٦] ، زفت لهم البشارة فقيل لهم : ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾ ، وبشروا بقبول الأعمال الصالحة ، والحظوظ العظيمة ، فقيل عنهم : ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها**

إلا ذو حظ عظيم ﴾ [فصلت : ٣٥] .

الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب ، وتمام المنة ، ودخول الجنة .. يناله الصابرون ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ ، وكفى بالصبر شرفاً أنه اسم من أسماء الله جل وعلا، فمن أسمائه : « الصبور » ، وهو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام ، وقد ورد الصبر في القرآن الكريم في سياقات عديدة منها :

١ – الثناء على أهله ، قال تعالى : ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ [البقرة :١٧٧] .

٢ – الاستجابة لأمر الله تعالى بالصبر والاستعانة به ، ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة :١٥٣] .

٣ – الإخبار أن أهل الصبر مع أهل العزائم ، قال تعالى : ﴿ **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ [الشورى : ٤٣] .

٤ – يورث صاحبه الإمامة ، قال تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ..** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وقد قيل : الصبر لله غَناء ، وبالله بقاء ، وفي الله بلاء ، ومع الله وفاء وعن الله جفاء ؛ والصبر على الطلب عنوان الظفر ، وفي المحن عنوان الفرج .

الصبر منزلته رفيعة ، ودرجته عظيمة ، وعاقبته حسنة ، وأجره بغير حساب . إذا احتاجت الأمم قبلنا للصبر ، ولاذت بأبوابه ، وانطرحت على أعتابه ، وتعلقت بحباله ؛ فليس أحد اليوم أحوج من أمة الإسلام إلى الصبر . فقد حلّت بها الكوارث ، ونزلت بها المصائب ، وتآمر عليها

الأعداء ، وتكالب عليها الخصوم .

إذا كان المؤمن فيما مضى محتاجاً للصبر ، ومتعرضاً للفتن ، ومنغصاً بالمحن ، فليس أحد اليوم أحوج من المؤمن إلى الصبر . فما أعظم البلية ، وما أشد الكربة ، وما أصدق الغربة!! شهوات محدقة ، وشبهات مغرقة ، وفتن مُقْلقة ، ونوازل مفزعة ، وكوارث مذهلة . عَظُم البلاء ، واشتد العداء ، وكثرت الأدواء ، وخلع جلباب الحياء ، الصابر على الطاعة كالقابض على الجمر ، والملتزم بالدين كالفريسة بين الأسود الضارية ، كل يتحرش به ، كل يريد الانقضاض عليه ، كلّ يريد أن يمزق جسده ، ويقطع لحمه ، ويشرب دمه . وما من دولة تبدي توجهاً للدين ، أو احتراماً للمبدأ ، أو تطبيقاً للشرع ، إلا وانقض عليها الأعداء ، وحاربها الألداء ، وصوبت إليها السهام ، ورميت بالتهم العظام .

والصابر اليوم عن المعصية يتلظى بنار حامية ، وتعرض له في كل يوم داهية ، يهرب من المعصية فتلاحقه ، يتحصن في بيته فتتسلق جدران البيت وتدلف إليه ، يفر إلى البر يجدها أمامه ، يلوذ بالبحر فإذا بها تستقبله ، يحلّق في الجوّ فتقول له هيت لك . إن استنقذ منها نفسه عجز عن استنقاذ أبنائه وذويه .. فلا حول ولا قوة إلا بالله ولكن ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وإن الحديث عن الصبر يحتاج إلى خطب عديدة ، ووقفات كثيرة للحديث عن منزلته وأهميته وأجره ورفعة أهله ، وللحديث عن أعظم الصابرين على مر العصور ، وعلى رأسهم الأنبياء ، وللحديث عن أقسام الصبر وأنواعه وما قيل عنه . ولكن حديثنا اليوم عن جزئية واحدة ،

وقضية مهمة من قضايا الصبر ، ومواطن التحمل ، وهي الصبر على المصائب .

الصبر على ثلاثة أقسام : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية وصبر على المصائب والحوادث .

وحديثنا عن الصبر على الحوادث والمصائب .

في هذا الزمن كثرت الحوادث ، وعظمت الكوارث ، وتعددت المصائب . وأصبح الإنسان في وجلٍ لا ينقطع ، وخوف لا ينتهي ، فهو خائف يترقب لكثرة ما يرى من النوازل ، وما يسمع من الحوادث فيوم يرى أن فلاناً فجع في أهله وأبنائه ، ويومٌ يسمع أن فلاناً الذي في أحسن صحة وعافية ابتلي بمرض خبيث ، وبلاءٍ مجهز ، أو قطعت يده ، أو بترت قدمه ، ويومٌ يسمع أن ذلك الآمن في بيته المستتر بستر ربه قد عرّضه أبناؤه لكارثة عظيمة ، أو فضيحة كبيرة ، انتشر موت الفجاءة ، وتعددت الأمراض المفزعة ، وكثرت الخسائر الفادحة ، والنكبات المدمرة ، والأمراض التي لم تكن فيمن قبلنا . وإنني أذكر نفسي وإخواني بأهمية الصبر ، وعظمة الأجر ، فإن كلاً منا معرض لشيء من هذه الحوادث ، وتلك النوازل ، وقد تأتيه بغتة ، وتحل به فجأة ، وهو في غفلة ودعة ، وراحة وسرور ، فيفاجأ بالنبأ ، ويصعق للخبر ، ويتضجر من القدر ، فيخسر الدنيا والآخرة . فالمؤمن يرضى بالقضاء ، ويسلم بالقدر ، ويحتسب المصيبة ، ويدخر الفجيعة فإن من علامات السعادة للمؤمن الصبر على الملمات ، والرفق عند النوازل، والرضى عند الحوادث .

لا يملأ الهول صدري قبل وقعته
ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

مــــا سُــدّ لي مطلعٌ ضـــاقت ثنيـــتـــه
إلا وجـــدتُ وراء الضـــيق مُـــتـــســـعـــا

وقد جمع الله تعالى للصابرين أربعة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي: حسن البشارة والصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته لهم، فقال: ﴿ **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ [البقرة: ١٥٥].

يقول ﷺ: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ اللهمّ أْجرني في مصيبتي واخْلُف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها» [رواه مسلم].

فهنالك أمران مما يسلي المؤمن في مصيبته، ويعينه عند محنته:

الأول: أن يعرف أن أهله وماله ملك لله عز وجل على الحقيقة، وأنه ليس إلا أميناً على ما في يده، فإذا أخذه الله تعالى منه فكأنه رد الأمانة إلى صاحبها، فليس العبد هو الذي أوجد الشيء، وإن المالك الحقيقي لذلك هو الله عز وجل، وهو المتصرف في ما يريد.

الثاني: ما دام مصير العبد إلى الله فيجب عليه أن يعلم أن هذه الدنيا إنما هي رحلة قصيرة مهما طالت، وأنه سيتركها عاجلاً أو آجلاً، وأنه سيلقى ربه كما خلق أول مرة بلا أهل ولا مال، وإنما سيلقاه بحسناته وسيئاته، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يفرح بموجود، ويأمن لمفقود؟، وذلك ما يوحي به قوله تعالى: ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾.

إن الأمـــور إذا ســـدت مطالبـــهـــا
فـالصـبـر يفـتق منهـا كل مـا ارتتـجـا
لا تـيـــأسـن وإن طـالـت مـطـالـبـــة
إذا اسـتـعـنـت بصـبـرٍ أن تـرى فَـرَجَـا
أَخْلِق بذي الصـبـر أن يحظى بحـاجـتـه
ومـــدمن القـــرع للأبواب أن يـلجـــا

يقـول الله تعـالى : ﴿ **ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٥].

ويقـول ﷺ : « عجبـاً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » [رواه مسلم].

مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبرٍ ، فقال : « اتقي الله واصبري » فقالت : إليك عني فإنك لم تُصب بمصيبتي ولم تعرفه ، فقيل لها : إنه رسول الله ﷺ ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك ، فقال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » [رواه مسلم].

وفي الحديث القدسي يقول تعالى :« ما لعبدي المؤمن عندي جزاءً إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » [رواه البخاري].

ويقـول ﷺ : « مـا يصـيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزنٍ ولا أذىً ولا غمٍ حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » [رواه البخاري].

ويقول ﷺ : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله

بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » [رواه الشيخان].

ويقول ﷺ : « إن عظَم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » [رواه الترمذي].

فيامن بليت بمصيبة من مرض مزعج ، أو ألم مضنٍ ، أو فقد لقريب ، أو موت لحبيب ، عليك بالصبر فإنه مرضاة للرب ، مذهب للهم ، طارد للغم ، مُعْظِمٌ للأجر ، مُؤْذِنٌ بالعوض .

إن الذي عقد الذي انعقدت له
عُقد المكاره فيك يملكُ حلّها
صبراً فإن الصبر يُعقب راحةً
ولعلّها أن تنجلي ولعلها

ويقول ﷺ : « إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ومن جزع فله الجزع » [رواه أحمد].

ويقول ﷺ : « واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » [رواه أحمد].

واستمع إلى هذا الحديث الناصع ، والكلم الرائع ، منَ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى : « ما ينزل البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » [رواه الترمذي].

الصـــابـرون

كـان الحـديـث عن الصـبـر على المصائب ، والتـحـمل عند النوازل ، والتجلّد حين الكوارث . حيث ألقي الضوء على شيءٍ من معاني الصبر ، وبعض من ثمـراته ، وبينا أهميتـه وعظمـة الأجـر لمن صبـر واحـتـسب ، ورضي وشكر . ولعل من المناسب أن يتبع ذلك الحديث بما يقويه ، وذاك الإلماح بما يجليه ، نتبع القواعد بالتطبيق ، والنصوص بالتعليق ، والقضية بالأمثلة .

انتقل بكم اليوم إلى بستان الصابرين ، وحديقة الشاكرين ، ومنتجع المحتسبين ، لنشتم عبق الصبر الصادق ، ونتذوق حلاوة الرضا ولذة الاحتساب ، ونتفيأ ظلال الصبر ، ونقطف من ثمر الشكر . نعيش مع أخبار ثلة من المؤمنين ، وكوكبةٍ من الصابرين ، لأن في ذكرهم سلوة ، وفي قصصهم عبرة ، وفي أخبارهم عظة ، ومن رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته ، قال سبحانه : ﴿ **وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لأيات لكل صبار شكور** ﴾ [إبراهيم : ٥].

أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

لقد ابتلى الله تعالى أحبَّ الناس إليه ، وأكرمهم عليه ، وأقربهم عنده ؛ فتلك سنة جارية ، وطريقة ماضية ، لرفعة الدرجة ، وإعلاء المنزلة وتمحيص الحب ، وتصفية القصد ، وامتحان الولاء ، واختبار الوفاء لذلك

نزلت بأنبياء الله تعالى مصائب مفزعة، وكوارثُ مذهلة فما ازدادوا إلا صبراً ، وما أفعموا إلا يقيناً ، وما أعلنوا إلا رضا .

كم لقوا من العناء ، وكم واجهو من البلاء ، وتعرضوا للاستهزاء! كم فجعوا في حبيب ، وأصيبوا في قريب ، واتهموا في عرضٍ ، وجرحوا في كرامة!! فكانوا مثالاً في الصبر ، وآية في العزم ، وأنموذجاً في الإصرار ، وأعلاماً في التضحية ، وإن كان الأنبياء مروا بأنواع من البلاء ، وأعداد من المصائب ، وأشكال من النوازل ، فإن البلاء كلّه ، والامتحان أشدّه ، والنكال أعظمه ، والعناء أوجعهُ ، والعنت أشقّهُ ، تعرض له أكرم إنسان ، وأعز مخلوق ، وأطهر بشر ، وهو محمد ﷺ وقد أمره مولاه جل وعلا بالصبر في آيات كثيرة ، وبين له أن ذلك دأبُ المرسلين قبله ، فطمأن فؤاده بأخبارهم ، وقوى عزيمته بعرض سيرهم ، وقال سبحانه : ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

تفننوا في إيذائه ، وتمادوا في معاندته ، وهو صابر محتسب يلهج إلى السماء بقوله : « **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** » [رواه الشيخان] .

وما ازداد إلا قوة ويقيناً ، وصبراً وتضحية ، وعزماً وإصراراً . عبرت سفينةُ صبره بحور البلاء ، واقتحمت أمواج العناد ، وتحطمت على عزائم إصراره فلول الشرك ، وكتائب المكر ، وقلاع الجحود ، وحصون الباطل .

فوضت أمرك للديان مصطبراً
بصدق نفسٍ وعزم غير منثلم
ولى أبوك عن الدنيا ولم تره
وأنت مرتهن لا زلت في الرحم
وماتت الأم لما أن أنست بها
ولم تكن حين ولت بالغ الحلم

ومـــات جـــدك من بعــــد الولوع به
فكنت من بعـــدهم في ذروة اليـــتم
فـــجـــاء عـــمك حــصناً تســتكن به
فـــاخــــتـــاره الموت والأعـــداء في الأجم
ترمى وتؤذى بأصناف العـــذاب فـــمـــا
رئيت في ثوب جـــبـــار ومنتـــقم
حـــتى على كـــتـــفـــيك الطاهرين رمـــوا
ســلا الجـــزور بكف المشـــرك القـــزم
أمـــا خـــديجـــة من أعطتك بهـــجـــتـــهـــا
وألبـــســـــتك رداء العطف والكرم
عـــدت إلى جنة البـــاري ورحـــمـــتـــه
فـــأسلمـــتك لجـــرح غـــيـــر ملتـــئم
والقلب أفـــعـــم من حب لعـــائشـــة
مـــا أعظم الخطب فـــالعـــرض الشـــريف رمي
وشج وجـــهك ثم الجـــيش في أحـــد
يعـــود مـــا بين مـــقـــتـــول ومنهـــزم
لما رزقت بإبراهيم وامـــتـــلأت
به حـــيـــاتك بات الأمـــر كـــالعـــدم
ورغم تلك الرزايا والخطوب ومـــا
رأيت من لوعـــة كـــبـــرى ومن ألم
مـــا كنت تحـــمل إلا قلب مـــحـــتـــسب
في عـــزم مـــتـــقـــد في وجـــه مـــبـــتـــسم
بنيت بالصـــبـــر مـــجـــداً لا يماثله
مـــجـــد وغـــيـــرك عن نهج الرشـــاد عم

ومن تعرض للبلاء الشديد من أنبياء الله تعالى أيوب عليه السلام ، فقد ابتلي بضرٍ في جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرةٍ سليماً سوى قلبه . ولم يبق له من حال الدنيا شيءٌ يستعين به على مرضه وما هو فيه . غير أن زوجته حفظت ودَّه لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعةٍ طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقي في مزبلة من مزابل البلدة هذه السنوات كلها . وكان من يمر به يسد أنفه ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته –رضي الله عنها– فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا مساء إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدرُ المقدور ، وتمّ الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين ، وإله المرسلين ، وأرحم الراحمين فقال : ﴿**أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين**﴾ [الأنبياء] فعند ذلك استجاب له ، وقبل دعوته ، ولبّى نداءه فأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، ففعل ذلك ، فأنبع الله عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى ثم أمره فضرب الأرض في مكان أخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً وذلك كلُّه ثمرة الصبر ، ونتيجة الاحتساب ، وفائدة الرضى ، قال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربّه أني مسني الشيطان بنصب وعذابٍ اركض برجلك هذا مغتسل باردٌ وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبدُ إنه أواب**﴾ [ص : ٤١] .

سأل رجل الشافعيّ – رحمه الله – فقال : يا أبا عبد الله أيهما

أفضل للرَّجُل أن يمكن فيشكر الله عز وجل؟ ، أو يُبتلى الشر فيصبر؟ فقال الشافعي «لا يُمَكَّن حتى يُبتلى فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم ومحمداً – صلوات الله عليهم أجمعين – فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحدٌ أن يُخْلص من الألم البتة» .

ولقد سجل المسلمون على مرّ التاريخ أروع آيات الصبر ، وأسمى أحاديث الشكر ، فرأوا ما أعد الله للصابرين فاحتسبوا وصبروا . وتأملوا سنة المصطفى الأمين فاقتدوا وتأسّوا ، أرخوا سمعهم لنداء المولى فإذا به يقول : ﴿ **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

ونظروا إلى حديث المصطفى ﷺ فإذا به يقول : «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته ، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها» [رواه الشيخان] .

كتبت أسرة آل ياسر أعظم آيات الصبر ، واحتملت أشدَّ أنواع الأذى وأفدح البلاء فمات ياسر – رضي الله عنه وأرضاه – تحت العذاب وماتت سمية – رضي الله عنها – بطعنة فاجرة غادرة من أبي جهل ، ورُمي عبد الله فسقط ولم يبق منهم إلا عمار –رضي الله عنه– الذي واصل مسيرة الصبر وقصة الكفاح ، ورواية التضحية في خدمة الإسلام ، ولقد كان ﷺ يمر بآل ياسر وهم يُعذبون فيقول لهم : «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» .

وصبر بلال على ما لا يطاق ، وتحمل ما لا يحتمل ، وصبر خباب وابن مسعود ، وصبرت عائشة ، وأم سلمة ، وذات النطاقين ، وغيرهم من

أولئك الأفذاذ العظماء ، والأبطال النجباء الذين صبروا على كل ما أصابهم في سبيل الله وفي مرضاته ، رضي الله عنهم أجمعين وجمعنا بهم في جنات النعيم .

أيها الأحبة : هذا زمن كثرت فيه المصائب ، وَعَمّت فيه الحوادث وعظمت فيه الفواجع ، فيجب على المسلم إذا ابتلي بشيء من ذلك أن يقابله بالصبر ، ويتلقاه بالرضا ، ويستقبله بالتسليم ليكون ذلك أعظم في ميزانه ، وأرفع في درجته ، وأطيب لخاطره ، وأسكن لفؤاده، وأطيب لقلبه ، فلا تكون المصيبة مصيبتين ، مصيبة الحدث ومصيبة الجزع والتسخط ، فتضيع الدنيا والآخرة .

وذو الجهل يأمن أيامه ... وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدهته صروف الزمان ... ببعض مصائبه وَلْوَلا
ولو قَدّم الحزم في أمره ... لَعَلّمه الصبر عند البلا

يقول عمر – رضي الله عنه – : « وجدنا خير عيشنا الصبر » .

ويقول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : « الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » .

ويقول ابن تيمية – رحمه الله – : « ذكر الله تعالى في كتابه : الصبر الجميل ، والصفح الجميل ، والهجر الجميل ؛ الصبر الجميل هو : الذي لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو : الذي لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو : الذي لا أذى معه » .

كتب رجل إلى صديق له يعزيه في فقد ولدٍ له فقال : إن استطعت أن يكون شكرُك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه فذلك أعظم

فإنه حين قبضه أحرز لك هبته ، وحفظ لك أجره وادّخر لك ثوابه ، ولو سلم لم تسلم من فتنته . أرأيت حزنك على ذهابه وتلهفك لفراقه فهل رضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك؟! أما هو فقد خلص من الكدر ، وارتاح من الهم ، وبقيت أنت معلقاً بالخطر . واعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت ، وإنما هي واحدة إن صبرت ، فلا تجمع الأمرين على نفسك .

وعن الصبر على فقد الولد يقول ﷺ : «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي! فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع : فيقول الله : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد» [رواه الترمذي] .

وجاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ بصبيٍّ لها ، فقالت : يا نبي الله ادع الله له فلقد دفنتُ ثلاثة ، قال : «دفنت ثلاثة؟!!» قالت : نعم! ، قال : «لقد احتظرت – يعني احتمت – بحظارٍ شديد من النار» [رواه مسلم].

وكتب أحدهم إلى صديقٍ له يقول : المصائب حالّةٌ لا بد منها، فمنها ما يكون رحمة من الله ولطفاً بعبده ؛ وآية ذلك أن يوفقه للصبر ويلهمه الرضا ، ويبسط أمله فيما عنده من الثواب الآجل والخلف العاجل ، ومنها ما يكون سُخطاً وانتقاماً أوّله حزن ، وأوسطه قنوط ، وآخره ندامه ، وهي المصيبة حقاً الجامعة لخسران الدنيا والآخرة .

وهذا أحد المؤمنين الصابرين فقد أبناءه واحداً إثر الآخر فوقف قائلاً :

كأنهمُ لم يعرفِ الموتُ غَيْرَهُمْ
فَثُكْلٌ على ثكلٍ وقبر على قبر

وقــد كنت حيّ الخــوف قــبل وفــاتـهم
فلمــا تُوفُّــوا مــات خــوفي من الدهـر
فلله مـــا أعطى ولله مـــا جـــزى
وليس لأيام الرّزية كـــالصـــبـــر
فـحـسـبك منهم مـوحـشـاً فـقـدُ برِّهم
وحـسـبك منهم مُـسْلِيـاً طلب الأجـر

ابتلي عروة بن الزبير – رضي الله عنه – بداءٍ في رجله فقرر الأطباء بترها ، فقالوا له : اشرب المُرقِّد أو المخدر ، فقال : لا أشرب مرقداً أبداً إنما ابتلاني ليرى صبري ، أفأعارض أمره؟! ولكني إذا كنت في الصلاة لا أدري عن شيء . فلما قام يصلي قطعت رجله من نصف الساق فلم يتحرك ، فلما نظر عروة إلى رجله في الطِّست حين قطعت قال : اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى معصيةٍ قط . ولم يترك عروةُ وردَه من الليل تلك الليلة ، وفي الوقت نفسه مات أحب أولاده إليه ، ركضته بغلة فقتلته ، فما كان من عروة إلا أن رفع يديه قائلاً : اللهم كان لي بنونُ سبعة ، فأخذت منهم واحداً وأبقيت لي ستة ، وكان لي أطراف أربعة ، فأخذت مني طرفاً وأبقيت لي ثلاثة ، ولئن ابتليت فقد عافيت ، ولئن أخذت لقد أبقيت! . وكان الناس في غاية العجب من صبر عروة بن الزبير على هذا البلاء الذي حل به .

وجاء رجل إلى الوليد بن عبد الملك ، فإذا به ضريرٌ محطم الوجه ولكن ليس عليه شيء من علامات الجزع ، فسأله الوليد عن سبب ضُرِّه وتحطم وجهه ، فقال له : بت ليلةً في بطن وادٍ ، ولم يكن أحد من قريتي أكثر مني مالاً وعيالا ، فدهمنا سيل جرّار ، فأذهب ما كان لي من أهل

ومال وولد ، إلا صبياً رضيعاً وبعيراً صعباً ، فندّ البعير والصبي معي ، فوضعته واتبعت البعير لأحبسه وأمسك به ، فعدت لأنظر إلى الصبي فإذا برأس الذئب في بطنه قد أكله ، فتركته واتبعتُ البعير فاستدار ورمحني رمحةً حطم بها وجهي وأذهب عيني ، فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولدٍ ، فقال الوليد اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم بلاء منه .

فيا من بليت اصبر واحتسب ، واعلم أنه سيأتي يوم يتمنى فيه أناس أن أجسادهم قرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء . واعلم أن الصابر يوفى أجره بغير حساب ، واعلم أن البلاء ما يزال بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة .

الصَّبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقتُهُ
لكنْ عواقبه أحلى من العسل

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ .

الاحتساب

يمر الإنسان في حياته بتجارب عديدة ، ويتعرض لوقائع كثيرة ، وقائع متباينة ، وحوادث متغايرة ، ومعايش مختلفة ، ينطلق المرء في مسيرته الحياتية فيصادف متغيرات الحياة ، وتقلبات الأيام ، وتحوّلات الزمان . في بعض أيام عمره قد ينزل به البلاء ، ويتعرض للشقاء ، وفي بعضها قد يكن حليفاً للرخاء ، سميراً للهناء ، في بعض أيام عمره وساعات حياته يوفق لأنواع من الطاعة عظيمة ، وفنون من البر كريمة ، فالمرء في حياته يفرح ويحزن ، ويضحك ويبكي ، ويصح ويسقم ، ويسعد ويشقى ، ويغضب ويرضى ، ويفتقر ويغنى ، ويُعطى ويُمنع ، ويكرم ويُحرم ، والمسلم إضافة إلى إسلامه لربه والتزامه بدينه وإيمانه بقضائه وقدره يجب أن يتصف بصفة عظيمة وسمة حميدة في كل أطوار عمره ومتغيرات حياته ، تلك الصفة هي : **الاحتساب** .

وهي صفة غفل عنها كثير من الناس مع أنها صفة كمال ، وسمة جمال .

الاحتساب دليل على اليقين ، وإعلان للرضى ، وبيان للمحبة ، وبرهان على المودة ، يصفي الأعمال ، ويزكي الأقوال ، يضاعف الأجر ، ويُعظم القدر ، يطرد الرياء ، ويدفع الحزن ، ويجلب السرور ، وينير القلب ، ويطمئن الفؤاد ، ويسلي الخاطر ، ويفتح أبواب الأمل : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً**

وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ [الرعد : ٢٢] .

كثير من المسلمين يتعرضون لأنواع من البلاء ، وتمر بهم أيام من الشقاء ، فيتحملون ويصبرون ، وذلك أمر مشكور ، ولكنهم لم يعمروا أفئدتهم بجمال الاحتساب . كثير من المسلمين يوفقون إلى أعمال خيرة وأفعال نيّرة ، وذلك أمر محمود ، ولكنهم لا يضفون عليها روعة الاحتساب لدى العزيز الوهاب . كثير من المسئولين والموظفين محبون للخير ، مُيَسِّرون للأمور ، محبوبون لدى الناس ، وهي أمور حسنة ، ولكنهم يغفلون عن احتساب كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم حتى يعظم أجرها ، ويزكو برُّها . كثير من المعلمين والمربين يكدحون في أعمالهم ، ويتعبون في أدائهم ، ويعانون من تعليمهم ، ويفوتهم أن يروحوا عن أنفسهم ، ويشحذوا من عزائمهم بِتَذَكُّرِ ثواب الاحتساب .

الدعاة إلى الله سواءً في حال قبول دعوتهم والترحيب بتوجيههم أو في حالة الرد عليهم والرفض لكلامهم ، يجب أن يُشْرِبوا قلوبهم رحيق الاحتساب ، ويعمروا أنفسهم بجماله : **﴿يا قوم لا أسئلكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون﴾** [هود : ٥١] .

الاحتساب ديدن المؤمنين ، وسمة المتقين ، وبرهان الصادقين .

الاحتساب في البلاء والمصائب يكون بالصبر عليها والرضى بما قدّر الباري بنفس مطمئنة ، ويقين جازم .

والاحتساب في أعمال الطاعة ودروب الخير يكون بحسن القيام بها على الوجه الأكمل والأسلوب الأمثل ، طلباً للثواب وطمعاً في الأجر .

إن المؤمن **بالاحتساب** يجعل كل أوقاته عبادة ، وجميع عمره طاعة ،

وشتى أفعاله قُربة ، يقول أحد السلف : «إني لأحتسب على الله نومتي كما أحتسب قومتي» ، وهذه عبارة مشرفة وكلمة جميلة وموعظة جليلة فهو حتى في حال نومه يحتسب هذا النوم عند الله تعالى لأنه إنما نام ليريح جسمه ويقوي بدنه على طاعة ربه والسير في دربه ؛ فلولا الراحة والنوم لما استطاع أن يقوم ، فإذا قام الليل فهو محتسب ، وإذا نام فهو محتسب ، وقل مثل ذلك في الأكل والشرب والراحة والترويح ، بل في قضاء الشهوات في المباح ، فإذا أتى المرءُ زوجته واحتسب ذلك يكون له عليه أجر .

يقول ﷺ : «وفي بضع أحدكم صدقة» ، قالوا : يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» [مسلم ١٠٠٦] .

إن الأعمال لا قيمة لها من غير احتساب ، فالعمل جسم والاحتساب روح ، يقول ﷺ : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه» [مسلم : ١٠٠٢] .

ويشير ﷺ إلى أهمية الاحتساب وينبه على منزلته بقوله : «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة» .

ويحرص ﷺ على بث روح الاحتساب في نفوس أصحابه في كل عمل يعملونه فيقول : «من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يُصلى عليها ويُفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط» [البخاري : ٤٧] .

هذا هو الاحتساب في أعمال الطاعة ودروب الخير وطرق الإحسان ، أما الاحتساب في حال البلاء ، فيقول ﷺ : «إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض فصبر واحتسب وقال : ما أُمر به بثواب دون الجنة» [صحيح النسائي : ١٧٦٥] .

ويقصد بقوله : «ما أمر به» أي يمتثل قوله تعالى : ﴿**والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ .

وأرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابناً لي قد مات فأرسل يُقرئها السلام ويقول : «إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيءٍ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب» [صحيح النسائي : ١٧٦٢] .

وهكذا يقرن ﷺ الصبر بالاحتساب ، فلا قيمة للصبر من غير احتساب للأجر ؛ لأن غير المؤمن قد يصبر ويتحمل ولا يتبرم بما أصابه ولكن المؤمن يتزيد على غيره ويختلف عن سواه باحتساب الأجر عند الله تعالى : ﴿**إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيما**﴾ [النساء : ١٠٤] .

إن المؤمن لا يصيبه من همٍّ أو غمٍّ أو أذى حتى الشوكة يشاكها فيحتسب الأجر إلا كفَّر الله بذلك خطاياه ورفع درجاته وضاعف حسناته وعجباً لأمر المؤمن فأمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له .

يقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه : «أيها الناس احتسبوا أعمالكم فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته» .

فلو أن سائلاً يسأل فأعطاه رجلٌ مبلغاً من المال وهو في قرارة نفسه يحتسب هذا المبلغ عند الله تعالى ويدّخره لدى مولاه ، ثم أعطاه رجلٌ آخر مثل ذلك المبلغ دون أن يستشعر حقيقة الاحتساب فلا شك أن الأول أفضل وأكمل وأجمل ، ولو أن عدداً من الموظفين يؤدون عملاً واحداً إلا أن بعضهم محتسب أجره على الله ، والآخرون يعملون كالآلة الصمّاء دون استشعار واحتساب فإن أجر المحتسب أعظم ، وفعله أكرم .

هكذا أيها الأحبة يجب على كل مسئول وكل مدير وكل موظف وكل عامل وكل داعية وكل معلم وكل مربٍّ وكل زوج وكل زوجة ، يجب عليهم جميعاً أن يقرنوا أعمالهم باحتساب الأجر عند الله تعالى فإن الاحتساب يرتقي بالأعمال ، ويرفع الدرجات ، ويضاعف الحسنات ، من نزل به بلاء أو مرّ به شقاء أو تعرّض لعناء ، فلْيحتسبْ أجره على الله وليرضَ ما قدّره وقضاه ، وليكن من الذين قال تعالى عنهم : ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

اللهم اجعلنا من المحتسبين لأعمالهم ، المخلصين في أقوالهم وأفعالهم الموفقين في جميع أحوالهم ،،،

الشفاعة

قال تعالى : ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ [النساء:٨٥] .

وقال ﷺ : «اشفعوا تؤجروا» [متفق عليه] .

الشفاعة مبدأ رائد ، وخلق ماجد ، وفعل مأجور ، وعمل مبرور ، وسعي مشكور ، يُفَرَّج بها الهم ، ويُنفس بها الكرب ، ويُفكّ بها الأسير ويُحقن بها الدم ، ويُجلب بها المعروف ، ويُدفع بها الأذى .

الشفاعة تنم عن حسن الخلق ، وتنبىء عن كرم الأصل ، وتشهد بصفاء النفس ، وتترجم روعة الإنسانية ، وتعلن التنصُّل من الأنانية . هي الظل الذي يلجأ إليه المضطر ، والحمى الذي يأوي إليه الخائف ، والملاذ الذي يلوذ به الملهوف بعد الله عز وجل .

وقد جرت سنة الله تعالى في البشر أن رفع بعضهم فوق بعضٍ درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخريا : أي ليسخر بعضُهم بعضاً في الأعمال ، لاحتياج هذا إلى هذا ؛ فالأحوال متفاوتة ، والأرزاق متباينه والهبات مختلفة ، والمواهب متغايرة ، والحظوظ متنوعة . ولكن السعادة تكمل ، والغبطة تتم ، إذا ساد خُلق التعاون ، وفشت روح المودة ، وعظمت روابط المحبة ، وقامت سوق الأخوة ، وهبّت نسائم الرحمة ، وفاح عبير التعاطف . يرفق القوي بالضعيف ، ويجود الغني على الفقير ويعطف الكبير على الصغير .

وإن هذا الدين بروعته وسموه ، وجلاله وجماله ، وتمامه وكماله ، يقوم على أساسين ، ويعتمد على دعامتين ، وهما : حق الله ، وحق العباد ، فإن الله تعالى بفضله وكرمه وجوده وإحسانه ، ولطفه ورحمته ، وجلاله وعظمته لم يقصر هذا الدين على القيام بحقه جل وعلا فقط ، ولم يجعله لأداء حقوقه ليس إلا ، بل جعل من الدين القيام بحقوق المخلوقين ، ومثلما رتب الأجر وأجزل العطاء لمن أدى حقه وقام بواجبه ، رتَّب الأجر وأعظم العطاء وأسبغ الثواب لمن أدى حقوق عباده وأحسن إليهم وقام بواجبهم .

أوجب الإحسان معه تعالى بأن تعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وأوجب الإحسان إلى عباده بحسن الخلق ، وصدق التعامل ، وبذل النصيحة ، وتفريج الكربة ، وإعانة الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والرفق باليتيم ، واللطف مع السائل ، وإطعام الجائع ، وكسوة العاري ، وإرشاد التائه ، ورد السلام ، وتشميت العاطس ، واتباع الجنازة .. إلى غير ذلك من أخلاق الإسلام الرفيعة ، وآدابه العظيمة . وهذا الانسجام البديع ، والترابط القوي بين الأمر بحقه تعالى ، والأمر بحقوق عباده وترتيب الأجر وإسداء الثواب على هذا ، وذاك يبدو بروعته وجماله في كثير من الآيات وعدد غير قليل من الأحاديث ، انظر إلى قوله تعالى :

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

ذكر بعد ذلك صفات المتقين فلم يذكر أنهم الصوّام القوام العباد الزهاد ، وإن كانت تلك من أسمى صفاتهم ، ولكن قال تعالى :

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس

والله يحب المحسنين﴾ [آل عمران : ١٣٤].

وهذا كله إحسان إلى الخلق ، وقد قدمه على الإحسان مع الخالق جل وعلا ، ثم قال بعد ذلك :

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران : ١٣٥].

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » .

ويقول ﷺ في حديث يتجلى فيه ذلك الرابط القوي ، والمزج الرائع بين حقوق الخالق وحقوق المخلوقين ، يقول : « إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ، فمن كبر الله ، وحمد الله ، وهلّل الله وسبّح الله ، واستغفر الله ، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس ، أو أمر بمعروف أونهى عن منكر عدد الستين والثلاثمائة ، فإنه يمسي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار » [رواه مسلم].

وروى ابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال : « ليس من نفس ابن ادم إلا عليها صدقه في كل يوم طلعت فيه الشمس » ، قيل : يا رسول الله ، ومن أين لنا صدقة نتصدق بها؟ قال : « إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتميط الأذى من الطريق ، وتُسمع الأصم ، وتَهْدي الأعمى ، وتدل المستدل على حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك » .

إن من أعظم التوفيق للعبد أن يوفق مع القيام بحق الله تعالى إلى القيام بحقوق عباد الله ، من السعي في مصالحهم ، والإحسان إليهم، والرفق بهم ، وبذل المال ، وإسداء النصيحة ، والسعي بالشفاعة ، وتنفيس الكرب ، وتفريج الهم.

قال تعالى : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾ [النساء : ١١٤].

وإن هنالك أناساً اختصهم الله تعالى بقضاء حوائج عباده ، والسعي في مصالحهم ، وجعلهم للمعروف أهلاً ، وللإحسان مقصداً حببه إليهم وحببهم إليه ، مفاتيح للخير ، مغاليق للشر ، «إن لله أقواماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد ويقرها فيهم ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم فَحَوَّلَها إلى غيرهم» [صحيح الجامع] ، فتلك سُنَّة ماضية ، فمن لم تُنزع منه نُزعت منه بركتها ، وذهب عنه أجرها ، وثبت عليه وزرها . وكما أن للمال زكاة يزيد بها وينمو ، ويعظم ويزكو ، فإن للجاه زكاة أيضاً ، وربما كان أعظمَ نفعاً من المال ، والبخيل بجاهه أعظم من البخيل بماله ، والجاه نعمة عظمى ، وهبة كبرى تستحق الشكر ، وتستوجب الثناء لمسديها ومعطيها جل وعلا، ومن شُكْرِها بَذْلُها لعباد الله ابتغاء موعوده ، وطمعاً في أجره ، ورغبة في رضاه . والله تعالى كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، محسن يحب الإحسان ، وقد قيل لبعض الحكماء : أي شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الإله؟ قال : الإحسان إلى الناس ، ولله المثل الأعلى . وقال آخر : اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله، وأحسن والدولة لك ، يحسن لك والدولة عليك ، واجعل زمان رخائك عدةً لزمان بلائك .

في يوم القيامة ؛ يوم القارعة ، يوم الطامة ، يوم الصاخة ، يوم الحسرة يوم التغابن ، يوم الفزع ، يوم الزلزلة ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، يوم يبعثر ما في القبور ، ويحصل ما في الصدور ، يوم تدنو الشمس من العباد قدر ميل ، يوم تعظم الحسرة ، وتفيض العَبرة ، ويعظم الخوف ، ويزداد الجزع ، ويدلهم الخطب ، ويتطاول الهم ، ويشتد الكرب ، هنالك يفرج الهم ، وينفس الكرب لمن كان يفرج هموم المسلمين ، وينفس كربات المكروبين .

«من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج على مسلم كربة فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» [متفق عليه] ، فالجزاء من جنس العمل .

«إنما يرحم الله من عباده الرحماء» [متفق عليه].

وروي عنه ﷺ قوله : «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأتعب ما كانوا قط، فمن كسا لله عز وجل كساه الله ، ومن أطعم لله عز وجل أطعمه الله ، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ، ومن عفى لله عز وجل أعفاه الله» .

فمن أراد أن يفرّج الله همه ، وينفِّس كربه ، فليجتهد في تفريج هم

المهمومين ، وتنفيس كرب المكروبين . واعلموا أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة .

إن دروب الخير كثيرة ، وأنواع البر متعددة ، ومجالات الإحسان متنوعة ، ومن أعظم ذلك السعي في حوائج المسلمين ، والإحسان إلى المؤمنين ؛ من إطعام للجائع ، وكسوة للعاري ، وعيادة للمريض ، وتعليم للجاهل ، وإنظار للمعسر ، وإعانة للعاجز ، وإسعاف للمنقطع وكفالة لليتيم ، وتفريج للهم ، وتنفيس للكرب ، وشفاعة في الخير . ومن يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، وخير الناس أنفعهم للناس .

وقال ﷺ : «أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن المسلم سروراً ، أو تقضي له ديناً ، أو تطعمه خبزاً» [صحيح الجامع] .

فيجب على المسلم أن يسعى في حاجة إخوانه ، وأن يجتهد في نفع المحتاج ، ومساعدة الضعيف ، ومؤازرة الفقير ، وإغاثة الملهوف . ويجب على كل ذي منصب أو جاه أو قرار ، أن يؤدي حقه خير أداء، وأن يقوم ببذله في وجوهه المشروعة ، وأن يصدق في إعطاء كل ذي حق حقه - وافعلوا الخير لعلكم تفلحون - واشفعوا تؤجروا ، ولكن يجب أن نراعي في شفاعتنا ومساعدتنا عدة أمور منها :

١ - أن يكون ذلك ابتغاء مرضاة الله عز وجل حتى نؤجر عليه ، ولنعلم أن ما قصد به غير وجهه تعالى فهو مردود على صاحبه ، ويكون حسرة وندامة يوم القيامة .

٢ - أن تكون الشفاعة والواسطة في أمر مباح فمن شفع لإنسان في عمل

محرم فعليه وزره إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها** ﴾ [النساء : ٨٥].

٣ - أن لا تكون الشفاعة والواسطة على حساب الآخرين فتكون شفاعتك للإنسان حرماناً لغيره ممن قد يكون أحق منه .

٤ - أن تشفع لمن تعلم أحقيته بذلك الأمر ، وأن تكون ناصحاً له فإذا شفعت للإنسان وأنت تعلم عدم أهليته وسوء سلوكه ، فقد غششت به البلاد والعباد .

٥ - أن لا تكون الشفاعة فقط لصاحب الجاه أو صاحب المال أو القريب ، بل يجب أن يحظى الفقير والمنقطع والمحتاج والقريب بالشفاعة ، فهم أحق بها وأهلها وهي فيهم أعظم ، ولهم أولى .

٦ - أن لا يتبع الإنسان شفاعته ومعروفه بالمن والأذى ، فإن ذلك يفسد أجرها ويعكر صفوها .

٧ - أن لا يغضب الشافع ويعنف ويتهم إذا لم تقبل شفاعته ، فقد يحول دون قبولها أمور وأسباب يجهلها ﴿ **وما على المحسنين من سبيل** ﴾ .

اللهم اجعلنا مفاتيح للخير ، مغاليق للشر ، إنك جواد كريم ،،،

الهديَّـــة

هذا الدين بجماله وجلاله ، وشموله وكماله ، وروعته وبهائه ، وعظمته ونقائه ، يحمل في طياته كل معاني الرفعة والسمو ، والتألق والعلو ، عظيم في مبادئه ، قويم في تعامله ، جميل في أوامره ، يقوي أواصر المودة ، ويعمق روابط المحبة ، ويوطد دعائم الأخوة . هنالك أمور يسيرة ، وأعمال متواضعة ، وسلوكيات قد لا يؤْبَه لها ، دعا إليها الإسلام وحث عليها ، وأمر بها وأثاب ذويه بها ، فهي وإن كانت يسيرة إلا أنها مثيرة ، وإن بدت قليلة المبنى فهي عظيمة المعنى . لم يترك هذا الدين شاردة ولا واردة ، ولا صغيرة ولا كبيرة مما له أثر في التعامل ، وقيمة في الترابط ، ومنزلة في التلاحم إلا دعا إليه واهتم به .

ومن الأمور التي غفل عنها كثير من الناس – مع أهميتها – ، وجهلها فئام من البشر – مع ضرورتها – « الهدية » فالهدية تفعل في النفس فعل السحر ، وتذهب غوائل الصدر ، وتبعث على المحبة ، وتعمق المودة ، وتقوي الأخوة ، وتطرد البغضاء وتزيل الشحناء ؛ هي دليل على سخاء النفس ، وطيبة القلب ، وروعة الخلق ، ونقاء المعدن وحب الخير ، وإضمار المودة ؛ وتقوي الدعائم ، وتذهب السخائم .

والهدية جنس من أجناس العطايا ، ونوع من أنواع الهبات ، منها ما يكون لاستجلاب المودة ، وكسب المحبة ، ومنها ما يكون لاتقاء الشر ودفع الأذى ، ومنها ما يكون عن حب وإعجاب واحترام وإكبار منها ما

يكون للتزلف والتقرب . وأفضلها موقعاً ، وأحسنها أثراً ، وأعظمها أجراً ما كان عن نيَّة طيِّبة ، وروح خيِّرة ، ونفس مؤمنة ترجو من ورائها كسب رضى المولى جل وعلا ، ثم كسب الأجر وصلة الرحم وتعميق المودة ، وتدعيم المحبة ، وإدخال السرور على النفوس ، وإعمار القلوب بالبهجة ؛ يسترضي بها والداً ، ويستدر بها دعاء والدته ، ويستميل بها قلب الزوجة ، ويستعطف بها الأرحام ، ويستميل بها الأصدقاء ، وينال بها حسن الثناء ، ويقتدي فيها بسيد الأنبياء وإمام الأوفياء .

ورد ذكر الهدية في القرآن الكريم في موضع واحد وذلك في سورة النمل في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ ، قال تعالى :

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون * وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ [النمل : ٣٦] .

وقد وردت روايات كثيرة وأقوال متعددة في حقيقة تلك الهدية التي بعثت بها ملكة سبأ ، ولكن الذي يفهم من مجموع تلك الروايات أنها كانت هدية عظيمة ، قيل إنها بعثت بخمسمائة غلام وخمسمائة جارية وجعلت في سواعدهم أساور الذهب ، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب ، وفي آذانهم أقراطاً مرصَّعات بالجواهر ، وحملتهم على ألف دابة ، وبعثت معهم بخمسمائة لَبِنَة من ذهب ، وخمسمائة لبنة من فضة ، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت ، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود إلى آخر ما ذكر من أنواع الهدايا . وقالت لرسولها انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب واستعلاء فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره فإنا

أعز منه ، وإن رأيت الرجل بشّاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب .

وهكذا كانت على درجة من العقل والذكاء – رحمها الله – فهي تعرف ماللهدية من أثر في النفوس وتعلم حب البشر لذلك ، فأرادت أن تفتن هذا النبي بالهدية الثمينة لتتأكد ، هل هو ملك ممن يعجب بالمال ويفرح بالدنيا وتلهيه المباهج ، أم هو سيرفض ذلك كله وتأباه نفسه ويردعه مبدؤه؟ . فلم تَنْطَلِ تلك الحيلة على سليمان وغضب من صنيعهم ، وثار في وجوههم قائلاً ﴿ **أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم** ﴾ ما آتاني من الدين والهدى والإيمان وما آتاني من الملك والنعيم العظيم ﴿ **بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ هذه سمتكم أنتم أيها الملوك المهتمون بالدنيا ومباهجها ، أنتم الذين تفرحون بالدنيا وتسرون بمباهجها ﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ [النمل : ٣٧] .

وهكذا أصحاب المبادىء العظيمة والأسس القويمة ، لا يبيعون مبادءهم وشعوبهم وعقيدتهم وأوطانهم ، لا يبيعونها ويتخلون عنها مقابلٍ عطاءات مادية وإغراءات دنيوية ، تزيدهم ضعة إلى ضعتهم ، وهواناً إلى هوانهم . إن العظماء تزيدهم مثل هذه التصرفات الحمقاء تزيدهم قوة إلى قوتهم ، وصلابة إلى صلابتهم ، وذلك ما حدث من سليمان عليه السلام ، وما حدث من محمد ﷺ حين عرضت عليه قريش تتويجه بالملك ، وتزويجه بأحسن النساء ، وجعله أغناهم مالاً وأكثرهم ثروة . وذلك ما حدث من كعب بن مالك رضي الله عنه وأرضاه حين حاول النصارى إغراءَه وهو في فتنته بعد غزوة تبوك . وذلك

ما فعله السلطان عبد الحميد رحمه الله حين حاول اليهود إغراءه لأخذ جزء من فلسطين وذلك ديدن العظماء على مر العصور . أما زعماء الضَّلال ، وعظماء البهتان ، والخادعون للشعوب ، فإنهم يتخلون عن مبادئهم ، ويدوسون معتقداتهم ، ويبيعون شعوبهم وأراضيهم ليظفروا بلقمة من فتات الأعداء ، ووسخ من أوساخ الألداء .

ومما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **وإن حُيِّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ [النساء : ٨٦] ، فسرَّها بعضهم بالهدية ، والصحيح أن الآية تبقى على ظاهرها ، ولكنها في طياتها ترسي هذا المعنى العظيم وتؤكد هذا الخلق الكريم ، وهو أن الإنسان إذا أعطي شيئاً جميلاً ووهب أمراً محبوباً فمن الأولى والأجمل أن يرد بأحسن منه إن استطاع أو بمثله على الأقل .

أما عن السنة المطهرة فقد كان من أخلاقه ﷺ قبول الهدية والإثابة عليها كما روت عائشة – رضي الله عنها – حيث قالت : « كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها » [رواه البخاري] .

ولقد روي عنه ﷺ قوله : « تهادوا تحابوا » [أخرجه مالك] .

ويبين ﷺ أن قيمة الهدية هو في ما تحمله من معنى فهي رمز للمحبة ودليل على المودة ، وليست قيمتها بغلائها أو عظمتها ، فيقول ﷺ : « لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت » [رواه البخاري] .

وكان له ﷺ أصحابٌ من البادية فإذا جاؤوه حملوا إليه من هدايا البادية ، وإذا أرادوا الذهاب حملهم ﷺ من هدايا الحاضرة ، وهكذا كان ﷺ بقوله وفعله سبَّاقاً إلى أفعال البر ، مسارعاً إلى أعمال الخير . فالهدية

تجلب المحبة ، وتذهب الشحناء ، وتزيل السخيمة .

وما استرضي الغضبان ، ولا استعطف السلطان ، ولا سلبت السخائم ولا دفعت المغارم ، ولا استميل المحبوب ، ولا توخي المحذور بمثل الهديّة .

وقديماً قالوا : في نشر المهاداة تزول المعاداة ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

إن الهـــــــديـة حـلـوةٌ ... كـالسـحـر تجـتلب القلوبا
تدنـي البـغـيض من الهـوى ... حـتـى تصـيـره قـريـبـا
وتـعـيـد مـضطغن العـدا ... وة بعـد نفـرته حـبـيـبـا

ومما دفعني للحديث عن هذا الموضوع و هو غفلة كثير من الناس عنه مع ماله من الأثر وما يورثه من المحبة ، وينتجه من المودة ، ومن أولى الناس بذلك الأقرب فالأقرب ، وأهمهم جميعاً الوالدان .

فمن الذي قد جعل جزءاً من دخله ، وقليلاً من راتبه يشتري به هدية طيبة يدخل بها السرور على أبيه أو أمه ولو لم يكن ذلك إلا في المناسبات الرسمية والأعياد السنوية؟! . إنك تعجب من كثير من الناس الذين تمر بهم عشرات السنوات ولم يتذكر أحدهم والده أووالدته بهدية جميلة ، وعطية طيبة ، بل تجد الإنسان يصرف على زوجته وأبنائه أموالاً طائلة ثم ينسى والديه اللذين سَهِرا على راحته ، وتعبا في تربيته ، وضحيا بسعادتهما ليسعد ، وشقيا ليرتاح . إن المسألة سهلة يسيرة ليست مكلفة ولا متعبة ، لو أن الإنسان يجعل من راتبه في كل شهر مائة ريال فقط يخصصها للهدايا لوالده ووالدته ، وإخوانه وأخواته ، وخواص أقاربه لكفاهم ذلك ، لأن قيمة الهدية ليست بضخامتها ولا غلائها فهي رمز

للمحبة ودليل على المودة .

وقد تعود الناس أن يؤملوا في الإنسان الغائب الذي يقدم من سفر فقد تعارف الناس على أن المسافر لا بد أن يحمل معه الهدايا القيمة ولذلك يقولون : «من طول الغيبات جاء بالغنايم» ، وتقول العرب : إذا قدمت من سفر فاهد ولو حجر .

يقول أحد الشعراء :

وإذا المسافر آب مقلىً مفلساً
صفر اليدين من الذي رجّاه
وخلا من الشيء الذي يهديه للـ
إخوان عند لقائهم إياه
لم يفرحوا بقدومه وتثقلوا
بوروده وتكرهوا لقياه
وإذا أتاهم قادماً بهدية
كان السرور بقدر ما أهداه

فجميل من الإنسان إذا قدم من سفر أن يحمل معه شيئاً من الهدايا يفرح بها أبناءه ، ويسعد بها أصدقاءه ، ويستدر بها محبة أقربائه .

سلبيات الهدية :

١ - بعض الناس يقدم الرشوة ويغلفها بغلاف الهدية ، وهذا ملعون باذلها وملعون من قبلها .

٢ - من سلبيات الهدية «المنّة» ، فكثير من الناس إذا أهدى هدية مهما كانت ضعتها يبقى يمتن بها على مرور الأيام . ويروى أن رجلاً

أهدى لآخر دجاجة فجعلها حدثاً مهماً ، وتاريخاً بدلاً من التاريخ الهجري ، فكلما أراد أن يتكلم عن شيء أو يذكر حادثة قال : كان ذلك قبل أن أهدي لفلان الدجاجة ، أو فعلت ذلك بعد أن أهديت لفلان الدجاجــة !.

٣ ـ الرداءة : بعض الناس يكون مقتدراً على الهدايا الحسنة والهبات الطيبة ولكنه لا يختار في هديته إلا أردأ الأمور ، بل قد يعمد إلى أشياء عنده عفى عليها الزمن أو تعرضت للتلف فيجعلها هدية بدلاً من رميها ، وقد قال تعالى : ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ [آل عمران : ٩٢].

٤ ـ بعض الناس يتكلف الهدايا الباهظة ، والهبات الغالية ، ولكن ليهديها لبعض العظماء والوجهاء ليتقرب إليهم ، ويتزلف لنيل ثقتهم ، وأقرب الناس إليه لا يظفرون منه بشيء . ومن كانت هذه نيته فأجره يأخذه ممن أهدى إليه فقط ، أما عند الله تعالى فلا ، بل قد تكون حسرة وندامة يوم القيامة ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى .

الغيث

قال تعالى : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد** ﴾ [الشورى : ٢٨].

المطر رسول رحمة، وبشارة خير ، وبهجة قلوب ، وفرحة شعوب .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كلّ شيء حي أفلا يؤمنون** ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

الماءُ نعمة عظمى ، وهبة كبرى ، هو سر الحياة ، وأساس البقاء . الماء أغلى مفقود ، وأرخص موجود ، مع الماء الخضرةُ والندى ، والطل والرواء والظل والحياة ، ومع فقدانه الجفاف واليبس ، والخمود والموت . إذا عُدِم الماء زحفت جيوش المجاعة ، ودلفت كتائب القحط وأقبلت أسراب البؤس تذوي الثمار ، وتموت الأشجار ، وتحترق السنابل ، وتذوب الأكباد .

فإذا تدفق الماء ، وأقبلت أمواجه ، أقبل معه البشر والعطاء والنماء والرغد والهناء ، بالماء تقوم الحقول ، وتتكاثر الحبوب ، وتميس الحدائق ، وتهمهم الجداول ، وتتراقص الخمائل ، وتشدو البلابل ، وتتمايل السنابل .

الماء شريان نابض في قلب الأرض ، إذا تعطل ماتت المعمورة ، وفسدت الحياة ، وانطمس الوجود .

الماء نعمة من الله جليلة ، وهبة من الخالق جميلة ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** ﴾ [الواقعة : ٦٩] ، خَلْق الماء

عجيب ، ونبأه غريب ، صَوَّره ربُّه بلا لون ، وأوجده بلا طعم ، وأنزله بلا رائحة ، خفيف الروح ، بهي الطلعة .

إذا جرى طاب وتجدد شبابه ، وحسنت ثيابه ، وجملت طلعته . وإذا وقف تغيرت رائحته ، وذهبت لذته ، وشاه منظره ، فسفره أحسن من مقامه وارتحاله خير من حله ، يستبشر به أهل البادية ، ويتساءل عنه أهل الحاضرة ، إذا سكن ورضي مشى رويداً ، وأتى غدقاً ، متمتماً بحروف الهناء ، وممتزجاً ببشائر السرور ، وإذا غضب تفجر بصيحات الويل ، وصواعق الدمار ، وكوارث الغرق .

يأتي إلى أحبابه فيميس بين الزهور ، ويتجول في الحدائق ، كَيَد الطبيب على جفن المريض ، ويقبل إلى أعدائه فيزبد ويرعد ، ولا تمنعه السدود ، ولا ترده الحدود ، فيكسر الجسور ، ويقتلع الصخور ، ويدمر البيوت ، ويجعل عاليها سافلها حتى يأذن الله بسكونه ، ويأمر بهدوئه ، قال تعالى : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي** ﴾ [هود : ٤٤] ، فهو جندي من جنود الخالق.

من سيول يمجها الواديان
وثلوجٍ يذيبها العصران
ذو استواءٍ إذا جرى والتواءٍ
هل تأملت مزحف الأفعوان
فهو حيث استدار وقفُ لجين
وهو حيث استطار سيفُ يمان

إن مسته رحمة الله كان لطفاً وهناءً وبركة ، وإن مسه غضب الله كان دماراً وهلاكاً وسخطاً ونكداً ، قال تعالى : ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً**

فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ [الأعراف : ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السَّوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا** ﴾ [الفرقان : ٤٠] .

أيها الأحبة المؤمنون . . يرسل الله علينا الغيث ، ويحيي به الأرض بعد موتها ، فهل فكرنا في هذه النعمة فشكرناها حق الشكر وقدرناها حق التقدير؟ هذا الماء الذي نزل من السحاب من الذي رفعه في السماء؟ من الذي وضعه على الغبراء فساقه إلى من يشاء، ومنعه عمن يشاء؟ من الذي سطح بحاره وأجرى أنهاره وأطار بخاره وأحكم أسراره وأطواره ؟ ، هل تأملنا العظمة الإلهية ، والمعجزة الربانية في نزول المطر؟ يقول جل وعلا : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [الروم : ٢٤] .

فالعاقل يتدبر، والمؤمن يتذكر ، واللبيب يتفكر . لقد حدثنا القرآن عن أسرار المطر وأخباره، فسبق بذلك النظريات العلمية ، والأفكار الأوروبية والشرقية ، فقال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزّل من السماء من جبال فيها من بَرَد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾ [النور : ٤٣] .

يقول أحد علماء الفلك : « يجدر بنا أن نذكر هذه الآية ضمن المراجع العلمية ، لأنها أول ما عرفنا من حقائق تتعلق بتلك السحب ، ويجب أن نوضح لعلماء الغرب ممن درسوا موضوع السحب وبحثوه ، وبالغوا فيه ، حتى يتبين لهم السبقُ العلمي للقرآن . . » فانظر إلى قدرة الله تعالى التي تمسك بتلك الجبال العظيمة من السحب وهذه الأطنان

الهائلة الثقال دون عمدٍ نراها ، قال تعالى : ﴿**هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال**﴾ [الرعد : ١٢].

ويقول تعالى : ﴿**وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون**﴾ [الأعراف : ٥٧] ، انظر إلى جمال الآية وعذوبة ألفاظها ، وتناغم كلماتها ، وإشراق حروفها ، ثم انظر إلى العبرة والمثل والتشبيه في آخر الآية ﴿**كذلك نخرج الموتى**﴾ .

وقد ضرب الله تعالى مثلاً لإحياء الموتى وقضية البعث بالماء يرسله إلى الأرض الهامدة ، فيحييها من موات ، ويوجدها من عدم ﴿**فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير**﴾ [الروم : ٥٠].

ويقول تعالى مشيراً إلى هذه المسألة في آية أخرى : ﴿**اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون**﴾ [الحديد:١٧].

إن الله تعالى يسلط حرارة الشمس على المحيطات والبحار فتتبخر فيصعد إلى السماء ماءً عذباً زلالاً لا ملوحة فيه ، فسبحان الله العظيم ، يرفع ماء البحر بخاراً ولا يرفع معه الملح الممتزج به! ﴿**أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون**﴾ [الواقعة : ٦٩] – أجاجاً يعني : مالحاً لايطاق ولا يشرب – ومن حكمة الله أن هذا البخار المتصاعد في السماء لا يستمر في صعوده إلى القمر أو المريخ فيصب هناك وتحرم منه الأرض ، بل يتكثف في طبقات الجو العالية ، حيث درجة الحرارة منخفضة ، ويرفع في السماء لكي يبتعد عن مستوى الجبال لئلا تعوق انتقاله من بلد إلى بلد ، فبعد

أن يتكون السحاب الركامي ، ويتكثف ويتجمع ويصدر أمر الله إليه ، يهبط حيث يريد مولاه ، ويأمره خالقه ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين** ﴾ [الروم : ٤٨] .

ومن لطف الله تعالى بعباده أن ينزل عليهم هذا الغيث بقدر ، فلو سقطت جبال السحب الكثيفة الهائلة كما هي لهلك الناس .

هـذا الـذي أنـزل سـيـلاً في البـلـدْ
فـكـيـف لـو صُـب جـبـالاً مـن بـردْ
أنـزلـه رفـقـاً بـنـا قَـطّـارا
وبـعـضـه سـخـره أنـهـارا

ومن لطفه تعالى أنه إذا أنزل الماء لم يبق متجمعاً فوق الأرض فتصبح الأرض غير صالحة للسير عليها ، بل سلكه ينابيع في الأرض وحفظه في الآبار والعيون ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب** ﴾ [الزمر : ٢١] .

فهو تعالى يحفظ هذا الماء في صحون من الصخور الجوفية دون أن يغور ويعمق في الأرض ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ [الملك : ٣٠] .

اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً ، اللهم رحمتك بالعباد والبلاد يا أرحم الراحمين ،،،

الليـــــل

آيات الله سبحانه وتعالى كثيرة ، ودلائل عظمته عديدة ، وقد دعانا جل وعلا إلى التأمل في الكون وما فيه من عجائب ، والنفس وما فيها من غرائب ، دعانا إلى ذلك لأنه دليل على عظمته ، وشاهد على وحدانيته ، وإعلان بقدرته . ومن آياته العظمى الليل والنهار ، وحديثنا اليوم هو عن الليل .

الليل آية من آيات الله تعالى ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ [الإسراء : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ [يونس : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار** ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقد امتن المولى جل وعلا على عباده بآية الليل ، وأنه لم يجعله سرمداً ، فلو استمرت الحياة على ذلك النسق لما أطاق الناس الحياة ، ولما عرفوا عدد السنين والحساب ، ولما استمتعوا بروعة النهار ، وضياء الشمس ، ودفيء الصباح .

قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون** ﴾ [القصص : ٧٢].

وقال سبحانه : ﴿ **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ [يونس : ٦٧].

الليل حبيب المتيمين ، ومأوى المحبين ، وخلوة الطائعين ، وأنيس الراكعين والساجدين ، وميدان المتهجدين ؛ الليل إعلان الرهبة ، وعنوان السكون ، ومظنة الخشوع ؛ تكثر فيه الآهات ، تحلو فيه العبرات . الوصل لا يلذ إلا في الليل ، والهجر لا يلذع إلا في الليل ، والسرور لا يشع إلا في الليل ، والألم لا يضني إلا في الليل . الليل يفر إليه العاشق بمن يعشق ويخلو فيه المحب بمن يحب . يرخي الليل سدوله فيضم تحت ردائه متناقضات عجيبة ، فمن حزين يتأوه ، ومهموم يتألم ، ومحبٍّ مهجور يشكو طوله ، ومحبٍّ واصل يشكو قصره .

لا أسأل الله تغييراً لما فعلت
نامت وقد أسهرت عينيَّ عيناها
فالليل أطول شيء حين أفقدها
والليل أقصر شيء حين ألقاها

وعابد يتهجد يناجي ربه ، وفاجر يستتر بجرمه ، وغريب يبكي غربته ، ورفيق يأنس برفقته ، وشاعر يحبر قصائده ، وعالم يقلب دفاتره ، ومفكر يسجل خواطره . الليل بكى أناس من طوله ، وتبرموا بحلوله ، وتخيل بعضهم أن نجومه شدت بالحبال ، وربطت في الجبال، يقول امرؤ القيس :

فيا لك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شُدَّت بيذبل
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ولكن المسلم له مع الليل شأن عجيب ، والمؤمن له من الليل موقف غريب ؛ فهو يترقب قدومه ، وينتظر حلوله ليأنس فيه بلذة المناجاة ، وحلاوة المناداة .

المؤمن يحب الليل ؛ لأنه يقترب فيه من مولاه ، فيرجو ودَّه ورضاه يَصُفُّ فيه أقدامه ، ويشكو فيه آلامه ، ينثر في سكونه دموعه ، ويعلن توبته ورجوعه ؛ إذا نام الناس قام ، وإذا غفلوا أفاق . في الليل تزكو النفوس ، وترقّ القلوب ، وتجود العيون ، وتخشع الأبدان ، ويحلو القرآن وينزل الرحمن ، فهو حبيب المؤمن ، وأنيس الطائع ، وسلوة الخاشع . وقد جعل الله تعالى الليل ميداناً لتنافس الطائعين ، وبرهاناً لمحبة المحبين ، ودليلاً على صدق الموحدين .

فإن تَعَلُّم الإخلاص للمحبوب لا يكون إلا في الليل .

سيبدو لكم في مضمر القلب والحشا
سريرة حبٍّ يوم تبدو السرائر

والله تعالى الذي خلق الليل والنهار ، أعطى الليل ما لم يعط النهار ، وميزه بميزات ، وخصه بمناسبات ، لو لم يكن منها إلا أنه تعالى شرّفه بأن

جعله زمناً لنزوله تعالى إلى السماء الدنيا وكفى بها منقبة ، وحسبك بها محمدة .

يمر الصـبـا دومـاً بسـاكن ذي الغـضـا
ويصـدع قلبي أن يَهبّ هبـوبهـا
قـريبـة عـهـد بالحـبـيـب وإنما
هوى كلِّ نفس حيث حل حبيبها

وحينما أُسري بمحمد ﷺ في جوف الليل : ﴿ **سبحن الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ [الإسراء : ١] ، إنما كان ذلك إعلاناً بأن الليل هو زمن اتصال الفناء بالبقاء ، والضعف بالقوة ، والمخلوق بالخالق . وعلم بذلك أن الليل زمن العطاء ، والنماء ، والوفاء ، والرجاء والدعاء ، قال تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرءان الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا** ﴾ [الإسراء : ٧٩].

﴿ **ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً** ﴾ [الإنسان : ٢٦].

والليل كانت فيه بداية الوحي إلى موسى عليه السلام ، وبداية تكليم الله تعالى ﴿ **وهل أتاك حديث موسى * إذ رءا ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودي ياموسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوة لذكري** ﴾ [طه : ١٣].

يا حـار إن الركب قـد حـاروا
فـاذهب تحـسس لمن النار

تبدو وتخبو إن خبت وَقّفوا
وإن أضاءت لهمُ ساروا

والليل جعله الله زمناً لنجاة أنبيائه من أعدائهم حينما أراد إهلاكهم فقال لموسى ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون * فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون * واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون** ﴾ [الدخان:٢٣].

وقال للوط عليه السلام حينما أراد الله تعالى إهلاك قومه : ﴿ **قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾ [هود : ٨١].

﴿ **فلما جاء ءال لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون *وأتيناك بالحق وإنا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون** ﴾ [الحجر : ٦٥].

والليل فيه أنزل القرآن ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ [القدر : ١].

﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة** ﴾ [الدخان : ٣].

والقرآن الكريم في أغلب آياته يقرن الليل بالنهار . وقد ورد النهار مفرداً في أقل من خمس آيات ، ولكن الليل ورد ذكره مفرداً فيما يقارب أربعين موضعاً ، مما يدل على زيادة شرفه وفضله ، والله أقسم بالنهار مرتين ، وبالليل زهاء سبع مرات .

والحديث مع الليل طويل وطويل ، وجميل وجميل ، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق . وقبل أن نودِّع الليل بسكونه الرهيب ،

وظلامه الحالك ، وهيبته العظيمة ، دعني أخي المسلم أنتهز هذه الفرصة فأذكر نفسي وإياك ببعض الآيات والأحاديث العظيمة التي تدل على شرف الليل وأهميته ، وعظمة الأجر لمن عمره بذكر الله ، وصلى فيه طاعة لمولاه .

قال تعالى : ﴿ **أمن هو قانت ءاناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ [ق : ٤٠] .

وقال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [السجدة : ١٦] .

يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال تعالى عن المؤمنين المتقين : ﴿ **إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ [الذاريات : ١٨] .

قال الرازي : في الآية إشارة إلى أنهم كانو يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ، فيستغفرون عن التقصير . وهذه سيرة الكريم ، يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر عن التقصير ، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به .

قال القشيري : « ينزلون أنفسهم في الأسحار منزلة العاصين، فيستغفرون استصغاراً لقدرهم واستحقاراً لفعلهم » .

أما الأحاديث فهي العجب العجاب ومنها :

* « ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه ، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر » [رواه مسلم] .

* « أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن » [رواه الترمذي]

وإليك هذا الحديث الرائع ، الماتع ، العجيب ، الغريب ، الرهيب :

* « ثلاثة يحبهم الله ، ويضحك إليهم ، ويستبشر بهم :

الذي إذا انكشفت فئةٌ قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإمَّا أن يُقْتل وإما أن ينصره الله ويكفيه ، فيقول الله تعالى : انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه .

والذي له امرأة حسنة وفراشٌ لين حسن ، فيقوم من الليل ، فيقول الله تعالى : يذر شهوته ويذكرني ، ولو شاء رقد .

والذي إذا كان في سفر ، وكان معه ركب فسهروا ، ثم هجعوا ، فقام من السحر في ضراء وسراء » [صحيح الترغيب والترهيب] .

وقال ﷺ : « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعاً كتبا ليلة إذٍ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » [رواه أبو داود] .

ويقول ﷺ : «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد» [رواه الترمذي].

في مؤتمر أطباء المسلمين الذي عقد بالقاهرة قُدّم بحث عن صلاة التراويح وأثرها على مرونة العمود الفقري والكفاءة الوظيفية للقلب بعد سن الستين ، أجري البحث على عينة من ستين رجلاً وامرأةً ، وأظهرت الدراسة أن هناك فروقاً كبيرة بين المصلين لصلاة التراويح وغير المصلين ، في درجة مرونة العمود الفقري ، وكذلك في الكفاءة الوظيفية للقلب ، نسأل الله تعالى أن يعمر أيامنا ولياليننا بطاعته ، وأن يمنّ علينا بغفرانه ، إنه سميع مجيب ،،،

العظمـــاء والليـــل

قال تعالى : ﴿ **أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

والمراد بالذين يعلمون ، العاملون من العلماء ، وكأنه جعل من لا يعمل غير عالم . وفي الآية إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم .

يقول أحد المفسرين : وإنما كان المطيع هو العالم ، لأن العلم هو الذي رسخ في القلب ، وتأصل بعروقه في النفس ، بحيث لا يمكّن صاحبه من مخالفته ، بل مزج باللحم والدم ، فظهر أثره على الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه . وأما المرتسم في حيز التخيل بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه ، فليس بعلم إنما هو أمر تصوري وتخيلٌ عارض لا يلبث أن يزول سريعاً لا يغذي القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع .

فالعلم الحق هو المعرفة ، وإدراك الحق هو : تفتح البصيرة ، وهو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود ، وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن ، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس . أما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعو معلومات ، وليسوا بعلماء .

بعد هذه اللمحة اليسيرة ، والتعريجة السريعة على هذه الآية ، نقف لنتأمل سير بعض العظماء الذين كان لهم مع الليل شأن عظيم . عشقوا الليل وعشقهم الليل ، عمروا الليل فعمر قلوبهم ، وأحبوا الليل فأحيا جذوة الإيمان في نفوسهم .

يجب أن تعرف أن الذين عرفوا لليل أهميته ، وللتهجد قيمته ، فقاموا حتى تورمت أقدامهم ، وشحبت ألوانهم ، هم في الوقت نفسه الذين عمروا النهار بالجهاد والبذل والتضحية ، هم أنفسهم الذين دوّخوا الباطل وزلزلوا الظلم ودمّروا الوثنية .

مضوا يحفرون بدمع القيام
وبذل الدماء طريق الإياب
قومٌ إذا جن الظلام عليهمُ
باتوا هنالك سُجدا وقياما
خُمْص البطون من التعفف ضُمّرا
لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وإن المصطفى ﷺ الذي غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قام حتى تورمت قدماه .

تقول عائشة رضي الله عنها وأرضاها : جاء ﷺ ليلة من الليالي فقال : « يا عائشة ذريني أتعبد لربي » ، قالت : قلت ، والله إني لأحب قربك ، وأحب ما يسرك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض ، وجاء بلال يؤذن بالصلاة ، فلما رآه يبكي قال : يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال : « أفلا أكون عبداً شكورا ،

لقد نزلت عليّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** .. ﴾ [آل عمران : ١٩٠] » .

لما أتتك قم الليل استجبت لها
العين تغفو وأما القلب لم ينم
تمسي تناجي الذي أولاك نعمته
حتى تغلغلت الأورام في القدم
أزيز صدرك في جوف الظلام سرى
ودمع عينك مثل الهاطل العمم
الليل تسهره بالوحي تعمره
وشيَّبتك بهودٍ آية استقم

يقول حذيفةُ بن اليمان – رضي الله عنه – صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فافتتح بالبقرة ، فقلت يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول « سبحان ربي العظيم » فكان ركوعه نحواً من قيامه ثم قال : « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد » ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال : « سبحان ربي الأعلى » فكان سجوده قريباً من قيامه » [رواه مسلم].

ويقول ابن مسعود – رضي الله عنه – صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء ، قيل : وما هممت به ، قال : هممت أن أجلس وأدعه . [متفق عليه].

ولقد قام ﷺ بآية واحدة حتى أصبح ، وهي قوله تعالى : ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ [المائدة:١١٨] ، على لسان عيسى عليه السلام بعد قوله تعالى : ﴿**قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم**﴾ [المائدة:١١٩] .

وهذا أبو بكر – الرجل البكاء الأسيف كان إذا صلى بالناس لا تكاد تسمع قراءته من كثرة بكائه .

وعمر – ماذا نقول عن عمر؟! – قيل له ألا تنام يا أمير المؤمنين ، فقال : وكيف أنام؟! إن نمت بالنهار ضيَّعتُ رعيتي ، وإن نمت بالليل ضيَّعتُ حظي مع الله .

كان يصلي بالناس العشاء فيدخل إلى بيته فلا يزال يصلي حتى الفجر في كثير من لياليه .

وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وصفه أحد أصحابه بقوله : يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين فكأنني أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا – ثم يقول للدنيا – إليّ تغررت إليّ تشوفت؟! هيهات هيهات ، غُرِّي غيري ، قد بَتَتُّك ثلاثاً ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك يسير ، آهـ آهـ من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

وهذا أبو هريرة كان يقسم الليل أثلاثا ، ثلثاً له ، وثلثاً لزوجه ، وثلثاً لخادمه .

وهذا عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك : إني أعلم أنه قد يكون من الناس من هو أكثر صلاةً وصوماً من عمر ، فأما أن أكون رأيت رجلاً أشد فرقاً وخوفاً من ربه عز وجل من عمر فإني لم أره ، كان إذا صلى العشاء الآخرة ألقى بنفسه في مسجده فيدعو ويبكي حتى تغلبه عينه ، ثم ينتبه فيدعو ويبكي حتى تغلبه عينه فهو كذلك حتى يصبح .

وبكت فاطمة في ليلة من الليالي حتى كاد يذهب بصرها ، فسئلت عن ذلك ، فأخبرتهم عن ليلة من ليالي عمر التي كلما تذكرتها بكت بكاءً شديداً .

تقول : « أتيته ذات ليلة فوجدته قائماً يصلي ، فأتى على هذه الآية ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ [القارعة : ٤] ، فصاح (واسوء صباحاه!) ثم وثب فسقط فجعل يخور مني ويبكي ، فظننت أن نفسه ستخرج ، ثم إنه هدأ ، فظننت أنه قد مات ، ثم أفاق إفاقة فنادى (واسوء صباحاه) ثم وثب فجعل يجول في الدار ويقول : « يا ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ، قالت : فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر ، ثم سقط كأنه ميت ، حتى أتاه الأذان للصلاة ، فوالله ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتني عيناي فلم أملك رد عبرتي .

وكان ابن سيرين رحمه الله يتحدث بالنهار ويضحك ، فإذا جاء الليل أخذ في البكاء والعويل .

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا
لي الليل هزتني إليك المضاجع

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعني والهم بالليل جامع

وكانت إحدى العابدات لا تنام من الليل إلا يسيراً ، فعوتبت في ذلك ، فقالت : كفى بطول الرقدة في القبور رقاداً .

أيها العُذَّال لا تعذلوا   إنما العذل لمن يقبل
وأرى ليليَ لا ينقضي   طال ليلي والهوى أطول

قالت أم محمد بن المنكدر : يا بنيّ أشتهي أن أراك نائماً ! فقال : يا أماه إن الليل لَيَردُ عليَّ فيهولني ، فينقضي عني وما قضيتُ منه مأربي .

وَصَاحَبَ رجلٌ رجلاً شهرين فما رآه نائماً ، فقال : مالك لا تنام؟ فقال : إن عجائب القرآن أَطَرْنَ نومي ، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعتُ في أخرى .

وهذا الرَّبيع بن خُثَيم قام ليلة حتى أصبح بآية يرددها ويبكي بكاءً شديداً ، وهي قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم** .. ﴾ [الجاثية : ٢١] .

يقول سفيان الثوري – رحمه الله – : إن لله ريحاً تسمى الصباحية ، مخزونة تحت العرش ، تهبّ عند الأسحار فتحمل الأنين والاستغفار . وقد كان سفيان هذا إذا أراد أن ينام يتقلب كما تتقلب الحبة في المقلى ، فإذا ما غفا قليلاً قام يصيح مذعوراً : النار النار شغلني ذكر النار عن النوم .

قال ابن الجوزي : قلب المحبّ تحت فحمة الليل جمرةٌ كلما هبّ النسيم التهبتْ . ومن صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ؛ قُوَّام الليل قطعت نياق جدِّهم بادية الليل ولم تجد مس التعب ، فالطريق إلى المحبوب يطول .

بدا لها من بعد ما بدا لها
روض الحمى أن تشتكي كلالها
أذكرها مرُّ النسيم سحراً
مراتعاً تفيأتْ ظلالها
تحسبها سكرى وما ذاك بها
وإنما شوق الحمى أمالها

قال علي بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر .

أخي المؤمن لا يفتْكَ حظك من الليل ، ولا تغفل عن عطاء العلي الجليل ، فإن أمامك يومٌ ثقيلٌ ، وخطبٌ جليلٌ ، واعلم أن ناشئة الليل هي أشدُّ وطئاً وأقوم قيلا ، فاذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا .

يا أيها الراقد كم ترقدُ
قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل وساعاته
حظاً إذا ما هجع الراقدُ

أيها الأحبة انظروا إلى هذه المفارقة العجيبة ، والمباينة الغربية بينهم وبيننا ، سهروا وسهرنا ، فربحوا وخسرنا ، وقووا وضعفنا ، وعزّوا وذللنا . سهروا طاعةً لله ، وسهرنا على معصية الله ، سهروا يراوحون بين جباههم وأقدامهم ركعاً وسجدا وقياما ، وسهرنا نراوح بين أصابعنا وأعيننا على أجهزة « الريموت » نطارد القنوات ، ونلتقط التفاهات ، ونبحث عن أرذل المحطات . أولئك كادت تعمى أبصارهم بكاءً من خشية الله ، ونحن كادت تعمى أبصارنا من الشاشات والقنوات .

أولئك بعضهم يحيي الليل إلى الصبح ، ويقطعون ظلمته بالآيات ،

ومنا من يحييه إلى الصبح بل إلى الظهر ، ولكن يقضيه بمطاردة الفقرات وملاحقة القنوات ، والجري وراء السمرات . جلبوا الملائكة لبيوتهم فهربت الشياطين ، وجلبنا الشياطين لبيوتنا فهربت الملائكة . نهارهم جهاد ، وليلهم عباد ، ونهارنا رقاد وليلنا فساد - إلا من رحم الله - فلا حول ولا قوة إلا برب العباد .

بيارق العار باتت تفضح العربا
على منازلهم تستمطر الغضبا
على منازلهم كالجن شاخصة
إلى السماء تبث العار والعطبا
كانت أكُفّ التقي لله ضارعة
تدعو وترجو وكان الدمع منسكبا
واليوم نرفع أفواه الدشوش له
وننثني نلثم الفحشاء والصخبا

النهـــــار

النهار آية من آيات الله تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا** ﴾ [الإسراء: ١٢].

وكما أن الليل سكن ولباس فإن النهار بذلٌ وعمل وتضحية وتعب ونصب وكدح وعدوة وجهاد : ﴿ **وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا** ﴾ [الفرقان : ٤٧] وإذا كان الليل مجالاً لحركة العواطف والمشاعر ، فإن النهار ميدان لحركة الجسم والجوارح .

وإن أولئك العظماء الذين ذكرنا طرفاً من سيرهم وعظمتهم ومواقفهم من الليل حيث كانوا يعمرونه بالطاعة ، ويحيونه بالعبادة هم أنفسهم الذين سجلوا على صفحات الأيام بطولات عظيمةً ، وأمجاداً كريمة ، وأحداثاً هائلة ، ومواقفَ مشرقة ؛ فكم من يوم أضاؤوا فجره بفتح مبين ، ونصر مكين ، وعزٍّ متين . وكم من يوم لمع ضوؤه وهم مبتهلون إلى الله منطرحون بين يديه ، قد هيؤوا أنفسهم وأعدوا عدتهم لإعلانٍ لجهاد ، وفتحٍ لبلاد ، وقمعٍ لفساد ، ونشرٍ لإسلام ، ونصرةٍ لدين ، وبثٍ لعقيدة ، ورحلةٍ لعبادة ، وسياحةٍ في طاعة . وكم من يوم سطعت شمسه وأحدهم قد تقلَّد سيفه ، وسدَّد رمحه ، وركب فرسه منطلقاً في سبيل الله ، ساعياً لنيل رضاه ، ومتمنياً لحسن لقاه . وكم من يوم اشتدت حرارته ، والتهبت أرضه ، وعظُم عطشه وبعضهم يمشي بأقدامه الحافية وثيابه

البالية ليقود جيشاً أو ينصر مظلوماً أو يرفع ضيماً أو يطلب علماً ، أو يبث نصحاً أو يلتمس رزقاً .

لقد باهت الأيام بأولئك العظماء ، واستبشر النهار بأولئك الأبرار لقد توّج أسلافنا هامة التاريخ بتاج العظمة ، لباس العزة وشعار الكرامة ، وكتبوا على جبين الدهر نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله ، وكحلوا أعين الدنيا بروعة الحضارة وحسن العدل وجمال المعاملة .

أيها الأحبة .. وكما أن الليل اشتهر بعدّة ليال فيه لها أهميتها وعظمتها ، و أضيئت ظلمته بنور أحداث ماتعة ومواقف رائعة ، فإن النهار يباهي بأيام عظيمة ، وتذكر فيه مواقفٌ جسيمة ، وإن هنالك أياماً صارت أعلاماً ، وكم من نهار يفاخر بتذكار منذ الجاهلية ، كان هنالك أيام منها : يوم ذي قار ، ومنها يوم الفيل . ثم جاء الإسلام وأتى خير الأنام ، فأشرقت بنور الليالي والأيام ، فهناك يوم بدر ، ويومُ حنين ، ويوم الفتح ، إلى تلك السلسلة المباركة .

وإن في دين الإسلام أياماً مهمة وعظيمة لها شأنها وميدانها وعظمتها وأهميتها ، ومنها يوم الجمعة وهو خير يومٍ طلعت عليه الشمس ، يقول ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة » [رواه مسلم: ٨٥٤ ، كتاب الجمعة] .

ومن ميزاته أن فيه ساعة تستجاب فيها الدعوة ، وأن من توضأ وأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومن ميزاته الإكثار فيه من الصلاة والسلام على

رسول الله ﷺ .

ومن الأيام المهمة في ديننا يوم عرفة ، وصومه يكفّر السنة الماضية والباقية .

ومن الأيام المهمة يوم عاشوراء ، وصومه يكفّر السنة الماضية .

ومنها يوم الإثنين ، سئل ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال : « ذلك يومٌ ولدت فيه ويومٌ بعثت – أو أنزل عليّ – فيه » [مسلم : ١١٦١] .

ومنها يوم الخميس الذي تعرض فيه الأعمال .

أيها الأحبة هذه أيام عظيمة ، وهي أيام محبوبة إلى النفس ، قريبة من القلب ، يفرح بها المؤمن ، ويؤمل أن يجني فيها خيراً ، ويستبشر بقدومها ، ولكن هنالك يوماً عبوساً قمطريرا ، يرجف له الفؤاد ، وتهتز له النفس ، وترتعد له الفرائص ، كل هذه الأيام إنما هي مطايا إليه ومراحل للسير نحوه ، يوم ليس كأيامنا ، فطوله خمسين ألف سنة ، وحرارته أشد مما هي عليه في الدنيا بأضعاف كثيرة ؛ إذ تدنو الشمس من العباد فيه قدر ميل ، إنه يوم الدين ، إنه يوم تقوم الساعة ، مهما تعبت في أيام الدنيا وكدحت وعانيت وقاسيت فذلك كله لا يساوي شيئاً مقابل ذلك اليوم وهوله وفزعه وخوفه ، ذلك اليوم لعظمته وفظاعته تعددت أسماؤه ، وكثرت أوصافه ، وقد أحصى بعض العلماء له خمسين اسماً ، ومن أسمائه :

يوم القيامة ، واليوم الآخر ، ويوم الساعة ، ويوم البعث ، ويوم الخروج ويوم القارعة ، ويوم الفصل ، ويوم الدين ، ويوم الصافة ، ويوم الطامة الكبرى ، ويوم الحسرة ، ويوم الغاشية ، ويوم الخلود ، ويوم الحساب ،

ويوم الواقعة ، ويوم الوعيد ، ويوم الآزفة ، ويوم الجمع ويوم الحاقة ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ، ويوم التغابن ، ويوم العرض.

ومن أوصافه أنه يوم عسير ، ويوم عظيم ، ويوم مشهود ، ويوم عبوس قمطرير .

وقد ورد ذكره في القرآن مئات المرات :

قال تعالى : ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ [البقرة : ٤٨].

وقال تعالى : ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [آل عمران : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا﴾ [النساء : ٨٧] .

وقال تعالى : ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد * فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد * وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ [هود : ١٠٣ – ١٠٨]

وقال تعالى : ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون * إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ [إبراهيم : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾ [إبراهيم : ٤٧ – ٥١] .

يوم التغابن

أيها الأحبة نواصل حديثنا عن يوم القيامة ، ذلك اليوم الرهيب والموقف العصيب ، فالقلوب قاسية ، والأنفس لاهية ، والأذهان شارده ، خيّمت على قلوبنا وعقولنا هذه الحياة الدنيا ببهرجها الكاذب ، وبريقها الخادع ، ونعيمها الزائل ، وجمالها الزائف حتى نسينا أن هناك يوماً عبوساً قمطريراً بانتظارنا ، وموقفاً هائلاً عظيماً يترقبنا ، فلو تذكرناه لعملنا للنجاة من هوله ، والأمن من خوفه ، ولكننا نسيناه فنسينا أنفسنا وأهملناه فأهملنا قلوبنا وإيماننا .

الحديث مع هذا اليوم طويل وطويل ، وعظيم وعظيم ، ولكن لنذكر أنفسنا بشيء يسير مما يسمح به المقام ، ويتسع له الوقت : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ [الزمر : ٦٩] .

﴿ **وترى كل أمةٍ جاثية كل أمةٍ تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ [الجاثية : ٢٨] .

حينما يأتي ذلك اليوم تنتهي كل هذه الحياة بمباهجها ، فلا حركة ولا دنيا ولا طبيعة ولا جمال ولا متعة . حينما يأتي ذلك اليوم ينفخ في الصور نفخة هائلة تنهي الحياة في الأرض والسماء : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ [الزمر : ٦٨] .

إنها نفخةٌ هائلة مُرَّة ، يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء ولا

يقدر على العودة إلى أهله وخلانه : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ [يس : ٥٠] .

والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل – عليه السلام – وقد تهيأ لذلك يقول ﷺ : « كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنّى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ » قال المسلمون : فكيف نقول يا رسول الله ، قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل توكلنا على الله ربنا » [الصحيحة : ١٠٧٩] .

والذي يظهر أن النفخ في الصور يكون مرتين ، الأولى يكون بها الصعق والفناء ، والثانية يكون بها البعث والإحياء : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ [الزمر : ٦٨] .

ومشهد البعث مشهد رهيب عجيب ، يقول تعالى عنه : ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ [يس : ٥١ – ٥٣] .

وأول من تنشق عنه الأرض هو محمد ﷺ ، يقول ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » [مسلم : ٢٢٧٨] .

وفي هذا اليوم يحشر الخلائق جميعاً ، ولذلك سمي يوم الجمع : ﴿ **قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** ﴾ [الواقعة : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ **إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً** *

لقد أحصاهم وعدّهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ [مريم : ٩٥] .

ويحشر الناس في هذا اليوم حفاةً عراة غرلاً ، قالت عائشة – رضي الله عنها – يا رسول الله الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ، قال : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » [مسلم : ٢٨٥٩] فالموقف شديد ، والمقام عظيم ، والهول كبير والفزع خطير ، كيف لا والله تعالى مالك يوم الدين وصفه بأنه عظيم ، فقال تعالى : ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم** ﴾ [المطففين : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ **إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً** ﴾ [الإنسان : ٢٧] .

كيف لا وهو اليوم الذي يصاب العباد فيه بالفزع والذهول ، حتى إن المرضع التي تغذي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم ، والحامل تسقط حملها ، والناس يكون حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ [الحج : ٢] .

فهو الذي تشخص فيه الأبصار ، وترتفع قلوب الظالمين إلى حناجرهم ، ويشيب فيه الطفل الصغير ، ويتخلى فيه الأب عن ابنه ، والأخ عن أخيه ، والزوجة عن زوجها ، وهو اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة ، تغيض فيه الأرض وتطوى السماء وتنسف الجبال وتدكّ الأرض وتعجر البحار وتسجر وتمور السماء وتكور الشمس ويخسف القمر وتتناثر النجوم : ﴿ **إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجّرت * وإذا القبور بعثرت** ﴾ [الانفطار : ١ – ٤] .

قال تعالى : ﴿ **يوم يدع الداع إلى شيء نُكر * خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ [القمر : ٦ - ٨] .

والناس في هذا اليوم تختلف أحوالهم وتتباين درجاتهم ، فمنهم الكفار ، ومنهم العصاة المسلمون الموحدون ، ومنهم الأتقياء والصالحون .

أما حال الكفار فهو الذل والهوان ، والحسرة واليأس والخسارة : ﴿ **يومئذ يودُّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا** ﴾ [النساء : ٤٢] ﴿ **ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا** ﴾ [النبأ : ٤٠] .

يقول تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ [النور : ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم جنهم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا** ﴾ [الكهف : ١٠٣ - ١٠٦] .

وأما حال عصاة المؤمنين الموحدين فهم الذين آمنوا بالله ورسوله ولكنهم عرضوا أنفسهم لذنوب عظيمة ومعاصي كبيرة ، فعرضوا أنفسهم لسخط الله تعالى وغضبه عليهم في ذلك اليوم الرهيب القائم ومن أولئك :

الذين لا يؤدون الزكاة : قال ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني بشِقّيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزلك ، ثم

تـلا قوله تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾ [آل عمران : ١٨٠]» [البخاري : ١٤٠٣] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ [التوبة : ٣٥] .

المتكبرون : قال ﷺ : «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يوم القيامة في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال» [صحيح الجامع : ٨٠٤٠] .

غاصب الأرض : قال ﷺ : «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين» [صحيح الجامع : ٥٩٨٣] .

ذو الوجهين : قال ﷺ : «... وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» [مسلم : ٢٥٢٦] .

الحاكم الذي يحتجب عن رعيته : قال ﷺ : «من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة» [رواه أبو داود والترمذي وحسنّه الأرناؤوط في جامع الأصول ٤/٥١/٢٠٢٩] .

الذي يسأل وله ما يغنيه : قال ﷺ : «من سأل وله مال يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه» ، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال : «خمسون درهماً أو قيمتها من

الذهب » [الصحيحة : ٤٩٩] .

ذنوب لا يكلم الله أصحابها ولا يزكيهم : ومنهم : الأحبار والرهبان والعلماء الذين يكتمون ما عندهم من علم لأمور دنيوية أو أغراض شخصية ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [البقرة : ١٧٤] .

ومنهم الذين أخبر عنهم ﷺ بقوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قيل من هم يا رسول الله؟ خابوا وخسروا ، وأعاد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : « المسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنّان » [انظر صحيح الجامع : ٣٠٦٧] .

ومنهم من أخبر عنهم النبي ﷺ بقوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعته لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، ورجل منع فضل مائه فيقول الله يوم القيامة اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » [صحيح الجامع : ٣٠٦٦] .

ومن الذنوب التي توعد الله تعالى عليها بعدم تكليم أصحابها وعدم النظر إليهم وتزكيتهم من أخبر عنهم ﷺ بقوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستبكر » [صحيح الجامع : ٣٠٦٩] .

وقوله ﷺ : ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى » [الصحيحة : ٦٧٤] .

الشمس والقمر

آيات الله كثيرة ، ودلائل عظمته كبيرة ، وعجائب مخلوقاته بديعة ، في كل مخلوق له حكمة ، وفي كل شيء له آية ، آيات تنطق بالعظمة ، وتنبيء بالقدرة ، وتشهد بالوحدانية : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ [فصلت : ٣٧] .

فالشمس والقمر آيتان عظيمتان ، ومخلوقان بديعان ، سخرهما الله تعالى لحكم عظيمة ، وأسرار عديدة ، وفوائد جمّة .

﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ [يونس : ٥] .

وقد أحكم الله تعالى خلقها ونظم سيرها فهي في حركة دائبة ، وسير منتظم : ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾ [يس: ٤٠].

لو اقتربت الشمس إلى الأرض درجة واحدة لأحرقت كل ما في الأرض ، ولو ارتفعت درجة واحدة لتجمد كل ما في الأرض ، ولو كان القمر يبعد أقل من بعده الحالي لكان المد والفيضان يبلغ من القوة بحيث يغمر جميع الأرض مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال .

تبعد الشمس عن الأرض حوالي ١٤٩ مليون كيلو متر تقريباً . هذه الشمس التي نراها ضئيلة صغيرة تكبر الأرض بمئات المرات ، يقول العلماء : يمكنك أن تحشو الشمس بمليون وثلاثمائة ألف كرة أرضية ، والشمس والقمر بعظمتهما وضخامتهما ما هما إلا جزءٌ من المجموعة الشمسية ، فالمجموعة الشمسية تتألف من الشمس والقمر وتسعة كواكب أخرى هي : عطارد ، والأرض ، والمريخ ، والزهرة ، والمشتري ، وزحل ، وأورانوس ، وبلوتو ، ونبتون . وكل هذه المجموعة وما تضمنته من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلا جزء صغير من المجرّة المسماة : درب التبانة ، بينما هنالك أكثر من عشرة آلاف مجرّة في هذا الكون .

والنجوم غاية في العجب والغرابة وهي عالم مهيب غريب ، وهي وإن ظننا أنها قريبة منا فإنها أبعد من الشمس بما لا يقارن وبعض النجوم الزرقاء يزيد ضوؤها على ضوء الشمس بعشرة آلاف ضعف ، وبعض النجوم يزيد ضخامته عن الشمس بمائة ضعف .

والنجوم ملايين مملينة بحيث لا يستطيع أحد مهما استخدم من المناظير أن يحيط بها ، وقد حاول بعض الفلكيين تقريب أعداد النجوم فقال : إن عدد النجوم يزيد على عدد حبات الرمال التي على شواطىء بحار الدنيا : ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾ [يس : ٨٣] .

فالشمس والقمر من آيات الله البديعة ومخلوقاته العظيمة ، وقد رصد العلم الحديث من أخبارها ما يدهش العقول ، ويذهل النفوس فسبحان الخلاق العظيم : ﴿ **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

أمــا تــرى ذا الــفــلــك الــدائــرا
أبــيــت مــن هــمٍ بــه ســاهــرا
مــفــكــراً فــيــه وفي أمــره
فــمــا أرى خَـلْـقــاً بــه خــابــرا
يــخــبــر عــن لــطــف تــدابــيــره
وكــيــف أضــحــى للورى حــاصــرا
قــد ضــل عــقــلي في تــراكــيــبــه
وصــار قــلــبي والــهــاً حــائــرا

الشمس هي أهم شيء بالنسبة لحياتنا الفلكية ، فهي التي تمدنا بالضوء والحرارة ، وهي التي بتبخيرها لمياه الأرض تسبب سقوط الأمطار وهي التي بتسخينها لليابسة والبحار بدرجات مختلفة تسبب هبوب الرياح ، وهي التي تمد النبات بالغذاء ، وهي التي تمدنا بمصادر القوة ؛ لأن الخشب والفحم والبترول ومساقط المياه كلها تعتمد على الشمس ، وكل ذلك بإرادة الله تعالى وقدرته .

تأمل حكمته تعالى في طلوع الشمس على العالم ، كيف قدّره؛ فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات ؛ لأن ظل أحد جوانب الكرة الأرضية يحجبها عن الجانب الآخر ، فيكون الليل سرمداً على من لم تطلع عليهم والنهار سرمداً على من هي طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء ويفسد هؤلاء ، فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدّر طلوعها من أول النهار من الشرق ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار ، فتنتظم بذلك مصالح الناس وحياتهم .

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ [القصص : ٧٢] .

انظر إلى اللفتة الجميلة في الآيات : خص الليل بذكر السمع **﴿ أفلا تسمعون ﴾** لأن سلطان السمع يكون بالليل ويسمع فيه مالا يسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وسكون الحركات ، وخص النهار بذكر البصر **﴿ أفلا تبصرون ﴾** لأن سلطان البصر في النهار أقوى من سلطان السمع .

من الاعتقادات الباطلة في الشمس والقمر أن بعض البشر قدسوهما حتى عبدوهما وسجدوا لهما من دون الله تعالى ، ومن الاعتقادات الباطلة أن أهل الجاهلية كانوا يظنون أن موت العظماء يؤثر على حركة الكواكب وسيرها . فجاء الإسلام فبين أن الشمس والقمر مخلوقان من مخلوقات الله تعالى الدالة على عظمته والمؤكدة لوحدانيته ، وأن العبادة والسجود لا تكون إلا لخالقها وموجدها جل وعلا ، وبين ﷺ بطلان توهم بعض الناس من أن كسوف الشمس قد يكون بسبب موت أحد حتى ولو كان ابنه إبراهيم – عليه السلام – فقال ﷺ : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ، فإذا رأيتموها فافزعوا إلى الصلاة» [انظر البخاري : ٣٢٠٢] .

وهكذا كان ﷺ حينما حدث الكسوف في زمنه فزع إلى الصلاة، وبادر إلى المسجد ، وأسرع إلى العبادة والدعاء والخشوع والانطراح بين يدي ربه جل وعلا ، فصلى صلاة عظيمة ، وخطب خطبة بليغة :

هكذا ضرب ﷺ لأصحابه المثل الأعلى فيما يجب أن يكون عليه المؤمن من خوف الله تعالى والحذر من بطشه وعدم الأمن من عذابه ومكره ، فهو يرسل الآيات تخويفاً وتذكيراً ، ويبعث النذر تنبيهاً وتحذيراً ، لتحرك بها المشاعر ، وتُهز بها النفوس ، وتطرد بها الغفلة ، وتجلّي بها الغشاوة ، ويُتذكر بها المصير ، فإذا أمة اتخذت الآيات هزواً ، والنذر أموراً اعتيادية ، والحوادث وقائع طبيعية ، ينظر إليها للتسلية ، وتراقب للإعجاب ، وتوصد للذكرى ، وتكتب للتاريخ ، دون وجلٍ للقلوب ، أو ادّكار للنفوس ، أو عبرةٍ لأولي الألباب ، أو انطراح للعزيز الوهاب ، فقد أظلمت النفوس ، وماتت الضمائر ، وحنطت المشاعر ، وتبلدت الأحاسيس .

يجب على المؤمن أن يكون دائم الحذر ، شديد الخوف ، متيقظ المشاعر ، متوقد الأحاسيس ، يخشى بطش الله ، ويخاف عقوبته ، ويعتبر بآياته ، ويتنبه لنذره ، فإن من خاف الله في الدنيا أمنه الله يوم القيامة . يوم ترج الأرض رجاً ، وتبس الجبال بساً ، فتكون هباءً منبثاً . يوم تنثر الكواكب ، وتكوّر الشمس . يوم تدنو هذه الشمس من العباد قدر ميل ، فيبلغ العرق منهم كل مبلغ ؛ منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلي ركبتيه ، ومنهم من يبلغ إلى حقويه ، ومن من يلجمه العرق إلجاماً .

فلنبادر بالتوبة الصادقة قبل أن يحال بيننا وبينها : ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً** ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، قال العلماء : بعض آيات ربك هو طلوع الشمس من مغربها . قال ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ،

فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» [صحيح الجامع : ٧٤١١] .

هذه السماوات العظيمة الهائلة بما فيها من شمس وقمر وكواكب ومجرات يطويها الجبار يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : «أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الله الأرضين ثم يأخذهن ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» [رواه أبو داود : ٤٧٣٢] .

العمـــل الصـــالح

العمل الصالح ميدان العاملين ، وسمة المؤمنين ، وديدن الموحدين لا يطمئنون إلا إليه ، ولا يتنافسون إلا فيه ، ولا يتسابقون إلا عليه ، يتفانون في حبه ، ويسابقون لكسبه ، ولا يحيدون عن دربه . المؤمن يعلم أن الإيمان عمل واعتقاد ، ويقين وجهاد ، وأنه قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان ، فلا يغتر بطول الأمل ، ولا يركن إلى العجز والكسل . ويعلم أن المؤمن القوي خير من الضعيف ، فهو مستعين بالله غير عاجز ، حريص على ما ينفعه غير غافل . يعلم أن الجنة حُفَّت بالمكاره ، وأن النار حفت بالشهوات ، وأن التميز والتفاوت هو بالتقوى وإحسان العمل ، قال تعالى : ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾ [الملك : ٢] .

الإيمان بلا عمل كالجسم بلا روح ، والشجر بلا ثمر ، وكالمفتاح بلا أسنان . فلا ينفع انتساب للإيمان بلا برهان ، ولا قيمة للدعوى بلا حقيقة ولذلك يقرن القرآن دائماً بين العمل والإيمان ، ليلفت نظر الإنسان أنه لا قيمة لإيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان ، قال جل وعلا : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا**﴾ [الكهف : ١٠٧] ، ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر] .

إن تحديد مصير الإنسان يوم القيامة مبني على إحسان العمل أو

إساءته ، إن أحسن فله الجنة مع الأبرار ، وإن أساء فماله إلا النار ، قال تعالى : ﴿ **يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون** ﴾ [الروم : ١٥].

وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى للمرسلين : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾ [المؤمنون : ٥١].

وقال تعالى للمؤمنين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** ﴾ [الحج : ٧٧].

ما أعظم سرور المؤمن بأعماله ، وما أسعده يوم القيامة بأفعاله!! وما أشد ندامة المسيء ، وأعظم حسرة المفرط!! في موقف لا ينفع فيه الندم ، ولا تجدي فيه الحسرة ، ولا تغني فيه الدمعة . في موقف أمام رب الأرباب يوم يحشر الناس للحساب ، ويطير الصواب ، ويوضع الكتاب ، قال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ [الكهف : ٤٩].

قد يتصور بعض الناس أن الأعمال الصالحة حمْلٌ شاق ، وأمر مرهق ، وميدان ثقيل ، وأن لها أناساً لا يطيقها غيرهم ، ولا يتحملها سواهم ، فيعرض عن ميدانها ، ويصرف نفسه عن أفنانها . فالفقير يتصور أن فرصته في العمل محدودة ، ومحاولته مردودة ، وأن ذلك من شأن الأغنياء ، ومن حظ الأثرياء . والمريض يتصور أنه لا فرصة للعمل إلا مع الصحة ، ولا مجال لفعل الخيرات إلا مع العافية . والمقصر والمفرط

والمتلبس ببعض المعاصي ، يظن أن ذلك عن فعل الخير حائل ، وأن ليس له من وراء بحثه على العمل الصالح طائل . فالعمل عندهم وقف على الأولياء ، وقصر على الأتقياء ، وهذا كله أفق في غاية الضيق ، ودلالة على قلة التوفيق ، فالمجال مفسوح ، والميدان مفتوح ، والفرص كثيرة ، وأبواب الخير متعددة ، ومجالات البر متنوعة ، وكل يستطيع أن يأخذ منها بنصيب مهما كان حاله ، وأياً كان وضعه . فقيراً أو غنيا ، كبيراً أو صغيراً ، صحيحاً أو سقيما، قوياً أو ضعيفا ، مجتهداً أو مقصرا .

قال جندب بن جنادة رضي الله عنه قلت يا رسول الله : أي الأعمال أفضل ؟ ، قال : «الإيمان بالله والجهاد في سبيله» ، قلت : أي الرقاب أفضل؟ ، قال : «أنفسها عند أهلها ، وأكثرها ثمناً» ، قلت : فإن لم أفعل؟ ، قال : «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» ، قلت : يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ ، قال : «تكفُّ شرَّك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك» [متفق عليه] .

ما أعظمه من حديث ، وما أروعها من معانٍ تدل على عظمة هذا الدين وشموليته ويسره وسهولته!!! .

فجاهد نفسك ، وأخلص قصدك ، وراقب ربك ، وأحسن عملك واعلم أن أفضل الأعمال وأحبها إلى ذي الجلال أن تتقرب إليه بما افترض عليك ، وأن تؤدي ما أوجب عليك ، ثم تترقى بعد ذلك في درجات التقرب إلى الله ، والفوز برضاه ، حتى تنال محبته ، وتصبح من خاصته وذلك بالإكثار من النوافل ، وأولئك في الناس قلائل .

يقول ﷺ : «إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيءٍ أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما

يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » [رواه البخاري] .

فيا لها من منزلة عظمى ، ودرجة عليا ، ومرتبة كبرى!! وفقني الله وإياكم لطاعته ، والفوز بمحبته ، وأن نكون من أهل خاصته .

وإليك هذا العرض لبعض أبواب الخير وسبل البر ، التي دلنا عليها أعظم الناس براً وأكثرهم خيراً ، وأسبقهم عبادة .

يقول ﷺ : « يصبح على كلِّ سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمرٌ بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » [رواه مسلم] .

وقال ﷺ : « كل سلامى من الناس عليه صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، ولك بكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » [متفق عليه] .

ويقول ﷺ : « عرضت عليّ أعمال أمتي حَسَنُها وسيئُها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق » [رواه مسلم] .

وأخبر أن امرأةً بغياً من بني إسرائيل غفر لها بسبب سقيها لكلب كاد يموت من العطش .

ويقول ﷺ : «لا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : «أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلةٍ منها رجاء ثوابها وتصديق موعدها إلا أدخله الله بها الجنة» [رواه البخاري].

ويقول ﷺ : «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب» [رواه مسلم].

بل إنّ الأكل والشرب قد يكون من أعمال الخير ويثاب عليه الإنسان : «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» [متفق عليه] ، «فاتقوا النار ولو بشق تمره» [رواه الترمذي].

اللهم وفقنا إلى صالح الأعمال والأقوال .. إنك سميع مجيب ،،

المـــــوت

الموت ، الموت ، الموت .. لفظ مخيف ، وعنوان مزعج ، ونبأٌ مفزع ، وخبرٌ مذهل ، وشبحٌ مبهر ؛ الموت هو المصير المحتوم ، والأجل المكتوب ، والغائب المرهوب ؛ هو إعلان الخاتمة ، ونذير النهاية ، هو المشهد الأول من مشاهد الآخرة ، والمحطة الأولى من محطات الأمم المسافرة . قَصَمَ الله به رقاب الجبابرة ، وكَسّر به ظهور الأكاسرة ، وقَصّر به آمال القياصرة ، ونقلهم من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن الأنس بالزوجات والأبناء والإخوان ، إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التمرّغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، إنه قدر الجبار المنتقم ، فيا لله كم أفنى من الأمم؟!! ﴿**هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً**﴾ [مريم : ٩٨].

الموت .. مخلوق غامض غريب ، احتار الناس في أمره ، وعجز الأطباء في دفعه . شجاع يتسلق الجدران ، ويصعد الحيطان ، ويجوب الفيافي والقفار ، ويعبر البحور والأنهار ؛ لا يحُتمى منه بقلاع ، ولا يمتنع منه بحصون ، ﴿**أينما تكونوا يدركم المـوت ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ [النساء : ٧٨] ، لا يُخلِّص منه المهرب ، ولا ينجي منه الفرار ﴿**قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم**﴾ [الجمعة : ٨].

الموت .. زائرٌ لا يستأذن ، وضيف لا يعرف المجاملة ، وباطش لا ترده

الواسطة . يستوي عنده الكبير والصغير ، والأمير والحقير ، والغني والفقير ، والملك والمملوك . ليس لزيارته موعد محدد ، ولا لقدومه زمن معين ، ولا لهجمته وقت معلوم ؛ يدلف في السحر ، ويقدم في الظهيرة ، ويبهت في الغفلة ، ينزل الراكب من على دابته ، ويبطش بالملك على كرسيه ، ويختطف الوالد من بين ذويه ، والصبي من يد والديه ، لا يمهل المفرط حتى يتوب ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن** ... ﴾ [النساء : ١٨] ولا يرجيء الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يشرب ولا المسافر حتى يعود إلى أهله ، ولا النائم حتى يفيق ، ولا الصغير حتى يكبر ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ [النحل:٦١].

يأخذ العريس في ليلة عرسه ، ويختطف الحسناء في يوم زفافها ، ويقبض صاحب المنصب في أول أيامه وأولى ساعاته . يحول الأفراح إلى أتراح ، والسعادة إلى شقاء ، وأيام الأنس إلى نكد ، وليالي الفرح إلى مأتم ، والضحك العريض إلى بكاء مرير ، والزغاريد إلى وَلْوَلة . بينما الأم قد حضرت طعامها ، وهيأت نفسها ، وبشرت أبناءها بقرب قدوم أبيهم إذا بالخبر المفزع ، والنبأ الفاجع : مات الأب! ، فترملت الأم ، ويتّم الأبناء . وبينما الوالدة تنتظر قدوم ولدها الغائب، وابنها الحبيب ، تتشوق إلى رؤيته ، وتتطلع إلى احتضانه إذا بالخبر الأليم ، والنبأ العظيم: مات الولد الحبيب !! .

الموت .. قدومه فاجعة ، وهجمته قارعة ، وزيارته صاعقة ، ونزوله مصيبة ﴿ .. **إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ [المائدة:١٠٦] فالموت مصيبة كبرى ، وداهية عظمى . ولكن الأعظم من ذلك نسيانُه ،

والأشنع من نزولـــه الغفلةُ عنه ، والأصعب من لقائه عدمُ الاستعداد له ، قال تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾ [الأنعام : ٦١] .

لقد شُغل الناس عن ذكره ، وتغافلوا عن خَطْبه ، غرّتهم الحياة ، وألهاهم الأمل ﴿ **فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ، ويُلْهِهِم الأَمل فسوف يعلمون** ﴾ [الحجر : ٣] .

من كان حين تصيب الشمس جبهته
أو الغبار يخاف الشَّين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشتُه
فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
في قعر مظلمةٍ غبراء موحشةٍ
يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا
تجهزي بجهازٍ تبلغين به
يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

قال تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ [المؤمنون : ٩٩] .

لقد شغلتنا مباهج الحياة ، وألهتنا زينة الدنيا ، وغرّتنا أموالنا وأهلونا ومناصبنا عن تذكر الموت الذي لا بد من لقائه ، والكأس الذي لا مناص من شربه ، والثوب الذي لا مفرّ من لبسه . لقد أصبحنا اليوم نضيق ذرعاً بمن يذكرنا الموت ، ويحذرنا الفناء ، ويخوّفنا مرارة اللقاء . نحمل الميت على أكتافنا ونحن في غفلة عن هذا المصير ، فيد تحمل النعش والأخرى

تتصل بالجوال وتتابع الأعمال وبعضهم يمشون في الجنازة وهم يحسبون الحسابات ، ويستبشرون بالتركات . لقد بلينا في هذا الزمن بما لم يبتلى به غيرنا ، ولم يعرفه سوانا من الأمم السابقة ، من مغريات لا تحصى ، وملهيات لا تحصر ، وشهوات لا تنقطع ومهلكات لا ترتدع . شاشاتٌ مدمِّره ، وقنوات هابطة ، يمسي البيت مؤمناً فيصبح معها فاسقاً ، وتنام الأسرة عفيفة شريفة ، فتستيقظ معها على فضيحة ، وتصحو على جريمة تُزين المعصية ، وتحبب الخطيئة ، وتهوِّن الخيانة ، و تنفر من الديانة ، وتدعو إلى السفور ، وتطبل للفجور ، وتصور الحياة بأنها الفرصة السانحة للانكباب على الشهوات ، والفوز بالملذات ، قال تعالى : ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما** ﴾ [النساء : ٢٧] .

أيها الناس اتقوا الله ، اتقوا الله ، اتقوا الله ، ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين** ﴾ [الزمر : ٥٨] .

خَيَّمَتْ الغفلة على القلوب ، وجثمت الصوارف على النفوس ، فلا عقل يتدبر ، ولا فكر يتأمل ، ولا قلب يخشع ، ولاعين تدمع ، ولا فؤاد يرجف . وجدير بمن يعلم أن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، وفي الحشر موقفه ، وعلى رؤوس الخلائق تنشر صحيفته وعلى الصراط مروره ، وإلى الجنة أو النار مورده جدير به أن لا يكون له

فكر إلا في ذلك ، ولا استعداد إلا لما هنالك ، ﴿ **فلو لا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ [الواقعة : ٩٥] .

قال ﷺ : «أكثروا من ذكر هادم اللذات» [رواه الترمذي وابن ماجة] ، فهذا أمر من المصطفى ، ونداءٌ من الحبيب ، وتوجيه من المربي يأمر بالإكثار من ذكر الموت ، ليُنغص به لذات الحياة ، ويُكدر به مباهج الدنيا ، ويقطع به الركون إليها . وتذكُّر الموت فيه تذكر لما بعده من أهوالٍ وشدائد ، وفظائع وعظائم ، ومخاطر وأهوال . فإذا أعجبتك نفسك فذكرها الموت ، وإذا لفت انتباهك جمال منظرك فذكره أنه طعام للدود . وإذا غرتك دارك الجميلة وامرأتك الحسناء ومنصبك العظيم فتذكر أنك مفارقهم ، وإذا دعتك النفس إلى المعصية ، وقادك الهوى إلى الشهوة فتذكر الموت .

سئل ﷺ من أكيس الناسٍ ، وأحزم الناس ، فقال : «أكثرهم ذكراً للموت ، وأشدهم استعداداً للموت ؛ أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا ، وكرامة الآخرة» [رواه الطبراني وحسنه الألباني ، انظر الصحيحة ١٣٨٤] .

إذا نسيت الموت وشناعته ، والفراق وصعوبته ، وغرتك الحياة الدنيا ونعيمها ، فتذكر من سبقك بها ، وتلذذ بها ، وغره نعيمها ، وخدعه حسنها . هل خلد فيها ، هل دامت له؟ هل ذهب منها بشيء؟ تذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، تذكر صورهم وكيف أخذهم الموت من مناصبهم وأحوالهم ، وكيف محا التراب محاسن صورهم ، وكيف

تبددت أجزاؤهم في قبورهم . وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، وقد كانوا يؤملون في طول العيش والبقاء ، ونسوا أنهم زرع الفناء . ركنوا إلى قوة الشباب ومالوا إلى الضحك واللهو ، وغفلوا عن الموت وأهواله ، والقبر وأحواله . فإذا هم بعد القوة تهدمت أرجلهم ، وبعد النطق أكل الدود ألسنتهم ، وبعد الضحك أكل التراب أسنانهم . تذكر الموت قبل أن تندم فلا يفيدك ندمك ، وقبل أن تزل قدمك ، ويسلمك أهلك وخدمك ؛ ويفارقك حبيبك وقريبك ، ويتخلى عنك ولدك ونسيبُك ؛ فلا أنت للدنيا عائد ، ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة . لو أن أحداً سينجو من أهوال الموت لنجا منه سيد الأنبياء ، وإمام الأتقياء ﷺ ، لما حضرته الوفاة كان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يده فيها ، ويمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » [رواه البخاري] ، وكان يقول : « اللهم هون علي سكرات الموت » .

وقد أخبر ﷺ حينما ذكر الموت وغصته ، أخبر أنه قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف .

ويروى أن موسى عليه السلام لما صارت روحه إلى ربه سُئل : يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسي كالعصفور حين يُقلى على المقلى وهو حي ، لا يموت فيستريح ، ولا ينجو فيطير .

ولما حضرت أبا بكر الوفاة ، قالوا له : ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك ، قال : قد نظر إليّ طبيبي ، وقال : إني فعال لما أريد .

ولما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال : أقعدوني ، فأقعد وبكى حتى علا بكاؤه ، ثم قال : يا رب ارحم الشيخ العاصي ، ذا القلب

القاسي ، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة ، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ، ولا يثق بغيرك .

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسّال يلوي ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال : ياليتني كنت غسالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم ، ولم آلِ من أمر الدنيا شيئاً . وقيل له في مرضه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ ، قال : أجدني كما قال الله ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

ولما حضرت المأمون الوفاة افترش رماداً ، ووضع خده عليه ، وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه .

فاحذر يا عبد الله متحولك من دار مهلتك ، إلى دار إقامتك . يوم تمسي في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ، أعاذنا الله وإياك من سوء المصرع ، وضيق المضجع .

كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة ، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . فَأكْثروا من ذكر هادم اللذات ، والجأوا إلى رب الأرض والسماوات ، وكفى إغراقاً وانغماساً في أوحال الشهوات ، ولنعتبر بمن نشيعهم كل يوم من الأموات ولنتذكر حينما نحمل على الأعواد ، ونمسي أول ليلة في القبر في معزل عن الأهل والأولاد ، ويأتي منكر ونكير فيسألان وينتهران ، ثم تبلغنا صيحة الحشر ، ونفخ الصور ، وقيام الجبار لفصل القضاء ، وقد ظهرت الأسرار ، وأسعرت النار ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم . فكم من مفتضح ومستتر ، ومن هالك وناجٍ ، ومن معذب ومرحوم ، نسأل الله تعالى الرحمة والعافية والسلامة ،،،

الجنـــة

الحديث عن محبوبة جذابة ، ومعشوقة خلابة ، فاتنة تفتّتت في حبها أكباد ، وأضنيت لنيلها أجساد ، تعبت لوصلها نفوس ، وتطايرت من أجلها رؤوس . خطبها أناس فلم ترض مهراً لها إلا دماءهم فبذلوها ، وطلب القرب منها فئام فاشترطت أرواحهم وأموالهم فأزهقوها .

بكت لرؤيتها عيون ، وسهرت لترقبها جفون ، أحبها المحبون حباً صادقا ، ويا لله كم رأينا لها عاشقا!! . تغنى المحبون بحبها فسرت أهازيجهم وعباراتهم وأشعارهم عطراً يضمخ هامة التاريخ . وتمنى العاشقون لقاءها فترجموا أمانيهم بطولات وتضحيات رصعت جبين الزمان بروعتها . فمن هي يا ترى تلك المعشوقة الغالية ؟!! إنها الجنة العالية!! .

الجنة .. وما أدراك ما الجنة !! الدار التي هيأها الله بفضله وجوده وكرمه وإحسانه ، هيئها وأعدها أجمل إعداد لعباده الصالحين ، وجنده الصادقين ، وأوليائه المخلصين .

فتعالوا بنا نعرض اليوم شيئاً من أوصاف الفاتنة ، ونسرد شيئاً من الحديث عن الغالية ، فمن أعد المهر فليتقدم ، ومن ملك الثمن فليبادر .

أخبر عنها الكبير المتعال الذي أنشأها وأعدها فقال : ﴿**يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآيتنا وكانوا مسلمين ***

ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ [الزخرف : ٧٣].

وقال تعالى : ﴿ إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الدخان:٥٧].

وقال تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضة قدروها تقديراً * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تسمى سلسبيلاً * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ [الإنسان : ٢١].

ويقول ﷺ : « يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، ولا يبولون ، ولكن طعامهم ذلك جشاءٌ كرشح المسك يُلهمون التسبيح والتكبير كما يُلهمون النفس » [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ » [رواه الشيخان].

ويقول ﷺ : «آنيتهم فيها الذهب ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، ولا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلبٌ واحد يسبحون الله بكرة وعشياً» [رواه البخاري ومسلم].

ويقول ﷺ : «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوفُ عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا» [متفق عليه].

ويقول ﷺ : «إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال ، فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : سأل موسى ﷺ ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي رب ، وكيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب ، فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة ، رضيت ربي ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب قال – أي موسى – : فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ؛ غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر» [رواه مسلم].

تصور نفسك في الجنة ، تشرب من الحوض ، تصافح أبا بكر ، وتقبل عمر ، وتناجي عثمان ، وتتحدث مع علي ، وتجلس إلى سعد ابن معاذ أو معاذ بن جبل أو ابن مسعود!! .

يقـول ﷺ : «إن الله عـز وجل يقـول لأهل الجنة : يا أهل الجنة : فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فـيـقـولون : ومـالنا لا نرضى يا ربنا وقـد أعطيـتنا مـا لـم تعط أحـداً من خلقك؟ ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري].

ويقـول ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقـول الله تبـارك وتعـالى : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم» [رواه مسلم].

اللهم إنا نسألك الجنة ونعيمها ، ونعوذ بك من النار وجحيمها ،،

من عشــاق الجنــة

أول من يدخل الجنة من البشر هو رسولنا محمد ﷺ .

يقول ﷺ : « أنا أول من يقرع باب الجنة » [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت؟ فأقول محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » [رواه مسلم].

ويليه الصديق رضي الله عنه وأرضاه ، فهو أول من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ .

ومن عشاق الجنة الذين قدموا لها أغلى الأثمان ، عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – يقول ﷺ : « رأيتني دخلت الجنة ، ورأيت قصراً بفنائه جارية ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخله فأنظر إليه ، فذكرت غيرتك ، فقال عمر : بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار ! » [رواه البخاري].

وأبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – هما سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين .

والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

أما أفضل نساء أهل الجنة فهن : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون .

ولا شك أن مريم عليها السلام هي سيدة نساء العالمين ، وأفضلهن على الإطلاق ، كما أخبر ﷺ ، وكما قال تعالى : ﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ [آل عمران : ٤٢] مريم نالت الدرجة الرفيعة في الجنة لأنها أحصنت فرجها ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين .

وآسية - امرأة فرعون - ، هان عليها ملك الدنيا ونعيمها ، فكفرت بفرعون وألوهيته المزعومة ، وكان يعذبها عذاباً شديداً ، يعذبها في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها . وكان فرعون يشد يديها ورجليها بالأوتاد ، وهي صابرة ، فرأت بيتها في الجنة فضحكت حين رأته ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهي تضحك ، فقبض الله روحها في الجنة ورضي عنها .

وخديجة فازت بالجنة لأنها أول من آمن بالرسول ﷺ وصدقه وناصره وثبتت من غير شك ولا تردد . قال جبريل عليه السلام : يا رسول الله اقرأ على خديجة السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب .

وفاطمة ابنة رسول الله ﷺ وريحانته ، الصابرة المحتسبة ، النقية الورعة ، المؤمنة الطاهرة .

ومن عشاق الجنة ، العشرة المبشرون بها رضي الله عنهم وأرضاهم

وممن قدموا مهوراً غالية لنيل الجنة ، أبو الدحداح رضي الله عنه ، يقول ﷺ : « كم من عذق في الجنة معلق لأبي الدحداح » [رواه مسلم]

كان لأبي الدحداح بستان في المدنية هو أفضل بساتينها ، وفيه

ستمائه نخلة اسمه «بيرحاء» ، سمع قول الله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فقال : يا رسول الله ، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟! قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أعطني يدك يا رسول الله ، فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ، ثم ذهب إلى زوجته أم الدحداح ، فناداها يا أم الدحداح ، قالت لبيك ، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل .

ومن عشاق الجنة أنس بن النضر – رضي الله عنه وأرضاه – ، استقبل المشركين في غزوة أحد ، ولقي سعد بن معاذ فقال له : يا سعد واهاً لريح الجنة إني أجدها من دون أحد ، فقاتل حتى قتل، ووجد به بضع وسبعون ضربة ، ولم تعرفه إلا أخته ببنانه .

ومن عشاق الجنة سعد بن الربيع ، قال زيد بن ثابت بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق ، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله ﷺ السلام قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته .

ومن عشاق الجنة خيثمة – رضي الله عنه وأرضاه – ، يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر ، وكنت والله عليها حريصاً ، حتى ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها يقول : الحق بنا ترافقنا في

الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كَبرت سني ورقّ عظمي وأحببت لقاء ربي ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ، ومرافقة سعد في الجنة . فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيداً .

ومن عشاقها عمرو بن الجموح ، وكان أعرج شديد العرج ، وله أربعة شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا ، فلما توجه إلى أُحد قال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت نحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى إلى رسول الله ، وقال : يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك ، والله إني أرجو أن استشهد وأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : ما عليكم أن تدعوه ، لعل الله عز وجل يرزقه الشهادة . فخرج مع رسول الله فقتل شهيداً .

رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم وجمعنا بهم في جنات النعيم إنه ولي ذلك والقادر عليه ،،،

وصايا للمسافرين

الإجازة هي الوقت الذي يحلو فيه السفر ، وتعذب فيه الرحلات ويجمل فيه المسير ، ولقد سبق لنا الحديث عن السفر ، وبيان حاجة المرء إلى الترويح ، ورغبة الإنسان في الترفيه ، وسبق التذكير بخطورة السفر إلى البلدان الكافرة ، أو الدول السافره ، وأن الأهل والأبناء والبنات أمانة عظيمة يجب المحافظة عليهم مما يخل بدينهم ، ويشوش على أذهانهم ، ويفسد أخلاقهم ، أما السفر المحتشم ، والرحلات المؤمنه الآمنة التي تروح عن النفس بما لا يضر دينها ، وتبهج القلب بما لا يبغض خالقه ، فهي أمر مطلوب ، وعمل محمود .

ولكنني أحببت في هذه العجالة أن أذكر نفسي وإخواني في الحل والترحال ، والمكوث والانتقال ، ببعض الفوائد النافعة ، والوصايا الماتعة ، واللفتات الرائعة ، إنها بعض الفوائد التي يجب أن يستفيدها المسافر في سفره ، والمرتحل من رحلته .

الفائدة الأولى : لا تنس دعاء السفر ، فهو دعاء عظيم ، وحديث جميل ، ينزل على القلب برداً وسلاماً ، ويضفي على النفس طمأنينة .

الفائدة الثانية : اختيار الرفيق الصالح ، وقديماً قيل : «الرفيق قبل الطريق» ، إن اختيار الصحبة جزء من السفر ، ولذلك يجب على المسلم أن يختار رفيقاً صالحاً وأخاً ناصحاً .

إذ المـرء لـم يـرض مـــا أمـكـنـه
ولـم يـأت مـن أمـــره أحــســنــه
فـــدعـــه فـــقـــد ســاء تـدبـيـره
ســيـضـحـك يـومـاً ويـبـكـي سـنـه

ويقال : إن السفر سمي سفراً لأنه يسفر من أخلاق الرجال ويكشفها على حقيقتها ، وإن صحبة النقي ومرافقته هي الفوز العظيم ﴿ **الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين** ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

الفائدة الثالثة : قراءة معاني الوحدانية في دفتر الكون ، ودراسة براهين العظمة في سفر الحياة .

وكـتـابي الـفـضـاء أقـرأ فـيـه
صـوراً مـا قـرأتـهـا فـي كـتـاب

يقرأ المسافر في دفتر الكون آيات الباريء ، وعظمة الواحد الأحد وبديع صنع الفرد الصمد .

وفـي كـل شـيء لـه آيـة
تـدل عـلـى أنـه واحـد

﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير** ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

الفائدة الرابعة : أخذ العبرة من الأمم الغابرة ، والقرون السالفة ، فإن البشر مهما عاشوا ، والأمم مهما امتد بها الزمان فإن مصيرهم إلى الزوال ، ومآلهم إلى الفناء ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها**

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج : ٤٦] ، فانظر كم من أمم عاشت قبلك ، وكم من قرون سبقتك ، **﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾** [الدخان : ٢٩] .

الفائدة الخامسة : رؤية مصارع الظالمين والجبابرة على مرّ العصور فإن لهم في الوحي أخباراً ، ولهم في الأرض آثار .

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشدّ منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق﴾ [غافر : ٢١] فلا تخدعنك الأمم بحضارتها ، ولا تغرنك الدول بقوتها ، فإن الله جل وعلا أقوى من كل قوي ، وأعظم من كل عظيم ، وأعلم من كل عليم ، وهم جميعاً في قبضته ، وطوع أمره ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

الفائدة السادسة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال تعالى : **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** [آل عمران : ١١٠] .

يجب أن يكون المؤمن كالغيث الهنيء ، أينما حل حل الأنس والرضا والنماء ، فإن لم يصل الأرض منه وابل فطل . المؤمن نور يضيء الطريق ، وهاد يهدي السبيل ، وعبير يزكو شذاه ، وفيض يعم نداه ، أينما ذهب ، وحيثما انتقل ، فهو يحمل قلباً مؤمناً ، ونفساً خيِّرة ، وفكراً نيراً ، وفؤاداً غيوراً ، يأمر بالمعروف قدر طاقته ، وينهى عن المنكر ما أمكنه ، يغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف

الإيمان ، أما الذي ينطلق في الدنيا ، ويسيح في الأرض ، فيرى المنكرات العظيمة ، والمعاصي الكبيرة ، والمخالفات المتعددة ، ثم لا قلب ينكر ، ولا لسان ينطق ، ولا وجه يتمعر ، فأي مؤمن هذا . روي عنه ﷺ قوله : «والذي نفسي بيده لتأمرُن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده لتدعنَّه فلا يستجيب لكم» [صحيح الجامع : ٧٠٧٠] .

الفائدة السابعة : شكر الله جل وعلا على نعمه : نعم الله كثيرة وآلاؤه كبيرة ، وعطاؤه عظيم ، وكرمه عميم ، ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفّار**﴾ [إبراهيم : ٣٤] وإن من أعظم النعم التي يجب أن يتذكرها المسافر ما أفاء الله على عباده من أسباب الراحة ، ووسائل السفر ، كان الآباء والأجداد يقطعون بعض المسافات في شهر أوأشهر مع ما يلحقهم من النصب ويعتريهم من التعب ، ونقطعها نحن في ساعات معدودة ، في جوٍّ آمن ، وظل ظليل ، وأكل لذيذ ، وشراب سائغ ، يحدثني بعض كبار السن في مخيم من مخيمات الحج ، كان ينظر إلى ما يرفل فيه الحجاج من نعم ، وما يهنئون به من راحة ، ثم دمعت عيناه ، وأجهش بالبكاء ، فسألته عن سبب بكاءه ، فقال : يا ولدي تذكرت حالنا في العصور الخالية ، والأيام الماضية ، ثم نظرت إلى ما نحن فيه اليوم أذكر أنني في سنة من السنوات قدمت إلى مكة مع بعض رفقتي فمكثنا أياماً طويلة ونحن نمشي على أقدامنا ، فلما بقي بيننا وبين مكة مسيرة يوم تقريباً ، كدنا نهلك من الجوع ، وكاد يقتلنا الظمأ ، فأخذنا نتلمس الأخبار ، ونتأمل في الديار لعلنا نجد ماءً ، أو نعثر على بئر فلم نجد شيئاً فمضينا نجتر الخطا ، وقد كادت تزهق أرواحنا من الظمأ ، فإذا بنا نرى الطير تحوم على مكان علمنا أن فيه ماءً ، فلما أتيناه

وجدنا بئراً عميقة مخيفة مظلمة ، تنبعث منها رائحة كريهة ، فربطنا ما معنا من ملابس وأردية ربطناها مع بعضها في دلوٍ معنا ، وأنزلناه في البئر فلما نزعناه فإذا به ماء أسود كريه الرائحة ، قد اختلط بالضفادع والهوام والطين ، والله لو رآه أهل هذا المخيم لانقلبت نفوسهم جميعاً ولكننا تسابقنا في شربه وكأنه الماء الزلال ، فانظر اليوم إلى هذا النعيم العظيم ، فالحمد لله على نعمه ، والشكر له على إحسانه وكرمه .

الفائدة الثامنة : صلة الأرحام ، والسؤال عن الأقارب ، وعيادة المرضى ، والجود والإحسان إلى من تجده من الفقراء ، وزيارة الإخوان في الله ، الصلة والزيارة اللطيفة الخفيفة الهانئة المسعدة ، ليست زيارة الإثقال والإرهاق والكلفة والعنت والمشقة ، والأرحام من وصلهم وصله الله ، ومن قطعهم قطعه الله .

والمريض من سافر لزيارته ، وذهب لعيادته فله الأجر العظيم ، يقول ﷺ : «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه منادٍ أن طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلاً» [صحيح الجامع : ٦٣٨٧] .

والأخ الذي يزور أخاه في الله زيارة ليس وراءها منفعة ، ولا يقصد بها مصلحة ، وإنما هي المحبة في الله ، فإن الله تعالى يحبه كما أحب أخاه في الله .

الفائدة الأخيرة : يجب أن يكون المسلم ذا حسّ مرهف ، وشعور حي ، ووجدان يقظ ، يعيش الحياة ويسبر أغوارها ، ويتعامل معها تعامل العاقل الواعي المدرك المتأمل وإن المسلم يشعر بالانسجام مع كل من حوله حتى مع الجمادات «أحد جبل يحبنا ونحبه» [صحيح الجامع : ١٩١] ، وإن من أجمل ما يجب أن يعيشه المسلم في حياته : التأمل في الطبيعة

والنظر في ملكوت الله .

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري
حتى أريك بديع صنع الباري
فالأرض حولك والسماء اهتزتا
لروائع الآيات والآثار

ليس للحياة قيمةٌ إذا اقتصرت على الماديات وانغمست فيها ، ولم تعبأ بروعة الطبيعة ، وأسرار الكون ، ولم تلتفت إلى جمال الأزهار ، وتألق النجوم ، وزينة السماء ، وخرير الماء ، وعظمة الجبال ، وأسرار الوهاد . إن العاطفة هي ملح الحياة ، وبها يدرك الإنسان أسرار الوجود وباطن العالم .

﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ [الغاشية : ١٧ – ٢٠] .

إن من فوائد السفر التمتع بمظاهر الطبيعة الخلابة ، ومباهجها الجذابة ومياهها المنسابة ، فالمسافر يتأمل الجبال الشاهقة ، والأعلام الشامخة ﴿ **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون** ﴾ [النحل : ١٥] ، فيخلب لبّه تركيبها البديع ، وشأوها الرفيع ، يتأمل صخورها العملاقة ، وتروقه ألوانها الزاهية ﴿ **ومن الجبال جُدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** ﴾ .

هذه جبال معممة بالثلوج ، وأخرى مكسوة بالأشجار ، وتلك صخرية جرداء ، جبالٌ تفتن النظر بجمالها وعظمتها ، وتعاريجها وارتفاعها ، في أعاليها يتعانق السحاب ، وفي هيكلها تتلون الصخور ، وفي باطنها المناجم تعجّ بالخير ، وفي أسفلها الوديان تموج بالحياة ، ثم

هي تشمخ بقممها كأنما تريد أن تناطح السماء .

وبينما المسافر كذلك إذا به يتخطاها إلى سواها ويجاوزها إلى غيرها يُودعها ليمرّ بالمروج الخضراء والحدائق الغناء .

وأطلق الطير فيها سجع منطقه
ما بين مختلف منه ومتفق
والظل يسرق بين الدوح خطوته
وللمياه دبيب غير مسترق
وقد بدا الورد مفترّاً مباسمه
والنرجس الغض فيها شاخص الحدق

والمسافر يمتع ناظريه بالأشجار المثمرة ، والورود المزهرة ، يعبر الوادي الجميل ، وقد اشتبكت أشجاره ، ولاحت ثماره ، من أحمر وأصفر وأزرق وأخضر وغيرها ، وبين ذلك أنواع الرياحين والزهور والورود ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ [الأنعام : ٩٩] .

إن الثمار والأزهار عالم عجيب غريب ، وهي عالم وحده ، كعالم الطيور ، وعالم الإنسان ، تتعدد مناظرها ، ويتنوع جمالها ، وتتفاوت من حيث روائحها . .

يتأمل المؤمن الطبيعة وجمالها فيذكره ذلك بالجنة ونعيمها ، وما أعد الله لعباده فيها ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل**

مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ [محمد :١٥].

إذا رأيت الأنهار المنسابة ، والبحار العظيمة ، فتذكر قوله ﷺ : « إن في الجنة بحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر اللبن ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعد » [صحيح الجامع : ٢١٢٢] .

ثم يجاوز المسافر ذلك ليمر بالصحاري الواسعة ، والوهاد الشاسعة ، يتسلى بمطاردة السراب حين يتراءى أمامه على بعد وكأنه الماء الزلال حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فيثير عنده ذلك المثل العجيب الذي ضربه الله تعالى لأصحاب الأعمال الخاسرة الذين عملوا أعمالاً كثيرة فظنوا أنها تنفعهم فلم تُغن عنهم من الله شيئاً لأنهم كفروا بالله ورسوله : **﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾** [النور : ٣٩] .

وللصحراء جمالها الساحر ، سكون عميق يهدّىء الأعصاب ، وصفاء جو ينعش النفس ، وأُنسٌ بالطبيعة كما خلقت ، وجوٌّ فسيح طليق تتجاوب فيه الرياح ، فلا يحبسها بناء ، وشمس تسطع فلا يقيدها قيد .

ولا يزال المسافر الواعي صاحب الضمير الحي والخيال الواسع ، والأفق البعيد ، يتنقّل في سفره بجسمه وروحه ، وقلبه وعقله ، فقد يكون مسافراً من طريق البحر ، فيتأمل عظمته ، ويتدبر هيبته ، ويتفكر في عجائبه ، ويتعوذ من مخاطره ، ويتأمل في المخلوقات التي تعيش فيه ، والسفن والبواخر التي تمخر عبابه **﴿ وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾** [النحل : ١٤] .

وقد يكون السفر عن طريق الجو . . والمسافر في الجو يساومه الموت ، ويداعبه الهلاك ، ينظر في الأرض فإذا هي في نظره أبعد من السماء ، وينظر في السماء فإذا هو قد جاوز السحاب . مصيره فوق قطعة من حديد ، ونهايته في هزة مسمار ، إن وقع صار شذر مذر لا جبل يحمله ، ولا نهر يزفّه ، ولا رابيةٌ تقلّه .

يتأمل المسافر في الجو عظمة هذا الفلك الذي يسبح فيه ، وكم فيه من عجائب ، يتأمل في عظمة الشمس التي هي أكبر من الأرض بمئات المرات ، ويقول العلماء يمكنك أن تحشو الشمس بمليون وثلاثمائة ألف كرة أرضية . ويتأمل القمر ، وهو يبعد عن الأرض بأقل من ربع مليون ميل ، ويتأمل النجوم ، وهي ملايين مملينة ، قدّر أحد العلماء عددها بأنه يزيد على عدد حبات الرمال المنتشرة على شواطىء جميع بحار الدنيا ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، وإليه ترجعون .

من أحـــوال الخاشعـــين

سير العظماء تبعث الهمم ، وأخبار النبلاء توقظ العزائم ، وأحوال السبّاقين توقظ الغافلين ، هنالك نماذج رفيعة ، وقدوات شامخة . أخبارهم عطرة ، وسيرهم مبهجة ، وحياتهم مذهلة ، أخمصوا البطون عن مطاعم الحرام ، وأغمضوا الجفون عن مناظر الآثام وحفظوا الجوارح عن فضول الكلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، وصاموا فأحسنوا الصيام ، فعلنا نبهج القلوب بشيءٍ من أخبارهم ، ونوقظ العزائم بتأملٍ لأحوالهم ، ونبث في الأرجاء عبقاً من عطر آثارهم .

قال تعالى : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

قالت عائشة – رضي الله عنها – : يا رسول الله ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ، قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » [أخرجه الترمذي] .

فانظر إلى هذا الوصف الذي وصف به المولى هؤلاء الناس ، فهو وصف يثير العجب ، ويبعث الاستغراب ، ويدعو إلى التساؤل . فهم يبذلون ويعملون ويؤتون ويجتهدون ، ومع ذلك قلوبهم وجِلة ،

وأفئدتهم خائفة ، وكان المتوقع أنهم يعيشون بنفوسٍ مطمئنة ، وأفئدة سالية فرحاً بما قدموا ، واتكالاً على ما بذلوا ، وسروراً بما عملوا . فلماذا وجلت قلوبهم ، وارتعدت فرائصهم؟ ، لأنهم أيقنوا أنهم إلى ربهم راجعون ، فهم يتذكرون هول المطلع عليه ، وعظمة الموقف بين يديه ، آمنوا بعظمته ، وأيقنوا بجلاله ، ونظروا إلى نعمه ثم نظروا إلى أعمالهم وضآلتها ، وجهودهم وقلتها ، ثم هي قد لا تسلم من خلل ، ولا تنجو من زلل ، ولا تصفو من رياء ، فكان الوجل طريقهم إلى الاطمئنان ، والخوف موصلهم للأمان ، والإشفاق قائدهم لرضا الخلاق ، فسماهم المسارعين ، ووصفهم بالسابقين . وإن الخوف سمة المؤمنين ، وعنوان المتقين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ **الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون** ﴾ [الأنبياء : ٤٩] ، وقال تعالى عن المؤمنين في الجنة : ﴿ **قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾ [الطور : ٢٧] ، وبين أن من صفات المؤمنين أنهم ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [السجدة : ١٦] .

فهذا هو حال المؤمنين ، وديدن المتقين ، وطريق المجتهدين ، وأسلوب الطائعين .

إذا ما الليل أظلم كابدوه
فيسفر عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطار الخوفُ نومَهُمُ فقاموا
وأهلُ الأمن في الدنيا هجوعُ

فالمؤمن لا يُدِلُ بأعماله ، ولا يباهي بأفعاله ، بل يخشى ويخاف ، ويخشع ويتذلل ، يجتهد وهو على وجل ، ويعمل وهو في حذر ، وذلك

هو ديدن السلف ، وهو الذي افتقده الخلف . فقد كانوا فرساناً بالنهار ، رهباناً بالليل ، قدموا لله أرواحهم ، وبذلوا في سبيله أنفسهم ، وصفت له سرائرهم ، وأشرقت بحبه قلوبهم ، ودمعت من خشيته أعينهم ؛ عملوا بالكتاب ، واتبعوا الرسول ، واجتهدوا في الطاعة ، ومع ذلك أطار الخوف قلوبهم ، وأسهر الإشفاق أعينهم ، وأقضّت النار مضاجعهم ، ثم انظر في أحوال كثير من الناس اليوم ، قلة في الطاعة ، وتقصير في العبادة ومخالفة للسنة ، ومقارفة للمعاصي ، ومنادمة للخطايا ، ثم لا عينٌ تدمع ولا قلبٌ يخشع ، ولا خوفٌ يردع ، ولا تذكّرٌ لهول المطلع! .

فإليك الآن نماذج من أحوال الخاشعين ، ومقاطع من أخبار الخائفين ، وروائع من سير السابقين :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلَهم
إن التشبه بالكرام فلاح

* كان ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام ، فقال : «يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه» [رواه الترمذي وأحمد] .

* وكان ﷺ كثير الصيام ، وقد كان يظل اليوم الطويل في الحر الشديد صائماً ، وكان – أحياناً – يواصل صيامه ، وذلك خاصة بالنبي ﷺ ، ولقد كان يقوم الليل حتى تفطرت قدماه .

وتقول عائشة – رضي الله عنها – ، قام ﷺ ليلة من الليالي ، فقال : «يا عائشة ذريني أتعبد لربي» ، قالت : والله إني لأحب قربك ، وأحب ما يسرُّك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل

حجره ، ثم بكى ، فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذن بالصلاة فلما رآه يبكي ، قال : يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : «أفلا أكون عبداً شكورا ، لقد نزلت عليّ الليلة آياتٌ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾ »[آل عمران : ١٩١] .

* وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً أسيفا ، إذا صلى بالناس لا تُكاد تسمع قراءته من كثرة بكائه وخوفه من ربه جل وعلا .

* وكان في وجه عمر خطان أسودان من كثرة البكاء ، وكان يُسْمَع بكاؤه من آخر الصفوف ، وسمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾ [الطور : ٧] فسقط مغشياً عليه ، وبقي أياماً مريضاً يزوره الناس ، وكان إذا أظلم عليه الليل يضرب قدميه بالدره ، ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم يا عمر؟ ، وكان ينعس وهو قاعد ، فقيل له : ألا تنام يا أمير المؤمنين؟ قال : «إذا نمت الليل ضيعت حظي مع الله ، وإذا نمت النهار ضيعت رعيتي» وحين حضرته الوفاه يقول لابنه : «ضع خدي على التراب عل الله أن يرى حالي فيرحمني» .

بكى عمر الفاروق خوفاً وخشية
وقد كان في الأرض الإمام المثاليا
وقال بصوت الحزن يا ليت أنني
نجوت كفافاً لا عليَّ ولا ليا

* وكان عثمان بن عفان – رضي الله عنه وأرضاه – يصوم النهار

ويقوم الليل ، وكان إذا وقف على قبر يبكي حتى تخضل لحيته من البكاء ، وكان يذكر عنده الموت والجنة والنار أحياناً فلا يبكي ، فسئل عن ذلك فقال ، قال ﷺ : «ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه» [رواه الترمذي] ، وقد روي عنه – رضي الله عنه – أنه ما اغتسل مرة واحدة واقفا بل كان يغتسل جالساً حياء من الله جل وعلا ، وقد روي عنه أنه كان يختم القرآن في ركعة ثم يوتر بها .

* أما علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقد كان صواماً قواماً فارساً بالنهار ، راهباً بالليل . صلى صلاة الفجر في يوم من الأيام فجلس حزيناً مطرقا ، فلما طلعت الشمس قبض على لحيته ، وبدأ يبكي ويبكي ثم قال : لقد رأيت أصحاب النبي ﷺ فما رأيت شيئاً يشبههم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم كأمثال ركب المعزى من كثرة السجود ، قد باتوا لله سجّداً وقياماً يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا طلع الفجر ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهطلت أعينهم بالدموع والله لكأنّ القوم باتوا غافلين .

وكان – رضي الله عنه – يستأنس بالليل وظلمته ، فإذا أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل في محرابه قابضاً على لحيته ، ويتململ تململ الملدوغ ، ويبكي بكاء الحزين ، وينادي : يا ربنا .. يا ربنا .. يا ربنا .

وقد وصف المتقين بقوله : «ألا إن عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين ، وأهل النار في النار معذبين ، شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا أياماً قليلة ، لعقبى راحة طويلة ، أما الليل فصافون أقدامهم تجري دموعهم على

خدودهم ، يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم ، وأما النهار فظماء حُلماء بررة أتقياء» .

* أما عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – فقد كان صائماً ثم أُتي بطعام فقال : قتل مصعب بن عمير – رضي الله عنه – ، وهو خير مني ، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة إن غطي بها رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي بها رجلاه بدا رأسه ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط . قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام .

وأُتي له بعشائه في يوم من الأيام ، وكان صائماً ، فقرأ قول الله تعالى : ﴿ **إن لدينا أنكالاً وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما** ﴾ [المزمل : ١٣] فلم يزل يبكي حتى رفع طعامه وما تعشى .

* ولما حضرت أبا هريرة – رضي الله عنه – الوفاةُ بكى ، فقيل له : ما يبكيك ، فقال : والله ما أبكي على دنياكم ، ولكن أبكي لبعد المفازة ، وقلة الزاد ، وعقبة كؤود ، وأنني أصبحت في صعود المهبط منه ، إما إلى جنة وإما إلى نار .

* أما تميم الداري – رضي الله عنه وأرضاه – فكان من العباد الصوام القوام ، وقد قام الليل كله بآية واحدة حتى أصبح ، وهي قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ ، وقد سأله رجل عن قيامه بالليل ، فغضب غضباً شديدا ، ثم قال : «والله لركعة أصليها في جوف الليل في السر أحب إليّ من أن أصلي الليل كله ثم أقصه على الناس» .

* وتقول امرأة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله ورضي عنه – قد

يكون في الرعية من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر ، ولكن ليس فيهم من هو أشد خوفاً وبكاءً من عمر ، كان إذا صلى العشاء الآخرة جاء إلى بيته فألقى بنفسه في محرابه فلا يزال يبكي حتى يطلع الفجر .

بكى ليلة من الليالي بكاءً شديداً ، فبكت زوجه لبكائه ، ثم سمع أهله البكاء فبكوا كلهم لبكاء عمر ، فسمع الجيران البكاء فبكوا ، وهم لا يدرون ما الذي يُبكي عمر ذلك البكاء ، والذي كاد يودي بحياته ، فلما سكن وهدأ قيل له : يا أمير المؤمنين ما الذي أبكاك فوالله لقد أشفقنا عليك؟ ، قال : تذكرت يوم القدوم على الله ، ومنصرف الناس بين يديه ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، ولا أدري أين يُذهب بي، حتى كأن النار ما خلقت إلا له . وقيل عن عمر لم يُرَ مثلُ خوفه .

* وكان الحسن البصري – رحمه الله – ورضي عنه صائماً فجيء له بكوزٍ من الماء ليفطر عليه ، فلما أدناه إلى فيه بكى ، وقال : ذكرت أمنية أهل النار وقولهم ﴿ **أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** ﴾ [الأعراف : ٥٠] وكان يقول : إن المؤمنين قوم ذلّت والله منهم الأسماعُ والأبصارُ والأبدانُ حتى حسبهم الجاهل مرضى ، وهم والله أصحابُ القلوب ألا تراه يقول : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾ [فاطر : ٣٤] ولقد كابدوا في الدنيا حزناً شديداً أبكاهم وأحزنهم وهو الخوف من النار .

ويقول : والله ما صدّق عبد بالنار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدق بها حتى يهجم عليها .

* وذلك الفضيل بنِ عياض – رحمه الله – ، يقول إبراهيم بن الأشعث : ما رأيت أحداً كان خوف الله في صدره أعظم من الفضيل

كان إذا ذَكَر الله أو ذُكِر عنده أو سمع القرآن ظهر به خوف ، وحزنٌ شديد ، وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من يحضره ويشفق عليه وكنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي بكاءً شديدا وكأنه ذاهب إلى الآخره ، وكان يقول : رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله ، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة .

روي أنه رؤي يوم عرفة والناس يدعون ، وهو يبكي بكاء الشكلى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس أن تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء ، وقال : واسوأتاه منك وإن غفرت! .

* وكان منصور بن المعتمد – رحمه الله – محباً للصيام والقيام حتى عاتبته أمه ، وقالت له : يا بني إن لعينيك عليك حقاً ، فلماذا لا تنام ؟ ، فقال لها : اتركيني فإن بين النفختين نوماً طويلا ، ولقد صام ستين سنة يقوم ليلها ، ويصوم نهارها .

وكان أبو عثمان النهدي – رحمه الله – صواماً قوّاماً ، يسرد الصوم ، ويقوم الليل ولا يتركه ، وكان يصلي حتى يُغشى عليه ، رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة ، وجمعنا بهم في جنات النعيم .

لقد كان السلف الصالح يجتهدون في الأعمال الصالحة وقلوبهم وجلة ، وكانوا يتنافسون في أعمال البر حذراً من لوم النفس عند انقطاع العمل على التقصير ، قيل لمسروق – رحمه الله – : لو قصرت عن بعض ما تصنع من الاجتهاد ، فقال : والله لو أتاني آت فأخبرني أنه لا يعذبني لاجتهدت في العبادة ، حتى تعذرني نفسي إن دخلت النار أن لا ألومها أما بلغك قول الله تعالى ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامه** ﴾ [القيامة : ٢] ، إنما لاموا أنفسهم حين صاروا إلى جهنم فاعتنقتهم الزبانية ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وانقطعت عنهم الأماني ، ورفعت عنهم الرحمة ،

وأقبل كل امرىء يلوم نفسه .

وكان عامر بن عبد قيس يقول : والله لأجتهدن ثم والله لأجتهدن ، فإن نجوت فبرحمة الله وإلا لم ألم نفسي .

فهذا حال السلف الصالح ، وذلك هو الطريق الرابح ، أعمال جليلة ، وعبادة عظيمة وخشوع وخضوع ، مع خوف ووجل وإشفاق وخشية ، ولكن ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب** ﴾ [الرعد : ٢١] .

تتجافى جنوبهم ... عن وطيء المضاجع
كُلّهم بين خائفٍ ... مستجيرٍ وطامع
تركوا لذة الكرى ... للعيون الهواجع
ورعوا أنجم الدجى ... طالعاً بعد طالع
واستهلت عيونهم ... فائضات المدامع
ودعوا يا مليكنا ... يا جميل الصنائع
أُعف عنا ذنوبنا ... للعيون الدوامع
أُعف عنا ذنوبنا ... للوجوه الخواشع
أنت - إن لم يكن لنا ... شافعٌ - خيرُ شافع

فلنشمر ولنجتهد ، ولنعمل ولنبذل ، ولنستمر على الطاعة ، ولنداوم على العباده ، ولنواصل في الخير . ولنحفظ صيامنا ، ولنحسن قيامنا ، ولنخرج زكاتنا ، ولنكثر صدقاتنا ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته ، وأن يعمر قلوبنا بخوفه ، وأن يوفقنا لطاعته ، وأن يؤمن خوفنا يوم لقياه .

يعظكم لعلكم تذكرون

ألفاظ أحلى من الشهد ، وأرق من النسيم ، كلمات تتسلل إلى القلب ، وتنقدح في الفؤاد ، وتسكن في الضمير ، قد يجتهد العالم وقد يبدع الخطيب ، وقد يتأنق الواعظ ، ولكن لا أقوى ولا أجمل ولا أزكى ولا أكمل من الموعظة حينما تكون من الله ، ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾ [النساء : ٨٧] ، هذه الموعظة نسمعها مرارا وتكراراً لأنها تدور على ألسنة الخطباء ، ويحلو لكثير منهم أن يرددها في خطبه ، ويروى أن أول من استعملها في الخطب وأمر بها عمر بن عبد العزيز – رحمه الله –

إنها آية واحدة ، ولكنها جمعت الدين ، ولخّصت الإسلام ، وأوجزت الشريعة ، وشملت المنهج ، ووضّحت المبدأ ، وشرحت السلوك وبينت الأخلاق ، وحددت المثل ، ورسمت المعالم .

قال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

الموعظة ربانية ، والخطبة قرآنية ، وقد كانت هذه الآية سبباً في إسلام أحد الصحابة ، وتمكن الإيمان في قلبه ، وهو عثمان بن مظعون – رضي الله عنه – حيث كان بجانب النبي ﷺ حينما نزلت عليه هذه الآية فلما قرأها عليه تمكنت من ضفاف قلبه واستولت على فؤاده واستقر الإيمان في نفسه ، وزرعت محبة النبي ﷺ في وجدانه ويقول عنها ابن مسعود – رضي الله عنه – أجمع آية في القرآن .

وقال قتادة : ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ، ويستحسنونه إلا أمر الله به في هذه الآية ، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدح فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

ويقول السعدي – رحمه الله – صارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات ، ولم يبق شيء إلا دخل فيها ، فهي قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات .

قال تعالى في الآية التي سبقت هذه الآية : ﴿ .. **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين** ﴾ [النحل : ٨٩] .

بين تعالى أنه أنزل كتابه تبياناً لكل شيء ، فجاءت هذه الآية شرحاً موجزاً لما اشتمل عليه هذا الكتاب ، ولما حواه ذلك التنزيل ، فهو يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .

ولو أردنا أن نعطي هذه الآية حقها من الشرح ، ونصيبها من التفصيل لاحتجنا لا أقول إلى عشرات الخطب ، بل إلى مئات الخطب آلاف الكلمات ، فالحديث عنها حديثاً وافياً شافياً كافياً هو الحديث عن الدين كله ، والإسلام جميعه ، بل إن ما خطبناه من الخطب ، وما سوف نخطبه لا يخرج عن فحواها ، ولا يبعد عن معناها ، ولا يجاوز مغزاها .

ولكنه حديث موجز ، وشرح مختصر ، وبيان سريع ، لنستفيد من العظة ، ونقف على العظمة ، ونتأمل البلاغة ، وننظر إلى الفصاحة ، ونرى أسرار البيان ، ودلائل الإعجاز ، أمر تعالى بثلاثة أوامر ، أمرين أساسيين وتكملة ، ونهى عن ثلاثة أشياء ، شيئين أساسيين وتكملة .

بدأت الآية بالجملة الإسمية المؤكدة إعلاناً بشأنها ، وتأكيداً على سموها ، ثم ذكر لفظ الجلالة «الله» ليكون الأمر أقوى أثراً ، وأسرع قبولاً ، وأجدر امتثالاً ، فلم يقل عليكم بالعدل ، أو أمرتم بالعدل ، وإنما صرح بالأمر الناهي ليعرف قدره ، ويمتثل أمره ﴿ **إن الله يأمر** ﴾ ، فهو أمر وليس إخبار أو ندب أو بيان لمكارم الأخلاق فقط ، بل هو أمر يجب أن يطاع . ﴿ **بالعدل** ﴾ ، فهو روح الحياة ، وقوام الدنيا ، وأساس الدين ، والله تعالى حكم عدل ، والسماوات والأرض قامتا على العدل ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** ﴾ ، والعدل : هو إعطاء الحق إلى صاحبه ، وهو بمعنى المساواة والإنصاف .

وأعدل العدل عدل الإنسان مع ربه جل وعلا ، بأن يعبده حق عبادته ويوحده ولا يجعل له نداً ، ولا يرتضي له شريكاً ، فهو الخالق الرازق المنعم المتفضل الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض ، فمن أشرك معه غيره ، فقد خالف مقتضى العدل ، ومال إلى الظلم والجور والطغيان ، فالإنسان مطالب بالعدل مع نفسه ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ومع ربه ، ومع الخلق ، فالعدل صفة كمال وجمال ، ولا بد أن تقوم حياة المسلم على العدل في كل أفعاله وأحواله وأحكامه وأقواله ، عدل في الأقوال : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وعدل في الكتابة : ﴿ **وليكتب بينكم كاتب بالعدل** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وعدل في الأحكام : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ [النساء : ٥٨] ، وعدل مع الأعداء : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ [المائدة : ٨] ، وعدل في الصلح بين المسلمين ﴿ .. **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل** ﴾ [الحجرات : ٩] ، وعدل مع النساء : ﴿ **فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة** ﴾

[النساء : ٣] ، وعدل مع الأبناء : «اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم» [متفق عليه] .

فالعدل هو الذي يكفل لكل فرد ، ولكل جماعة قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب ، والقريب والبعيد ، والغني والفقير ، والقوة والضعف ، إنما تمضي قاعدة العدل في طريقها ، وتطبق على كل الناس والأجناس ، وتكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان عادل للكل ، فكم من دول تدّعي أنها راعية العدل ، ورائدة المساواة ، وهي تكيل بمكيالين ، وتنظر بنظرين ، وتتعامل بأسلوبين ، عدل مع من تحب وتهوى أو تجد متاعها عنده ، وظلم مع من تكره وتبغض ، أو من يخالف هواها ، ويحيد عن رضاها ، أو من قالت له هيت لك ، فقال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، وإن الله تعالى ينصر الدولة العادلة حتى لو كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة حتى ولو كانت مسلمة ، وكم من ولاة يدعون العدل مع شعوبهم ، وهم فجرة ظلمة سفاكون باطشون مصاصو دماء ، يمتصون عرق الناس ، ويبتزون حقوق الضعفة ، ويعملون أسواط الظلم والجور والبغي في عباد الله ، وكم من أناس يدعون العدل في إداراتهم ومؤسساتهم وشركاتهم وطلابهم وزوجاتهم وأبنائهم ، والعدل بريء منهم براءة الذئب من قميص يوسف .

ولكن أين هؤلاء جميعاً من الحكم العدل جل شأنه ، وعظم سلطانه الذي إذا ارتفعت إليه دعوة المظلوم قال : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين ، والذي يقول : ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

الله جل وعلا أمر بالعدل ، فويل لمن خالف أمره ، وتنكب هديه وتمرد على شرعه ، ولما أمر تعالى بالعدل ، بين أن هنالك مرتبةً أسمى ودرجة أعلا ، وهي الإحسان ، فالعدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه ، والشرُّ بأقل منه .

ولذلك ذكر الإحسان بعد العدل ، تذكيراً به ، وتنويهاً بشأنه ، فهو يلطف حدة العدل الصارم الجازم أحياناً ، وهو يدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه طلباً للأجر ، وطمعاً في المغفرة ، وإيثاراً لود القلوب ، ورأباً لصدع النفوس ، وشفاءً لغل الصدور ، والإحسان باب يلجه من أراد أن يأتي بما فوق العدل الواجد ، وأعظم من الإنصاف المتحتم ، ليكسب فضلاً ، أو يداوي جرحاً .

ولذلك يقول تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ [النحل : ١٢٦] هذا العدل ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ [النحل : ١٢٦] وهذا الإحسان .

ويقول تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فالإحسان فوق العدل منزلة ، وأسمى منه خلقاً . والإحسان يختلف معناه باختلاف السياق الذي يرد فيه ، فإن ورد مقترناً بالإيمان والإسلام كان المراد به الإشارة إلى المراقبة والتقوى وحسن الطاعة ، وذلك مثل جوابه ﷺ لجبريل حينما سأله عن الإحسان ، قال : « الإحسان أن تعبد

الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وإذا ورد الإحسان مطلقاً فالمراد به فعل كل ما هو حسن ، وكل ما هو حسن يرجع إلى القاعدة الأولى ، وهي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فإذا أحسن المسلم في أمر من الأمور فهو ممتثل لتلك القاعدة ، وهو من المحسنين .

والإحسان من أفضل منازل العبودية ، لأنه لب الإيمان ، وروح الإسلام ، وكمال الشريعة ، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال ، وأعظم درجات الإحسان هي الإحسان مع الله جل وعلا ، ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقين ، حتى يشمل البهائم والعجماوات ، يقول ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» [صحيح الجامع : ١٧٩٥] .

وقد ورد في الحديث الصحيح : «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يُطيف ببئرٍ ، قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها» [رواه مسلم : ٢٢٤٥] .

وكل أصول وفروع المعاشرة وآدابها ، وكل قوانين التعامل ترجع إلى الإحسان ، فهو يشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاته بالبشرية جميعاً ، بل وعلاقاته بسائر المخلوقات .

والمحسن محبوب من المخلوقين ، ومحبوب من الخالق ، ولذلك كانت مرتبة المحسنين عند الله تعالى عظيمة ، ومرتبتهم كبيرة ، ودرجاتهم عالية ، قال تعالى : ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ [الرحمن : ٦٠] ، أي ليس من جزاء لإنعامي عليكم بالإيمان والتوحيد إلا الجنة ، وبين تعالى أنه

مع المحسنين بتوفيقه وحفظه وتأييده ، فقال : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وأعلن جل وعلا محبته للمحسنين في أكثر من آية فقال : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، وأخبر تعالى أن رحمته قريبة من المحسنين ، فقال : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [الأعراف : ٥٦] وطمأن المحسنين بأن إحسانهم محفوظ ، وعملهم مشكور ، وفعلهم مبرور ، فقال : ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ [هود : ١١٥] ، بل أدخل السرور عليهم ، وأعلن البشارة لهم ، فقال في آيات كثيرة : ﴿ **وبشر المحسنين** ﴾ [الحج : ٣٧] .

ثم بين جل وعلا نوعاً من أنواع الإحسان ، وهو إيتاء ذي القربى ، وهو داخل في مضمون الإحسان ، ولكن ذكره الله تعالى تنبيهاً عليه وتذكيراً به ، وإعلاءً لشأنه ، فإن البذل والعطاء والفضل والإحسان يجب أن ينطلق من القريب ، ثم يتسع بعد ذلك ليشمل البعيد ، ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا** ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

وقد خص الله تعالى ذا القربى لأن الإحسان إليه مما تكثر الغفلة عنه ، ويتهاون الناس به ، فيهتمون بالبعيد وينسون القريب لاعتبارات كثيرة ، ولقد كان من خلق الجاهلين أنهم يقصدون بوصاياهم وأموالهم أصحابهم من وجوه القوم ، وعليه الناس لاجتلاب المحمدة ، وحسن الذكر ، والتباهي ، فذكر الله العدل والإحسان وبين أن من بين جنس العدل والإحسان ومن أتمه الإحسان إلى ذي القربى تنبيهاً للمؤمنين بأن القريب أحق بالإنصاف من غيره ، وأولى بالإحسان من سواه .

﴿ **وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ [النحل : ٩٠] .

إذا نهى الله تعالى عن أمر من الأمور فإنه يجب الانتهاء عنه ، وقد جمع أسباب الشر ، ودواعي الردى ، وأخلاق السوء في هذه الآية ، ناهياً عنها ، ومحذراً منها .

ومن ذلك الفحشاء : وهي اسم جامع لكل عمل أو قول تستفظعه النفوس لفساده ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿**ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾ [الأنعام : ١٥١] ، فكل أمر عظم قبحه ، وكبر فساده ، هو من الفواحش ، ومما خص بالفحشاء في الغالب ، فاحشة الاعتداء على العرض ، لأنه فعل فاحش ، فيه تجاوز للحد ، فإذا أطلقت الفاحشة ، فالمقصود بها الزنا والعياذ بالله ، وقد حذر الله تعالى منه ، وبين سوء عاقبته ، فقال : ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ [الإسراء : ٣٢] .

والمنكر : هو كل فعل تنكره الفطرة السليمة ، والنفوس القويمة ، وتنكره الشريعة ، فالشريعة هي شريعة الفطرة والحق ، والخير والجمال والكمال .

وبعد أن ذكر الله تعالى الفحشاء والمنكر ، خص بالذكر نوعاً من أنواع الفحشاء والمنكر ، وهوالبغي ، لأنه مما تنساق النفوس إليه ، وتغفل عن قبحه وعاقبته ، وهو الاعتداء في المعاملة ، إما بغير ذنب ، وإما بوجود ذنب يقابل لعقاب جائر مفرط ، فالبغي هو الظلم والجور ، وتجاوز الحق ، وتنكب العدل ، وهو يشمل كل اعتداء على الخلق في الدين والدماء والأموال والأعراض . . وغيرها .

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغي ، وما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة ثم يقوم أو يكتب له الفلاح .

وإن الفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة والمنكرات المقيتة ، مهما بلغت قوتها ، ومهما يستخدم من الوسائل لحمايتها . وانظر إلى الغرب الذي وصل إلى الحضيض ، وغاص في أوحال الفواحش والمنكرات ، بدأ الناس الآن يضجون بذلك ، ويبحثون عن المخرج ، ويفتشون عن النجاة ، ويتطلعون إلى مجتمع شريف عفيف تقي نقي ، بعد أن اكتووا بنار الفواحش ، واصطلوا بجحيم المنكرات ، وفشت فيهم الأمراض الفتاكة ، وشاعت فيهم الأخلاق المقيتة ، وخربت نفوسهم وأظلمت قلوبهم ، وضاقت صدورهم ، وفسدت حياتهم .

إن هذه الآية موعظة صادقة للمؤمنين ، وتذكرة ناصحة للمسلمين ﴿ **يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ [النحل : ٩٠] .

ومما في هذه الآية من ضروب البلاغة ما يلي :

أولاً : الإيجاز الذي بلغ حد الإعجاز ، حيث جمعت المعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة ، وهذا إيجاز بالمعنى ، وفيها إيجاز بالحذف ، في مثل قوله : ﴿ **وينهى** ﴾ ، فلم يقل وإن الله ينهى ، وقوله : ﴿ **يعظكم** ﴾ فلم يقل : إن الله يعظكم .

ثانياً : استعمال أداة التعريف «أل» في كل الكلمات : العدل ، الإحسان ، الفحشاء ، المنكر ، البغي ، إلا الإيتاء لأنه خصصه وعرفه بأنه إيتاء ذي القربى ، وهذا التعريف يدل على العموم والاستغراق ، فلم يقل يأمر بعدل أو إحسان إنما بالعدل كل العدل ، والإحسان كل الإحسان ، وينهى عن الفحشاء كل الفحشاء ، والمنكر كل المنكر ، والبغي كل البغي .

ثالثاً : استعمال الفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث والاستمرار ، فلم يقل أَمَرَ أو نَهَى ، بل يأمر ، وينهى ، ويعظ .

رابعاً : ما يعرف في البلاغة بالطباق ، وهي هنا في قوله : يأمر ، وينهى . وما يعرف بالمقابلة ، وهي هنا بين ثلاثة أوامر ، وثلاثة نواهي .

خامساً : الترتيب والتسلسل المنطقي البديع ، فلما أمر بالعدل ، بين أنَّ فوقه مرتبة ودعى إليها ضمناً ، وهي : الإحسان . ولما ذكر الإحسان بين نوعاً من أهم أنواعه يغفل عنه الناس ، وهو الإحسان لذي القربى . ولما نهى عن الفحشاء ، دفع ما قد يتوهمه بعض الناس من أن النهي فقط عن فاحشة الزنا فبين أن النهي يشمل جميع المنكرات . ولما نهى عن المنكر أشار إلى منكر من أعظم المنكرات ، قد يغفل عنه الناس وهو البغي والظلم ، والتجاوز فبدأ الأوامر بالعدل وختمها بالنهي عن الظلم والطغيان .

سادساً : حسن النسق ، وجمال الترتيب ، وعطف الجمل بعضها على بعض ، والبدء بالأمر بالمحبوبات ، ثم العطف عليه بالنهي عن المكروهات . ولم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ، ولم يتقدم ما يجب تأخيره . ثم ختم ذلك كله بعبارة مستحسنة وجملة لطيفة ، وخاتمة طريفة ﴿**يعظكم لعلكم تذكرون**﴾ ، فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا ، وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا ، مما لو بث في أسفار عديدة ما كفتها . فسبحان من ليس كمثله شيء في ذاته

وصفاته وكلامه وأحكامه ، وتبارك من جعل كلامه هدى وشفاءً ونوراً وفرقاناً وبياناً .

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ [الزمر : ٢٣] .

خمس آيات من سورة النساء

لفت انتباهي ، وأثار اهتمامي أثر عظيم ، وكلام بديع للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه وأرضاه – ، وذلك أثناء قراءتي لتفسير سورة النساء ، حيث يذكر المفسرون في أول تفسيرهم لهذه السورة هذا الأثر المروي عن ابن مسعود ، والذي قال فيه : «إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أني لي بها الدنيا وما فيها :

١ – قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما** ﴾ [النساء : ٤٠] .

٢ – وقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما** ﴾ [النساء : ٤٨] .

٣ – وقوله تعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما** ﴾ [النساء : ٣١] .

٤ – وقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً** ﴾ [النساء : ٦٤] .

٥ – وقوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾ [النساء : ١١٠] .

تأمَّلْتُ هذه الآيات التي شغف بها ابن مسعود ، وفرح بها قلبه ،

وأُسعد بها لبه ، وأَقْسَم أنها أحب إليه من الدنيا وما فيها ، فوجدت أن ذلك الكلام لم يصدر من فراغ ، ولم يأت بالصدفة . كيف وهو من الإمام القارىء العلامة المحدث الفقيه ، لقد سبر غور هذه الآيات ، فعرف مكنونها ، واستهواه مضمونها ، إنها آيات تفيض بالرحمة ، وتتدفق بالعطف ، وتبين عن الكرم الرباني ، وتعلن عن الجود الإلهي ، تملؤ الأفئدة رضا ، والأنفس أملاً ، والقلوب رجاءً ؛ عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقّةٌ تستروح منها نسيم الجنان ، ونور تبصر به مرآة الإيمان ووجه الأمان . لن أطيل عليكم في المقدمة ، ولكني أدعكم مع هذه الآيات العظيمات لتقرؤوها ، وتتدبروها ، وتتأملوها ، مع إشارات موجزة لبعض ما اشتملت عليه :

الآية الأولى :

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما . .﴾ [النساء : ٤٠] .

فالله تعالى لا يظلم عباده يوم القيامة ، ولا حتى مثقال ذرة ، ولا حبة من خردل ، بل يوفيها ويضاعفها لهم ، إن كانت حسنة كما قال تعالى : **﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين . .﴾** [الأنبياء : ٤٧] .

وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال : **﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾** [لقمان : ١٦] .

وقال تعالى : **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** [الزلزلة : ٨] .

كان السلف يقولون الذرة هي البعوضة ، وقيل هي الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، وقيل غير ذلك ، وكان ذلك أصغر ما يتصورونه ، فجاء العلم الحديث ليثبت أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وهو أصغر بكثير من الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة ، أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهر!.

وفي حديث الشفاعة الطويل ، يقول الله تعالى : «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار» ، وفي لفظ آخر «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرّةٍ من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً» [رواه الشيخان] ، فسبحانه ما أعظمه وأعدله وأحكمه!! ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ .

من لطفه وفضله وجوده ، أن يضاعف الحسنات ولا يضاعف السيئات ، يقول تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ [الأنعام : ١٦٠].

واستمع معي إلى هذا الحديث الرائع الماتع ، لترى الجود الإلهي ، والكرم الرباني يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه : «إن الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة أو محاها الله ، ولن يهلك على الله إلا هالك» [رواه مسلم].

وقال ﷺ : «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . .» [رواه ابن ماجة].

وجاءه رجل بناقة مخطومة ، فقال يا رسول الله : هذه في سبيل الله فقال ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة » [رواه مسلم].

بعد هذه الآية مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** ﴾ [النساء : ٤١] . وهي الآية التي بكى عندها الرسول ﷺ حينما كان يقرأ عليه ابن مسعود رضي الله عنه بعض الآيات من سورة النساء .

الآية الثانية :

قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما** ﴾ [النساء : ٤٨] ، الشرك هو الذنب الأعظم ، والمعصية الكبرى . .

قال تعالى : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** ﴾ [المائدة: ٧٢] وقال : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾ [الحج : ٣١].

وأخبر ﷺ أن الشرك أكبر الكبائر ، وأعظم الذنوب .

فمن أشرك بالله تعالى لا يقبل له عمل ، ولا يقام له وزن ، ولا تنفعه طاعة ، ولا تقربه حسنة ؛ فالتوحيد هو السبب الأول لنيل مغفرة المولى ورضوانه ، والفوز بنعيمه وجنانه ، ومن جاء به فقد جاء بأعظم أسباب المغفرة ، من جاء بالتوحيد ، ومعه ملؤ الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة . فهو تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ، ومن عُذِّب من الموحدين فإنه لا يُخلّد في النار .

والذي يتأمل القرآن والسنة ، يجد أن هنالك ربطاً جميلاً بين الأمر

بالتوحيد وبين طلب المغفرة ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك** ﴾ [محمد : ١٩] .

وفي حديث سيّد الاستغفار أول كلماته : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك . . . » [رواه البخاري] .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما** ﴾ .

إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها نكفر عنكم صغائر الذنوب ، وندخلكم الجنة .

روي عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده » – ثلاث مرات – ثم أكبَّ ، فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشر ، فكان أحب إلينا من حمر النعم ، فقال ﷺ : « ما من عبدٍ يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ثم قيل له ادخل بسلام » [رواه النسائي] .

وقد فسر ﷺ هذه السبع في حديث آخر فقال : « اجتنبوا السبع الموبقات » ، قيل : يا رسول الله ، ما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » [أخرجه البخاري]

والكبائر غير هذه السبع كثيرة جداً ، وقد بينت ذلك النصوص الأخرى .

قال ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال : «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين» ، وكان متكئاً فجلس ، قال : «ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت [متفق عليه].

وقد تعددت آراء العلماء في تعديد الكبائر ، فابن عباس سئل : ما السبع الكبائر ، فقال : هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع .

وقال في رواية أخرى : الكبائر كل ما وعد الله عليه النار .

وقيل : الكبائر هي كل معصية موجبة للحد .

فمن أعرض عن الكبائر ، وحفظ نفسه منها ، فقد ضمن الله له غفران زلاته وتكفير سيئاته .

يقول ﷺ : «الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» [رواه مسلم].

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾ [النساء : ٦٤].

الآية الخامسة :

قوله تعالى : ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء : ١١٠].

تتجلّى في هاتين الآيتين سعة رحمة الله تعالى ، وجميل عفوه ،

وعظيم مغفرته ، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ **ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال .

فالمؤمن من سماته أنه إذا وقع في الذنب ، سرعان ما يتذكر ويندم ويخاف .

قال تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** .. ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وقد أمر الله تعالى بالاستغفار في آيات كثيرة من كتابه ، ولقد كان ﷺ وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول : « إني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة » [رواه أحمد] .

وقال ﷺ : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بَلَغَتْ ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » [رواه الترمذي] .

وقد علّمنا رسول الله ﷺ أحاديث عظيمة ، فأين نحن منها ، وأين أبناؤنا وبناتنا منها؟! هل علمناهم إياها ، وعرفناهم معناها؟ ، بدلاً من الكم الزائد ، والحشد الهائل من المحفوظات المتدنية ، والنصوص الفارغة .

من قال : « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف » [رواه أبو داود] .

وأين نحن من سيد الاستغفار ، قال ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول

العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قاله في النهار موقناً به ، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قاله من الليل وهو موقن به فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » [أخرجه البخاري] .

الصـــلاة

يقبل علينا رمضان الركن الرابع من أركان الإسلام فنسرّ به كثيراً ، ونتحدث عنه كثيراً ، ونبين فضائله ، ونفصل مسائله . ويكون للزكاة ركن الدين الثالث نصيب من الحديث ، وجزءٌ من التذكير ، ثم يدلُف علينا الحج – ركن الإسلام الخامس – فنرى الاهتمام به أعظم ، والحديث عنه أشمل ، والتفصيل في مسائله أكثر ، والسؤال والجواب أعمق ، وتحظى الشهادتان – ركن الإسلام الأول – بنصيب وافر من الحديث ، وحظ مبارك من البيان في ثنايا الحديث عن الحج ، وذلك كله أمر محمود واهتمام مشكور ، وجهد مأجور .

ولكن هنالك ركن مظلوم بين الأركان ، ولم يأخذ حظه الأوفى من النصح والبيان ، مع أنه ركن ركين ، وأصل مكين ، وحبل متين ، بل هو عماد الدين ، وقرة عين خاتم المرسلين ؛ إنه إقام الصلاة لرب العالمين .

وقد أحببت أن أنصف هذا المظلوم بالتذكير ببعض فضائله ، والتصريح على جزءٍ من مسائله ، والتنبيه على مكانه ، والتنويه بأهميته والغوص في دقائقه ، والوقوف على بعض حقائقه . فإن بعض الناس يُتعب نفسه ، ويُهلك ماله ، ويفارق عياله لأداء الحج ، وهو مضيع للصلاة ، هاجر للمسجد ، مفارق للجماعة ، ويظن أن فعله قويم ، وعمله عظيم . ومن العجب أن ترى أناساً في الحج يسألون عن كل صغيرة وكبيرة ، ويتأكدون من كل مسأله – وهذا أمر محمود وخلق طيب –

ولكنك تجده منذ خمسين عاماً أو أكثر أو أقل لم يصلِ صلاة واحدة ، بل قد لا يفهم الفاتحه ، ولم يحاول إقامة صلاته . ولا إتقان قراءته ، ولا السؤال عن شيء في صلاته ، فتعالوا بنا في جولة خفيفة ، وتعريجة لطيفه ، ننطلق فيها بقلوبنا وعقولنا ومشاعرنا وأفئدتنا مع قرة العين ، وعماد الدين ، وسمة المرسلين ، وسلوة الموحدين ؛ مع إقامة الصلاة لرب العالمين .

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، ولم يفترض جلّ وعلا بعد توحيده والتصديق برسله وما جاء من عنده فريضة أولى من الصلاة ، قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » [أخرجه البخاري] .

وذلك أمره للأنبياء قبل مبعث النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيِّمة** ﴾ [البينة : ٤] .

أول ما افترض الله على موسى بعد أن قربه نجيا ، وكلمه تكليما ، أول ما افترض عليه بعد عبادته وتوحيده إقام الصلاة ، قال سبحانه : ﴿ **فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾ [طه : ١٤] .

وهذا عيسى عليه السلام حين تكلم في المهد صبيا قال : ﴿ **إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة**

والزكاة ما دمت حيا ﴾ [مريم : ٣١].

ولما ذهب أبو الأنبياء عليه السلام بإسماعيل وأمِّه فأسكنهما بوادٍ غير ذي زرع دعا ربه فقال : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾** [إبراهيم:٣٧] فدل ذلك على أنه لا عمل أفضل من الصلاة ولا يوازيها.

وقد امتدح الله تعالى إسماعيل عليه السلام بقوله : ﴿ **إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾** [مريم : ٥٤].

وذلك زكريا عليه السلام : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾** [آل عمران : ٣٩].

وقال تعالى لمريم : ﴿ **يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾** [آل عمران : ٤٣].

وداود عليه السلام لما أصاب الخطيئة وأراد التوبة لم يجد لتوبته مفزعاً إلا إلى الصلاة ، ﴿ **فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب ﴾** [ص : ٢٤].

وقد قال ﷺ : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود – عليه السلام – وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » [أخرجه البخاري ومسلم].

وذاك سليمان عليه السلام حينما شغلته الخيل عن صلاة العصر حتى تأخر وقتها تأسف وندم ، فعاقب نفسه بأن حرمها الخيل ، فضرب سوقها وأعناقها ، فعوضه الله عن الخيل بالريح ﴿ **تجري بأمره رُخَاءً حيث أصاب ﴾** [ص : ٣٦].

وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ [طه : ١٣٢].

وذلك كان ديدن الأنبياء جميعاً ، كان مفزعهم إلى الصلاة ، وملجؤهم إلى الانطراح والسجود لعظمة الله يعبدونه ويتقربون إليه ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾ [مريم : ٥٩].

الصلاة هي الكتاب الموقوت ، هي التواضع لكبرياء الله ، والخشوع لعظمته ، والخضوع لربوبيته ، هي غذاء القلب ، ومناجاة الرب ، وعماد الدين ، والفارق بين الكفار والمسلمين «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» [أخرجه الترمذي وابن ماجة] فهي شرط المناجاة ، وحارسة الإيمان ، ونور المؤمن ، والنجاة من النار . مناجاة لذي الجلال ، وانطلاقة لقبول الأعمال ، يقول النبي ﷺ «أول ما يحاسب به العبدُ يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح له سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله» [صحيح الجامع] ، وهي أعظم الأحوال وأفضل الأعمال ، قال ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» [أخرجه ابن ماجة] ، ومن صلحت صلاته فقد أفلح ونجح ، ومن فسدت صلاته فقد خاب وخسر ، وإن حج واعتمر .

الصلاة فريضةٌ دائمة على العبد والحر ، والغني والفقير ، والصحيح والمريض ، والمقيم والمسافر ، أمر بها في ساحة الحرب ، وميادين القتال ، لا تسقط عن نبي مرسل ، ولا عن صالح عارف . دعاءٌ وثناء ، توسل ورجاء تذلل وبكاء ، التجاء واعتصام ، انطراح على عتبة القوي ، وافتقار أمام الغني ، وانكسار أمام الجواد الكريم ، والرؤوف الرحيم . الصلاة عبودية

وتذلل ، وتقرب وتحبب ، اتصال الفقير بالغني ، والضعيف بالقوي ، والمحكوم بالحاكم ، والعابد بالمعبود ، والأرض بالسماء ، فهي كلام مع الواحد ، ومناجاة للخالق، «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي شطرين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل . . » [أخرجه ابن ماجة].

الصلاةُ مزيلةٌ الذنوب ، وغاسلة الخطايا ، قال ﷺ : «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟» ، قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : «فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» [متفق عليه] . واقترف رجل ذنباً فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله تعالى : ﴿**أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾ [هود : ١١٤] ، فقال الرجل : ألي هذا؟ قال : «لجميع أمتي كلهم» .

ويقول ﷺ : «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن مالم تُغْشَ الكبائر» [أخرجه مسلم].

بل قد يصل المرء إلى غفران زلاته ، ونقاء صفحاته وهو متهيء للصلاة ولما يدخل فيها بعد ، قال ﷺ : «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ : «من توضأ فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى صلاة مكتوبة فصلاها مع الإمام غفر له ذنبه» [رواه أحمد] ، فالصلاة سرور المؤمن ، وسلوة الطائع ، وملاذ الخاضع . أقرب إلى المؤمن وأسرع نجدة وإسعافا وأحنى وأعطف من حجر الأُمّ الرؤوم الحنون على الطفل الشريد اليتيم ، فهي معقل المسلم وملجؤه الذي يأوي إليه ، ويسكن إليه ، وهي الحبل الممدود بينه وبين ربه . غذاءٌ وبلسم للجروح ، ودواء النفوس ، وإغاثة الملهوف ،

وأمان الخائف ، وقوة الضعيف ، وسلاح الأعزل ، وعون المجتهد ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، ولقد كان المصطفى ﷺ إذا أهمه شيء أو حز به أمر فزع إلى الصلاة .

وكان يقول ﷺ : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها » [رواه أبو داود] .

إنها جُنَّةُ المسلم وسلاحه ، وسعادته وفلاحه ، والمفتاح الدائم الذي يفتح به كل قفل ، ويكشف به كل ما غم قلبه وأهمَّه ، وأشغل خاطره . فللخوف صلاة ، وللاستسقاء صلاة ، وللكسوف والخسوف صلاة ، وللاستخارة صلاة ، وللحاجة صلاة ، وللتأهب للموت صلاة والصلاة ليست حركات رياضية ونظاماً رتيباً خشبياً جامداً لا روح فيه ولا حياة! ، إنها عمل مشترك بين الجسم والعقل والقلب ؛ الجسم قيام وركوع وسجود والعقل تدبر وتفكر ، والقلب خشوع وخضوع ورقة والتذاذ ، ولا قيمة لصلاة بلا خشوع ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذي هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ [المؤمنون : ٢] .

قال ﷺ : « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤْتَ كبيرة ، وذلك الدهر كله » [أخرجه مسلم] .

ويقول ﷺ : « خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن ، وَأَتَمَّ ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهدٌ أن يغفر له » [أخرجه أبو داود] .

ويقول ﷺ : « ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقوم في صلاته فيعلم ما يقول ، إلا انتفل وهو كيوم ولدته أمه » .

فما أعظم الأجر ، وأسعد الحظ لمن أداها على وجهها الأكمل؟!. وقد أخبر ﷺ أن أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع ، حتى لا ترى فيها خاشعاً .

لقد هيأت الحكمة الإلهية ، والتشريع الرباني الصلاة تهيئة دقيقة وعميقة ، وهي من المعجزات التشريعية لتحقيق غاية العبودية والإخلاص لله تعالى ، وغاية الخضوع والتذلل والاستغاثة والابتهال ، وإحياء الصلة بالله تعالى وتجديدها ، والانقطاعٍ عما سوى الله . تنشيء في النفس قوة روحية ، وإيماناً عميقاً ، ونورا يفيض به القلب ويقاوم به أقوى الفتن والمغريات ، وأقسى الحوادث والكوارث . إن أمر الصلاة عجبٌ في كل أركانها وحركاتها وسكناتها وأقوالها وأفعالها ، بَدْءاً بالوضوء ، وما فيه من طهارة ونقاء ، وتجدد ونشاط ، ثم استقبال أول بيت وضع للناس ، ثم الأذان الذي لم تتجل فيه مقاصد الصلاة ومعانيها فحسب ، بل تجلت فيه مقاصد الإسلام ، وشعار التوحيد ، وروح الدين بوضوح وبلاغة وإيجاز ، وجمال وجلال . إن الأذان دعوة مُركَّزة للإسلام ، وتعريف بمقاصده وتعليماته .

ثم التكبير الذي تبتدأ به الصلاة ، وما يحمل من معاني، التكبير تلك الكلمة الواضحة البليغة المدوية المجلجلة التي يخشع أمامها الجبابرة ، ويهوي لها كل صنم ، ويضطرب لها كل طاغية وطاغوت .

الصلاة ينادى لها بالتكبير ، وتقام بالتكبير ، وينتقل في حركاتها بالتكبير ، وتختم بالتكبير . والجهاد بالتكبير ، والأعياد شعارها التكبير ومواسم الطاعة شعارها التكبير ، وإذا أعجبك الشيء تكبر، والمسافر يبتدىء دعاء السفر بالتكبير ، وإذا صعد جبلاً كبّر . فالتكبير كلمة

عظيمة وموضوع هائل ، ومعنىً جليل ، يجب أن يلازم المسلم ، ويرسخ في وجدانه ، وينزرع في خلجات قلبه .

وإذا عرف المصلي عظمة الله وكبرياءه ، وتغلغلت في أحشائه ، تضاءلت أمامه كل عظمة وكبرياء ، وصغر في عينه كل عظيم إلا الواحد الأحد . ثم أذكار وأدعية الاستفتاح للصلاة وما فيها من جمال وجلال ، أدعية كلها إخلاص وتوحيد ، وتقديس وتمجيد ، واستكانة وإنابة ، وتلهف واستغاثة ، وافتقار وتذلل .

ثم سورة الفاتحة وما فيها من دلائل العظمة وروائع الإعجاز . فهي الموجز للقرآن ، والخلاصة للإسلام، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم .

ثم الركوع والانحناء لجلال الله جل وعلا .

ثم السجود الذي هو روح الصلاة ولبّها ، وفيه تتجلى أقصى درجات العبودية ، يمرغ الإنسان جبهته في الأرض ليعلن عبوديته وفقره وحاجته إلى لطف المولى وعفوه ورحمته ، « وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، إلى غير ذلك من الأسرار والعجائب ودلائل الخشوع والتواضع التي تحملها الصلاة .

اللهم اجعلنا من المصلين الذين هم على صلاتهم يحافظون ولا تخزنا يوم يبعثون ،،،،

السـجـود

﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [النحل : ٥٠] .

السجود .. أقصى درجات العبودية ، وأجل مظاهر التذلل ، وأصدق دلائل الإذعان ، وأجمل رسائل الحب ، وأعذب مناظر الخشوع ، وأفضل أثواب الافتقار .

السجود .. انطراح للجبار ، وتذلل للقهار ، وتمريغ للأنف ، وتعفيرٌ للوجه ، وتزلف للمحبوب ، وانطلاق من أسر الدنيا ، وهروب من قيود الطاغوت ، وتجرد من أوسمة العظمة ، وتخلٍّ عن رتب الفخامة ، وألقاب الزعامة ، ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴾ [مريم : ٩٣] ، يسجد الملك والمملوك ، والغني والفقير ، والسيد والمسود ، والرجل والمرأة ، كلهم سواءٌ في فقرهم إلى الكريم ، وذلهم للعظيم .

السجود .. رسالةٌ معبرة لكل ملوك الأرض ، وكل عظماء الدنيا أن التذلل الحق ، والخشوع الحق ، للملك الحق ، للواحد القهار ، للكبير المتعال ، لمن بيده مقاليد السموات والأرض .

السجود .. بمظهره الخاشع ، ومنظره المخبت يشير في النفس أن العظمة لله ، والكبرياء لله ، والاستعلاء لله ، والقوة لله ، والجبروت لله ، والملك لله ، والعبودية لله ، فهو انحناء لعظمته ، وافتقار لجوده وارتماء

على أعتابه ، واعتراف بفضله ، وإقرار بنعمه ، واستسلام لجلاله .

والعبودية غاية كمال الإنسان ، وكمال قربه من الديان ، وعلى قدر عبوديته وصدق توجهه تكون منزلته عند ربه ، والصلاة جامعة لمتفرق العبادة ، متضمنة لأقسامها ، مشتملة على أنواعها ، وهي أفضل أعمال العبد ، وثاني أركان الإسلام ، وهي عمود الدين ، وقرة أعين الموحدين . وأعظم ما في الصلاة السجود ، فهو أفضل أركانها ، وسرّها الذي شرعت له ، وكان تكرره فيها أكثر من تكرر سائر الأركان ، وجعل خاتمة الركعة وغايتها ، والركوع توطئة له ، ومقدمة بين يديه ، فهو سر الصلاة ، وركنها الأعظم ، وكنهها الأجل ، وجوهرها الأسمى ، و« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » [صحيح الجامع : ١١٧٥] ؛ فهو يبذل نفسه لمولاه ، ويذل وجهه لإلهه ، ويلتصق بالتراب طلباً لرضاه، ويعمر القلب بجلاله وجماله ، ويروي عطش الفؤاد بزلال الحب ، ونقي الهوى .

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم
وكان بكل الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه
فلست أراه عن فنائك يبرح
فلا تحرمُنَّ النفس من فيض جودكم
فلست أرى قلبي لغيرك يصلح

والسجود أصله ومعناه : الانحاء والتذلل ، وجعل بعد ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته ، وهو عامٌّ في الإنسان والحيوانات والجمادات ، وهو نوعان :

سجود اختيار ، وليس ذلك إلا للإنسان ، ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾

[النجم : ١٦٢] ، أي تذللوا له سبحانه .

وسجود تسخير ، وهو للإنسان والحيوان والنبات ، وكل ما في الأرض قال تعالى : ﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ [الرعد : ١٥] ، فهذا سجود تسخير ، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة ، وأنه أوجدها خالق حكيم ، وسميع عليم ، فكل شيءٍ في الكون ساجد لله ، ناطق بعظمته ، ماضٍ على حكمه ، مسخر بتسخيره ، ولا يشذ عن الكون كله إلا مردة البشر ، وحمقى الناس ، ممن أظلمت قلوبهم ، وفسدت نفوسهم ، ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثيرٌ حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [الحج : ١٨] .

فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه ، وهو الذي أهانه ترك السجود له ، فمن لم يسجد لله فهو ساجد لغيره لا محالة ، ومن أهانه الله فلا مكرم له ؛ فالسجود ذلّة وإهانة إذا كان لغير الله ، وهو عزة ورفعة إذا كان لله ، وإذا أردت أن ترتفع عند الله فانخفض له ساجداً وإذا أحببت القرب من الله فمرغ أنفك بالتراب وألصق وجهك بالثرى .

قال ﷺ : «عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك خطيئة» [صحيح الجامع:٤٠٥٠] .

ويقول ﷺ : «ما من عبد يسجد لله سجدة إلا كتب الله له بها حسنة ، وحطَّ عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة ، فاستكثروا من السجود» [صحيح الجامع : ٥٧٤٢] .

فما أروع السجود ، وما أجلّ منظره ، وأعجب هيئته ، الطريق إلى

السماء يبدأ من الأرض ، ومفتاح باب القرب بالسجود على التُرْب .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

(الله جل وعلا لما خلق العبد من الأرض ، وأوجده من الطين ، وسوّاه من الثرى ، ثم نفخ فيه من روحه ، كان جديرا بأن لا يخرج هذا المخلوق عن أصله ، ولا يتنكر لمعدنه، بل يرجع إليه كلَّ ما دعته النفس للخروج عنه ، فإن العبد لو ترك لطبعه ، ودواعي نفسه ، لتكبر وطغى ، وخرج عن أصله الذي خلق منه ، ووثب علي حق ربه من الكبرياء والعظمة ، فنازعه إياها ، فأمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربه وفاطره ، وخشوعاً له ، وتذللاً بين يديه ، وانكساراً له ، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل رداً له إلى حكم العبودية ، ويسجد على التراب الذي خلق منه ، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه ، وقد صار أعلاه أسفله خضوعا بين يدي ربه الأعلى وخشوعاً له، وتذللاً لعظمته ، واستكانة لعزّته ، وهذا غاية خشوع الظاهر ، فالله تعالى خلقه من الأرض ، واستعمله فيها ورده إليها ، ووعده بالإخراج منها ، فهي أمه وأبوه ، وأصله وفصله ، ضمته حيّاً على ظهرها ، وميتاً في بطنها ، وجعلت له طهراً ومسجداً ، فأمر بالسجود إذ هو غاية الخشوع ، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء ، فيعفر وجهه في التراب استكانة وتواضعاً وخضوعاً وإلقاء باليدين» ، ولهذا كان من كمال السجود الواجب أن يسجد على الأعضاء السبعة : الوجه ، واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين .

ومن كماله أن يكون على هيئة يأخذ فيها كل عضو من البدن بحصة من الخضوع، فيقلّ بطنه عن فخذيه ، وفخذيه عن ساقيه ، ويجافي عضديه عن جنبيه ، ولا يفرشهما على الأرض ، وذلك ليستقل كل عضو منه بالعبودية) .

وكان ﷺ إذا سجد فرّج يديه عن إبطيه حتى يُرى بياض إبطيه ، وكان يقول : «اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب» [صحيح الجامع : ١٠٤٢] .

إن السجود من دلائل الإيمان ، وكمال الإذعان ، وامتثال أمر الديان ، وإغضاب الشيطان .

يقول ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» [مسلم : ١١٥] .

والسجود لعظمته وجلاله لا يُمحى أثره ، ولا يزول مكانه حتى ولو دخل الإنسان النار ، يقول ﷺ : « .. حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار ، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود» [البخاري : ٧٦٤] .

وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوله : ﴿**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ [الفتح : ٢٩] .

فيا الله ما أروع منظر السجود لمن يتدبر ، بينا الإنسان منتصباً واقفاً عالي الهامة ، شامخ الأنف ، إذا به يسقط على وجهه ويخر لذقنه ، ويمرغ أنفه .

بينما الإنسان يأمر وينهى ، ويقول ويفعل ، ويصول ويجول ، إذا به منكباً على وجهه ، مفترشاً الثرى ، ناثراً للدموع ، مظهراً للفقر ، معلناً

بالذل ، معترفاً بالنقص .

والسجود لعظمته أطلق في القرآن الكريم ، وأُريد به الصلاة ، مثل قوله تعالى : ﴿ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ [ق : ٤٠] – أي الصلوات – والمساجد هي موضع الصلاة ، وسميت بذلك باعتبار السجود لأنه أفضل ما في الصلاة ، فهو مساجد للساجدين ، وداود – عليه السلام – لما أذنب فزع إلى السجود ﴿فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾ [ص : ٢٤] .

وسحرة فرعون لما علموا صدق موسى – عليه السلام – وكذب فرعون خرّوا لربهم سجدا ، فكانت تلك السجدة أول سعادتهم ، وغفران ما أفنوا فيه أعمارهم من السحر .

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، ويمّم وجهه لمولاه ، وكان يسجد في ظلمة الليل الحالك ، ويطيل السجود ويبكي حتى تبلّ دموعه الثرى ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم كما وصفهم علي بن أبي طالب – رضي الله عنه وأرضاه – بين أعينهم مثل ركب المعزى من كثرة السجود .

وكان عمر بن عبد العزيز يكون في شأن الرعية في نهاره ، فإذا أقبل الليل رمى بنفسه في محرابه ، وسجد لخالقه حتى كأنه جثة هامدة .

وكان ابن تيمية – رحمه الله – إذا أشكلت عليه مسألة عمد إلى مسجد قديم مهجور فمرغ وجهه بالتراب وسجد لله باكياً متذللاً ينادي ويهتف يا معلم إبراهيم علمني ، يا مفهم سليمان فهمني .

فالسجود أقرب هيئات المصلي إلى الله تعالى ، وأحبها إليه ، يقول

ﷺ : «أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا من الدعاء» [صحيح الجامع : ١١٧٥] ﴿ **كلا لا تطعه واسجد واقترب** ﴾ [العلق : ١٩] .

إذا سجد الإنسان فك سلاسل التقليد من الأعراف والعادات ، فخرّ ساجداً يمرغ جبينه لله تعالى ، وأعطى القلب زمامه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فلا حجر على الخشوع ، ولا ملامة على الدموع ، وقد غلى مرجل الصدر ، وفاضت كأس القلب ، واشتعلت حرقات الفؤاد ، إنها السجدة التي يرتعد لها القلب ، وترتعش لها الجبال الراسيات ، وتهتز بها الأرض ، ويرتعد لها الجبابرة والطغاة .

كان ﷺ إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة والسجود ، وإذا ضاقت به الأرض نادى : «أرحنا بها يا بلال» ، وإذا مرّ بآية سجدة سجد لله ، وإذا أعجبه الأمر أو بشر بالنصر سجد .

يروي سعيد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ رفع يديه فدعا الله ساعة ، ثم خر ساجداً فمكث طويلاً ، ثم قام فرفع يديه ساعة ، ثم خرّ ساجداً ، فعل ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : «إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي ، فخررت لربي ساجداً شكراً ، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً لربي شكرا ، ثم قمت فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الأخير ، فخررت ساجداً لربي عز وجل» .

دخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً عزيزاً معززاً كريماً مكرماً ، فلم يته فخراً وكبراً ، ولم يشمخ بأنفه ، ولم يظهر في مظهر التكبر والبهرج والخيلاء ، بل حنى ظهره إجلالاً لله حتى إن ذقنه كان يمس ظهر الدابة من شدة انحناءه وتذلله لربه عز وجل ، فالمؤمن إذا فرح بالأمور وأعجبه الشيء

وجاءته النعمة فإن أصدق ما يعبر به عن شكره لمولاه وإجلاله لخالقه ، وتقديره لربه ، أن يخرّ على الأرض ساجداً ، والمؤمنون ﴿**إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا**﴾ [مريم:٥٨] ، وإذا سها المسلم في صلاته ، وقصَّر في الأداء ، ونقَّص في العبادة ، فإن أصدق ما يعتذر به ، وأحسن ما يكفر به أن يسجد لله سجدتين ، وإن المؤمن إذا أراد أن يحظى بمرافقة المصطفى ، ويفوز بجيرة الحبيب ، فطريقه إلى ذلك كثرة السجود ، وإدامة الانطراح .

يقول ربيعة بن كعب – رضي الله عنه وأرضاه – : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال لي : «سلني ؟ » ، فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة . قال : «أوْ غير ذلك؟» ، قلت : هو ذاك ، قال : «فأعني على نفسك بكثرة السجود» [مسلم : ١١٢٥].

قال ﷺ : «وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم» [مسلم : ٧٣٨] .

في الركوع يعظم الرب جل وعلا ويثنى عليه بما هو أهله ، ونعترف أنه العظيم ، وأنه السبوح القدوس رب الملائكة والروح ، وذلك كله أشبه بمقدمة نقدمها بين يدي السجود ، فصاحب هذه الصفات العظيمة هو الذي يستحق أن نخر له سجداً وأن ننطرح بين يديه ، ونمرغ أنوفنا تقرباً إليه ، وفي السجود لم نؤمر بأن نقول سبحان ربي العظيم ، والكريم ، ولا غيرها من الأسماء والصفات ، إنما نقول سبحان ربي الأعلى ، فهو الكبير وهو المتعال وهو العظيم وهو الأعلى الذي يجب أن تنخفض المخلوقات لعزته ، وإلى هذا المعنى تشير الآية أيضاً ﴿**ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم**﴾

[النحل : ٥٠] فهم مؤمنون بعلوه وفوقيته جل وعلا فخضعوا له بالسجود إجلالاً وتعظيما .

أيها الأحبة .. وإضافة إلى كل ما مرّ من مزايا السجود وجلاله وعظمته وعظيم أجره عند الله تعالى ، فإن له من الفوائد الصحية ما يربو عن الحصر ، فالإنسان الذي يؤدي الفروض والسنن الرواتب فقط فهو يسجد في اليوم اثنان وسبعون مرة ، ومن فوائده بإيجاز :

١ – تغذية الرأس والدماغ بالدم ، فهو يحسن الدورة الدموية ودورة الدم في الرأس على وجه الخصوص .

٢ – المحافظة على مرونة العمود الفقري ، فالمداومة على السجود تبعد عنه أمراضاً كثيرة وخطيرة منها : التيبس – انكسار الفقرات – عرق النسا – الدسك .

٣ – تنشيط عمل الرئتين ، وزيادة مرونة الصدر .

٤ – تنشيط الجهاز الهضمي .. إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة في السجود خصوصاً وفي الصلاة عموماً حيث يصل عدد حركات أعضاء الجسم في اليوم الواحد إلى ستمائة وخمسة وعشرين حركة .

سبحان من لو سجدنا بالعيون له
على حمى الشوك والمحمى من الإبر
لم نبلغ العشر من معشار نعمته
ولا العُشير ولا عشراً من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه
سبحانه من مليك نافذ القدر

سـبـحـان من هو أنسي إذ خلوت به
في جـوف ليلي وفي الظلمـاء والسـحـر
أنـت الأنـيـس وأنـت الحـب يـا أمـلـي
من لـي سـواك ومن أرجـوه يا ذُخُـري

قبــل الصيــــام

هَلَّ هلالُه ، وخيمت ظلالُه ، وهيمن جلالُه ، وسطع جمالُه ، وعظم استقباله ، لاحت بشائر الرضى ، وأزلفت أيام الهدى ، وأقبلت ليالي التقى . .

القلوب فَرِحة ، والأنفس مشتاقة ، والعزائم متوقدة ، والأذهان متوثبة والأفئدة متطلعة ، شوقاً لرؤيته ، وحباً لطلعته ، وتيمناً بمقدمه . .

﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

إنه موسم الطاعة ، وميدان العبادة ، ومجال الصدقة ، وشهر التوبة ، أقبل في مدة يسيرة ، وفترة وجيزة ، وسرعة غريبة ، وسوف تنصرم أيامُه وتنقضي ساعاته ، وتسارع أوقاته ، فنفاجىء به وقد بقي قليلُه ، وأَزِف رحيله .

لقد زارنا مرات عديدة ، وحل علينا سنوات مديدة ، فما زارنا من عام إلا وجدنا أسوأ من العام الذي قبله ، أمم متناثرة ، وقلوب متنافرة ، ودول متقاطعة ، وأحزاب متصارعة ، وفتن محدقة ، وشهوات مفرقة ، وحقوق مسلوبة ، وشعوب منكوبة ، وحرمات مستباحة ، وأعراض منتهكة . . أتى ونحن في خلود إلى الأرض ، وانكباب على الشهوات ، وتنافس على الملذات ، وتسابق للمحرمات . سَهُلت المعصية ، وهانت

الخطيئة ، وفترت الحمية ، وتلاشت الغيرة ، وضعف الوازع ، وغاب الرادع إلا من رحم ربك . عظمت الفتن ، واشتدت المحن ، وادلهمت الأمور ، وفدحت الخطوب وليس لها من دون الله كاشفه .. فنسأله تعالى أن يهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامه والإسلام ، وأن يقبل الصيام والقيام ، ويتجاوز عن الخطايا والآثام .

يا من تردد عليك رمضان ، وتكرر عليك شهر القرآن ، ومرت بك السنين ، وطواك الزمان ، أما آن بعد الأوان ؟!! .

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ [الحديد : ١٦] .

ألم يأن استفهام استنكاري .. ألم يأتي الوقت ، ويحل الأوان بعد ، ولم يقل للناس بل للذين آمنوا ، لمن رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا **﴿ أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾** ، والخشوع هو التعظيم والمحبة والذل والانكسار ، والخشوع يكون في القلب ، فقد يكون الظاهر خاشعاً لكن القلب على خلاف ذلك ، فهذا خشوع مُزوَّر ، وتذلل مصطنع ، ولكن الخشوع الحق هو ما سكن في القلب ، واستقر في الفؤاد ، وظهرت على الجسم آثاره ، وقطفت ثماره .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [رواه مسلم] .

وقد رأى عمر - رضي الله عنه - رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة ، فقال : « يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع في الرقاب ، وإنما الخشوع في القلوب » .

﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق** ﴾ .

أما آن أن تلين القلوب للذكرى الحسنة والموعظة الصادقة . . آما آن للقلوب أن تخشع لما نزل من الحق ، للقرآن الكريم ، للذكر الحكيم، للدستور الخالد الذي أنزل في شهر رمضان ، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله !! .

﴿ **ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل** ... ﴾ يحذر جل وعلا عباده المؤمنين من اتباع سبيل اليهود المغضوب عليهم ، والنصارى الضالين . . الذين بعدت بهم الأيام ، وامتد الزمان ، وطال الأمد ، وبعدت المسافة ، فقست قلوبهم ، وجَفَتْ أفئدتهم ، وفسدت نواياهم ، وخبثت طواياهم ، وانصرفوا عن الحق ، وتنكبوا الصراط ، ونسوا ما أنزل إليهم من كتب ، ونبذوها وراء ظهورهم ، وحرفوا فيها، واشتروا بها ثمناً قليلاً ، ولم يتدبروا ما فيها ، ولم يعملوا بها ، وخانوا الرسالة ، وحاربوا الدعوة ونقضوا الميثاق .

﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾ [المائدة : ١٣]

يقول ابن مسعود – رضي الله عنه – : ما بين إسلامنا وبين أن خاطبنا الله بهذه الآية ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم** .. ﴾ إلا أربع سنوات أي أن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم هذا العتاب بعد أربع سنوات ، فكيف بنا بعد أربعة عشر قرناً من الزمان ؟ ما أحوجنا إلى مراجعة الأعمال، ومحاسبة النفوس ، وتزكية القلوب ، وتصفية النوايا .

ها هو موسم عظيم من مواسم الخير قد فتح بابه ، ونادى مناديه ، ودعى داعيه يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، وكأنه ينادي في رفق ولين ، وحب وترفق ، وحسرة وإشفاق .

ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم وتزكوا نفوسهم وتصفوا سرائرهم . .

ألم يأن للذين آمنوا أن يعودوا إلى نهجهم ويثوبوا إلى رشدهم ويعتصموا بكتاب ربهم ، وسنة نبيهم امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ألم يأن للذين آمنوا أن يفيقوا من غفلتهم ، ويصحوا من سباتهم ويعرفوا ماذا يراد بهم ، وكيف يكاد لهم . .

ألم يأن للذين آمنوا أن يعرفوا لهذا الشهر قدره ، وأنه شهر عبادة وموسم طاعة ، وأنه صيام عن اللغو والزور والرفث ، فليس موسماً للمسلسلات الهابطة ، ولا ميداناً للمسابقات والفوازير الساقطة في وقت يحارب فيه الإسلام ، ويهاجم فيه الدين ، وتنتهك الحرمات ، ويذبح فيه الأطفال والنساء ، ويشرد فيه الضعفة من أوطانهم ، وتحاك المؤامرات ، وتدبر الحيل ، وتعد الخطط لضرب الإسلام وأهله .

ألم يأن للذين آمنوا أن يبتعدوا عن الربا ، وأن يعلنوا التوبة عن التعامل به ، وهم يعلمون أن درْهم ربا أشد عند الله من ست وثلاثين زنية ، وأنه إعلان للحرب على الله ورسوله .

ألم يأن للذين آمنوا أن يحاربوا دواعي الزنا ، ويقطعوا أسباب الخنا ، وهم يعلمون أنه دمار للأسر ، وهتك للأستار ، وغضب للجبار ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

ألم يأن للذي أوتي أجهزة إعلامية ، وقنوات فضائية ، أو إذاعة صوتية ، فنشر بها الباطل ، وأظهر بها المنكر ، وأشاع بها الفاحشة ،

وأهلك بها المثل ، ودمر بها الأخلاق ، وأفسد بها الضمائر ، وهتك بها الأستار ، وأسخط بها الجبار . .

ألم يأن له أن يجعل هذا الشهر شهر صيام عن الخنا ، وإمساك عن الردى ، وإقبال على الله ، وبحث عن رضاه ؟!! فهو الذي أعطاهم الأموال فحاربوه بها ، وأغدق عليهم الرزق فانتهكوا به محارمه ، فـ ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] . . ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض** ﴾ [القصص : ٧٧] .

ألم يأن للذي بحّ صوته ، وشاخت حنجرته في الباطل . . أما آن له أن يتدارك ما بقي من العمر ، ويجعل من هذا الشهر فرصة للتوبة النصوح ومجالاً لتزكية الروح .

ألم يأن للكاتب الذي سخر قلمه ، ووظف بيانه في نشر الرذيلة ، وتزيين الباطل ، وتحسين المنكر ، وإثارة الشبهات ، والدعوة للشهوات ، ألم يأن له أن يكف زعاف السم من قلمه ويثوب إلى رشده ويتقي ربه ؟!! .

ألم يأن للتاجر الذي عاش على الحرام ، وغذي بالحرام ، وتجارته في الحرام ، ألم يأن له أن يستيقظ قلبه ، ويصحو ضميره ، ويجعل شهر رمضان فرصة لإعلان التوبة وإظهار الندم والرجوع إلى الله تعالى .

إن الإنسان إذا كانت معصيته في نفسه وخطيئته بينه وبين ربه فالأمر أهون ، والخطب أسهل ، ولكنك تعجب كل العجب من أناس يفتحون متاجرهم ، ويصرفون أوقاتهم ، ويقضون أعمارهم ، ويعيّشون أبناءهم من تجارة محاربة للدين ، ومفسدة للمؤمنين ، ومدمرة للمسلمين في أجسامهم أو أفكارهم أو عقائدهم أو أخلاقهم .

ألم يأن للذي سلط لسانه في الغيبة ، وأطلق عنانه في النميمة فأكل أعراض المسلمين ، ونهش لحوم المؤمنين .. ألم يأن له أن يتعود على صوم الجوارح عن اللغو والزور والرفث ، ويعلم يقيناً أن الصوم عن الأكل والشرب فقط لا يغني شيئاً ولا يجدي فتيلاً !! .

يقول ﷺ : « الصيام جُنَّة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني صائم » [انظر صحيح الجامع : ٣٨٧٧] .

فاندب زماناً سلفا .. سودت فيه الصحفا
ولم تزل معتكفا .. على القبيح الشَّنِع
كم ليلة أودعتها .. مآثماً أبدعتها
لشهوة أطعتها .. في مرقد ومضجع
فالبس شعار الندم .. واسكب شآبيب الدم
قبل زوال القدم .. وقبل سوء المصرع

ألم يأن للذين آمنوا أن يتذكروا بسرعة مرور الأيام ، وانقضاء الأوقات ، وتتابع الدهور ، وتعاقب الشهور ، أن يتذكروا بذلك رحيلهم عن الدنيا ، وفراقهم للأحبة ، ومسكنهم في الثرى ، ومبيتهم في القبور ، وقيامهم ليوم النشور ، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم .

ألم يأن لهم أن يعتبروا بمن صاموا معهم في السنين الخالية ، والأيام الفانية ، كم فارقوا من حبيب ، كم ودعوا من قريب ، أين هم الآن ؟ سل غنيهم ما بقي من غناه ، وسل فقيرهم ما بقي من فقره ، واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون ، وعن الأعين التي كانوا للذات بها

ينظرون ، وسلهم عن الجلود الرقيقة ، والوجوه الحسنة ، والأجساد الناعمة ، ما صنعت بها الديدان تحت الأكفان ، وأُكلت الِّلحيان ، وعفرت الوجوه ، ومحيت المحاسن ، وكسرت الفقار ، وبانت الأعضاء ، ومزقت الأشلاء ، أين حجابهم وقبابهم ، أين خدمهم وحشمهم ، أين كنوزهم وجمعهم ، كأنهم ما وطئوا فراشاً ، ولا وضعوا متكئاً ، ولا غرسوا شجراً ، ولا عمروا منزلاً ، ولا ركبوا فارهاً ، ولاحضروا منتدى ، ولا ساروا في سوق ، أضحو ووجوههم بالية ، وأجسادهم من أعناقهم بائنة ، وأوصالهم ممزقة ، وقد سالت الحدق على الوجنات ، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً ، ودبت دواب الأرض في أجسادهم ، ففرقت أعضاءهم ، وبددت أوصالهم ، تزوجت نساؤهم ، وقسمت أموالهم ، ونسيهم أبناؤهم .

﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون * فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [يس : ٥١ – ٥٤] .

الصيام

أقبل الضيفُ الكريم ، ودنى الموسمُ القديم ، وأتى الوافد العظيم ، ضيفٌ أعلى الله مقامه ، ورفع أعلامه ، وبارك أيامه . تطلعت الأنفس المؤمنة إلى رؤيته ، وتشوقت الأفئدة الطاهرة إلى طلعته ، وزاد ترقب القلوب الصافية إلى زيارته ؛ فهو وجهٌ وضاء ، ووافد معطاء ، يفيض بالرحمة ، وينبع بالجود ، ويتفجر بالهبات ، والعطاءات والنفحات . أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، فضّله الله على غيره من أقرانه ، وميزه على سائر إخوانه ، لما له من المكارم ، وما خُصّ به من المناقب ، وما حظي به من الفضائل ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

في شهر رمضان تلوح للمؤمن ذكريات عابقه ، وأمجاد رائعة ، وتاريخ مشرق ، ومجدٌ وضاء ؛ فهو تاريخ عريق ، ومجد وثيق ، وعبادة راسخة ، وشعيرة قديمة ، يضرب بجذوره في أعماق التاريخ ، ويمتد بفروعه إلى السماء ، ولا غرو فقد سقي بماء الوحي ، وشرب من رحيق الهدى ، وتضلع من زلال السماء ، فهو زمن اتصال الفناء بالبقاء ، والأرض بالسماء ، والضعف بالقوة ، والمغلوب بالغالب ، والفقر بالغنى ، والمخلوق بالخالق . رُصِّعت أيامه بجواهر الألفاظ السماوية ، وألبست لياليه حلل النفحات الإلهية ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ [القدر : ١] ، وتوجت لحظاته بروائع الكلمات الربانية ، وتألقت ساعاته باستقبال الأحرف

النورانية ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ [العلق : ١].

في أول يوم من أيامه أنزلت صحف إبراهيم ، وبعد مضي ستة أيام منه أنزلت التوراة على موسى – عليه السلام – ، وبعد مضي اثني عشر يوماً منه أنزل الزبور على داود – عليه السلام – ، وبعد مضي ثمانية عشر يوماً منه أنزل الإنجيل على عيسى – عليه السلام –وبعد مضي أربعة وعشرين يوماً منه أنزل القرآن على محمد ﷺ فالمحاسن متعددة ، والمفاخر متنوعة ، والمناقب متألقة . لقد كان ﷺ يتدارس القرآن مع جبريل في كل عام مرة في شهر رمضان ، إلا العام الذي توفي فيه فقد عارضه مرتين . لقد أتيحت الفرصة ، ودنت الغنيمة ، وهيئت المائدة ، فأين ذووا الألباب ، وأرباب النهى؟ ، أين أصحاب العقول النيرة ، والقلوب الحية ، والهمم العظيمة ، والعزائم القوية ؟ .

صعد ﷺ المنبر ، وهو يقول : «آمين ، آمين ، آمين» ثلاث مرات فسئل عن ذلك ، فقال : «أتاني جبريل وقال : يا محمد من أدرك رمضان ولم يغفر له ، باعده الله ، قل : آمين ، قلت : آمين ، فقال يا محمد من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة باعده الله ، قل آمين ، فقلت آمين ، ثم قال : يا محمد من ذُكرتَ عنده ولم يصل عليك باعده الله ، قل : آمين ، قلت : آمين » [أخرجه ابن حبان في صحيحه] ، فانظر كيف ربط بين رمضان ، وبين الوالدين ، وبين الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وذلك لأن الأبوين سبب في وجودك الحسي والمادي ، والرسول ﷺ سبب في وجودك الروحي والمعنوي ، وذلك بتلقيه للقرآن ، والقرآن كان نزوله في رمضان ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ [البقرة:١٨٥].

لعظمة هذا الشهر ورفعة منزلته فإن الله تعالى تولى الجزاء عليه بنفسه ، فهل لك أن تتخيل جود أرحم الراحمين ، وعطاء أكرم الأكرمين؟! ، يقول ﷺ : «قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» ، وفي رواية : «كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي» [أخرجه البخاري ومسلم] .

وقد هيأ الله تعالى باباً خاصاً في الجنة ، ومدخلاً مستقلاً لكبار الزوار من الصوام في الجنة باباً يقال له الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم . وإن من وفق إلى صيام هذا الشهر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه . إن بلوغ شهر رمضان أمنية المتقين ، ورغبة المؤمنين ، وهدية الموحدين ، وسلوة الطائعين ، وبستان الخاشعين ، لقد كان ﷺ يستبشر بقدومه ، ويدعو ربه ببلوغه فيقول : «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان» [رواه أحمد] ، ولقد كان يبشر به أصحابه ، ويذكرهم بعظمته ، ويدلهم على منزلته ، فيقول : «أتاكم شهر رمضان ، شهر بركة ، يغشاكم الله فيه برحمته ، ويحط الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، ينظر الله إلى تنافسكم فيه ، ويباهي بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فإن الشقي من حرم رحمة الله» .

فها هو شهر الصبر ، شهر التعود على الطاعة ، والبعد عن المعصية ، والانطراح بين يدي الرب ، وضبط النفس ، وكبح الشهوة ، ودفع النزوة ، ومحاربة الشيطان ، والقرب من الرحمن ، والترنم بالقرآن ؛ شهر البر والطاعة ، والصدقة والإنفاق ، والعزيمة والمسابقة ، والتناصح والتعاون ، شهر تهذيب النفس ، وتزكية الروح ، والتعود على الأخلاق الجميلة

والصفات الحميدة ، والفعال المجيدة . فهو زكاة النفس ، ورياضة الجسم ، ودواعي البر ، وهو للإنسان وقاية ، وللجماعة صيانة . في جوع الجسم صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، وإيقاد البصيرة ، فالشِّبَعُ يورث البلادة ، ويعمي القلب . والصوم حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ؛ لكل فريضة حكمة ، وهذه الحكم ظاهرها العذاب وباطنها الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، ويكسر الكبر ، وَيُحَجِّم البخل ، ويمنع البطر ، ويسن خلال البر . حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترفُ أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع وألمه إذا وقع .

لقد بين المولى جل وعلا أن الهدف الأعظم ، والحكمة الأسمى ، والقصد الأجل من فرض الصوم هو : الوصول إلى درجة التقوى ، التي هي أسمى الدرجات وأعلاها ، وأرفع المنازل وأعظمها ، فهذا هو المطلوب الأول الذي شرع الصيام من أجله ، ولكن هذا الدين الكريم ، والمنهج القويم ، والدستور العظيم ، ما أمرنا بشيء إلا وفيه الخير الكبير ، والمنافع الجَمّة ، والمصالح المتعددة ، وما نهانا عن شيء إلا وفيه الضرر الجسيم ، والخطر الوخيم ، والعذاب الأليم . ولقد أثبت الطب المتقدم ، والعلم المتطور أن الفوائد التي حواها الصيام لا حصر لها ، ولا عدد لها ، ففوائده عظيمة ، ومنافعه جليلة ، وهو أنجع دواء ، وأعظم وقاء ، بإذن رب الأرض والسماء .

هذا كتاب لبعض الدكاترة الكبار من غير العرب والمسلمين يتحدث فيه عن فوائد الصوم ومنافعه ، ويؤكد ويثبت بالأدلة والبراهين ، الصوم علاج ناجع . ودواء نافع لأمراض عديدة ، وعلل فتاكة ، إن لم يكن لكل

ذلك ، وقد ذكر بإيجاز ما هي الفوائد التي يجنيها الإنسان من الصوم ، فقال : إنك تصوم للأمور التالية :

لتخفيف وزنك بأسرع وأسهل طريقة – لتشعر بتحسن جسمي وعقلي – لتشعر بحيوية الشباب ، ولتبدو على أكثر ما يكون فتوة ونشاطاً – لكي توفر قسطاً من المال – لتعطي أجهزة جسمك فترة راحة مناسبة – لمعالجة العديد من الأمراض الشائعة – لتنظيف جسمك وتطهيره ، بإخراج الخبث والسموم منه – للتمكن من تخفيف كميات التدخين – لتخفيض معدل ضغط الدم ، وإنقاص مستوى «الكولسترول» فيه – لتستمتع بالجنس وتصبح أكثر شبقا – لتترك الفرصة لجسدك كي يرمم نفسه بنفسه – للتخلص من التوتر النفسي أو العصبي – لتنهي الاعتماد على الأدوية والمهدئات – لتنام بصورة أفضل – لتتمكن معدتك من القيام بعملها – هضم الطعام – بصورة أفضل – لتنظيم حركة الأمعاء – لتشعر بالنشاط والخفة – لصقل الحواس وإيقاظ المواهب – لتنشيط العمليات الفكرية – لتوفير الوقت – لمضاعفة احترام الذات – لتعلم عادات أكل أفضل – لمشاركة الجائعين جوعهم – لاكتساب القدرة على ضبط النفس – للسمو بالروح والوصول إلى الكشوفات الروحية – للتقيد بالشعائر الدينية – للفت الانتباه إلى الأمور الاجتماعية ذات الأهمية البالغة – لإبطاء عملية السير نحو الشيخوخة .

أيها المؤمنون قال نبيكم ﷺ : «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين» [أخرجه البخاري] ، وقال : «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن ، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق

منها باب ، وينادي منادٍ كل ليلة يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار ، وذلك كل ليلة » [أخرجه الترمذي وابن ماجة] .

إن الشياطين تصفد في رمضان ، ولكن من لنا بشياطين الإنس الذين تفلتوا من كل قيد ، وتحللوا من كل رباط ، لقد ظهر شياطين مردة ، وأبالسةٌ فجرة ، يستحي إبليس من فعالهم ، ويتعلم الشيطان وجنوده منهم ، ظهروا على المسلمين عبر شاشات الخنا ، وقنوات الرذيلة ، يبشرونهم ببرامج خلابة ، ومشاهد جذابة ، يعدونهم ويمنونهم بما سيقدمون لهم من أغنيات ماجنة ، ورقصات آثمة ، وأفلام ساقطة ، ولا يستحيون حينما يتبجحون فيقولون للناس : إن ذلك بمناسبة رمضان المبارك ، وأي بركة ، وقد برك إبليس على قلوبهم ، وجثم الباطل على صدورهم ، وعشعش الخنا في ثنايا نفوسهم ، وأعماق حياتهم؟! ، ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلو ميلاً عظيما** ﴾ [النساء : ٢٧] .

إنني أدعو كل مسلم أن يتقي الله في هذا الشهر الكريم ، فوالله لا ينفع إمساك عن الطعام والشراب مع إطلاق للجوارح في هذه المآثم ، وتلك المخازي ، قال ﷺ : « الصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب » [رواه البخاري] ، وقال : « ليس الصيام من الأكل والشرب ، وإنما الصيام من اللغو والرفث » [صحيح ابن خزيمة] ، وقال جابر – رضي الله عنه – : « إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم » ، فلنحذر أيها الأحبة كي لا نكون ممن قيل فيهم : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا** ﴾ [الفرقان :٢٣] .

وإنني أدعو وسائل الإعلام في بلادنا أن تحارب هذه الرذائل ، وأن لا

تجعل منها قدوة ، وأن تعمر أوقاتها بما يتناسب مع هذا البلد الطيب ، والمجتمع المسلم ، وأن يكونوا قدوة حسنة ، وأنموذجاً فريداً ليديم الله علينا أمننا وأماننا ، وأنسنا ورخاءنا . أسأل الله أن يحفظهم من كل سوء ، وأن يقيهم من كل مكروه . ولنعلم أن الذي يمكث في الأرض هو ما ينفع الناس ، وأما الزبد فيذهب جفاءً ، قال سبحانه : ﴿**وليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ [النور :٦٣] .

الخزائن التي لا تنفد

ويتجرأ اليهود على الله عز وجل على عادتهم التي عرفوا بها ، من التألي على الله تعالى والافتراء عليه ، فيصل بهم الخبث والكفر إلى أن يقولوا : ﴿**يد الله مغلولة**﴾ [المائدة : ٦٤] ، وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من سوء تصوراتهم وافتراءاتهم على الله ورسله وكتبه وعباده الصالحين ، فقد قالوا في جرأة ووقاحة : ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾ [آل عمران : ١٨١] وذلك حينما سئلوا النفقة في سبيل الله ، وقالوا يد الله مغلولة ، يعللون بذلك بخلهم .

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، وخبث نفوسهم أنهم لم يعبّروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي افتروا به على الله تعالى وهو البخل ، لم يعبروا عنه بلفظه المباشر ، فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفرا ، فقالوا : ﴿**يد الله مغلولة**﴾ ، هذه المقولة الخبيثة ، والشبهة الماكرة يوردها القرآن الكريم ليرد عليها ، وليخلد لعن قائليها ومقتهم على ألسنة الناس إلى يوم القيامة . ثم انظر إلى بلاغة القرآن وإعجازه حيث يورد الشبهة مختصرة موجزة لفظاعتها وشناعتها وخستها ، ثم يطيل ويفصل في الرد عليها ، وهذا هو الأسلوب الأمثل ، والمنهج الأقوم . فإن بعض الناس إذا أراد أن يتكلم على شبهة معينة أطال في بيانها وتفصيلها ثم أوجز واختصر في الرد عليها ، والواجب عكس ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** .. ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وقصدهم بقولهم ﴿ **مغلولة** ﴾ أي بخيلة .

وقد رد الله عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وأتفكوه ، فقال : ﴿ **غُلَّت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ ، وقد وقع لهم ذلك فأصبحوا أبخل الناس ، وأحسد الناس ، وأجبن الناس ﴿ **ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس** ﴾ [آل عمران: ١١٢] .

﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ ، فهو واسع الفضل ، جزيل العطاء ، ما من شيءٍ إلا عنده خزائنه ، وما يخلقه من نعمةٍ إلا منه وحده لا شريك له . خلق لعباده كل ما يحتاجون إليه في ليلهم ونهارهم ، وحضرهم وسفرهم ، وفي جميع أحوالهم ، قال تعالى : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، فهو أكرم الأكرمين ، لا تغيض نفقاته بمرِّ السنين ، ولا يمل سؤال السائلين ، ولا يتبرّم بإلحاح الملحِّين ، ولا تختلف عليه حوائج الطالبين .

قال ﷺ : «إن يمين الله ملأى لا يَغيضُها نفقة – يعني لا ينقصها – سحّاءُ الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى القبض ، يرفع ويخفض» [أخرجه البخاري] .

فسبحانه من خلاق عظيم ، جوادٍ كريم!! ؛ الكرم صفة من صفاته ، والجود من أعظم سماته ، والعطاء من أجلّ هباته ، فمن أعظم منه جوداً؟! الخلائق له عاصون وهو لهم مراقب ، يكلؤهم في مضاجعهم

كأنهم لم يعصوه ، ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا ، يجود بالفضل على العاصي ، ويتفضل على المسيء . من ذا الذي دعاه فلم يستجب له أم من ذا الذي سأله فلم يعطه ، أم من ذا الذي أناخ ببابه فنحاه؟ فهو ذو الفضل ومنه الفضل ، هو الجواد ومنه الجود ، وهو الكريم ومنه الكرم .

وإن كرم الله تعالى وجوده وعطاءه شمل كل الأمور المادية والمعنوية ؛ المادية كأنواع الرزق التي أخرجها لعباده ، وصنوف الثمار وألوان النعم ، وكنوز الأرض، وإنزال الغيث، والإمداد بالأموال والبنين وغير ذلك من جود رب العالمين . والمعنوية كَسعَة المغفرة ، وغفران الذنوب وعظمة الأجور، وشرح الصدور ورفع المنزلة، وإعلاء الدرجة .

وإن الجواد الكريم ، يحب من كان جواداً كريماً ، ولذلك فإنه تعالى يحب الكريم ، ويعلي درجة الجواد ، ويعظم أجر المنفق ، ويخلفه في إنفاقه ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ويقول تعالى : ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ **وأنفقوا خيراً لأنفسكم** ﴾ [التغابن : ١٦] .

فهو كريم يحب الكرم ، منفق يحب الإنفاق ، ذو فضل وعطاء ، يحب أهل الفضل والعطاء ، وإن له جل وعلا أزمنة يعظم فيها عطاؤه، ومواسم يكثر فيها جوده ، ومنها شهر رمضان الكريم ، وفيه أنزل قوله : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وفي الحديث القدسي قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله – عز وجل – : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » [رواه مسلم] .

وقال في الحديث القدسي أيضاً : «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أدخل البحر» [أخرجه مسلم].

وقال أيضاً عن كرمه وجوده : «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي» [أخرجه الترمذي] ، فما هو الكرم إن لم يكن كرمه ، وما هو الجود إن لم يكن جوده ، وما هو العطاء إن لم يكن عطاؤه؟!. وإن الله جل وعلا لما أحب هذه الصفات وارتضاها لنفسه غرسها في أحب الناس إليه ، وأقربهم منه ، وهو نبيه ﷺ ، فهو أكرم بني آدم وأجودهم وأكثرهم عطاء وأعظمهم قال عنه أنس – رضي الله عنه – : «كان النبيُّ ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس» [رواه البخاري].

ولقد كان الجود والكرم والبذل والعطاء من الصفات التي جبل عليها ونشأ على حبها ، وتعلق قلبه بها ، حتى قبلِ مبعثه ﷺ ، ولذلك حينما بُدىء بالوحي ، فعاد إلى خديجة خائفا وجلا ، وقال لها : لقد خشيتُ على نفسي ، قالت : «والله لا يَحْزُنك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق» [رواه الشيخان] ، ثم تزايدت هذه الخصال ، وتعمقت هذه الصفات في نفسه ﷺ بعد مبعثه .

يقول أنس – رضي الله عنه – : «ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين . فرجع إلى قومه فقال : يا قوم! أسلموا . فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة» [رواه مسلم].

ولقد كان عطاؤه ﷺ وجوده بجميع أنواع الجود ، من بذل العلم ، وبذل المال ، وبذل النفس في سبيل الله تعالى ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلمته . وكان يبذل المال إما لفقير أو محتاج أو في سبيل الله أو يتألف به على الإسلام من يقويّ الإسلام بإسلامه ، وكان يؤثر على نفسه وأهله فيعطي عطاءً يعجز عنه ملوك الدنيا ، ويعيش في نفسه عيش الفقراء ، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نارا ، وربما ربط الحجر على بطنه من الجوع . يقول جابر بن عبد الله : «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط ، فقال : لا» [متفق عليه] .

ما قال لا قط إلا في تشهده
لولا التشهد كانت لاؤه نعم
يكاد يمسكه عرفان راحته
ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم

في عودته ﷺ من حنين كثر عليه الأعراب يسألونه ويستجدونه حتى اضطروه إلى سَمُرة – نوع من أنواع الشجر – فخطفت رداءه ، فوقف النبي ﷺ ، فقال : «أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاة نعم لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جبانا» [أخرجه البخاري] .

تعوّد بسط الكفِّ حتى لَوَ انّهُ
ثناها لقبضٍ لم تجبه أنامله
هو البحرُ من أيِّ النَّواحي أتيتَهُ
فلجتُه المعروفُ والجودُ ساحله
ولو لم يكنْ في كفِّه غير روحه
لجاد بها فليتق الله سائله

وإليك الآن موقفاً أطرف ، وخبراً أعظم ، وقصة أمتع ، لترى من خلالها الجود المتأصل ، والكرم المتعمق ، والمعجزة الإنسانية . ضع يدك على قلبك وأنت تسمع هذه الواقعة الرائدة ، والوقفة الماجدة :

جاءت امرأة إليه ﷺ ببردة منسوجة ، فقالت : نسجتها بيديّ لأكسوكها ، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها ، فخرج إلى أصحابه وإنها لإزاره ، فقال فلان : أكسنيها ما أحسنها – علم أنه ﷺ لا يقول لا – ، فقال : «نعم» ، فجلس النبي ﷺ في المجلس ثم رجع فطواها ، ثم أرسل بها إليه ، فقال له القوم : ما أحسنت ، لَبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها ، ثم سألته وعلمت أنه لا يرد سائلاً ، فقال : إني والله ما سألته لألبسها ، إنما سألته لتكون كفني ، فكانت كفنه!!» [أخرجه البخاري] فما أعظمه من مسئول ، وما أعجبه من سائل، وما أسعد حظه ، وأوفر نصيبه ، حيث تسجّى بتلك البردة بعد ذلك الجسد الطاهر!! .

كأنك في الكتاب وجدت لاءً
محرمة عليك فلا تحلُّ
إذا حضر الشتاء فأنت شمس
وإن حضر المصيف فأنت ظلّ
وما تدري إذا أنفقت مالاً
أيكثر من عطائك أو يقلّ

اللهم صلِّ وسلم على أبر الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس .

لقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حيث يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فَلَرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من

الريح المرسلة» [متفق عليه].

ولا شك أن المخـالطة تؤثر وتورّث أخـلاقـاً من المخـالَط ، فكيف بمن يخالط جبريل ، ويتلقّى عن الجليل؟!.

لمست بكفي كَـفَّـهُ أبتـغي الغنى
ولـم أدر أن الجـود من كـفـه يعـدي

فلنقتد بنبينا ، ولنعلم أن الجواد قريب من الله ، قريب من خلقه، قريب من الجنة ، بعيد عن النار .

الإنفــاق في عهد الصحابــة

وهكذا يتلقى الصحابة عن الرسول ﷺ دروساً في الكرم والجود ، والبذل والإنفاق ، والبر والمعروف . لقد عُمرت قلوبهم ، وتعلقت أفئدتهم بربهم جلّ وعلا ، وعرفوا جوده وإحسانه ، وكرمه وامتنانه ، ثم عاشوا مع نبيهم ﷺ فرأوا كرماً لا مثيل له ، وجوداً كالريح المرسله ، علمهم الكرم قولاً وفعلا ، ودرساً وتطبيقا ، لفظاً وتحقيقا ، فمضوا مستنيرين بنهج القرآن العظيم ، وبهدي النبي الكريم ، فضربوا للدنيا أروع الأمثلة في الكرم ، ورصعوا جبين التاريخ بأصدق الحقائق في الجود ، وتوجوا هامة الزمان بأعاجيب البر والبذل والإحسان .

كيف لا؟! وهم أول من أسلم ، وأصدق من آمن ، وأفضل من صدّق أتاهم الوحي وهم في شوق إلى لقائه ، وتشوف لرؤيته ، وتطلع لروعته ، أناروا به قلوبهم ، وأحيوا به أنفسهم ، وعمروا به أوقاتهم . لا كتاب لهم غيره ، ولا منهج لهم سواه ، ولا شاغل لهم عنه ، فأقبلوا عليه قراءة وتدبرا ، وتفكراً وتأمّلا ، وتطبيقاً وتمثّلا ، لم يمتنعوا من الإنفاق خشية الفقر ؛ لأن مولاهم ناداهم بقوله : ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾ [سبأ : ٣٩] ، ولم يخافوا أن تُبخس أجورهم لأنه قال لهم : ﴿ **وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في**

كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء .. ﴾ [البقرة : ٢٦١] ، ثم كادت تطيــر قلوبهم لندائه جل وعــلا لهم ، ذلك النداء الإيماني ، في ذلك الأسلوب الحاني : قال تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فدمعت الأعين ، واشتاقت الأنفس ، واستجابت القلوب ، فتسابقوا ليقرضوا ربهم ، ويرضوا مولاهم فلنتأمل شيئاً من قصصهم في الإنفاق ، وبعضاً من روائعهم في البذل، لنذكي بتأملها جذوة الإيمان في نفوسنا ، ونحيي بسماعها روعة الإنفاق في حياتنا ، والقصص عظيمة ، والمواقف متعددة ، والأخبار عجيبة .

فهذا أبو بكر الصديق – رضي الله عنه وأرضاه – رائد الإنفاق الأول بعد النبي ﷺ ، حيث كان يجود بكل ما يملك في أحيان كثيرة ، يقول عمر – رضي الله عنه وأرضاه – : أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ، ووافق ذلك مالاً عندي ، فقلت اليوم أسبقُ أبا بكر رضي الله عنه – إن سبقتُه يوماً – ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك؟ » ، قلت : أبقيت لهم ، قال : « ما أبقيت لهم » ، قلت : مثلَه ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال ﷺ : « يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قال عمر : قلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً [رواه أبو داود] .

وإن أعجبتك هذه القصة فاعلم أن لأبي بكر غيرها كثير ، بل إنّ هذا البيت كلّه بيتُ جودٍ وكرم وإنفاق ، فعائشة وأسماء من أكرم النساء ، ولقد كان لأبي بكرٍ – رضي الله عنه – موقفاً قبل هذا أخذ فيه ماله كله لينفقه في سبيل الله ولنصرة رسول الله ﷺ ، تقول ابنته أسماء – رضي الله عنهما – : لما خرج رسول الله ﷺ ، وخرج أبو بكر – رضي الله

عنـه – معه « مُهاجَرَيْن » احتمل أبو بكر ماله كله معه ، فدخل علينا جدّي أبو قحافة ، وقد ذهب بَصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيرا ، قالت : وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوّة البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس إذا كان قد ترك هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك [رواه أحمد] .

فإذا ما انتقلنا من ساحة أبي بكر إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – نجد آية أخرى من آيات البذل والعطاء والإيثار . عمر لم يكن صاحب مال كثير ، ولا تجارة واسعة ، ولكنه كان يجود بأنفس ما عنده ، وأحسن ما لديه ، وقد تولى أمور المسلمين فآثرهم على نفسه ، وقدمهم على بنيه ، حتى كان بطنه يقرقر من الجوع وهو يخاطبه قائلاً : قرقر أو لا تقرقر ، والله لا تشبع حتى يشبع أطفال المسلمين ، وله قصص كثيرة وعظيمة في تفقده للمسلمين ، وسؤاله عن أحوالهم ، وسعيه بنفسه لإطعامهم والإنفاق عليهم .

خرج مرة إلى السوق فلحقته امرأة ، فقالت : يا أمير المؤمنين هلك زوجي ، وترك صبيةً صغاراً ، والله ما ينضجون كُراعاً ولا لهم زرع ولا ضرع ، وأنا بنت فلان بن فلان ، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ فوقف عمر ثم قال : مرحباً بنسب قريب ، ثم انصرف إلى بعيرٍ شديد الظهر قويٍّ على الرحلة كان مربوطاً في الدار ، فحمل عليه عدلين ملأهما طعاماً ، وجعل بينهما نفقةً وثياباً ، ثم ناولها خطامه ، ثم قال : اقتاديه ، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير .

وكان عثمان بن عفان – رضي الله عنه وأرضاه – آية للسائلين، وأنموذجاً للباذلين، وقد أنفق أموالاً عظيمة في سبيل الله تعالى، وهو الذي جهز جيش العسرة؛ قيل بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وقيل بعث إلى النبي ﷺ بعشرة آلاف دينار، وقيل جاء بسبعمائة أوقية ذهب وقد دعا له رسول الله ﷺ دعاءً كثيراً وقال: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» [رواه أحمد]، وفي يوم من الأيام أقبلت له عير كثيرة محملة بالأطعمة والأرزاق، فتسابق التجار إليها لشرائها، وأخذوا يزاودون عليها وهو يقول: أعطيت أكثر من هذا، حتى قالوا له: نحن تجار المدينة، فمن هو الذي أعطاك أكثر منا؟، قال: الله جل وعلا أعطاني بالحسنة عشر أمثالها، إنني أنفقها في سبيل الله تعالى، فأنفقها كلها في سبيل الله تعالى.

أما أبو طلحة – رضي الله عنه وأرضاه –، فقد وقف ملياً أمام قوله تعالى: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ [آل عمران: ٩٢]، فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرُحاء – وهي عين عذبة متدفقه – وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح» [متفق عليه].

أما أبو الدحداح – رضي الله عنه وأرضاه –، فقد لفت نظره قول الله تعالى: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً**﴾ فعجب من ذلك، كيف يطلب الله جل وعلا، وهو الغني الكريم يطلب القرض من عباده، فقام إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، إن الله يريد منا

القرض؟ قال : «نعم يا أبا الدحداح» ، قال : أرني يدك ، فناوله يده ، قال : إني أقرضت ربي حائطي – وحائطه من أكبر بساتين المدينة ، وقد كان فيه ستمائة نخلة – فجاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعيالها ، فنادى : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي .

وهكذا كانوا – رضي الله عنهم – يستجيبون استجابة سريعة لله ولرسوله ، فلا تنزل الآية إلا تسابقوا لتطبيقها ، ولا يدعوهم ﷺ إلا سارعوا إليه ، وبادروا في تلبية مراده ، والعمل بقوله .

دعاهم مرة إلى الصدقة ، فسارع كل منهم بما يستطيع ، فجاء عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – ، وما أدراك ما عبد الرحمن بن عوف! ، دعاهم ﷺ للصدقة فجاء عبد الرحمن ابن عوف ، فقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف ، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي ، فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت . فكان هنالك رجل فقير تذوب نفسه حسرة ويتقطع قلبه ألماً لأنه لا يجد ما يُنفق ، ولا يملك ما يتصدق به ، وهو أبو عقيل – رضي الله عنه وأرضاه – ، فذهب إلى أناس وأجر نفسه عليهم يجرّ لهم الماء على ظهره ليلته تلك على أجرةٍ قدرها صاعان من تمر ، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير – الحبل – الماء حتى نلتُ صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما لأهلي ، وأتيتك بالآخر ، فقال له ﷺ : انثره في الصدقة ، فسخر منه المنافقون ، وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن صاعك هذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون**

إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ [التوبة : ٧٩].

كان أهل المدينة عيالاً على عبد الرحمن بن عوف ، ثلث يقرضهم ماله ، وثلث يقضي دينهم ، وثلث يصلهم ويعطيهم .

وَقَدِمَتْ له سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما وصلت المدينة أنفقها كلها بأحمالها وأحلاسها في سبيل الله .

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني مجهود - أي أصابني الجهد - وهو المشقة والحاجة والجوع ، فأرسل النبي ﷺ إلى بعض نسائه ، فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء . فقال رسول الله ﷺ : «من يضيف هذا الليلة؟» ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلى رحله ، فقال لامرأته : هل عندك شيء ، فقالت : لا إلا قوت صبياني ، قال علليهم بشيء ، وإذا أرادوا العشاء فنوميهم ، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنَّا نأكل ، فقعدوا وأكل الضيف ، وباتا طاويين ، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال له : «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة» [متفق عليه].

فكيف يهنأ المسلم بالنوم ، وبعض جيرانه لا يجد ما يأكل؟! وكيف يتذوق المؤمن طعم العيش ، وإخوانه المسلمين في أرجاء الدنيا يموتون جوعا ، ويتساقطون فقراً ، ويذوبون حسرة ، ويموتون كمدا؟! ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى** ﴾ [الليل: ٧].

نسأل الله جل وعلا أن يوفقنا إلى الاقتداء بهؤلاء العظماء ، وأولئك النجباء ، فإنهم قدموا أرواحهم ، وأموالهم في سبيل الله تعالى فلم يبخلوا ، ولم يجبنوا ، ولذلك رفع الله تعالى شأنهم في الدنيا والآخرة .

فلنبادر إلى محاكاتهم ، والسير على منوالهم فإن الإنفاق أجره عظيم وجزاؤه كبير ، يقول تعالى : ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ [سبأ : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم** ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، فأسند الفضل إلى فضله ، والزرق إلى خزائنه ، والعطاء إلى نفسه جل وعلا ، فهو المعطي والمتفضل .

ويقول ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [رواه البخاري] .

وقال ﷺ : «اتقوا النار ولو بشق تمره» [متفق عليه] ، ولذلك كانت عائشة تتصدق بحبة العنب ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : كم فيها من مثاقيل الذر ، تشير إلى قوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ [الزلزلة : ٧] .

وقال ﷺ : «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفا» [أخرجه البخاري ومسلم] .

ويقول ﷺ : «أيكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟» ، قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحبُّ إليه ، قال : «فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخّر» [أخرجه البخاري] .

العيد السعيد

قال المولى جل وعلا : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لما في الصدور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٧] .

الفرح بفضل الله ، والبهجة برحمته ، والأنس بجوده ، والسرور بعطائه ، والسلوان بهدايته ، والسعادة بمنهجه ، هذا هو الفضل الذي يُفرح به ، وتلك هي الرحمة التي يسعد بها ؛ الفضل الذي أنعم الله به على عباده من دين قويم ، وكتاب عظيم ، ونبي كريم ، ورحمته التي أفاضها على أوليائه ، حيث شملهم بلطفه ، وعمهم بعفوه ، وهداهم إلى طاعته ذلك هو الذي يستحق الفرح ، لا المال ، ولا الجاه، ولا السلطان ، ولا أعراض هذه الحياة الدنيا . إن ذلك هو الفرح العلوي ، والابتهاج القدسي ، الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية ، والشهوات المادية ، والأعراض الزائلة ، والمظاهر الخادعة ، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ، ويجعلِ الإنسان فوقها ، وهو يستمتع بها ، لا عبداً لها خاضعاً لذلها ، مكبلاً برقِّها . إن المسلم يجب أن يكون مطمحه أعلى من هذه الأعراض ، وآفاقه أسمى من دنيا الأرض . فالإيمان هو النعمة ، وتأدية مقتضى هذا الإيمان هو الهدى ، فالفضل الأول والرحمة الأولى هو ما جاء من الله من موعظة وهدى ، وهو ما وفق له العبد من طاعة وعبادة وخشوع وخضوع ؛ أما المال والثراء وأعراض الدنيا فهي تابعة لذلك وسبب لما هنالك .

يقول إبراهيم بن موسى : كنت مع فتح الموصلي في يوم عيد ، فرأى أناساً عليهم الطيالسة والعمائم والملابس الفخمة ، فقال : يا إبراهيم أما ترى ثوباً يبلى وجسداً يأكله الدود غداً ، كم من أقوام أنفقوا خزائنهم على ظهورهم وبطونهم ويَقْدُمون على ربهم مفاليس .

عسى وعسى من قبل وقت التفرق
إلى كل ما نرجو من الخير نلتقي
فَيُجبر مكسور ويقبل تائب
ويُعتق خطّاء ويُسعد من شقي

لما قدم خراج العراق على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هي كثيرة جداً ، وجعل يقول : الحمد لله تعالى الحمد لله تعالى ، فجعل مولاه يقول له : هذا والله من فضل الله ورحمته – وهذه طريقة كثير من الجلساء وفئام من البطانة – ولكن ذلك الكلام المعسول لم يستهو فؤاد عمر ، ولم تطرب له نفسه ، بل صرخ في وجهه قائلاً له : كذبت ، ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾** [يونس : ٥٨] هذا كان فهم عمر ، وذلك كان فقه السلف ، فالفرح والبهجة بالدين والطاعه والإيمان ، وما سوى ذلك فهو تبع له وسبب عنه .

وها نحن اليوم نعلن سرورنا ، ونبوح بفرحنا ونصدح بابتهاجنا ، فرحاً بفضل الله ، وسروراً برحمة الله ، وما أعظمه من فضل! وما أوسعها من رحمة ! هدانا لطاعته ، ووفقنا لعبادته ، وأعاننا على ذكره وشكره ، وفتح لنا أبواب رحمته ، ودعانا إلى جميل عفوه ، وسعة مغفرته ، وعظيم عطائه ؛ لقد عشنا ساعات من أروع ساعات العمر ، وأطيب أوقات الحياة ، مع ذلك الشهر المبارك ، شهر الأمة الإسلامية ، شهر المغفرة

والرحمة ، شهر الجود والعطاء ، شهر القرآن والانتصار على الطغيان ، زادٌ لما بعده من الشهور ، وأخذٌ للعدة في مستقبل الأيام ، اجتهد فيه أقوام جعلوا رضا الله فوق أهوائهم ، وطاعته فوق رغباتهم ، اليوم عيد من أحسن الصيام ، واجتهد في القيام ، وأطعم الطعام ؛ اليوم سرورٌ لمن حفظ صيامه ، وصان لسانه ، وزكى فؤاده ، وراقب ربه ، وبذل ماله ، وأيقظ أهله ، اليوم عيدٌ لمن حافظ على الجمعة والجماعة ، وأذعن لربه بالطاعة ، هذا هو الذي يفرح وذلك هو الذي يُسّر .

وإن المحروم هو من أدرك هذا الموسم العظيم ثم لم يظفر من مغانمه بشيء ، حجبه الإهمال ، وأخّره الكسل ، ومنعه التهاون ، وغرّه طول الأمل ، قال ﷺ : « رغم أنفه » قيل : من يا رسول الله؟ ، قال : « من أدرك رمضان فلم يغفر له » [أخرجه ابن حبان] ، ليس العيد أن تتطيب بالأطياب ، وترتدي أحسن الثياب ، وإنما العيد لمن صام وصلى ، وتاب وأناب ، العيد لمن لبس ثياب الورع ، وتردى برداء الخشية ، وتطيب بطيب الصدق ، وتزين بحلية الإيمان .

وإن من المؤسف أن يوفق أناس لعمل الطاعة ، والتزود من الخير ، ثم إذا ما انتهى الموسم نقضوا ما أبرموا ، وهدموا ما بنوا ، ونكصوا على أعقابهم ، وتركوا الطاعة وعادوا للمعصية ، فتلك هي النكسة الكبرى ، والخسارة العظمى ، قال تعالى : ﴿**ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا**﴾ [النحل : ٩٢] .

يجب على المسلم أن يداوم على الطاعة ، ويستمر في العبادة في جميع أوقات حياته ، وفي كل ساعات عمره ، قال تعالى : ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ [الحجر : ٩٩] .

فإياكم والكسل بعد الجد ، والتواني بعد العزم ، ومقارفة الآثام بعد

أن نجانا الله منها ، فما أعظم البشرى اليوم لعباد الله الطائعين ، وما أعظم سعادتهم يوم يقوم الناس لرب العالمين!! ، فيجدون ما قدموا ويسرون بما عملوا ، ويفرحون بما بذلوا ، « للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه » [رواه مسلم].

وإن الذي فاته الركب ، وخانه الحظ ، وخالفه التوفيق ، لم تقفل الأبواب في وجهه ، ولم تغلق السُّبل دونه ، فباب التوبة مفتوح ، والمجال مفسوح ، ما لم تغرغر الروح . وليعلم المقصر أنه يعبد رباً رحيماً وسعت رحمته كل شيء ؛ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، عظيمٌ عفوه ، واسعةٌ رحمته ، وكثيرٌ جوده ينادي عبده نداء المتلطف ، ويدعوه دعوة المشفق ، فيقول جل وعلا : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فما أعظم جوده ، وما أوسع رحمته! . جعل الرحمة مائة جزء ، أنزل منها في الدنيا جزءاً واحداً به يتراحم الخلائق فيما بينهم ، حتى إن الدابة ترفع حافرها خشية أن تطأ وليدها ، وادّخر عنده تسعة وتسعين جزءاً يرحم بها العباد يوم القيامة !! .

روي عن وهب بن منبه أنه قال : خرج ثلاثة أحبار إلى العيد فقال أحدهم : اللهم إنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن نعتق العبيد في هذا اليوم ونحن عبيدك فاعتق رقابنا من النار ، وقال الآخر : اللهم إنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن لا نرد المساكين ونحن مساكينك فلا تردنا ، وقال الآخر : اللهم إنك أمرتنا فيما أنزلت علينا أن نعفو عمن ظلمنا ونحن عبيدك ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت أرحم الراحمين .

إن العيد نعمة من نعم الله تعالى على أمة الإسلام ، فهو ابتهاج

بالطاعة ، وفرح بالنعمة ، وشكر على التوفيق ، وإعلان للأنس بمنهج الله وطاعته .

فـــاهنأ بطالعـــه الســـعـــيـــد يزينه
عـــيـــد الفـــقـــيـــر وليلة الأرزاق
يتنزل الأجــران في صــبــحــيــهــمــا
جــــزْلين عن صــــوم وعن إنفــــاق

أيها المؤمنون ، إننا وإن فرحنا ففي النفس لوعة ، وإن أظهرنا سرورنا ففي القلب حسرة ، وإن أبدينا أنسنا ففي الأعين دمعة . فكيف لجسد يأنس ويسلو والمرض يلتهم أطرافه ، والداء يدب في أوصاله؟! ، وكيف لجسم أن يفرح ، والسيف يغرس في خاصرته؟! ، وكيف لفؤاد أن يسعد والرمح يسدد إليه؟! ، «مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» [متفق عليه] .

فكيف نفرح ، والمسلمون تغتصب بلدانهم ، ويشرد أطفالهم ونساؤهم وتنتهك أعراضهم وتهان مقدساتهم؟! ، كيف نسعد ونفرح ، والإسلام أنى نظرت إليه في بلد تجده كالطير مقصوصاً جناحاه؟! ، إذا كنا في نعمة عظيمة وخيرات جسيمة ، وأمن وأمان ، وأنس واستقرار ، فإن كثيراً من المسلمين يعيشون الويل والعناء ، والذل والمهانة ، والفقر والمسغبة والتسلط والعدوان ، ولكننا نبتهل إلى الله جل وعلا أن يصلح أحوالهم وأن يكبت أعداءهم ، وأن يبث البهجة والسرور في قلوبهم .

إن العيد في الإسلام غبطة في الدين ، وفرح بالطاعة ، وبهجة في الدنيا ، ومظهر للقوة والإخاء والصفاء والنقاء ، إنه فرحة بانتصار الإرادة الخيرة ، والعزيمة الصادقة على الأهواء والشهوات ، وفرح بالنجاة من إغواء

شياطين الجن والإنس والفوز بطاعة الله تعالى ، وإن الذي يعرف قدر العيد وحقيقته هو الذي عرف قدر رمضان وحقيقته .

أيها الفرحون المسرورون الهانئون بالعيد ، كم من يتيم ينشد عطف الأبوة الحانية ، ويلتمس حنان الأم الرؤوم ، ويرنو إلى من يمسح رأسه ويخفف بؤسه؟! ، وكم من أرملة توالت عليها المحن ، وفقدت عشيرها ، وعنوان سعادتها؟! ، وكم من فقيرٍ لا يجد ما يأكل؟! ، وكم من بائس لا يجد لأبنائه ما يلبسون؟! ، كل أولئك وأمثالهم بحاجة إلى نفوس مؤمنة وقلوب راحمة ، تنظر إليهم ، وترفق بهم وتحسن إليهم ، وما أحسن أن يضم إلى فرحة العيد وبهجته فرحاً بتفريج كربة مسلم ، وملاطفة يتيم ، ومواساة ثكلى ، ومن عمل ذلك فإنما يعمل لنفسه ، ويدخّر لذاته ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه** ﴾ [فصلت : ٤٦] .

وإذا أردت أن تعرف أخلاق أمة فراقبها في أعيادها لأن العيد تنطلق فيه السجايا على فطرتها ، وتبرز فيه العواطف والميول والعادات على حقيقتها ، والمجتمع السعيد الصالح هو الذي تسمو أخلاقه في العيد إلى أرفع ذروة وأعلى قمة ، وتمتد فيه مشاعر الإخاء إلى أبعد مدى ، حيث يبدو العيد تعاوناً وتراحماً ، تخفق فيه القلوب بالحب والود والبر والصفاء .

إن العيد مناسبة لإطلاق الأيدي الخيرة ، وإدخال السرور ، وتجديد المودة ، وصلة الرحم ، والبر بالقرابة ، واعلموا أن من علامات قبول الطاعة اتباعها بالطاعة بعدها ، وقد قال ﷺ : «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر» [رواه مسلم] ، تقبل الله منا ومنكم وغفر لنا ولكم ، وكلّ عامٍ وأنتم بخير ، وعيد سعيد ،،،

مواســــم المغفــرة

يأسرك هذا الدين بحسن أحكامه ، ويمتلك قلبك بروعة نظامه ، فهو مبرأٌ من المشقة ، منزه عن العبث ، بعيد عن العنت ، سليم من الحرج ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾ [المائدة : ٦] ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ [الحج : ٧٨] .

فالمتأمل فيه يجد أمراً عجباً ، والمتفقه فيه يزداد به فرحا ، ويمتلىء به سروراً ، اتصف مشرعه بالعفو ، وبنيت أحكامه على الرفق أقيمت دعائمه على اللطف ، وأسست قواعده على الرحمة ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ولما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده « سبقت رحمتي غضبي » فالله جل وعلا أرحم الراحمين ، والكتاب الذي أنزله ﴿ **هدى ورحمة** ﴾ [الأنعام : ١٥٧] ، والنبي الذي أرسله ﴿ **بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

إن الله تعالى بلطفه وعفوه ، وجوده وكرمه ، وفضله وإحسانه ، هيأ لعباده مواسم الطاعة ، وميادين العبادة ، وأفانين البر ، ودروب الإحسان ؛ فهو لا يريد لعباده العذاب ، ولا يحب لهم أن يدخلوا النار ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما** ﴾ [النساء : ١٤٧] .

ولعلمه جل وعلا بضعف الإنسان وجهله ، وغفلته وتفريطه ، هيأ له أبواباً للخير كثيرة ، وطرقاً للبر عظيمة ، وأسباباً للمغفرة متعددة . جعل

أبواباً للتوبة مشرعة ، ويسر للجنة طرقاً واسعة ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل قال تعالى : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات** ﴾ [الشورى : ٢٥] عَفوٌّ يحب العفو ، كريمٍ يحب الكرم ، جواد يحب الجود، نادى عباده المسرفين على أنفسهم نداء يفيض بالرحمة ، ويشرق بالأمل ، ويتلألأ بالعفو ، فقال سبحانه : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وقال في الحديث القدسي : « يا ابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي » [أخرجه الترمذي] ، فلنتأمل شيئاً من تلك الرحمات المتدفقة والعطايا المتعددة . .

هيأ تعالى لعباده مواسم للخير عظيمة ، تغفر فيها ذنوبهم ، وتكفر فيها سيئاتهم ، وتُرفع فيها درجاتهم ، وتُحط بها خطاياهم ، منها ما هو يومي ، ومنها ما هو أسبوعي ، ومنها ما هو شهري ، ومنها ما هو سنوي ، فاليومي : الصلوات الخمس ، قال تعالى : ﴿ **أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ [هود: ١١٤] ، وقال ﷺ : « ما من امريء مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » [رواه مسلم] ، ويقول ﷺ : « خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له » [أخرجه أبو داود] .

بل الأعجب من ذلك ، والأعظم مما هنالك أن الإنسان قد تغفر ذنوبه وتمحى عيوبه ، قبل أن يدلف إلى الصلاة ، وقبل أن يمثل بين يدي مولاه ،

وذلك بالوضوء : «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» [أخرجه مسلم].

ومن المواسم ما هو أسبوعي ، وذلك يوم الجمعة الذي فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، يقول ﷺ : «من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام» [أخرجه مسلم].

وأما المواسم الشهرية فمثل صيام أيام الليالي البيض ، قال ﷺ : «صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، صوم الدهر كله» [متفق عليه] .

وأما المواسم السنوية فكثيرة ، منها ما هو يوم في السنة مثل صوم يوم عرفة ، قال ﷺ حينما سئل عن يوم عرفة : «يكفر السنة الماضية والباقية» ، ومثل صوم يوم عاشوراء الذي سئل عنه النبي ﷺ فقال : «يكفر السنة الماضية» [رواه مسلم].

ومن المواسم السنوية ما يستمر شهراً كاملاً تتنزل فيه الرحمات وتفتح فيه أبواب الجنان وتغلق فيه أبواب النيران ، وتصفد مردة الشياطين «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه] ، وجعل فيه عشر ليالٍ هي أعظم ما فيه ، وأعظمها ليلة واحدة هي ليلة القدر فمن أدركها غفر له ، وجعلها خيراً من ألف شهر .

ثم جعل تعالى من المواسم السنوية ما يستمر قرابة الأسبوع وهو حج البيت الحرام ، فمن حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ، وجعل في شهر ذي الحجة عشرة أيام هي أهم ما فيه وأفضل أيام السنة ، وهي العشر الأول من ذي الحجة ، وجعل أفضلها يوم عرفة ، فمن صامه غفر له السنة الماضية والباقية ، ومن شهده مع الحجيج فقد أشهد الله

ملائكته أنه قد غفر لهم .

وهكذا أيها المسلمون لا يزال المؤمن يتنقل من خير إلى خير ، ومن موسم إلى موسم ، ومن فضل إلى فضل ، يتعرض لنفحات الله ، ويستنزل رحماته ، والأعجب من ذلك كله أنه تعالى قد هيأ أموراً أخرى عظيمة ، وطرقاً كثيرة متنوعة في منتهى اليسر ، وفي غاية السهولة ، ليس فيها تعب ، ولا يعتريها نصب ، وليس فيها غياب عن الأهل ، ولا مفارقة للأوطان ، ولا صرف للأموال ، بل هي في متناول اليد ، وأقرب من شراك النعل ، ومن ذلك : ذكر الله تعالى وتسبيحه وتمجيده وتكبيره وتهليله ، واسمع إلى هذا الحديث لترى لطف المولى ، ونعمة الرب ، ورحمة الرحمن : «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» [أخرجه الترمذي] .

ويقول ﷺ : «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر وإن كان قد فر من الزحف» ، واستمع إلى حديث تتجلى فيه الرحمة الربانية ، والمغفرة الإلهية ، يقول ﷺ : «إن الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنةٍ ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة ، ولا يهلك على الله إلا هالك» [صحيح الجامع] ، فيا له من أجر عظيم ، وعطاء كريم ، مكفرات قد أشرعت أبوابها ، ويسرت أسبابها ، فأين طلابها ؟!! .

الحـــــج

الحـج .. تركُ الديار ، وفراقُ الأهل ، وهجرُ الأحبة ، وامتثالُ الأمر ، وتلبيةُ النداء ، قال تعالى : ﴿ **وأذّنْ في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق** ﴾ [الحج : ٢٧] .

الحـج .. رحلةٌ للطاعة ، وقصدٌ للكريم ، وقدومٌ على بيت المنعم ، وسفرٌ للمغفرة « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه » [أخرجه البخاري] .

الحـج .. تجديدٌ للعهد ، واتفاقٌ على الميثاق ، وانطراحٌ لعلام الغيوب ، وتصفيةٌ للقلوب وغسلٌ للذنوب .

الحـج .. طرحُ الزينة ، وارتداءُ الكفن ، وتذكرُ الرحيل ، وإظهارُ المسكنة ، وتوحيدُ الزي ، وبياضُ الملبس ، والمنهج والرسالة ، وشعثُ الخدمة ، وغبارُ المشقة والتضحية ، وظمأُ الكبد لماء الحوض ، واشتياقُ القلب لمعاهد الوحي ، واللهجُ بذكر الواحد الأحد ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا** ﴾ [البقرة : ٢٠٠] .

الحـج .. تصميمٌ على مواصلة السير ، وتجديدٌ للنشاط ، وإعلانٌ لانتصار الحق على الباطل ، والرشاد على الغي ، والصواب على الخطأ

والألفة على الفرقة ، والوحدة على الشتات ، قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣].

الحج .. دورانٌ حول الرمز الخالد ، والمثل الحية ، واستجداءٌ مُلِحٌّ للكريم جل في علاه ، وتكرارٌ للطلب ، والتفاتٌ إلى بيت الجواد المنان وإعلانٌ للشكر ، وتقديمٌ للقرابين ، ﴿ **فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾ [الحج : ٣٦].

الحج .. حيث تساوي الرؤوس ، وتخفيضُ الجماجم ، وإزهاقُ النعرات وقتلُ الكبرياء ، « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى » .

الحج .. قذفُ الباطل ، ورجمُ الضلال ، وسحقُ الغواية ، والنضالُ المسلح أمام الطغيان ، ومنازلة إبليس ، وإرغام الشيطان ، قال ﷺ : « ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفه » [أخرجه مالك في الموطأ].

الحج .. تضامنٌ مع إبراهيم – عليه السلام – ، وتجديدٌ للتوحيد ، ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا** ﴾ [الحج : ٢٦].

الحج .. حرب على الكفر ، وبراءة من الشرك ﴿ **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله** ﴾ [التوبة : ٣] ، وهو تجديد لملّة إمام الموحدين ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم** ﴾ [الحج : ٧٨].

الحج .. تمرين على الطاعة المطلقة ، وامتثال للأمر المجرد « والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك

ما قبلتك » [أخرجه الشيخان] .

في الحج يتجلى التوحيد الخالص (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك . .) ، ويقول ﷺ : « أفضل الدعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له » [أخرجه مالك في الموطأ] .

وكان من أكثر دعائه ﷺ يوم عرفة قوله : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ، وهو بذلك يريد أن يؤصل هذا المبدأ ويرسخ هذه العقيدة .

قيل لسفيان بن عيينة : لماذا كان الدعاء يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وهي ثناء وليست بدعاء؟ ، فقال للسائل : أما سمعت الشاعر يقول :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني
حياؤك إن شيمتك الحياءُ
خليل لا يغيره صباح
عن الخلق الجميل ولا مساء
إذا أثنى عليك المرء يوماً
كفاه من تعرضه الثناء

هذا للمخلوق فكيف بالخالق ؟!!

إن الإسلام دين التوحيد الخالص ، فلا وسائط ، ولا مظاهر ، ولا صور ولا أصنام ، ولا هياكل ، ولا طبقة كهان ، ولا سدنة ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي**

لعلهم يرشدون ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ﴿ **فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص** ﴾ [الزمر : ٢] .

الإسلام دينٍ يطلب تجرداً في الخيال ، وسمواً في الفكرة ، ونقاءً في الإرادة ، وصفاء في النية ، وإخلاصاً في العمل والتطبيق ، وانقطاعاً عن الغير ، ولكن الفطرة البشرية هي الفطرة البشرية . والإنسان ما زال ولا يزال باحثاً عن شيء يراه بعينه فيوجه إليه أشواقه ويضيء به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والإجلال ، والتقرب والدنو ، فالإنسان ليس عقلاً مجرداً ، ولا كائناً جامداً ، إنه عقلٌ وقلب ، وإيمان وعاطفة ، وطاعة وخضوع ، وحب وحنان ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ [البقرة:١٦٥] .

وقد اختار الله تعالى أموراً ظاهرة محسوسة ، اختُصت به ونسبت إليه ، وتجلت عليها رحمته ، وحفت بها عنايته ؛ بحيث إذا رؤيت ذُكر الله ، وارتبطت بها وقائع وحوادث ، وقصص وأخبار ، وتضحيات ومشاهد ، وأحوالٌ تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ، وحسن بلاء أنبيائه ، ونصرته لأوليائه ، وسمّاها (شعائر الله) ، وجعل تعظيمها تعظيماً له ، والتفريط فيها تفريطاً في جنبه . وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم ، وشوقهم المتغلغل في أعماقهم ، ورغبتهم الفطرية في الدنو والقرب والمشاهدة بل حث على ذلك ودعا إليه ، فقال تعالى : ﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ [الحج : ٣٢] ، وقال : ﴿ **ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه** ﴾ [الحج : ٣٠] .

لقد كان المسلم في حاجة إلى غذاء للقلب ، وزاد للعاطفة ، وترويح للروح ، وحاجة إلى أن يقضي شوقه ، ويروي غلّته مرة بعد مرة ، وفترة

بعد فترة ؛ فكان البيت العتيق وما حوله من شعائر الله ، والحجُ وما فيه من مناسك خير ما يحقق رغبته ، ويسلي حنانه ، ويرضي عاطفته ، ويروي ظمأه ، قال تعالى : ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوفوا بالبيت العتيق** ﴾ [الحج : ٣٦] ، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد ، والإشعاع الروحي ، والغذاء العاطفي ، تقام حوله المناسك ، وتتغذى به العاطفة ، وتشعل به مجامر القلوب ، ويجتمع حوله العالم الإسلامي كل عام ، يؤدي خراج الطاعة ، وضريبة الحب والانقياد ، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين ، ولجوءه إلى هذا الركن الركين . وكان هذا البيت الذي يطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء ، والزعماء والعظماء ، والملوك والأمراء ، والأغنياء والفقراء ، في حب وتشوق ، وفقه وحكمة ، وتواضع وخضوعٍ ، وذل وانكسار ، ونسكٍ وعبادة ، وإيمان وعقيدة ، وهتافهم جميعاً (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) ، تنتصر فيه الأخوة الإسلامية ، والرابطة الإيمانية على القومية الوطنية ، والعنصرية الجاهلية ، فتتجرد جميع الشعوب الإسلامية عن ملابسها وأزيائها الإقليمية ، وتظهر كلها في مظهر واحد ، ولباس واحد ، حاسرة رؤوسها ، متناسية لحظوظها ، ما بين رئيس ومرؤوس ، وصغير وكبير ، وغني وفقير ، وأبيض وأسود ، وعربي وأعجمي . وسبحان الواحد الأحد الذي لا تشتبه عليه الأصوات ، ولا تختلف عليه اللغات ، تقف الملايين في صعيد واحد تدعوه وترجوه

وتناجيه ، بما يربو على ثلاثمائة وخمسين لغة ، فيعرف لغاتها ، ويسمع دعواتها ، ويلبي حاجاتها ، ويعلم نبرات أصواتها . هكذا تجتمع هذه الجنسيات المختلفة ، والألوان المتباينة ، واللغات المتعددة على صعيد واحد تعبد رباً واحداً ، وتهتف بهتاف واحد وتتبع نبياً واحداً ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

يقول أحد كتاب النصارى المبشرين : « سيظل الإسلام صخرةً عاتية تتحطم عليها سفن التبشير المسيحي ما دام للإسلام هذه الدعائم وهي : القرآن ، واجتماع الجمعة الأسبوعي ، ومؤتمر الحج السنوي » .

فيا الله ما أسعد أمة الإسلام لو تحققت لها هذه الأخوة كما يجب وتعلقت بروابط المودة ، وتدثرت برداء المحبة!! ، ولكن مع الأسف لم يبق لها إلا وحدة اللباس ، ووحدة الهتاف ، واتفاق المظهر ، أما القلوب متباينة ، أما الأفئدة متباعدة ، أما الأرواح متنافرة ، غيروا ما بأنفسهم من صدقٍ وإخلاص ، وإيمان وتضحية ، فغيّر الله عليهم ، وبدلهم بجنة الحب نار البغضاء ، وبروعة الأخوة ظلام الشتات ، وبحلاوة الوحدة مرارة الفرقة قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد : ١١] .

حج ﷺ بحوالي مائة ألف مسلم كلهم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، كانوا يتسابقون لطاعته ، ويأتمرون بأمره ، وينتهون لنهيه ، بل يقتتلون للحصول على ذرة من ذرات جسمه ، وشعرة من شعرات رأسه . الجنة محط آمالهم ، والإخلاص قائدهم ، والتوحيد رائدهم ، والأخوة الصادقة عنوانهم ، والإيثار والمودة شعارهم ، فنالوا رفعة الدنيا والآخرة ؛ غيروا وجه التاريخ ، حطموا حصون الشرك ، اقتلعوا

قلاع الكفر ، اجتثوا جذور الباطل ، كسّروا ظهور الأكاسره ، قصروا أموال القياصرة ، ثم جئنا نحن وأتينا بدلاً عن الواحد بألف ، وبدلاً عن المائة بمليونين ، هذا في الحج فقط .

والنـاس ألـف مـنـهـم كـــــواحــــــد
وواحـــــد كـــــالألـف إن أمـــــر عـنـا

لبسنا نفس اللباس ، ووقفنا نفس الموقف ، ورددنا نفس العبارات ولكن القوم غير القوم ، والقلوب غير القلوب ، والنوايا غير النوايا ، والتوحيد غير التوحيد ،

أولـئـك آبـائـي فـــــجـــــئـنـي بمـثـلـهـم
إذا جـــمـــعـــتـنـا يـا جـــريـر المجـــامـع

فلم يهتز لأجلنا ذرةٌ من جسم الطاغوت ، وما تحركت شعرة من رأس الكفر ، وما رجف فؤاد من أفئدة الباطل «أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل» [رواه أبو داود] .

هل وقفنا مع أنفسنا وقفة للحساب ، هل فتشنا في حنايا أفئدتنا عن أسباب الخلل ، ودواعي الفشل ، لو عرضنا أنفسنا على هدي المصطفى ﷺ في حجة الوداع فقط ، وتأملنا ما فاض به فؤاده ، ونطق به لسانه ، لعرفنا موقفنا من الإسلام ، وحددنا مكاننا من الإيمان ، وأدركنا هواننا على الرحمن . ندّعي أننا نقتفي أثره ، ونتبع سنته ، ونحذو حذوه ؛ فهل صدقنا في ذلك ، وهل امتثلنا ما قاله هنالك؟؟ أصّل بأقواله وأفعاله حقيقة التوحيد الخالص والإذعان الكامل لله تعالى ، فهل تحقق ذلك في حياة كثير من المسلمين؟ .

بين لنا في يوم عرفة أن دماءنا وأموالنا وأعراضنا علينا حرام «كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» [رواه مسلم] ، فهل حقنّا دماءنا؟ ، وهل حفظنا أعراض بعضنا الحسية والمعنوية؟ ، وهل حفظنا أموال بعضنا ؟ وضع أمر الجاهلية تحت قدميه من دماء وعصبية وقبلية فوضعناها نحن على رؤوسنا ، قال : «كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ، فجعلنا مقياس المفاضلة هو الجنس واللون والدم والقبيلة ، وأسدلنا الستار على ميزان التقوى ، والتفاضل على أساس الإيمان ، إلا من رحم الله .

أمرنا بالقيام بحقوق نسائنا وأوصانا بهن خيرا ، وأمر نساءنا بالقيام بحقوقنا ، فضيع الرجال حقوق زوجاتهم ، وضيع النساء حقوق أزواجهن أخبرنا أنه ترك بيننا ما لا نضل بعده أبداً إن اعتصمنا به وهو : كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ففرطنا في الكتاب وهجرناه ، وتركنا هدي النبي ونسيناه . حذرنا من الرجوع بعده كفاراً يضرب بعضنا رقاب بعض ، فضربنا رقاب بعضنا ، وأعملنا السيف في ذواتنا ، وغرسنا رماحنا في أفئدتنا . حذرنا من الربا ولعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه فغرقنا في الربا إلى آذاننا ، إلا من رحم الله ، أمرنا أن نؤدي الأمانات إلى من ائتمننا فهل أدينا أمانة ربنا وأمانة ديننا وأمانة نبينا وأمانة إخواننا المسلمين كما يجب ؟ أخبرنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضنا ، فأعدنا للشيطان الفرصة ، وفتحنا له أبواب الأمل على مصاريعها .

أيها المسلمون .. تلك هي بعض كلماته الناصعة ، ووصاياه الرائعة ، ونصائحه الخالدة ، هذه خلاصة دينه ، وزبدة دعوته ، وركائز منهجه ، أعلنها في حجة الوداع ، فهل تمثلناها وهل وعيناها؟ إننا إذا عرفنا أين

نحن منها فقد عرفنا أين نحن من الإسلام ، وأين نحن من طاعة الملك العلام ، وأين نحن من منهجه عليه الصلاة والسلام ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد . فماذا كانت نتيجة البعد عن هدي المصطفى ، والجهل بحقيقة الدين ، والغفلة عن أسرار الحج ، والتعامي عن إدراك مقاصده؟ ، تكالب علينا الأعداء ، وتداعت علينا الأمم كما يتداعى الأكلة إلى قصعتهم ، ذهبت عزتنا ، أهينت كرامتنا خفت صوتنا ، غزيت بلادنا ، خطفت مقدساتنا ، هتكت أعراضنا ، مزقت أجسادنا ، وزرعت الفرقة في صفوفنا وعمرت بالشحناء قلوبنا وفقدنا حلاوة ديننا ، ونسينا الله فأنسانا أنفسنا ، وتنازعنا ففشلنا وذهبت ريحنا فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أيها الحجاج .. والله الذي لا إله غيره لو أننا عاهدنا ربنا وألزمنا أنفسنا بالأخذ بما في خطبة الوداع لتغيرت الحال ، وحسن المآل ، وأفلحنا ونجحنا ، وفزنا وربحنا . اللهم إننا نشكو إليك ضعف قوتنا ، وقلة حيلتنا وهواننا على الناس وأنت أرحم الراحمين ، أنت ربنا ورب المستضعفين اللهم إننا نعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علينا غضبك ، أو أن ينزل بنا سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله »» .

وداع العـــام

وهكذا يسدل الستار على عام هجري كامل ، وجزء كبير من العمر ووقت طويل من الزمن ، مضى بآماله وآلامه ، وحسناته وسيئاته ، وأفراحه وأتراحه . وكلٌّ غائب قد يعود ، وكلٌّ مفقود قد يسترد ، وكلٌّ ذاهب قد يُسترجع إلا العمر المنصرم ، والزمن المنقضي والوقت الغائب .

إن هذا العام المنصرم جزءٌ من أعمارنا ، ونقصٌ من آجالنا : « يا ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يومك ذهب بعضك » هكذا كان فهم العارفين ، وديدن المتقين ، أيقنوا أن أعمارهم مراحل إلى الآخرة ، وأيامهم مطايا إلى الباقية . كان بعضهم إذا غربت الشمس من كل يوم جلس عند باب داره يبكي ، فيسأل عن سبب بكائه ، ويناقش في مثير نحيبه ، فيقول : « قطعت يوماً من حياتي إلى الدار الآخرة ، ولا أدري أهي خطوات إلى الجنة أم أنها خطوات إلى النار » . فكم من خطوات مشيناها ، ومراحل قطعناها ، وأوقات صرفناها ، ومع ذلك فإحساسنا بالزمن غريب ، والتأمل فيه عجيب ، فما كأن العمر الذي مضى ، والوقت الذي انقضى إلا لحظاتٌ يسيرةٌ ، وأيام معدوده ، بينما هي آلاف الأيام ، وعشرات السنين وهكذا الإحساس بالزمن مهما طالت مدته ، وعظمت فترته ، حتى في يوم القيامة : ﴿ **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين** ﴾ [المؤمنون : ١١٣] .

إن قطار الزمن يمضي بسرعته الفائقة ، وحركته الدائمة ، لا يتوقف

عند أحد ، ولا يحابي أحدا ، ولكن إذا نحن غفلنا عن أيامنا الخالية ، وأعمارنا الماضية ، ونسينا ما عملنا ، وغفلنا عما أودعنا ، فالله تعالى لا يغفل ولا ينسى ، الأنفاس معدوده ، والأعمال مرصوده ، ﴿ **ويوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله** ونسوه ﴾ [المجادلة : ٦] .

﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ [الإسراء:١٤] .

والإنسان محاطٌ من عدة جهات ، ومحاصرٌ بآكد البينات ، محاصر من قبل الملائكة الكرام الكاتبين ، الذين يكتبون أعماله ، ويرصدون أحواله : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ [ق : ١٨] ومحاصر من الأرض التي يمشي عليها ، ويسكن فيها . هذه الأرض التي أخلدنا إليها ، واطمئننا بها ، ووهبناها حبنا ، وأمهرناها عمرنا ، لا نسلم من شهادتها علينا ، ومجابهتها بما لدينا ، وقد أثبت العلم أن الأرض تحتفظ بصورة لكل ما يجري على ظهرها ، وذلك معروف لدينا ، ومعلوم في ديننا ، قال تعالى : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾ .

ومحاصر الإنسان من نفسه ومشهود عليه من ذاته ، هذه الأنفس التي أشبعنا رغباتها ، وأسلمنا لها زمامها ، تلهو بما تشاء ، وتفعل ما تشاء ، هذه الجوارح التي ننقاد لهواها ، ونتبع رضاها ، ونعطيها مبتغاها ، تنطق بالفضائح ، وتخبر بالقبائح ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [يس : ٦٥] .

ويقول جل وعلا : ﴿ **حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما**

كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت : ٢٠-٢٤] .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : «هل تدرون ممّ أضحك؟» ، قلنا الله ورسوله أعلم قال : «من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : إني لا أجيز على نفسٍ إلا شاهداً مني . قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا . قال فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقي ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يُخلّى بينه وبين الكلام . قال : فيقول : بعداً لكنّ وسحقا ، فعنكنّ كنت أناضل» [مسلم : ٥٢٧١] .

فالمرء محاصر من جميع جهاته ، مسؤول عن كل أوقاته ، سيواجه بما أودع في أعوامه ، ويفاجأ بدقائق أيامه : **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾** [آل عمران : ٣٠] .

كم مضى اليوم تلو اليوم ، والأسبوع بعد الأسبوع ، والشهر خلف الشهر ، والسنة في إثر السنة ، وكثير من الناس سادر في غفلته ، مُفْرط في شروده ، مُغْرق في جحوده ، لا عقل يتدبر ، ولا فكر يتأمل ولا نفس تُردع ، ولا هوى يُمنع ، لم يعتبر بمرور الأيام ، ولم يتعظ بتعاقب الشهور والأعوام ، ما استغفر ولا تاب ، ولا اتسم بسمات أولي الألباب **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**

[آل عمران : ١٩٠] ، غافل عن الاعتبار مخالف لأولي الأبصار ، ﴿**يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾ [النور : ٤٤] ، يبدو القمر صغيراً ثم ينمو ويكبر حتى يكتمل ، ثم يبدء في النقص حتى يمحق ، وهكذا عمر الإنسان ، والشمس تطلع ثم تغيب ، والنهار يقبل ثم يدبر ، إشارة إلى أنه لكل شيء ختام ، ولكل بداية نهاية ﴿**كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ [الرحمن : ٢٧] .

يقول ابن عمر – رضي الله عنه – أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

وكان ابن عمر – رضي الله عنه – يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » [البخاري : ٥٩٣٧] ، فالمسلم يجب أن يكون في هذه الدنيا على أحد أمرين ، إما أن يكون كالغريب الذي لا يشتغل بدار غربته ، فلا يخلد لما فيها ، ولا يركن إليها ، فهي دار لمروره ، ومحطة لعبوره ، وهمه التزود للرجوع إلى وطنه ، وإما أن يكون كالمسافر الذي يتزود لرحيله ، ويمضي في سفره ليله ونهاره ويسير إلى بلد الإقامة .

وهذا الحديث أصل في قصر الأمل ، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها ، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يهيىء جهازه للرحيل .

ومن وصايا المسيح – عليه السلام – : « اعبروها ولا تعمروها » ، وروي أنه قال : « من ذا الذي يبني على موج البحر داراً ، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا » .

وكان يحيى الرازي يقول : الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لم

يفق إلا في عسكر الموتى نادماً مع الخاسرين .

كان محمد بن واسع إذا قيل له كيف أصبحت يقول : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة .

وكان أحد السلف يوصي كل يوم بما يوصي به المحتضر عند موته وكان يبكي كلما أصبح ويبكي كلما أمسى فسُئلت امرأته عن بكائه فقالت : يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح ، وإذا أصبح أن لا يمسي .

وصحَّ عنه ﷺ قوله : «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة» [صحيح الجامع : ٦٢٢٢] .

وكان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه يقول – : «أخوف ما أخاف عليكم خصلتين : طول الأمل ، واتباع الهوى» .

بكى أبو هريرة – رضي الله عنه – بكاءً شديداً في مرض موته ، فسئل عن سبب بكائه ، فقال : «والله ما أبكي على شيءٍ من دنياكم ولكني أبكي لبعد المسافة ، وعقبة كؤود ، وأنني في صعود المهبط منه إما إلى الجنة وإما إلى النار» .

وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ينادي في الناس : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على الله ﴿**يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية**﴾ .

العمر أمانة ، والعلم أمانة، والمال أمانة ، والمرء مسئول عن ذلك كله .

قال ﷺ : «لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه» [صحيح الجامع : ٧٣٠٠] .

يا عجباً لأمر كثير من الناس إذا ما أرادو شيئاً من أمر الدنيا بذلوا وتعبوا ، وكدحوا ونصبوا ، لا يتركون سبيلاً إلا سلكوه ، ولا باباً إلا طرقوه ، ولا سبباً إلا بذلوه .

فإذا ما أرادوا جنة عرضها السماوات والأرض ، والنعيم المقيم ، والهناء المستديم ، تكاسلوا وتخاذلوا ، وتهاونوا ، وتقهقروا ، فأين هم من قوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ [النجم : ٣٩] .

وقوله – جل وعلا – : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم** ﴾ [الانفطار : ٦] .

وقوله جل وعلا : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾ [الحاقة : ٢٤].

عمرتم أيامكم ، وحفظتم أوقاتكم ، وصنتم أعماركم ، فكان هذا جزاؤكم .

الحياة فرصة ، والعمر غنيمة ، والصحة والفراغ نعمة ، فأين من يغتنم ذلك ، قال ﷺ : «اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك» [انظر صحيح الجامع : ١٠٧٧] .

وقال الحسن – رضي الله عنه – : ابن آدم إنما أنت بين مطيتين يوضعانك ، يوضعك النهار إلى الليل ، والليل إلى النهار ، حتى يُسلمانك إلى الآخرة ، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطرا .

وما هذه الأيام إلا مراحل
يحث بها داع إلى الموت قاصدُ

وأعـــجبُ شيءٍ – لو تأملت – أنهـــا
منازل تطوى والمســـافـــر قـــاعـــد

وقال داود الطائي : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها ، فافعل ، فإن انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك ، واقض ما أنت قاض من أمرك ، كأنك بالأمر قد بغتك .

وكتب بعض السلف إلى أخٍ له : يا أخي يُخيل لك أنك مقيم ، بل أنت دائب السير ، تُساق مع ذلك سوقاً حثيثاً ، الموت موجه إليك ، والدنيا تُطوى من ورائك ، وما مضى من عمرك ، فليس بكارٍّ عليك حتى يكُر عليك يوم التغابن .

دقـــات قلب المرء قـــائلة له
إن الحـــيـــاة دقـــائق وثواني

قال بعض الحكماء : كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره ، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره ، وكيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله ، وتقوده حياته إلى موته .

يســـرُّ المرء مـــا ذهب الليـــالي
وكـــان ذهابُهن له ذهابا

قال الحسن : لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار ، وتقريب الآجال ، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً ، أصبحوا قدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم ، وأصبح الليل

والنهار غضين جديدين ، لم يُبلهما ما مرا به ، مستعدين لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضى .

نسير إلى الآجال في كل لحظة
وأيامنا تُطوى وهُن مراحلُ
ولم أر مثل الموت حقاً كأنه
إذا ما تخطته الأماني باطلُ
وما أقبح التفريط في زمن الصبا
فكيف به والشيب للرأس شاملُ
ترحل من الدنيا بزاد من التقى
فعمرك أيام وهن قلائلُ

وقال الفضيل بن عياض لرجل : كم أتت عليك ؟ قال : ستون سنة ، قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يُوشك أن تبلغ ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال الفضيل : أتعرف تفسيره تقول : أنا لله عبد وإليه راجع ، فمن علم أنه لله عبد ، وأنه إليه راجع ، فليعلم أنه موقوف ، ومن علم أنه موقوف ، فليعلم أنه مسؤول ، ومن علم أنه مسؤول ، فليعد للسؤال جواباً ، فقال الرجل : فما الحيلة؟ قال : يسيرة ، قال : ما هي ؟ قال : تُحسن فيما بقي يُغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وبما بقي ، وفي هذا يقول بعضهم :

وإن امرأً قد سار ستين حجة
إلى منهل من ورده لقريب

ولم يفهم مواعظ الزمان من سكن إلى حسن الظن بالأيام .

وقال بكر المزني : إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل : لعلي لا أصلي

غيرها ، وهذا مأخوذ مما روي عن النبي ﷺ أنه قال : «صل صلاة مودع» [انظر الصحيحة : ١٩١٤] .

ومـــــا أدري وإن أمّلـتُ عـــــمـــــراً
لـعلي حين أصـــــبح لسـت أمـــــسي
ألـم تـر أن كـل صـــــبـــــاح يـوم
وعـــــمـــــرك فـــيـــه أقـــصـــر منه أمس

فـاعـملوا في دار مـقـامكم قـبل الرحلة ، وبادروا بـذلك قـبل الموت ، وحـسرات الفـوت وضيق المضطجع ، وهـول المطلع ، والموقف للحسـاب والمرور على الصراط .

﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا * وهـو الـذي جعـل الليل والنهـار خلفـة لمـن أراد أن يذّكـر أو أراد شكورا ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

اللهـم اجعلنا من المعتبرين المتذكرين الذاكـرين الشـاكرين العابدين الطائعين الراكـعين السـاجـدين ، وارحـمنا برحـمتك يا أرحـم الراحـمين ، واجعل هذا العام المقبل عام خير وعزٍّ ونصر للإسلام والمسلمين ، واغفر لنا زللنا وخطئنا وإسرافنا في أمرنا فيما مضى من أيامنا وأعوامنا وأعمارنا ، وتجاوز عن سيـئـاتنا ، وامح لوثاتنا ، وارفع درجـاتنا ، أنت مـولانا فنعم المولى ونعم النصير .

قســوة القلب

العقوبات كثيرة ، والابتلاءات عديدة ، والمصائب جمة ، ولكن من أقسى العقوبات أن يبتلى المرء بقلبٍ قاس .

إن قسوة القلب قارعة عظمى، ونازلة كبرى ، وكارثة جلّى ، إذا قسى القلب ضاق الصدر وأظلم الفؤاد ، واستوحشت النفس ، وتكدر الخاطر ، وزاغت الأبصار وضلت الأفكار ، وأظلم الدرب ، وعذب الذنب ، وعصي الرب ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾ [الزمر : ٢٢] .

حينما تنقض الأمة الميثاق ، وتتنكر للهدى ، وتعرض عن الحق ، وتحيد عن النهج فمن أعظم عقوباتها لعنة الرب وقسوة القلب ، ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعة ونسوا حظاً مما ذكروا به**﴾ [المائدة : ١٣] .

وحينما تبتلى أمة من الأمم بالبأساء والضراء ، وتحل بها الكوارث وتنزل بها المصائب من الزلازل والمحن ، والحوادث والفتن ، فإن الأولى بها أن تثوب إلى رشدها ، وتعود إلى ربها ، وتراجع إيمانها ، وتصحح مسارها ترى في الوقائع آية ، وتأخذ مما يحدث عبرة ، وتتضرع إلى المولى ، وتلجأ إلى الخالق ، فإذا ما حدث ذلك صلحت الأمور ، وغفرت الذنوب ، وفُرِّجت الهموم ، وزالت المخاوف ، وتجلت المخاطر ، أما إذا ازدادت القلوب قسوة ، وامتلأت الأفئدة جفوة ، فإن النتائج مذهلة ، والعقوبات مرعبة

﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بها أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

قسوة القلب داء قاتل ، ووباء فاتك ، ومصير مظلم . أحسن منتجع للعصيان القلب القاسي ، وأفضل مرتع للشيطان القلب القاسي ، وأبعد القلوب عن الرحمن القلب القاسي ، فهو بغيض إلى الرب ، بعيد من الحق سريع إلى الفسق ، انظر إلى هذا النداء الرباني الماتع ، والتوجيه القرآني الرائع ، نداء يأخذ بالألباب ، ويمتلك الأفئدة ويهز المشاعر : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ [الحديد : ١٦] . يقول ابن مسعود – رضي الله عنه وأرضاه – : « والله ما بين إيماننا وبين أن خاطبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنوات » .

وانظر إلى لفتة بديعة ، وإشارة لطيفة ، وفائدة قيمة ، وآية ماثلة في قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ **اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ [الحديد : ١٧] ما هي العلاقة بين الحديث عن خشوع القلب وقسوته وبين الحديث عن الأرض وإحيائها بعد الموات؟ .

إن الأرض قد تجدب وتقفر فيقل ماؤها ، ويذهب بهاؤها ، ويذوي روائها ، فإذا جاء المطر ، وهمى الغيث ، أزهرت وأثمرت ، وأورقت وأينعت ، واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، كذلك القلب قد يتكدر صفوه ، ويقل خشوعه ، ويفتر خضوعه ، ولكنه إذا سقي بماء الوحي ، وأسعف برحيق الهدى ، وصقل بعبير الإيمان . ذهبت

قسوته وطردت جفوته ، وعادت له رقته وطهره وحيويته ، يقول ﷺ : «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» [صحيح الجامع : ٢٤١٥].

إذا خشع القلب خشعت الجوارح ، وإذا قسى قست الجوارح ، وإذا صلح صلح كلُّ شيء ، وإذا فسد فسد معه كل شيء ، يقول ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» [البخاري : ٥٢] ، ولقد كان ﷺ يستعيذ بالله من قلب لا يخشع .

بعض القلوب أشد قسوة من الحجارة ، وأعظم جموداً من الصخور الصماء : ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله**﴾ [البقرة : ٧٤] .

إن قرب المرء من ربه بقدر حياة الإيمان في قلبه ، وإن المتأمل لأحوال الناس يجد قلوباً قاسية لا يردها إيمان ولا تنفعها عبرة ولا تستفيد من آية ولا تجديها موعظة ولا يهزها القرآن ، ولا يستهويها الحديث ، ولا تجد النصيحة إليها مسلكاً ، قست وتحجرت ، وغلظت وجفت ، وأعرضت ونبت ، وتاهت عن الحق ، وعميت عن الدرب ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج : ٤٦] .

وإن لقسوة القلب أسباباً عديدة وعوامل كثيرة نذكر طائفةً منها ونلمح إلى جزءٍ منها ، فلنطرد فلول القسوة ، ولنهزم جيوش الجفوة ، ولنهجر أسباب الشقاء .

من أسباب قسوة القلب :

١ - هجر القرآن الكريم :

يقول ﷺ : «اقرأوا القرآن واعملوا به ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به» [صحيح الجامع : ١١٦٨] ، وهجر القرآن الكريم أنواع عدة : هجر التلاوة – هجر التدبر – هجر العمل به – هجر الاستشفاء به .

ليس للقلب أنفع دواءً من القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وحينما أخذ الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم – هذا الكتاب بقوة وقرأوه وتدبروه وعملوا بمقتضاه ، وأصبح لبيوتهم دوي كدوي النحل بالقرآن أثمر في حياتهم ، قويت به الهمم ، وعظمت به العزائم ، وزكت به النفوس ، وصفت به الأفئدة ، ورقت به القلوب فلم يكن افتتاحاً للمنتديات ، وقراءة على الأموات ، وزينةً على الرفوف .

٢ - التهاون بالذنوب :

كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون ، لا أحد يسلم من الذنب ولا أحد يُعصم من الخطأ – إلا من عصمه الله تعالى – ولكن المؤمن إذا قارف ذنباً أو ارتكب معصية يسارع بالتوبة ، ويبادر بالاستغفار ، وقد ذكر الله تعالى من صفات المتقين : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

ويقول ﷺ : «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» [صحيح الجامع : ٢٢١٥] .

التهاون بالذنوب سبب أعظم لقسوة القلوب ، يقول ﷺ في حديث رسم صورة فائقة الحسن ، بارعة الجمال ، حلوة اللفظ ، بديعة المعنى : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ؛ فأيُّ قلب أشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء ، وأيُّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتةٌ بيضاء . حتى تصير القلوب على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسودٌ مُرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» [مسلم : ١٤٤] .

كثير من القلوب استمرأت الذنوب ، واستهانت بالمعاصي ، قل إنكارها ، وضعف إيمانها ، فتلاشت حلاوة الإيمان ، وضعفت غيرتها للرحمن .

٣ - التعلق بالدنيا وحطامها :

فكثير من الناس جل تفكيرهم في الدنيا ، وأغلب حياتهم مع الحطام ينامون على حب الدنيا والتفكير بها ، ويصبحون على ذلك كأنما خلقوا لها ، مجالسهم في الحديث عنها ، ومنتدياتها لمتابعة أخبارها ، ولقاءاتهم للمشاورة في أمورها ، أصبحت عند كثير من الناس إلهاً يعبد وهدفاً يراد ، ومطمحاً يُسعى إليه ، يقول ﷺ : تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة» [البخاري : ٦٤٣٥] أي هلك طالبها الحريص عليها وعلى جمعها القائم على حفظها حتى غدا عبداً لها ، قال تعالى : ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون**

حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [الحديد : ٢٠] .

يقول ﷺ : «فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» [البخاري : ٤٠١٥] .

٤ - كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى :

قال تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون﴾ [المؤمنون] .

٥ - كثرة الهزل والضحك :

الضحك من دلائل البشر ، وعلامات الأنس ، وأسباب السرور ، ولكنه إذا جاوز حده ، وتعدى طوره ، يقلل هيبة المرء ، ويساعد على قسوة القلب ، يقول ﷺ : «لاتكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» [صحيح الجامع : ٧٤٣٥] .

٦ - الجليس السوء :

الجليس الصالح مكسب عظيم وربح كبير .

أكرم بقوم إذا لاقيتهم عرضاً
أهدوك من نورهم ما ذكَّر الباري
هينون لينون أيسار بنو يُسُرٍ
صيْد بها ليل حفاظون للجار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا
ولا يمارون إن ماروا بإكثار

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

والجليس السوء خطر محدق ، ونكد مزعج ، فهو كنافخ الكير إما أن تجد منه ريحاً خبيثة وإما أن يحرق ثيابك . كثير من الناس دمرت حياتهم وشقيت أنفسهم ، وشقيت أسرهم بسبب جلساء السوء ورفقاء الضلال وقرناء الباطل .

٧ - عدم حفظ السمع وغض البصر :

استماع الحرام يغطي نور القلب ، ويطمس بصيرة الفؤاد ، ومن أعظم أسباب قسوة القلب إطلاق البصر في النظر المحرم ، قال تعالى : ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾ [الإسراء : ٣٦].

وبين النظر والقلب صلة كبيرة ، فإن حُفظ البصر حفظ القلب ، وإذا أطلق العنان للبصر أثر على القلب وشوش الخاطر ، ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم**﴾ [النور : ٣٠] .

٨ - عدم بذل المعروف وإطعام الطعام :

مساعدة الناس والرفق بأحوالهم والإحسان إليهم والرحمة بهم تزيد خشوع القلب وتلطف سلوك النفس .

شكا رجل إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال له : «إن أردت أن تلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم» [الصحيحة : ٨٥٤] .

٩ - عدم تذكر الآخرة :

نسيان الآخرة ضياع للمرء وظلام للنفس وقسوة للقلب ، لو أعمل

الإنسان عقله ، وفتح نوافذ قلبه ، لتذكر يوم المعاد ، والقيام لرب العباد لخشع قلبه ، وسكنت جوارحه ، وخضع فؤاده ، القلوب تقسو حينما تغفل عن يوم القيامة وعن تذكر أهوال الساعة وعن التفكر في القارعة والزلزلة والطامة والصاخة والتغابن ويوم الدين ويوم التناد ويوم الحسرة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يبعث ما في القبور ، ويحصل ما في الصدور ، يوم تزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج الأرض أثقالها ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم لا يغني والد عن ولده شيئاً ولا مولود عن والده شيئاً ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . .

يوم يحشر الناس حفاة عراة غرلاً ، يوم ينصب الصراط على متن جهنم ، يوم تدنو الشمس من العباد قدر ميل فيبلغ العرق منهم كل مبلغ فمنهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً .

الـــورع

الإيمان مـراتـب ، والإسـلام درجـات ، والتـقـوى منازل ، والناس متـفـاوتون في ذلك تفـاوتاً كـبيـراً ، وعلى قـدر ترقي الإنسـان في مـراقي الكمال تكون مرتبته عند ربه جل وعلا وتكون منزلته في الجنة .

وإن من السهولة بمكان أن يكون المسلم مصلياً أو صواماً أو قواماً أو داعية أو خطيباً أو معلماً أو حتى عالماً ، ولكن من الصعوبة بمكان أن يكون وَرِعَاً فإن الورع رتبةٌ عزيزةُ المنال ، رفيعةُ المكان ، بعيدة الشأو ، ومتى ما ارتقى الإنسان إلى مرتبة الورع فقد نال أسمى المراتب ، وتحلى بأجمل المناقب التي تؤهله لمنزلة النبيين والصديقين والشهداء ، وإن ما نلاحظه من قلة البركة ، وفساد الثمرة ، وتردي الأخلاق ، وكثرة الشقاق ، والانكباب على الشهوات ، والتلطخ بالشبهات ، والانهماك في الملذات ، والتهاون بالذنوب ، وضياع الحقوق ، وفشو الفسوق ، ومظاهر العقوق ؛ لهو نتيجة لغياب مفهوم الورع ، فما هو الورع؟ وما هي درجاته؟وما أقسامه؟ وما مظاهره؟ ومن هم أهله؟ وما هي ثمرته؟! .

(وَرَعَ) كلمة تدل على الكف عن الشيء والانقباض عنه ، وقيل هو بمعنى التَّحرُّج.

والوَرَع في الشرع ليس هو الكف عن المحارم ، والتحرُّج منها فقط بل هو بمعنى الكف عن كثير من المباح والانقباض عن بعض الحلال خشية

الوقوع في الحرام .

وقد وردت تعاريفُ كثيرة للورع ومنها قولهم : الوَرَعُ : ترك ما يريبُك ، ونفي ما يعيبك ، والأخذ بالأوثق ، وحمل النفس على الأشق .

وقيل : هو تجنب الشبهات ، ومراقبة الخطرات .

وقال ابن تيمية – رحمه الله – : هو الورع مما قد تخاف عاقبته .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : هو ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة .

وقيل : هو عبارة عن ترك التسرع إلى تناول أعراض الدنيا .

وقيل : هو ترك كل شبهة .

وقال يحيى بن معاذ : الورع على وجهين : ورع في الظاهر وورع في الباطن . فورع الظاهر : أن لا يتحرك الإنسان إلا لله ، وورع الباطن : هو أن لا تدخل قلبك سوى الله .

وقال آخر : الورع هو الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين .

ياالله الخروج من كل شبهة!! ومحاسبة النفس في كل طرفة!! فانظر لهذا التعريف وما سبقه من تعريفات للورع ، ولنعرض أنفسنا وأحوالنا وأعمالنا على مفهوم الورع ، أظنه في وادٍ ونحن في واد – إلا من رحم الله – أين نحن من تجنب الشبهات ، أين نحن من عدم التسرع إلى تناول أعراض الدنيا ، أين نحن من الإحجام عما يُخشى ضرره ، وتُخاف عاقبته ، وهي تعريفات لها أهميتها البالغة ، ودلالاتها العميقة .

أكثر الناس اليوم يهمه أن يجمع المال ، وأن يصل إلى غرضه ، وأن

يحقق مآربه في الدنيا ، أما السؤال عن الحرام والحلال والأجر والإثم والجواز والمنع ، والريبة وعدمها ، فذلك آخر ما يفكر فيه الإنسان إن فكر ولذلك ترى كثيراً من الناس ينساقون وراء معاملات تجارية ، وفرص استثمارية ، وعروض بنكية ، ومسابقات عجيبة ، ودعوات غريبة دون تريث في الأمر والتفات للشرع وسؤال عن الحكم ، وبعضهم قد امتلأ بطنه ، وعظم رصيده ، وغذي بالحرام جسمه .

أين نحن من قولهم : أن لا يتحرك الإنسان إلا لله، وأن لا يدخل في قلبه سوى الله.

أين نحن من قولهم محاسبة النفس في كل طرفة عين . فمن علم أنه محاسب على مثقال الذرة وجب عليه أن يحاسب نفسه في كل طرفة عين .

ومما مضى من التعريفات يظهر لنا أن الورع هو في البعد عن المحرمات والكف عن الشبهات ، والتخفف من المباحات ، ومحاسبة النفس على كل عمل ، والبعد بها عن كل زلل ، ولكن هنالك نوعاً من أهم أنواع الورع وأعظمها درجة ، وأشدها خطورة ، وهو الورع في المنطق ، والورع في المنطق يدل على سلامة النفس ، وينبىء عن صفاء القلب ، ويدل على قوة الإيمان ، وإن الورع في المنطق والأقوال أشد وأشق من الورع في الأفعال ، يقول أحد السلف : الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة .

إن من الناس من يستطيع أن يملك نفسه ويكفها عن الشهوات والشبهات ، ولكنه لا يستطيع أن يسجن لسانه ، ويملك بيانه ، فلا ينطق إلا بخير ، ولا يتكلم إلا بمعروف ، ولا يحدث إلا بصدق وعدل وحق ، لا

يخوض فيما لا يعنيه ، ولا ينال مسلماً بما لا يرضيه ، ولا يرم بريئاً بما ليس فيه ، ولا يتتبع العورات ، ولا يتصيد العثرات ، ولا يشهر بالهفوات فمن وُفِّق إلى الورع في حفظ اللسان فقد بلغ الغاية في مراتب الإيمان .

يقول ﷺ : «وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم» [صحيح ابن ماجة : ٣٢٢٤] .

ما هي درجة الورع ؟

درجته عالية ، ورتبته رفيعة ، ومنزلته بعيدة لا يصل إليها إلا الخلّصُ من الناس ، ولا يرتقي إليها إلا الأفذاذ من العباد ، ولذلك تجد أن الذين اشتهروا بالورع على مر التاريخ هم أناس قلائل ، وأفراد أوائل ، وإذا قيل في القرون المفضلة : «لولا سفيان الثوري لمات الورع» فما بالك ببقية القرون . فالورع مرتقى صعب ، ومرتبة شاقة ، وهو ملاك الدين ، وجوهر التقوى ، وزمام الأمر .

يقول الحسن البصري – رحمه الله – : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة – أي النفل – .

وقال محمد بن واسع – رحمه الله – : يكفي من الدعاء مع الورع اليسيرُ منه .

وقال حبيب بن أبي ثابت – رحمه الله – : لا يعجبكم كثرةُ صلاةِ امرىء ولا صيامه ، ولكن انظروا إلى ورعه ، فإن كان ورعاً مع ما رزقه الله من العبادة فهو عبد لله حقا .

تصلي وتصوم وتتلطخ بالشهوات والشبهات ، تصلي وتصوم وتجمع الأموال بكل طريق حلال أو حرام ، تصلي وتصوم وتطلق لسانك في عباد

الله ، تصلي وتصوم وتحسد وتحقد وتبغي في الأرض بغير الحق . هذه صفات ليس بينها وبين الورع وفاق ، وليس لها معه عهد ولا ميثاق .

يقول بعض الصحابة – رضي الله عنهم جميعاً – كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام ، وهذا موافق لحديث ضعيف الإسناد صحيح المعنى هو أن النبي ﷺ قال : «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس» [ضعيف ابن ماجة : ٤٩٧٧] .

وقد صح عنه ﷺ قوله : «خير دينكم الورع» [صحيح الجامع : ٣٣٠٨] .

أقسام الورع : قسّم بعض العلماء الورع إلى ثلاثة أقسام وهي :

١ – واجب : وهو الإحجام عن المحارم وذلك للناس كافة .

٢ – مندوب : وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للأواسط .

٣ – فضيلة : وهو الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل الضرورات وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ومظاهر الورع كثيرة جداً ، فالورع يكون في النظر بحفظه عن الحرام وغضه عن الفتن ، ويكون في السمع ، ويكون في اللسان ، ويكون في البطن فلا يأكل أو يشرب إلا ما اطمأن إلى جوازه ونفعه ، ويكون في الفرج بحفظه عما حرّم الله ، ويكون في المشي والسفر ، ويكون في البيع والشراء .

وإليك الآن بعض النماذج الرفيعة لأرباب الورع :

أعظم الناس إيماناً وأكملهم ورعاً محمد ﷺ وهو الذي عاش يبث في نفوس أصحابه مفهوم الورع وعبقاً من حقيقة التقوى بقوله وفعله وسمته وخلقه .

يقول ﷺ : «البر ما سكنت إليه النفس واطمأنَّ إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون» [صحيح الجامع : ٢٨٨١] ، وهذه الإجابة وذلك التوجيه للإنسان المؤمن ، أما الفاسق والفاجر فإن الإثم لا يحوك في صدره ، بل ربما يتلذذ بالمعاصي ، ويستمتع بالآثام ، وهي متع ظاهرة ، وتلذذ مغشوش ، ولكن المسلم يجد لصدره انفساحاً ، ولفؤاده انشراحاً مع البر ودروبه ، ويجد في صدره ضيقاً ، وفي قلبه حرجاً حين التلبس بالإثم ودواعيه .

ويقول ﷺ : «إنك لن تدع شيئاً اتقاءً لله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه » [مسند أحمد : ٥/٧٨] .

ويقول ﷺ : «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طُعمة» [انظر صحيح الجامع : ٨٧٣] .

ويعطي ﷺ قاعدة عظيمة في الورع ، فيقول : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» [رياض الصالحين : ٥٦] .

وجمع ﷺ الورع كله في كلمة ، فقال : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [صحيح ابن ماجة : ٣٢٢٦] وترك ما لا يعني كلمة عامة تعم كل شيء ، ترك ما لا يعني من الكلام ، وما لا يعني من النظر ، ومن الاستماع ، ومن المشي ، ومن الفكر ، ومن سائر الحركات الظاهرة والباطنة فمن ترك ما لا يعنيه من كل ذلك فقد ارتقى إلى مرتبة أهل الورع .

انظر إلى مثال من أصدق الأمثلة على الورع في المأكل والمشرب ، يقول ﷺ : «إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي ثم أرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها» [صحيح الجامع : ٢٤٩٧] .

وكان ﷺ يروي لأصحابه بعض قصص الورع لتكون نبراساً لهم ، يمضون على نهجها ، ويقتبسون من هديها ، فيقول ﷺ : «اشترى رجل من رجل عقاراً له فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرّة فيها ذهب . فقال له الذي اشترى العقار خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب ، وقال الذي له الأرض إنما بعتك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجل ، فقال الذي تحاكما إليه : ألكما ولد؟ قال أحدهما : لي غلام ، وقال الآخر : لي جارية ، قال أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسكما منه وتصدقوا» [صحيح الجامع : ٩٨٩] .

ولقد زرع هذا الورع البديع في نفوس أصحابه – رضوان الله عليهم – فساروا على النهج ، واقتفوا الأثر ، واتبعوا القدوة ، تقول عائشة – رضي الله عنها – : «كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني بذلك هذا الذي أكلت منه فأدخل أبو بكرٍ يده فقاء كل شيءٍ في بطنه» وفي رواية أنه قال : «لو لم تخرج إلا بروحي معها لأخرجتها» .

وهذا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – قسّم مروطاً بين نساءٍ من نساء أهل المدينة فبقي منها مرط جيد ، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك – يريدون أم كلثوم بنت علي – فقال عمر : أم سليط أحق به – وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايعن رسول الله ﷺ – قال عمر : فإنها كانت تُزفِرُ لنا القِرَب يوم أحد» .

الورع يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته وهو صون النفس وحفظها وحمايتها عما يشينها ويعيبها ويزري بها عند الله عز وجل وملائكته وعباده المؤمنين وسائر خلقه ، فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها ، وزكّاها وعلاها ، ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ، ألقاها في الرذائل ، وأطلق عنانها وحل زمامها .

« ذكر ﷺ الرجل أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذي بالحرام ، فأنى يستجاب له » [انظر صحيح مسلم : ١٠١٥] .

وإن من أراد الوصول إلى درجة الورع فلا بد له من التورع عن كثير من المباح إبقاءً على صيانة النفس وخوفاً عليها أن يتكدر صفوها ويطفأ نورها ، فإن كثيراً من المباح يكدّر صفو الصيانة ويذهب بهجتها ، يقول ابن القيم – رحمه الله – : قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية في شيء من المباح : « هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة » ، فهناك أمور كثيرة مباحة ، ولكن لا تتناسب مع صاحب الهمة العالية ولا تتفق مع ذوي النفوس السامية .

سئل ﷺ عن أفضل الناس فقال : « كل مخموم القلب صدوق اللسان » قالوا صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب؟ ، قال : « هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد » [صحيح ابن ماجة : ٣٤١٦] .

وإن المؤمن حينما يبتعد عن طرق الحرام ، ومواطن الشبهات ، ويترك كثيراً من الأمور لله جل وعلا وخوفاً من عواقبها فإن الله تعالى يفتح له آفاقاً من الخير ، وآماداً من العطاء ، يقول ﷺ : « إنك لن تدع شيئاً لله عز

وجل إلا أبدلك الله به ما هو خير لك منه» [رواه أحمد].

ويقول أبو حامد الغزالي – رحمه الله – : «لن يعدم المتورع عن الحرام فتوحاً من الحلال» .

ويقول الشافعي – رحمه الله – : «زينة العلم الورع والحلم» .

وقال طاوس – رحمه الله – : «مثل الإسلام كمثل شجرة فأصلها الشهادة وثمرها الورع ولا خير في شجرة لا ثمر لها ، ولا خير في إنسان لا ورع له» .

وقال سفيان الثوري – رحمه الله – : «عليك بالورع يخفف الله حسابك ، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك» .

وقال أبو هريرة – رضي الله عنه – : «جلساء الله غداً أهل الورع والزهد» .

محاسبة النفس

محاسبة النفس طريقة المؤمنين ، وسمة الموحدين ، وعنوان الخاشعين فالمؤمن متّقٍ لربه ، محاسبٌ لنفسه ، مستغفرٌ لذنبه ، يعلم أن النفس خطرها عظيم ، وداؤها وخيم ، ومكرها كبير ، وشرّها مستطير ، فهي أمّارةٌ بالسوء ، ميّالةٌ إلى الهوى ، داعيةٌ إلى الجهل ، قائدةٌ إلى الهلاك ، توّاقةٌ إلى اللهو إلا من رحم ربي ، فلا تترك لهواها لأنها داعية إلى الطغيان من أطاعها قادته إلى القبائح ، ودعته إلى الرذائل ، وخاضت به المكاره ؛ تطلعاتها مريبة ، وغوائلها عجيبة ، ونزعاتها مخيفة ، وشرورها كثيرة ، ولذلك علمنا ﷺ في خطبة الحاجة ، أن نكرر دائماً ، ونردد أبداً قوله : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا » [أخرجه الترمذي والنسائي] .

والناس قسمان : قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وسيّرته فأرْدَتْه ، وصار طوعاً لها ، وتحت أوامرها .

وقسم ظفر بنفسه ، وانتصر عليها ، وأمسك زِمامها ، وأحكم لجامها فقد أفلح وأنجح .

ومن ظفرت به نفسه فسارت به على هواها ، ومشت به في رضاها ، فقد خسر وهلك . والنفس راغبة إذا رغّبتها ، وإذا تُرد إلى قليل تقنع .

فمن ترك سلطان النفس حتى طغى ، ﴿ **وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي**

المأوى﴾ [النازعات : ٣٨] .

وقد وصف الله سبحانه النفس في القرآن بثلاثة أوصاف : المطمئنّة ، والأمّارة بالسوء ، واللوَّامه .

فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره ، وأنابت إليه ، وامتثلت أوامره ، واجتنبت نواهيه ، واشتاقت إلى لقائه ، وأنست بقربه ، فهي مطمئنة ، وهي التي يقال لها عند الوفاة : **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾** [الفجر : ٢٧] .

وإذا كانت النفس بضد ذلك فهي أمَّارة بالسوء ، تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغي ، ودروب الردى ، واتباع الباطل .

وأما النفس اللوامة فقد قيل هي التي تندم على ما فات ، وتلوم عليه قال عطاء عن ابن عباس : «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، تلوم المحسنَ نفسُه أن لا يكون ازداد إحسانا ، وتلوم المسيءَ نفسُه أن لا يكون رجع عن إساءته» .

وقال الحسن – رحمه الله – : «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته يستقصرها في كل ما يفعل ، فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر ليمضي قدماً لا يعاتب نفسه» . فيجب أن يكون المؤمن محاسباً لنفسه متهماً لها ، لائماً على تقصيرها .

يقول الله جل وعلا : **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** [الحشر : ١٨] .

فهذه الآية دليل على وجود محاسبة النفس ، والنظر في أحوالها ، والمتابعة لأعمالها .

يقول ابن كثير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى : ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ [الحشر : ١٨] : «أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادَّخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، واعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية» .

وقد أقسم الله تعالى بالنفس ، وذكَرها مع يوم القيامة دلالةً على أهميتها ومنزلتها ، وبياناً لضرورة المحاسبة وأهميتها ، فقال تعالى : ﴿**لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ [القيامة : ٢] .

وقال تعالى : ﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره**﴾ [القيامة : ١٥] ، فالإنسان بصير بعيوب نفسه ، عالم بدخائلها ، ولو تظاهر بالأعذار وجادل عن نفسه ، فلن ينفعه ذلك يوم القيامة ، وهذا إشارة إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها ، وإصلاح عيوبها قبل فوات الأوان .

وروي عنه ﷺ قوله : «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» [أخرجه الترمذي وابن ماجة] .

ولقد كان السلف رضي الله عنهم وأرضاهم أشدَّ الناس محاسبةً لأنفسهم ، واتهاماً لها ، واعترافاً بتقصيرها وجهلها ، مع ما كانوا عليه من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والقدر العظيم ؛ أعمال عظيمة وأخلاق كريمة ، ونفوس مستقيمة ؛ هدى وصلاح ، جهاد وكفاح ، بذل وعمل ، جود وكرم ، بكاء وندم ، سهر وألم ، مسارعة إلى الخيرات ، منافسة في الطاعات ، صفاء في النيات ، ومع ذلك كله لم يدلّو بأعمالهم ، ولم يُعجبوا بأحوالهم ، أو يُباهوا بأفعالهم ، بل اتهموا

أنفسهم بالتقصير ، وكانوا في غاية الخوف والوجل من العلي القدير ، وعلى رأسهم البشير النذير ﷺ ، الذي أخبر أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله حتى هو ﷺ إلا أن يتغمده الله برحمته . وهو الذي قام حتى تفطرت قدماه ، وكان يبكي حتى تَبُلَّ دموعُه الثرى ، وكان يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة ، ويُعد له وهو يستغفر لربه في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة . ولكن الإنسان يعجب حينما يتأمل أحوال كثير من الناس ، أعمال قليلة ، وطاعات متهالكة ، وأحوال مُزرية ، ومع ذلك لا حساب ، ولا عتاب ، ولاندم ، ولا ألم ، ولا خشية ، ولا وجل! .

ذلك أبو بكر الصديق – رضي الله عنه وأرضاه – حينما يقف مع نفسه وقفة محاسبة دقيقة صرخ قائلاً : «يا ليتني كنت شجرة تُعضد» .

وذاك عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كان يخشى على نفسه أن يكون من المنافقين ، وكان يقول : «والله لوددت أن أنجو يوم القيامة كفافاً لا عليّ ولا لي» ، وكان يقول : «لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحداً لخشيت أن أكون أنا» .

قال – رضي الله عنه وأرضاه – : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزيّنوا للعرض الأكبر يومئذٍ تُعرضون لا تخفى منكم خافية» .

وكتب – رضي الله عنه – إلى أحد عُمَّاله : «أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدّة ، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرْجِعُه إلى الرضى والغبطة ، ومن ألهته حياتُه وشغلَتْهُ أهواؤه

عاد أمرُهُ إلى الندامة والحسرة» .

ويقول الحسن البصري – رحمه الله – : «لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردْتُ بكلمتي؟ ماذا أردْتُ بأكلتي؟ ماذا أردْتُ بشربتي؟» ، ويقول : «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همِّته» .

ويقول : «المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه لله ، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه ، فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات حيل بيني وبينك» .

إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه .

ويقول مالك بن دينار – رحمه الله – : «رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبةَ كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمَّها ، ثم خَطَمها ، ثم ألزمها كتاب الله – عز وجل – فكان لها قائدا» .

وقال إبراهيم التيمي : «مَثّلْتُ نفسي في الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثّلت نفسي في النار ، آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، ثم قلت لنفسي : يا نفس أيَّ شيء تريدين؟ قالت : أريد أن أُرَدّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، قال : فأنت في الأمنية فاعملي» .

بل لقد وصل الحال ببعضهم إلى أن اتخذ في داره قبراً ينزل فيه ويغلق على نفسه ، ثم ينادي ويبكي ﴿**رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت**﴾ [المؤمنون :٩٩] ، ثم يخرج من القبر ويقول لنفسه : قد أُعْطِيتِ رغبتك فاعملي .

وكان الأحنف بن قيس – رحمه الله – في محاسبته لنفسه يُذكّرها نار الآخرة ، فيجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه حتى يحسّ بالنار ثم يقول لنفسه ، يا حُنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ .

عن وهب بن منبّه ، قال : مكتوب في حكمة آل داود : حُقَّ على العاقل أن لا يغفُل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلّ ويُحْمد ، فإن في هذه الساعة عوْناً على تلك الساعات ، وإجماماً للقُلُوب .

قال أبو حامد الغزالي – رحمه الله – عَرف أرباب البصائر من جملة العبادات أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سَيُناقشون في الحساب ، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته ،

فلمَّا انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة ، فقال عز من قائل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاتبة ، ثم بالمجاهدة .

وقال بكرُ بن عبد الله المزني - الذي كان آية في التقوى والصلاح - : « لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم » .

وقال محمد بن واسع : « لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ » .

ويقول ميمون بن مهران : « لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه » .

ويقول ابن القيم - رحمه الله - : « من أحسن الظن بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه » .

هكذا كانوا - رحمهم الله ورضي عنهم - يلومون أنفسهم ، ويبكون تقصيرهم ، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات كان مغرورا ، ومن نظر إليها باستحسان فقد أهلكها . فالنعمة العظمى هي في الخروج من حظوظها العاجلة ، والتخلص من رقِّها ، وأعرف الناس بأنفسهم أشد الناس محاسبة لها ، ورقابة عليها ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

إخوة الإيمان .. محاسبة النفس طريق للنجاح ، وسبب للفلاح ، وأمارة سعادة ، ودليل رشادة ، وهنالك أمور كثيرة تعين على محاسبة

النفس وتقوي بواعث الخير فيها ، ومن ذلك :

١ - استشعار رقابة الله على العبد واطلاعه على خفاياه ، وأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ [ق:١٦] ، وقال تعالى : ﴿ **اعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ [البقرة : ٢٣٥]

٢ - أن يعلم العبد أنه مسئول عن كل صغيرة وكبيرة ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ [الزلزلة : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ **فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ [الحجر : ٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ **فلنسئلن الذين أرسل إليهم ، ولنسئلن المرسلين * فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ [الأعراف:٧] ، وقال تعالى : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

٣ - أن يتذكر الحساب الأكبر يوم القيامة ، وأن يعلم أنه من شدَّد على نفسه في الحساب هنا ، يسَّر الله عليه الحساب هنالك ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا** ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وقال تعالى ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين** ﴾ [الزمر : ٥٨] .

فتذكُّر الموت ، وأهوال القيامة ، يدعو المؤمن إلى محاسبة النفس ، والأخذ بزمامها إلى طريق الخير والفلاح ، يقول ﷺ : مشيراً إلى هذا الأمر : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» [أخرجه البخاري] ، وفي رواية «واعدد نفسك في الموتى» ، وقال رجل لآخر : «أوصني» فقال : «عسكر الموتى ينتظرونك» .

فلنُعد للسؤال جواباً ، ولنعلم يقيناً أن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، ومن تذكر هول المطلع على الله ، حاسب نفسه وأعدّ العدة للقياه .

دعـــوةٌ مفتوحـــة

أيها المؤمنون .. لقد ناداكم مولاكم بالصفة المحبَّبة إلى نفوسكم والميزة القريبة من قلوبكم ، وهي صفة الإيمان بالواحد الديّان ، ناداكم بها إلى أمرٍ أحبّه وأحب أهله ودعا إليه ، وأحبه نبيُّه ﷺ وحثَّ عليه فقال جل وعلا : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحا** ﴾ [التحريم : ٨] ، وقال : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ [النور : ٣١] .

وقد أعلن محبته للتائبين ، ومغفرته للمستغفرين ، ورضاه عن المتطهرين فقال : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وقال جل من قائل : ﴿ **وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ [طه : ٨٢] .

يُحبُّ من عباده أن يعرفوه ويحبوه ، ويخافوه ويتقوه ، ويطيعوه ويتقربوا إليه ، ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيرُه . وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ «أن عبداً أذنب ذنباً فقال : يا ربّ إني عملت ذنباً فاغفر لي ، فقال الله : أعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به؟ قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء» [رواه البخاري] .

ثم تفكَّر في قوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] فما أجمل هذه الجملة الاعتراضية ، وهذا الاستفهام الذي يقصد به النفي : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ أي لا أحد يغفر الذنوب إلا الله

ففيه إشارة إلى أن المذنبين ليس لهم من يلجؤون إليه ويعوِّلون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره تعالى ، ثم انظر إلى قوله تعالى في حق الثلاثة الذين خُلِّفوا ﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ [التوبة : ١١٨] ، فرتَّب توبته عليهم ، على ظنهم واعتقادهم الجازم بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فالعبد إذا خاف من مخلوقٍ هرب منه وفرّ إلى غيره . وأما من خاف الله فما له من ملجأ يلجأ إليه ، ولا مهرب يهرب إليه إلا هو ، فيهرب منه إليه ، وهو – جل وعلا – نعم المولى ونعم النصير، وهو الغفور الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ، وعفوه عقوبته . وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وهو غافر الذنب وقابل التوب ، وهو أرحم الراحمين ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** ﴾ [النساء : ٢٧] .

انظر إلى عظيم عفوه ، وجميل لطفه ، وواسع فضله ، ووافر جوده ، يعرض التوبة لأعدى أعدائه ، ويدعو إلى مغفرته ألدّ ألدّائه فيقول للذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وقالوا : إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم ، يقول لهم : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ [المائدة : ٧٤] ويقول عن الكفار : ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ [المائدة : ٧٤] ، ويقول عن الكافرين والمنافقين الذين قالوا كلمة الكفر ﴿ **فإن يتوبوا يك خيراً لهم** ﴾ [الأنفال : ٣٨] ، فأي فضل إلا فضله! ، وأي عطاء إن لم يكن عطاؤه ؟! .

إليه وإلا لا تشدّ الركائبُ
ومنه وإلا فالمؤمِّل خائبُ

وفـــيـــه وإلا فـــالغـــرام مـــضـــيَّعٌ
وعنه وإلا فـــالمحـــدِّث كـــاذبُ

فإذا كان هذا جوده للبعيد ، فكيف بجوده للقريب؟! ، وإذا كانت تلك رحمته بالمشرك – إذا تاب – فكيف برحمته بالموِّحد ، وجوده وكرمه للمسلم المفرط والمؤمن المقصر؟! ، يناديه نداء المتحبب ويدعوه دعوة المتلطف ، قال تعالى : ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا**﴾ [الزمر: ٥٣] ويقول له : « يا عبدي ، وعزتي وجلالي لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي » ، من تقرّب إليه شبراً تقرب إليه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أتاه يمشي أتاه هرولةً ، فالباب مفتوح ولكن من يلج؟! ، والمجال مفسوح ولكن من يُقبل؟! ، والحبل ممدود ولكن من يتشبث به؟! ، والخير مبذول ولكن من يتعرض له؟! ، فأين الباحثون عن الأرباح ، وأين خطّاب الملاح أين عشاق العرائس ، وطلابُ النفائس؟! .

من أقبل إليه تلقاه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب ، ومن ترك من أجله أعطاه فوق المزيد ، ومن أراد رضاه أراد ما يريد ، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد ؛ أهلُ ذكره أهل مجالسه ، وأهل شكره أهل زيادته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ، إن تابوا إليه فهو حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فهو رحيم بهم ، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب . الحسنة عنده بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة عنده بواحدة ، فإن ندم عليها واستغفر غفرها له ، يشكر على اليسير من العمل ، ويغفر الكثير

من الزلل ، رحمته سبقت غضبه ، وحلمه سبق مؤاخذته ، وعفوه سبق عقوبته . جعل رحمته مائة جزء ، أنزل منها في الدنيا جزءاً واحدا به يتراحم الخلائق فيما بينهم ، حتى أن الدابة ترفع حافرها خشية أن تطأ وليدها ، وادّخر عنده تسعة وتسعين جزءاً يرحم بها العباد يوم القيامة . من أعظم منه جوداً والخلائق له عاصون ، وهو لهم مراقب؟ يكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوه ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بينهم وبينه ، يجود بالفضل على العاصي ، ويتفضل على المسيء . من ذا الذي دعاه فلم يلبّه ؟! أم من ذا الذي سأله فلم يعطه؟! ، أم من ذا الذي أناخ ببابه فنحّاه؟! ، له الفضل ، ومنه الفضل ، وهو الجواد ، ومنه الجود ، وهو الكريم ، ومنه الكرم ؛ ومن كرمه أن يغفر للعاصين بعد المعاصي ، ويعطي العبد ما سأله وما لم يسأله ، ومن كرمه أن يعطي التائب كأنه لم يعصه ، فأين عنه يهرب الخلائق ، وأين عن بابه يتنحَّى العاصون ؟!! .

عباد الله .. كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوّابون ، وإن الأعمال الجليلة ، والمواسم العظيمة ، تُختَم بالاستغفار والتذلل للجبَّار ، والتوبة للقهَّار ، ليقبل صالح العمل ، ويغفر الخطأ والزلل .

التوبة تودّدٌ لجلال الخالق ، وتذللٌ لعظمة الجبار ، وانطراحٌ على أعتاب المتعال ، وهي من كمال الإيمان ، وحُسْن الإسلام ؛ التوبة حسرة وندم ، بكاء وألم ؛ ندمٌ على التفريط ، واعترافٌ بالتقصير ، وأسفٌ على الماضي ، وتطلعٌ للمستقبل ، وجهادٌ للحاضر .

التوبة غسلُ القلب بماء الدموع وحُرقة الندم ، فهي حرقةٌ في الفؤاد ، ولوعةٌ في النفس ، وانكسارٌ في الخاطر ، ودمعةٌ في العين . إنها مبدأ

طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين . التائب يضرع ويتضرَّع ، ويهتف ويبكي ؛ إذا هدأ العباد لم يهدأ فؤاده ، وإن سكن الخلقُ لم يسكن خوفُه ، وإذا استراحت الخليقة لم يفتر حنين قلبه ، وقام بين يدي ربه بقلبه المحزون ، وفؤاده المغموم ، مُنَكَّسٌ رأسُه ، ومقشعِرٌّ جلدُه . إذا تذكر عظيم ذنوبه ، وكثير خطئه ، هاجت عليه أحزانه ، واشتعلت حرقات فؤاده ، وأسبل دمعه ؛ فأنفاسه متوهِّجة ، وزفراته بحرق فؤاده مُتصلة ، قد ضمّر نفسه للسباق غدا ، وتخفف من الدنيا لسرعة الممر على جسر جهنم .

قال تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا** ﴾ [مريم : ٧١] .

ومن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفاً تقطع قلبه في الآخرة إذا حُقّت الحقائق ، وظهرت الوثائق ، وحضرت الخلائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا** ﴾ [النبأ : ٤٠] .

يقول ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة » [رواه مسلم] ، هذا الذي غُفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه ، ومُحي عنه ما سلف وما خلف من زلل ، يتوب في اليوم مائة مرة ، فكيف بمن تجارته المعاصي ، وبضاعته السيئات ، ثم يتنكر للاستغفار ويتجافى عن التوبة .

فيا من سعيت إلى المغفرة ، احذر أن تتردى في الخطيئة ، ويا من رأيت عزّ الطاعة لا ترض بذل المعصية ، ويا من تذوقت حلاوة الفضيلة **إياك** والسير في وحل الرذيلة ، ويا من تلذذت بقراءة القرآن ، ومناجاة

الرحمن ، احذر أن يستميلك الشيطان ، ويزين لك العصيان فطهر قلبك وبيتك ، وزكِّ نفسك ومالك ، ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾.

إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .

هذا إمام التائبين ، وسيد المستغفرين ، وقائد الغرّ المحجلين ﷺ أراد أن يخبرنا عن معنى عظيم ، وخبر كريم ، تعجز العبارات عن نقله ، وتتضاءل الكلمات أمام عظمته ، فقربه إلينا في ثوبٍ قشيب وقدمه لنا في صورة موحية ، وقصة مشجية ، فقال : «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها – وقد أيس من راحلته – فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح» [رواه مسلم] ، فسبحانه ما أعظمه ، وأكرمه وأرحمه!! .

فالتوبة هروب من المعصية إلى الطاعة ، ومن السيئة إلى الحسنة ، ومن وحشة العصيان إلى الأنس بالرحمن ، فرار من الخالق إلى أعتابه وهروب من الجبار إلى رحابه ، وعياذ برضاه من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته ، وبه منه لا يُحصى ثناءٌ عليه ، لا ملجأ منه إلا إليه ، ولا مفرّ عنه إلى سواه ، ﴿ **ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين** ﴾ .

والتوبة ملاذ مكين ، وملجأ حصين . دنس المعاصي يغسل بماء التوبة ولوثة الخطايا تزال بزلال الاستغفار .

أســـأت ولـم أحـــسن وجـــئـــتك تائبـــاً
وأنى لعـــبـــدٍ من مـــواليـــه مَـــهـــربُ
يـؤمّـل غـــــفـــــراناً فـــإن خـــاب ظنه
فـــمـــا أحـــدٌ منه على الأرض أخـــيـبُ

الحمد لله

نعم الله علينا عظيمة ، وآلاؤه جسيمة ، وفضله لا حد له ، وكرمه لا ند له ، وعطاؤه لا مثيل له ، الإسلام نعمة ، والإيمان نعمة ، والتوحيد نعمة ، والخلق في أحسن تقويم نعمة ، والأهل نعمة ، والأبناء نعمة ، والزوجة نعمة ، والمسكن نعمة ، والمطعم نعمة ، والمشرب نعمة ، والملبس نعمة ، والأمن نعمة ، والعبادة نعمة ، والماء نعمة ، والهواء نعمة ، والبصر نعمة ، والسمع نعمة ، واليد نعمة ، والقدم نعمة ، والعقل نعمة والعافية نعمة ، والسلامة من الكوارث والزلازل والرعب والدمار نعمة .

وخلاصة الأمر : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

فله الحمد على نعمه ، وله الشكر على عطائه ، وله الفضل ومنه الفضل وهو العزيز الحميد . حمد نفسه جل وعلا في أول آية من كتابه ليثني على نفسه ، فهو أهل الثناء والحمد ، وليُعَلِّم عباده أن يحمدوه ويمجدوه ويشكروه ويبتدؤوا بحمده ، وينتهوا بحمده ، ويلهجوا بحمده فهو أهل الثناء والمجد وله الحمد في الأولى والآخرة، وأي أمرٍ لا يبتدىء بحمد الله فهو أجذم ، افتتحت خمس سورٍ من أبدع السور في القرآن الكريم بحمد الله تعالى ، وهي سورة الفاتحة ، وسورة الأنعام ، وسورة الكهف ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر .

حمدٌ له على ربوبيته وألوهيته ، وحمدٌ له على خلق السماوات

والأرض وحمدٌ له على إنزال الكتاب ، وحمدٌ له على سعة علمه وكمال إحاطته ، وحمدٌ له على أنه فطر السماوات والأرض ، وخلق الملائكة ، ويزيد في الخلق ما يشاء .

بدأت سورة الفاتحة بالحمد ، قال تعالى : ﴿**الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين**﴾ [الفاتحة : ٣] .

وبدأت سورة الأنعام بالحمد ، قال تعالى : ﴿**الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾ [الأنعام : ١] .

وبدأت سورة الكهف بالحمد ، قال تعالى : ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيّما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا**﴾ [الكهف : ٢] .

وبدأت سورة سبأ بالحمد ، قال تعالى : ﴿**الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور**﴾ [سبأ : ٢] .

وبدأت سورة فاطر بالحمد ، قال تعالى : ﴿**الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير**﴾ [فاطر : ١] .

وقد ورد ذكر الحمد في القرآن الكريم كثيراً ومنوعاً ، ليعرّف الله تعالى عباده كيف يحمدونه ويثنون عليه : ﴿**وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون**﴾ [القصص : ٧٠] ، ﴿**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السماوات والأرض**

وعشياً وحين تظهرون ﴾ [الروم : ١٨] .

وقد حمد الله تعالى نفسه في أول الخلق وآخره ، وعند الأمر والشرع حمد نفسه على ربوبيته للعالمين ، وحمد نفسه على تفرُّده بالألوهية وعلى حياته ، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليقُ بكماله ، من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه وحمد نفسه على علوّه وكبريائه ، وحمد نفسه في الأولى والآخرة ، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي ، ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه .

فالحمد كله لله رب العالمين ؛ فإن المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العبد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله في أعدائه ، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه ، فكلُّ ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهن : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ولهذا يقول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع : « ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الأرض ، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » .

فله سبحانه الحمد حمداً يملأُ المخلوقات والفضاء الذي بين السماوات والأرض ، وملء بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده .

وجميع أسمائه تبارك وتعالى حمد ، وصفاته حمد ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله في

إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده .

والله تعالى أنزل كتابه بالحمد . وشرع دينه بالحمد . وأوجب ثوابه وعقابه بالحمد .. فحمده من لوازم ذاته ؛ إذ يستحيل أن يكون إلا محموداً . فالحمد سبب الخلق وغايته . بالحمد أوجده وللحمد وجد . فحمده واسع لما وسعه علمه ورحمته . وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً . فلم يوجد شيئاً ولم يقدره ولم يشرع إلا بحمده ولحمده . وكل ما خلقه وشرعه فهو متضمن للغايات الحميدة ، ولا بد من لوازمها ولوازم لوازمها . ولهذا ملأ حمده سماواته وأرضه وما بينهما وما شاء من شيء بعد مما خلقه ويخلقه بعد هذا الخلق . فحمده ملأ ذلك كله . وحمده تعالى أنواع : حمد على ربوبيته ، وحمد على تفرده بها ، وحمد على ألوهيته وتفرده ، وحمد على نعمته ، وحمد على منته ، وحمد على حكمته ، وحمد على عدله في خلقه ، وحمد على غناه عن إيجاد الولد والشريك والولي من الذل ، وحمد على كماله الذي لا يليق بغيره، فهو محمود على كل حال وفي كل آن ونفس ، وعلى كل ما فعل وكل ما شرع ، وعلى كل ما هو متصف به ، وعلى كل ما هو منزه عنه ، وعلى كل ما في الوجود من خير وشر ولذة وألم وعافية وبلاء . فكما أن الملكَ كله له والقدرة كلها له ، والعزة كلها له ، والعلم كله له ، والجمال كله له والحمد كله له ، كما في الدعاء المأثور : «اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسرّه ، فأهل أن تحمد إنك على كل شيء قدير» [مسند أحمد : ٦٦] .

وكما أن الله تعالى بدأ كتابه بالحمد ، فكذلك نبيه ﷺ كان يبتدأ

كلامه بالحمد ، ويفتتح خطابه بالحمد : «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه .. » ، بل حينما نتعمق في فهم أبعاد الحمد ، وأسرار الحمد ، ودقائق الحمد ، نجد أمراً عجباً، فالله تعالى حميد مجيد ، وهو المحمود على كل حال ، وكتابه بدأ بالحمد ، وكلمة التوحيد كثيراً ما تقترن بالحمد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على شيء قدير .

والركن الثاني من أركان الإسلام كله يفيض بالحمد ، ويضوع بالحمد ويبتدأ بالحمد : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك .

والقراءة فيها تبدأ بالحمد لله رب العالمين ، والركوع : سبحان رب العظيم وبحمده ، والرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده ، والمأموم يقول : ربنا ولك الحمد .

ومما يقال بعد الرفع من الركوع : اللهم لك الحمد حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه ، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك لك الحمد ملء السماوات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . وفي السجود : سبحان ربي الأعلى وبحمده ، وفي التشهد : إنك حميد مجيد ، وبعد الصلاة : الحمد لله ثلاثاً وثلاثين، وفي الحج ينشد الأبرار : إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

والنبي ﷺ يبتدأ بالحمد ، بل اسمه يحمل معاني الحمد ، فهو محمد ، وأحمد ..

قال تعالى : ﴿ **ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ [الصف:٦] فأحمد إشارة إلى النبي ﷺ باسمه وفعله ، وتنبيهاً أنه كما وجد اسمه أحمد ، فهو محمود في أخلاقه وأحواله وصفاته وأفعاله ، وخص لفظة

أحمد فيما بشر به عيسى – عليه السلام – تنبيهاً أنه أحمد منه ومن الذين من قبله ، فهو أحمد وفعله أحمد وصفاته أحمد ، وعبادته أحمد وأخلاقه أحمد ، ودينه أحمد ، وقوله تعالى : ﴿ **محمد رسول الله** ﴾ [الفتح : ٢٩] فهو إشارة إلى اسمه ﷺ ، وإشارة إلى ما تحمله كلمة محمد من الصفات والأفعال المحمودة ، وهذا المحمد الأحمد ملأ الكون بترانيم الحمد ، وعمر الليالي بأنوار الحمد ، وملأ القلوب برحيق الحمد ، وبث في النفوس والأسماع والأفئدة عبير الحمد ، فإذا الثناء العاطر ، والدعاء الآسر ، والعبارات الخلابة ، والكلمات الجذابة : « اللهم لك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لك مُلك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت مَلك السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ولك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » [البخاري : ١٠٥٣].

ويُعَلِّم أصحابه أن يلهجوا بالحمد ، ويعمروا به أوقاتهم وينيروا به بصائرهم وأبصارهم ، فيقول ﷺ : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مئة حسنة ، ومحيت عنه مئة خطيئة ، وكانت حرزاً له من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك » [صحيح الجامع : ٦٤٣٧] .

ويقول ﷺ : «أفضل الدعاء : الحمد لله» [انظر صحيح الجامع : ١١٠٤] .

ويقول ﷺ : «الحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض» [انظر صحيح الجامع : ٣٩٥٧] .

ويقول ﷺ : «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» [صحيح الجامع : ٦٤٣١] .

ويقول ﷺ : «إن الله تعالى اصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . فمن قال : سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة . ومن قال الله أكبر مثل ذلك . ومن قال : لا إله إلا الله مثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قِبَلِ نفسه كتبت له ثلاثون حسنة ، وحطت عن ثلاثون خطيئة» [صحيح الجامع : ١٧١٨] .

فالله تعالى أحق من ذكر ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا له عبد ، له الحمد حمداً طيباً كثيراً مباركاً ، له الحمد ملء السموات والأرض ، وما بينهما وملء كل شيء بعد ، له الحمد حتى يرضى ، وله الحمد بعد الرضى، وله الحمد عدد خلقه ، وزنة عرشه ، ورضا نفسه ، ومداد كلماته ، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

لك الحمدُ طوعاً ... لك الحمدُ فرْضا
وثيقاً عميقاً ... سماءً وأرْضا
لك الحمدُ صَمْتاً ... لك الحمدُ ذكراً
لك الحمدُ خفْقاً حثيثاً ... ونبْضا

لك الحمدُ ملءَ خلايا جناني
وكل كِياني .. رُنواً وغَمْضا
إلهي وجاهي إليك اتجاهي
وطيداً مديداً ... لترضى فأرْضى
فأنتَ قوامي .. وأنت انسجامي
مع الكونِ ، والأمرُ لولاكَ فوضى

الله .. له الحمد وله الشكر ، نور السماوات والأرض ومن فيهن ، له الحمد فهو قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، وله الحمد فهو رب السماوات والأرض ومن فيهن ، وله الحمد فهو الحق ، ووعده الحق ، وقوله الحق ، ولقاؤه حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، له أسلمنا ، وبه آمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وبه خاصمنا ، وإليه حاكمنا ، فنسأله أن يغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسررنا وما أعلنا ، فهو إلهنا لا إله إلا هو .

الله .. سبحانه . افتتح الخلق بالحمد ، وختم أمر هذا العالم بالحمد فقال : ﴿ **الحمدُ لله الذي خلق السموات والأرض** .. ﴾ [الأنعام:١] ، وقال : ﴿ **وقُضى بينهم بالحق وقيل الحمدُ لله رب العالمين** ﴾ [الزمر : ٧٥] .

الله .. أوسع من أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قُصِد ، وأعز من التُجِيء إليه ، وأكفى من توكل العبد عليه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها .

وهوالملك لا شريك له ، والفرد فلا ند له ، كل شيء هالك إلا وجهه ،

لن يُطاع إلا بإذنه ، ولن يُعصى إلا بعلمه ، يُطاع فيشكر ، وبتوفيقه ونعمته أطيع ، ويُعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعده ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ النواصي ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلُّها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات واستنارت له الأرض والسماوات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات .

نوحٌ – عليه السلام – كان دائم اللهج بذكر الله ، كثير الشكر لله كثير الحمد لله ، ما أكل شيئاً قط إلا قال : الحمد لله ، ولم يشرب شرباً قط إلا قال : الحمد لله ، ولم يمش مشياً إلا قال : الحمد لله ، ولم يلبس لباساً إلا قال : الحمد لله ، فأثنى الله عليه بقوله : ﴿**إنه كان عبداً شكوراً**﴾ .

ومما يروى أن نبيّ الله دانيال – عليه السلام – قبض عليه بُخْتُنصَّر وحبسه في مكان ، وأخذ أسدين فأضراهما ، وجوّعهما ، ثم حبسهما معه ، وأغلق عليهما ، وبعد مرور خمسة أيام فتح السجن فوجد دانيال قائماً يصلي والأسدان في ناحية الجُبّ لم يعرضا له ، فقال له بُخْتُنصَّر : أخبرني ماذا قُلت فدُفع عنك؟ قال : قُلت : «الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذي لا يُخيّب من رجاه ، والحمد لله الذي لا يكلُ من توكل عليه إلى غيره ، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمدُ لله الذي يكشف ضُرّنا عند كربنا ، الحمد لله الذي يجزي

بالإحسان إحساناً ، الحمدُ لله الذي يجزي بالصبر نجاةً » .

ومن أشد الناس ذكراً لله ومعرفةً به وإجلالاً له : الحسن البصري – رحمه الله – الذي أثر عنه من كلمات الثناء ، وعبارات الدعاء ، ما ينبيء عن قلب حي ، وذهن متوقد ، ونفسٍ مؤمنة ، كان إذا جلس في مجلسه قال :

اللهم لك الحمدُ بما بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك من صالح أعطيتنا ، فلك الحمدُ بالإسلام ، ولك الحمد بالأهل والمال ، ولك الحمدُ باليقين والمعافاة .

اللهم لك الحمدُ بالإسلام ، ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، بسطت رزقنا وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك من صالح أعطيتنا ، فلك الحمدُ كثيراً كما تُنعم كثيراً ، أعطيت خيراً كثيراً ، وصرفت شراً كبيراً ، فلوجهك الجليل الباقي الدائم ؛ الحمد لله رب العالمين .

وهذا مُحارب بن دثار كان قاضياً من قضاة الكوفة ، يقول أحد جيرانه : كنا إذا أظلم الليل ، ونامت العيون نسمع محارب بن دثار وهو يدعو ويرجو ويهتف ويبكي في ظلمة الليل ، وكان مما يقول :

(يا الله أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد ، أنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد ، أنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد ، أنا الغريب الذي وصيته فلك الحمد ، أنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد ، أنا العزب الذي زوجته فلك الحمد ، أنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد ، أنا العاري الذي كسوته فلك الحمد ، أنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد أنا الغائب الذي رددته فلك الحمد ، أنا الراجل الذي حملته فلك الحمد أنا

المريض الذي شفيته فلك الحمد ، أنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد ، أنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، فلك الحمدُ ربنا حمداً كثيراً على حمدي لك) .

لك الحمد كُلّ الحمد . لا مَبْدأٌ له
ولا منتهى . والله بالحمد أعلمُ

قال ﷺ : «الحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض» ، وما أسدى لأحد نعمة ، فقال : الحمد لله إلا كان ما أعطى خيراً مما أخذ ، وكلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، والعبد إذا قرأ قوله تعالى : ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ قال الله حمدني عبدي ، فهو تعالى مستحق الحمد ، وهو أهل الحمد ، وأهل الثناء والمجد ، نحمده حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه ، نحمده كما يحب تعالى ويرضى ، نحمده ملء السماوات وملء الأرض ، وملء ما بينها ، وملء ما شاء من شيء بعد ، لقد علمنا رسول الله ﷺ أن نلهج بحمد الله تعالى، وأن نثني عليه ونحمده على كل حال ، وفي كل آن .

إذا طعم المسلم من فضل الله جل وعلا ، وهوالمنعم المتفضل ، الرازق الكريم ، يقول : «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» ، وإذا شرب الماء القراح قال : «الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا» .

وقال ﷺ : «من أكل طعاماً ثم قال : الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن لبس ثوباً ، فقال : الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني

ولا قوة ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» [صحيح الجامع : ٦٠٨٦] .

وإذا اكتسى ثوباً أو عمامة أو نحو ذلك قال : «الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له» .

وإذا ركب دابة قال ما علمه الله إياه : «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون» .

وإذا استيقظ من نومه قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» .

وإذا قضى ضرورته البشرية وخرج من الخلاء قال : «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني» .

وإذا رأى مبتلى في جسمه أو حواسه قال : «الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه» .

وإذا تم له أمر على ما كان يبغي ويريد قال : «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» .

وفي الحديث الحسن عن أبي موسى الأشعري : إذا مات ولدُ الرجل ، يقول الله تعالى لملائكته : «أقبضتم ولد عبدي» ؟ فيقولون : نعم . فيقول : «فماذا قال عبدي؟» ، فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول : «ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد» [حسنه الألباني في الصحيحة] .

وإذا خاب له رجاء أو حدث له ما يكره بطبيعته البشرية قال : «الحمد لله على كل حال» .

وإذا استقبل وجه الصباح قال : «اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر ، فأتم علي نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة ، اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر» ، وإذا أظله المساء قال مثل ما قال في الصباح .

فهذا هو شعور المؤمن دائماً ، شعور الذاكر لنعمة الله ، الشاكر لفضل الله ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ [النحل : ٥٣] ، ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

الفهرس

المقدمة ٣
إن من البيان لسحرا ٧
النية ١٤
المعجزة الخالدة ٢٥
السنة ٣٩
جوامع الكلم ٥١
البدعة ٦٤
التجديد ٧٥
ونيسرك لليسرى ٨٦
احفظ الله يحفظك ٩٤
أهمية العلم ١٠٤
العلماء ١١٠
من سير العلماء ١١٨
الهمة ١٢٣
آفة الجهل ١٣٠
الفراغ ١٣٨
طريقك للنجاح ١٤٣
الامتحانات ١٥٣
حقيقة الخسارة ١٥٧
الغش ١٦١

الرشوة ١٧٠
الإسراف ١٧٨
أومن كان ميتاً ١٨٤
الدَّيْن ١٩١
أنت غني ولست فقير ٢٠٠
قصة قارون ٢٠٨
قصة سبأ ٢١٥
قصة شعيب عليه السلام ٢٢١
قصة يونس عليه السلام ٢٢٨
هنيئاً لك أبا عمرو ٢٣٦
الدنيا ٢٤٣
البحر ٢٥٢
البيان ٢٦٠
العقل ٢٧٠
القلب ٢٨٣
بر الوالدين ٢٩١
صلة الرحم ٣٠٣
الجار ٣١١
الكرم ٣٢٠
من روائع الكرم ٣٣٠
الغضب ٣٤٢
الحلم ٣٥٣
الصبر ٣٦٢

الصابرون ٣٧٠
الاحتساب ٣٧٩
الشفاعة ٣٨٤
الهداية ٣٩١
الغيث ٣٩٨
الليل ٤٠٣
العظماء والليل ٤١١
النهار ٤١٩
يوم التغابن ٤٢٤
الشمس والقمر ٤٣٠
العمل الصالح ٤٣٦
الموت ٤٤١
الجنة ٤٤٨
من عشاق الجنة ٤٥٢
وصايا المسافرين ٤٥٦
من أحوال الخاشعين ٤٦٥
يعظكم لعلكم تذكرون ٤٧٤
خمس آيات من سورة النساء ٤٨٥
الصلاة ٤٩٣
السجود ٥٠١
قبل الصيام ٥١١
الصيام ٥١٨
الخزائن التي لا تنفذ ٥٢٥

الإنفاق في عهد الصحابة ٥٣٢
العيد السعيد ٥٣٩
مواسم المغفرة ٥٤٥
الحج ٥٤٩
وداع العام ٥٥٨
قسوة القلب ٥٦٧
الورع ٥٧٥
محاسبة النفس ٥٨٤
دعوة مفتوحة ٥٩٣
الحمد لله ٦٠٠